

جيرار دونرفال

بُنَيّات اللّهب
يليه
الأوهام

ترجمته عن الفرنسيّة

ماري طوق

قصص وأشعار

كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ

جيرار دونرفال

بُنَيّات اللّهب
يليه
الأوهام

قصص وأشعار

ترجمته عن الفرنسيّة

ماري طوق

مراجعة

كاظم جهاد

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2260.G36 F53125 2017
Nerval, Gérard de, 1808- 1855
بُنَيّات اللّهب؛ يليه الأوهام: قصص وأشعار / تأليف جيرار دونرفال ؛ ترجمة ماري طوق ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2017.
395 ص. ؛ 14 × 21 سم.
ترجمة كتاب: Les Filles du feu - Les Chimères
تدمك: 1—411—23—9948—978
1ـ القصة الفرنسيّة— القرن 19. 2— الشعر الفرنسي— دواوين وقصائد.
أ— طوق، ماري. ب— جهاد، كاظم. ج— العنوان.

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة للنصّ الأصليّ الفرنسي:
Gérard de Nerval
Les Filles du feu – Les Chimères (1854)

الغلاف: جيرار دونرفال بعدسة فيليكس نادار Félix Nadar



www.kalima.ae
ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربيّة المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+



بُنَيات اللّهب

يليه

الأوهام

قصص وأشعار

المحتوى

مقدّمة المُراجِع

كتب جيرار دونرفال Gérard de Nerval (1808–1855) النّصوص التي تؤلّف هذا الكتاب في فتراتٍ مختلفة، بيد أنّنا ندين باجتماعها هنا إلى ضربٍ من حماسة استبدّت به في السّنتين اللّتين سبقتا وفاته. ومن تأمُّل الكتاب يتّضح الشكل المعماريّ الذي أراد أن يمنحه إيّاه. لقد جمع فيه قصصاً منشورة من قبل، ووصل بين نصوص متباعدة، وحذف وأضاف حتّى اجتمع هذا المتن الذي يجسّد في مختلف مكوّناته مواهبه كلّها، وهواجسه المتسلّطة التي عبّر عنها فيه نثراً وشعراً. ولقد مضى نرفال بعيداً في تجديد شكل الكتاب الأدبيّ، إذ حشّد في كتابه هذا قصصاً خياليّة وأخرى شبه واقعية، سرداً مضمّخاً بلغة الشّعر ولغةً شبه هذيانيّة، وجمعَ قدرات الموثّق والمؤرشف والسّارد وصاحب التأمّلات ولهجة الناقد الأدبيّ، هذا كلّه جمَعه على نحو غير مسبوق. والأجمل والأغرب أنّ هذه العناصر في مختلف أشكالها وتعابيرها تنتظم في وحدة واحدة قوامها عالم نرفال الروحيّ الفريد وقوّته الفذّة التي بها تصدّى لأغرب هواجس النّفس المنفصمة والتوّاقة إلى مثالٍ هارب. وفي النهاية أصرّ على أن يُضيفَ إلى قصصه باقة من أشعاره الأخيرة التي ضمِنت له مكانةً لا تُزحزح في تاريخ الشّعر الفرنسيّ.

كان يلزم انتظار القرن العشرين حتى يُقدّر عمل نرفال حقّ قدره. يُعْلمنا شرّاح عمله ودارسو سيرته (ماري فرانسواز فيُويّ Marie-Françoise Vieuille مثلاً وجاك بوني Jacuqes Bony وبرتران مارشال

Bertrand Marchal) أنّه لطالما عدّه أدباء عصره كائناً حالماً يتميّز بالطّيبة وليس أكثر. ثمّنوا قصّته «سيلفيا» التي أعرب فيها عن مهارة عالية في فنّ السرد ولكنّهم لم يقبضوا على كلّ دلالاتها الروحانيّة وعناصرها الرمزّية. أمّا عملاه الأكثر أهميّة، قصّته الطويلة «أوريليا» *Aurélia* ومجموعته الشعريّة «الأوهام» *Les Chimères*، فلم يُفهما وبقيا مغمورَين. وحتّى عندما انتبه إليه نقّاد القرن العشرين، تمحور اهتمامهم به في البدء على شبكة هواجسه المتسلّطة والأبعاد النفسانية لتجربته. وقد لزمت عقودٌ عديدة حتّى يتركّز الانتباه على العمق الإبداعي لعمله الأدبيّ.

عانى نرفال مصاعب وجوديّة حادّة لم يكن مهيّأ لها وتكبّد رضّات عديدة. يُفترض بهذا أن يجتذب تضامن القارئ ومواكبته عملَ الشاعر بتعاطفٍ قد يكون مضموناً بادئ ذي بدء. بيد أنّنا إنّما نبخس حقّ الشاعر والناثر الفريد الذي هو نرفال إذ نرتضي لمأساته، كما حدث لدى بعض قرّاء السيّاب، أن تقوم حائلاً بيننا وبين تقدير عجيبته الأدبيّة. عجيبة تتمثّل في البلّور الباهر لأشعاره القليلة، وفي هذا السّرد الشعريّ الذي فتح به أبواباً عديدة للحداثة الروائيّة والقصصيّة. بشجاعة متناهية تجاوز نرفال شعريّة الأنا وأنين الرومنطيقيّين الموجع، وتبحّر في فهم مختلف الميثولوجيّات والمدارس الروحانيّة والطقوس التلقينيّة، نهلَ منها صيغاً يعبّر بها مداورةً عن مأساته. تماهى مع شخوصٍ عديدة وأرانا جسوراً فذّة بين مختلف كبريات التجارب. هكذا تأتي أشعاره وقصصه كمثل مسرحٍ كبير للمِحَن الروحيّة العالية ورفيع المغامرات الفكريّة.

وُلد جيرار لابروني Gérard Labrunie (واسم شهرته دونرفال مستعارٌ من تاريخ العائلة) بباريس في 1808، قبل وفاة أمّه بعامين في سيليسيا

(التابعة بكاملها إلى بروسيا آنذاك) التي كانت ترافق فيها زوجها الطبيب العسكريّ. محضَها حبّاً يقرب من العبادة، وتقف صدمة وفاتها في أصل معاناته. ونشأ في منطقة الفالوا Le Valois الفرنسيّة التي خلّد من بعدُ أغانيها وخرافاتها في نصّ مشهور يضمّه هذا الكتاب. هناك عُنيَ بتربيته شقيق جدّته لأمّه، ثمّ تبع أباه إلى باريس لدى عودة هذا الأخير في 1814، بيد أنّه واصل الرجوع إلى غابات طفولته في العطل الصيفيّة. وفي سنّ التاسعة عشرة أقام في إطارٍ ريفيّ آخَر، بين أقاربه من ناحية الأب هذه المرّة، في سان جرمان أون ليه Saint-Germain-en-Laye قرب باريس. هناك عشقَ ابنة عمّه صوفي دولاموري Sophie de Lamaury، التي سرعان ما تزوّجت سواه. يؤكّد الباحثون والنقّاد على أنّ فقدان معشوقة الصبا هذه بعد فقدان الأمّ المبكّر ربّما كانا يشكّلان النّواة الكبرى لهذا الشعور بالفقد الذي يكتنف عمله كلّه.

في تلك الفترة أكمل الشابّ نرفال ترجمته الفرنسيّة لـ«فاوست الأوّل» *Faust – 1* لغوته Goethe. ترجمة أُعجب بها الشاعر الألمانيّ أيّما إعجابٍ بالرّغم ممّا اعتورها من أخطاء. وفي باريس، راح نرفال يتدرّج في مسيرته ككاتب، وجعل هو وزميله في المدرسة الشاعر والروائيّ وناقد الفنون تيوفيل غوتييه Théophile Gautier المُهدى له هذا الكتاب، يرتادان حلقة فيكتور هوغو Victor Hugo وكانا ممّن ساندوه في في الدفاع عن مسرحيّته الشهيرة «هرناني»*Hernani* أمام الحملة التي أثارها ضدّها جمهور اتّباعيّ ونقّادٌ تقليديّون.

في 1834 حظي نرفال بإرثٍ ماليّ مكّنه من الإقامة لفترة في منزل صغير جميل قرب اللّوفر ظلّ هو وأصدقاؤه يقيمون فيه حفلات تنكريّة

وأمسيات راقصة، متوغّلين في حياةٍ بوهيميّة مشبوبة وساحرة. ولكنّ الشاعر سرعان ما بدّد ثروته، كما أصيب بخيبة عاطفيّة جديدة، إذ عشقَ مغنية الأوبرا والممثلة المتواضعة الموهبة جيني كولون Jenny Colon، ومحضها إعجاباً صامتاً كهذا الذي تصوّره صفحات عديدة من كتابه هذا. ويبدو أنّها استجابت لحبّه لفترة ثمّ سرعان ما آثرت الاقتران بعازفٍ في الأوبرا الهزليّة.

واظب نرفال على الكتابة للصّحف والمسارح من أجل العيش، بيد أنّ فقدانه لصوفي ثمّ لجيني جعله يرى فيهما تجسيداً لأنوثة مثاليّة ظلّ يطاردها روحانيّاً حتّى موته. هذا الطراد الروحانيّ هو الذي دفعه إلى الاهتمام بالعلوم والفلسفات الباطنيّة وبالخيمياء، وزجّه في بحثٍ عن المعرفة لا نظير له.

وعلى أثر موت الممثّلة في 1842، قام في العام التالي برحلة إلى الشرق أثمرت عن كتابه الضخم والواسع الانتشار «رحلة إلى الشرق» *Voyage en Orient*. شرب من النّور الذي يضمّخ الشواطئ اليونانيّة، وتأمّلَ أهرامات مصر وشُغف بحياة المصريّين اليوميّة، وتجوّل في لبنان حيث اطّلع على المذهب الدّرزي وهام بابنة أحد شيوخه. وفي كلّ الأساطير كان يعثر على وجوه متشابهة، كان له موهبة التقريب فيما بينها ضارباً بعرض الحائط بتمايز الثقافات. وهكذا راحت الوجوه والمعتقدات تختلط في مخيّلته وذكرياته، مستجيبةً إلى نوعٍ من التقمّص أو التناسخ منحه هو بلا شكّ أجمل صيغه الأدبيّة.

في 1851، أصدر الطبعة النهائيّة لكتابه «رحلة إلى الشرق»، مضيفاً إليها قصّتين مستوحاتين من الموروث الشرقيّ. بيد أنّ اضطرابات عصبيّة لم

تكن جديدة عليه تفاقمت في ذلك العام، وارتفعت وتيرتها في السّنتين الأخيرتين من حياته. وفي أكتوبر 1854 غادر عيادة الدكتور إميل بلانش Émile Blanche في العاصمة الفرنسيّة، وعُثر عليه في فجر السّادس والعشرين يناير 1855 مشنوقاً في زقاقٍ باريسيّ. كان ذلك انتحاراً على الأرجح.

بدأ نرفال بالتفكير بتهيئة الكتاب المترجم هنا للطّبع في 22 أكتوبر 1853، وشهد صدورَه في يناير 1854. ويُعلمنا الباحث المختصّ بأعماله جاك بوني بأنّ نرفال تعرّض في العام 1853 إلى ثلاث أزمات عصبيّة وأقام أكثر من خمسة أشهر في مصحّات عقليّة. ثمّ، في نهاية العام ذاته، وفيما هو مقيم في عيادة باسي Passy للدكتور بلانش Docteur Blanche، كتب «باندورا» *Pandora* وصيغاً أولى عديدة من «أوريليا» *Aurélia* وقصيدَتي «المحروم» «*El Desdichado*» و«أرتميس» «*Artémis*» واشتغل على ترتيب هذا الكتاب وأعاد تحرير صفحات منه بمقتضى هذا الترتيب. فكأنّه أراد من حمّى التأليف والنشر هذه، حسب الناقد جاك بوني، أن يُفهم أباه الذي كان قلقاً عليه وأصدقاءه المتقوّلين ومجموع القرّاء أنّه كان لا يزال محتفظاً بعقله وبصيرته وبقدرته على الكتابة، أي أنّه، لا بما هو إنسان فحسب، بل خصوصاً باعتباره كاتباً، لم يمتْ بعد.

على شاكلة قُدامى الشعراء العرب الذين رسموا بأسماء الحبيبات الظّاعنات وأسماء مواضع سكناهنّ وما يحيط بها من جبالٍ ومعالم أخرى جغرافية روحيّة وعاطفيّة كاملة، بقيت تتردّد في آثار نرفال أسماء أماكن منطقة الفالوا، من شانتيي إلى سانليس فشاليس فأرمونفيل، بالإضافة إلى معالم من سان جرمان أون ليه، وتكرّ كحبّات المسبحة، علامات شغفٍ لا

ينصب ومهيِّجات حنينٍ ما له شفاء.

كان قد برز في تلك الفترة تيّار كامل يعمل على استعادة أساطير العصور الغابرة والإفادة من المخيال القديم، ضمّت بين أفرادها كلّاً من تيوفيل غوتييه Théohile Gautier وفيلييه دو ليل آدم Villier de L'Isle-Adam وتيودور بانفيل Théodore Banville. يذكّرنا الناقد جاك بوني Jacques Bony في مدخل نشرته لهذا الكتاب الصّادرة في منشورات فلاماريون (باريس، 1994) بأنّ هذا التيّار قد انبثق بحفز من نتائج الحفريّات التي أُجريت في مدينة بومبيي الإيطاليّة، التي كشفت عن مدينة كاملة قابعة تحت الأرمدة والأنقاض، بما فيها من لوحات وتماثيل وإفريزات وتُحَف ناطقة جميعاً برؤية فنيّة باذخة للإنسانيّة. وأكثر من هؤلاء جميعاً عرف نرفال أن يصنع من هذه الاستعادة عالَماً آسراً متلاحم العناصر، أنعشه بفلسفة في التاريخ والأديان، ومدّه بأشكال فنيّة، وأقامه على أساس ذاتيّ سمح له بالتعبير عن مأساته الشخصيّة وبتحويلها في الأوان ذاته إلى تجربة كونيّة.

تعرب مراسلات نرفال مع ناشره دانيال جيرو Daniel Giraud عن إرادة واضحة في وضع عمل متماسك ومتكامل. لم يكن ليخشى من مضافرة الأجناس، لأنّه كان يعرف أنّها تتعاون ويخصب بعضها البعض. ففي حين كان يحرص على أن تخلو قصصه من الفنطازيّة والغرائبيّة، اختتم «سيلفيا» بحكايته الخرافيّة «ملكة الأسماك». تعتمد قصّته «إيزيس» إلى حدّ كبير على دراسة لكارل أوغست بوتيغر Carl August Böttiger عن طقوس إيزيس، وعلى ترجمة صفحة من «الحمار الذهبيّ» لأبوليوس Apuleius (أبوليه Apulée عند الفرنسيّين)، ولكنّ هذه المرجعين يصبحان حافزاً أو

تعلّة بفضلها نمّى نرفال رؤيته التركيبية الخاصّة للأديان. «إيزيس» هي إذن دراسة ألبسها الكاتب لبوس السّرد ببراعة، أمّا قصّته «سيلفيا» فلم يجد غضاضة في أن يلحق بها نصّاً له في «أغاني الفالوا وخرافاتها» كان قد نشره من قبل كمقالة. وبإضافة قصائد «الأوهام» إلى «بنيّات اللّهب»، يرينا نرفال أنّ فهمه للأجناس الأدبيّة شديد التحرّر والجدّة، وأنّ السّرد ما عاد لديه مفصولاً عن الشّعر. أمّا «كوريّا» فتجنح نحو المسرح وتعالج بخفّة ودعابة موضوعات عالجها في نصوصه الأخرى بلغة المأساة، وعلى رأسها امتحان المعشوقة لعشّاقها. في «جيمي» يذهب بنا إلى أمريكا وديار الهنود الحمر، وفي أغلب القصص إلى إيطاليّا، مع اندفاعات متواترة في الروحانيّات الشرقيّة. هذه هي خطوط هربه الفعّال واكتشافه لآفاق أخرى، حيثما ترينا صفحاته عن منطقة الفالوا ومجمل الأرياف الفرنسيّة عالم صباه الشغِف المفقود ومدناً صحّرها الغزو الصناعيّ فصارت تحاكي في تداعيها مدن إيطاليّا المطمورة بدخان البركان.

وفي نصوصه هذه حضور كبير للمسرح، هذا المجال الخصيب للّعب والتحوّلات والأوهام، وكذلك حضور للغناء بنوعَيه الأوبراليّ والشعبيّ. وإلى التعبير الأدبيّ، هناك تفكّرات نرفال الاجتماعيّة والسياسيّة والتاريخيّة وفسلفته في الفنّ، تنتشر على مدى الصفحات، وتستعاد من نصّ إلى آخر بمزيد من التعمّق. كتابة شاملة أو متعدّدة وهبت مارسيل بروست Marcel Proust وسواه هذا الإمكان لتحقيق الكتاب الواسع، إن لم نقل الكلّيّ، الذي يكون في الأوان ذاته سرداً وشعراً، خزّاناً من الصور والمشاعر وفكراً في آنٍ معاً.

وهناك هذا التركيز الحادّ على النّساء، دليلاته إلى عاصمته الخياليّة أو

بلاده المحلومة. أصرّ على أن تحمل عناوين القصص أسماءهنّ: أنجيليكا، وسيلفيا، وجيمي، وأوكتافيا، وإيزيس، وكوريّا، وإيميليا. غيّر من أجل ذلك عنوان قصّة كان «قلعة بيش» فحوّله إلى «إيميليا». كما أنّ له قصّتين طويلتين سبق ذكرهما، عنواناهما «أوريليا» (الموجودة في العربيّة بترجمة جميلة لماري طوق) و«باندورا».

لا أحد يشكّ في تمهيد نرفال للحداثة الأدبيّة. فعليه أيضاً يصحّ ما قيل عن بودلير Baudelaire من أنّه آخِر الرومنطيقيّين وأوّل المحدثين. وتتمثّل إضافات نرفال الممهِّدة لهذه الحداثة أوّلاً في هذه الشجاعة وهذا المضاء اللّذين بهما استطاع، بالرّغم من كلّ ما كان يعصف به من آلام، أن يتوغّل في أقصى مكامن الروح المُستلبة وأن يأتي من غزواته الباطنيّة المتكرّرة بلقايا عجيبة. كما تتمثّل في هذا النقاء الخالص الذي منحه للغته وشكل كتاباته. صفاءٌ بلّوريّ يرفع الكثير من مقاطعه النثريّة إلى مصافٍ شعريّ رفيع. هناك أيضاً قدرته العالية التي لـمّحنا إليها من قبل في التقاط جسور خفيّة تربط بين مختلف الوجوه والتجارب والإيحاءات الأسطورية والدينية والمسرحية والقصصية والشعريّة والتاريخيّة. بالإبانة عن تضافراتها المفاجئة تمكّنَ من أن يقبض على الخيوط الهاربةِ لمصيره، وعلى تثبيت مصادر قلقه الوجوديّ الفوّار في صيَغٍ إبداعية باقية. ولا ننسينّ هذه البراعة الفائقة التي بها صوّر الاستيهامات وهي تزداد قوّةً حتّى لتبذّ الواقع بوجودها شبه الفعليّ، وهذا النفاذ إلى قلب الواقع سعياً إلى تلك المنطقة التي يختلط فيها بالأحلام. «جسَد» الحكاية نفسه، وهنا واحد من معالم ريادته للحداثة، لم يعد لديه محتفظاً بجموده وواحديّته، بل صارت القصّة تتشظّى إلى استطرادات ورسائل مضمّنة داخل السّرد، وتكتنز بمعاينات وتأمّلات وملاحقة

للذكريات والأشباح، وتمتلئ باستيهامات وتجارب فعليّة. وهذا كلّه يتجاور في نصٍّ واحدٍ مكتنَفٍ بنبرة أو موسيقى فريدة تضمن له أكبر قدر ممكن من التماسك والالتحام.

آمن نرفال بالأنوثة المتجدّدة، وطاردها في تحوّلاتها وتقمّصاتها المتوالية. وبين هواياته ومصادر شغفه العديدة يقف انهمامه بالمسرح وحبّه لممثّلة علامة كبرى على تشظّيه بين مصائر عديدة، لا يهمّ أن يكون بعضها حقيقيّاً وبعضها الآخر من ثمار الخيال الأدبيّ والفنّيّ. لا بل إنّ ما كان يهمّه ويأخذ بمجامع كيانه هو هذا التناسخ بين الأدوار والوجوه، وهذه التماهيات المتشعّبة والهويّات الأسطوريّة، أقنعة وضّاءة بعضها موسوم باللّعنة ترينا مقدّمته لهذا الكتاب ومجمل نصوصه خصوبتها وخطورتها في آنٍ معاً.

أمّا وقد قلنا هذا فلنوضّح عنوان الكتاب. إنّه يُترجَم حرفّياً إلى «بنيّات النار»، ولكنْ تفادينا هنا هذه الصّيغة بالاتّفاق مع المترجمة، لأنّ أذناً عربيّة قد تذهب أوّلَ ما تذهب إلى التفكير في نار جهنّم. والحال أنّ للنّار في هذه النّصوص دلالات إيجابيّة عديدة متضافرة. ثمّ إنّ نرفال نفسه كانت تتملكّه مثل هذه الخشية، إذ كتب لناشره دانيال جيرو متحدّثاً عن العنوان: «أخشى أن يكون هذا خطيراً». إنّ النّار هنا ماديّة وغير ماديّة. هي نار النّفْس الشغِفة التوّاقة، تشعر بلهب الصبوات والمطامح وسعير الرّغبة، ونار الواقع (البركان القريب في غير واحدة من قصص الكتاب). فليس عبثاً أن يكون الكاتب قد اختار مسرحاً لعديد صفحاته مدناً ناريّة: نابولي حيث فيزوف القريب، وبومبيي وهيركولانيوم المقبورتان. هي كذلك نار الخيمياء تنعكس في هؤلاء الفتيات اللّاهبات؛ النار التي هي نور أيضاً، نور النجمة الوحيدة، النجمة الهادية أو المعشوقة تأتلق

من بعيد وتعبا على القبض. في أثر فولني Volney، صاحب «الأطلال، أو تأمّلات في تحوّل الإمبراطوريّات» *Les Ruines, ou Méditation sur les révolutions des empires* ودوبْوي Dupuy، مؤلّف «أصل العبادات كلّها أو الديانة الكونيّة» *Origine de tous les cultes, ou La religion universelle* فهمَ نرفال النار على أنّها «خامة» الرّوح، أبداً تقوم على الحركة والفعل. الرّوح أو العنصر الحيويّ، كما كتب دوبْوي في عمله المذكور: «يقول فرجيل إنّ الأرواح مشكّلة من هذه النّار الفاعلة المؤتلقة في السّموات». هي محاولة لابتعاث نار البراكين النائمة وارتياد المغاور العتيقة لإيقاظ عفاريتها، وإعادة إنعاش المدن القديمة، سعياً وراء نوع من وثنيّة أو إحيائيّة أدبيّة تمثّل إيماناً بالطبيعة، وبأمّ كونيّة. نزعة يرى الشّاعر أنّها صمدت في الغرب أمام التصوّرات التوراتيّة ولكن أجهز عليها تصنيع الأرياف واستعمارها من قبَل العالم المدينيّ (سيلفيا حبيبة الأمس الطّامحة للغناء صارت صانعة دنتيلا أو مخرّمات!). هي إذن رؤية شاملة ذات أبعاد كوسمولوجيّة وتاريخيّة ودينيّة وروحانيّة وخصوصاً نفسيّة: الهوى، ذلك اللّهب الجوّانيّ، فيه تمكن شعلة الخلق والإبداع.

محرّر السلسلة

كاظم جهاد

[مقدّمة المؤلف]
إلى ألكساندر دوما

(إضاءة: كان هذا الكتاب تحت أسنان المطبعة عندما نشر الروائيّ الشّهير ألكساندر دوما Alexandre Dumas*، وكان صديقاً لنرفال، مقالة له في عدد العاشر من ديسمبر 1853 من جريدة «الوموسكوتير»* Le Mousquetaire *التي كان قد أسّسها لتوّه. منح المقالة عنوان «محادثة مع قرّائي»* «Causerie avec mes lecteurs»*، وجعل موضوعها مشاكله مع إدارة «المسرح الفرنسيّ»* Le Théâtre-français*. ولكنّه كرّس أغلبها للحديث عن جيرار دونرفال، يطري مواهبه كإنسان حالم وكاتب حكايات بارع، وفي الأوان ذاته يعلن على رؤوس الأشهاد جنون نرفال. أي أنّه، بشكل من الأشكال، وبإشفاق في غير محلّه، ينعى عقل نرفال أو وضوح بصيرته، مثلما كان جول جانان* Jules Janin *قد نعى نرفال نفسه في غداة أزمته العصبيّة الأولى في 1841.*

وإلى جانب مقالته، نشر دوما قصيدة نرفال «المحروم» «El Desdichado»، وكان الشاعر تركه له نصّها في مكتب الجريدة لا للنّشر. نشرها دوما باعتبارها تكشف خير كشف عن اضطرابات نرفال. أحسّ نرفال بطعنة في الصّميم، ولكنّه سرعان ما عمد إلى الردّ. كتب رسالة إلى دوما وضعها بمثابة مقدّمة، بدل تقديم آخر كان يفكّر في كتابته يمنح فيه «مفاتيح العمل وروابطه». والحال أنّ هذه الرسالة-التقديم تضطلع بهذه المهمّة خير اضطلاع. ولم يكتفِ بهذا بل أضاف في آخِر الكتاب اثنتي

عشرة سونيتة تؤلّف ثماني قصائد، أربع منها جديدة والأخرى سبق نشرها في الصحف، بما فيها «المحروم». سنعود في «الإضاءة» التي تسبق القصائد في هذا الكتاب إلى تبيان ما لإضافة هذه القصائد، ولعنونتها بالذّات، من أهمّية في منطق الرّد على دوما. لكن يمكن القول بادئ ذي بدء إنّه من قراءة أولى للرسالة والقصائد نفهم أنّ نرفال كان يريد أن يقدّم الدّليل على استمراره في العمل وفي التفكير بصحو وصفاء. بيد أنّ الرّد الحقيقيّ يتموقع عند مستوىً أبعد. فنرفال يأخذ الكلمة من فم الصّديق، إن جاز القول، ويضطلع بتهمة الجنون، سوى أنّه يحوّله إلى جنون أدبيّ. يردّ ما يرى فيه الآخر نتاج الهلوسة والاضطراب العقليّ إلى «هذه الحالة من أحلام اليقظة ما فَوق الطبيعيّة، كما كان سيقول الألمان». وطويلاً يكلّمه عن تماهي بعض «الحكواتيين» والممثّلين مع موضوعاتهم وشخوص أدوارهم. ولإرساء نظرته هذه على أسس متينة، يمدّه بصفحات من رواية كان يحلم بكتابتها تحت عنوان «الرّواية المأساويّة» Le Roman tragique، لتكون بمثابة تتمّة لعمل الكاتب سكارّون Scarron «الرواية الهزليّة» Le Roman comique.

يرينا في هذه الصفحات الممثّل بريزاسييه Brisacier (مغامر حقيقيّ جعل منه نرفال ممثّلاً) وهو يتجاوز تماهيه مع نيرون، بطل «بريتانيكوس» *Brittanicus* لراسين Racine، ليتماهى مع الإمبراطور التاريخيّ نفسه في خطاب هذيانيّ لا يشكّل دفاعاً عن الجريمة بقدر ما يمثّل إعلاناً عن رغبة في إحراق المسرح لأنّ جمهوره لا يفهمه. إنّ مناجاة بريزاسييه الطويلة إن هي إلّا غطسة في عالم المسرح الذي يمكن أيضاً تلقّيه باعتباره كناية عن العالم الإبداعيّ. المسرح هو عالم الوهم واللّعب والتمثيل، سوى أنّ بريزاسيه لا يلعب، لا يمثّل، بل يعيش أدواره بكلّ عمق كيانه. هو هذا

الذي يضطلع بدَوره. في «إيفيجينيا» Iphigénie راسين يكون هو حقّاً أخيل الغاضب، وفي «بريتانيكوس» هو نيرون المجنون. مسرح حقيقةٍ هو هذا إذن، مسرح لتصاعد النّار الجوّانيّة، تماهٍ كامل مع ما نرى وما نقول. هنا يكمن شرط الممثّل الناجح أو الكاتب المكتمل. ونرفال من ناحيته يتماهى مع بريزاسييه الذي يتماهي وشخوصَه وأدوارَه.[1]

أهديك هذا الكتاب يا أستاذي العزيز، كما أهديت «لوريلي»[2] إلى جول جانان[3]. كان عليّ أن أشكره كما أشكرك الآن للسّبب ذاته. لبضع سنوات خلت، حسبني الجميع ميتاً، فكتب جانان سيرة حياتي. ومنذ بضعة أيّام حسبوني مجنوناً، فأفرَدْتَ بعضاً من أجمل ما كتبْتَ لضريح عقلي. إنّه فعلاً لإرثٌ آل إليّ قبل استحقاق أوانه. كيف لي أن أجرؤ على تتويج جبيني، وأنا على قيد الحياة، بهذه الأكاليل البرّاقة؟ حريٌّ بي أن أُظهر مسحةَ تواضع، ملتمساً من الجمهور أن يكفكف من مدائح كثيرة ستُزجى إلى رفاقي، أو إلى محتوى تلك القارورة الغامض الذي ذهبتُ أبحث عنه في القمر أسوةً بأستولفو[4] وأعدته، على ما آمل، إلى المقرّ المعهود للفكر.

(1) المراجِع، تلخيصاً عن شروح نشرة «فوليو كلاسيك» Folio classique (éd. Gallimard, Paris، 2005) لهذا الكتاب، وضعها برتران مارشال Bertrand Marchal.

(2) «لوريلي» *Lorely*: من قصص نرفال التي لم توفَ حقّها من الاهتمام، ويسرد فيها رحلته على ضفاف نهر الراين في ألمانيا. (جميع حواشي هذه الترجمة، ما لم ترد بذلك إشارة مخالفة، وضعتها المترجمة، تلخيصاً في قسم كبير منها لحواشي برتران مارشال في نشرته لهذا الكتاب، الصادرة في سلسلة «فوليو كلاسيك»، مرجع سبق ذكره.)

(3) بعد أيّام قليلة من أوّل نوبة جنون حادّة اعترت نرفال (في فبراير 1841)، خصّص جول جانان Jules Janin (صديق لنرفال، وهو أديب وصحافيّ) العدد الصادر من *Le Journal des Débats* («جريدة المساجلات») في مطلع مارس 1841 لجنون «صديقه».

(4) أستولفو Astolfo: شخصيّة من شخصيّات القصيدة الفروسيّة الطّويلة «أورلاندو الغاضب» *Orlando furioso* التي كتبها الشاعر الايطاليّ أريوستو Ariosto (1474–1533). في =

لكنِ الآنَ وقد نزلتُ عن صهوة الهبْغريف[1]، واستعدتُ في نظر الفانين ما درجنا على تسميته «العقل» أو «سلامةَ الفكر»، فلنفكّرْ.

هاك مقطعاً ممّا كتبته عنّي بتاريخ العاشر من ديسمبر المنصرم:

«إنّه ذو فكرٍ ساحرٍ ومميّز، كما سبق أن حكمتم بأنفسكم، وينتابه، من وقتٍ لآخر، عَرَضٌ ما، وهو لحسن الحظّ ليس مقلقاً بشكلٍ جادّ لا بالنسبة إليه ولا إلى أصدقائه كما آمل. فمن وقتٍ لآخر، حين يؤخذ بعملٍ، فإنّ المخيّلة، تلك المجنونة، تطرد العقل، سيّدها، مؤقّتاً، وتصبح وحدها هي الحاكمة بأمرها في هذا الدماغ المشحون بالأحلام والهلوسات كمثلِ مدخّن الأفيون في القاهرة، أو ماضغ الحشيش في الجزائر. عندئذٍ ترميه المخيّلة المتسكّعة في نظريّات مستحيلة، وفي الكتب المتعذّر إنجازها[2]. تارةً هو سليمان ملك الشرق ينتظر ملكة سبأ وقد استعاد الخاتم الذي يمكّنه من استحضار الأرواح. وحينئذٍ، كونوا واثقين من أنّه لا قصص الجنّ، ولا

= القصيدة يدعوه القدّيس يوحنّا للذّهاب إلى القمر ليعيد لأورلاندو عقله الذي فقده من جرّاء العقاب الإلهيّ وكان محبوساً في قارورة. وتجدر الإشارة إلى أنّ نرفال يتماهى في الوقت نفسه مع ذاك الذي فقد العقل (أورلاندو، رولان Roland عند الفرنسيّين) ومع ذلك الذي يستعيده (أستولفو). راجع الرسالة التي بعث بها إلى موريس صاند (ابن الأديبة جورج صاند) في الخامس من نوفمبر 1853: «في الوقت الحاضر أسكن في قصر بنتيافر في باسي [إحدى بلدات السّين]، وهو مصحّ عقليّ لا أفعل فيه شيئاً سوى الذهاب إلى القمر مثل أستولفو. عمّا قريب سأُعلمكم أنّني وجدت عقلي في قارورة الخصب...».

(1) الهبغريف hippogriffe: جواد مجنّح نصفه حصان ونصفه الآخر نسر. في قصيدة «أورلاندو الغاضب» المشار إليها آنفاً، يمتطي أستولف جواداً كهذا ليصل إلى جبال القمر (الفردوس الأرضيّ) لكنّه يركب عربة النبيّ إيليا برفقة القدّيس يوحنّا للسفر إلى القمر.

(2) حذف نرفال الأسطر التالية من مقالة ألكساندر دوما عنه: «عندئذٍ يبدو كاتبنا المسكين جيرار دونرفال مريضاً في أعين رجال العِلم محتاجاً لعلاج، فيما هو بالنسبة إلينا، وبكلّ بساطة، أبرع في السّرد، وأكثر حلماً ورهافة، أو أكثر فرحاً أو حزناً من أيّ وقتٍ مضى». كما أنّه لا يستشهد بنصّ دوما حرفيّاً، ولعلّه يورده من ذاكرته.

حكايا «ألف ليلة وليلة» توازي أهمّيّة ما يرويه لأصدقائه الذين لا يعرفون ما إذا كان عليهم أن يرثوه أو أن يحسدوه على فطنة هذه الأرواح وجبروتها، أو على جمال هذه الملكة وثرائها. وطوراً هو سلطان القرم، أو كونت الحبشة، أو دوق مصر، أو بارون إزمير. وفي يوم آخر، يظنّ نفسه مجنوناً ويروي كيف صار على هذه الحال، متطرّقاً بحماسٍ جذلٍ إلى أحداثٍ شيّقةٍ للغاية، بحيث يرغب كلّ منّا في أن يصير مجنوناً يقتفي أثر هذا المرشد الذي يقودك إلى بلاد الأوهام والهلوسات، الملأى بواحاتٍ أكثر نضارة وفيئاً من تلك التي انتصبت لأمونيوس على طريق الاسكندريّة المكتوي بحرارة الشمس[1]. وفي أحيانٍ أخرى تصبح الكآبة ملهمته، وعندئذٍ لكم أن تتهالكوا دموعكم إن استطعتم، فلا فيرتر[2]، ولا رينيه[3] ولا أنطوني[4] بثّوا شكوى أكثر إشجاناً، أو شهقةً أكثر إيلاماً، أو كلمةً أرقّ، أو صرخةً أكثر شاعريّة».

سأحاول أن أشرح لك يا ألكساندرِ العزيز العَرَضَ الذي تحدّثْتَ عنه أعلاه. هنالك، كما تعرف، بعض القصّاصين الذين لا يستطيعون الخلق دون أن يتماهوا مع الشخصيّات التي تبتكرها مخيّلاتهم. وأنت تعرف بأيّ يقينٍ كان صديقنا العزيز نودييه[5] يروي كيف أنّ رأسه قُطِعَ في عهد الثورة. وما رواه كان من الإفحام بحيث أنّ المرء يتساءل كيف استطاع

(1) أمونيوس (توفّي نحو 356): قدّيس وناسك مصريّ. أسّس ديراً في النطرون.

(2) فيرتر: بطل الرواية الشهيرة «آلام فيرتر» *Die Leiden des jungen Werther* (1774) للأديب الألمانيّ غوته.

(3) رينيه: بطل رواية الأديب الفرنسيّ شاتوبريان Chateaubriand التي تحمل العنوان نفسه: «رينيه» *René* (1802).

(4) أنطوني: بطل مسرحيّة «أنطوني» *Antony* (1831) للأديب الفرنسيّ ألكساندر دوما Alexandre Dumas.

(5) شارل نودييه Charles Nodier (1780–1844) كاتب فرنسيّ ساهم في ولادة المذهب الرومنطيقيّ.

إلصاق رأسه من جديد.

وهكذا يبدو جَليّاً أنّ الانجذاب إلى قصّة بإمكانه خلق تأثير مماثل، وقد يصل الأمر بالقصّاص إلى أن يتجسّد في بطل خياله، بحيث أنّ حياة البطل تصبح حياته، ويلفي نفسه مكتوياً بنيران رغباته وصبواته الزائفة! ومع ذلك فإنّ هذا ما حصل لي حين باشرت بسرد قصّةِ شخصيّةٍ ظهرت، على ما أعتقد، في عهد لويس الخامس عشر، تحت اسم بريزاسييه[1] المستعار. تُرى أين قرأتُ سيرة هذا المغامر التعسة؟ عثرتُ على سيرة الأب دوبوكوا[2]، لكنّي أشعر فعلاً أنّني عاجز عن تقديم أدنى دليلٍ

(1) كان نرفال يحلم بكتابة «الرواية المأساويّة» *Le Roman tragique* كتتمّة للكتاب السّاخر «الرّواية الهزليّة» *Le Roman comique*، لبول سكارّون Paul Scarron، صدر جزء أوّل منه في 1651 وجزء ثانٍ في 1657. بريزاسيه Brisacier (عند نرفال) رديف شخصيّة القدر Le Destin في مسرحيّة سكارّون، وعاشق ممثّلة تدعى L'Étoile أي النجمة، وقد خاضا عدّة مغامرات بعد التحاقهما بفرقة مسرحيّة. إلّا أنّ نرفال رسّخ فيما بعد شخصيّة بريزاسييه باعتباره قرينه في قصيدة «المحروم» «El Desdichado »، في ديوانه «الأوهام» *Les Chimères*، التي كانت تحمل عنوان «القدر» « Le Destin» في مخطوطة أخرى. وتتضمّن القصيدة الثيمات الأساسيّة لأسطورته الشخصيّة، وفيها يذكر موت «نجمته» الوحيدة: «نجمتي الوحيدة انطفأت وعُودي المزخرف/ اتّشح بشمس الكآبة السوداء» (انظر القصيدة في آخِر هذا الكتاب). في»الرواية المأساويّة»، يعود تاريخ الرسالة المختلق إلى «أبريل 1692»، أي إلى عهد لويس الرابع عشر، حيث عاش بريزاسييه الحقيقيّ، الابن غير الشّرعي لملك بولندة جان سوبييسكي، علماً أنّ «بريزاسييه الشهير»، صنيعة نرفال، لا يربطه الشيء الكثير بالنموذج التاريخيّ الذي تطرّق إليه الأب دوشوازي l'abbé de Choisy في مذكراته (1727). وإذ يستعيد نرفال «الرواية المأساويّة»، فإنّه، لاعتقاده بتناسخ الأرواح، ينتقل ببطله إلى القرن الثامن عشر.

(2) سيرة الأب دوبوكوا: راجع «أنجيليكا» *Angélique* (أولى قصص نرفال المترجمة هنا)، و«قصّة الأب دوبوكوا» *Histoire de l'abbé de Bucquoy* التي أدرجها نرفال ضمن كتابه «المتنوّرون» *Les Illuminés* (1852) الذي يتضمّن سيَراً وأخباراً. «أنجيليكا» و«قصّة الأب دوبوكوا» كانتا في الأصل كتاباً واحداً وهو «مهرّبو الملح» *Les Faux Saulniers* (1851)، وفيه يركّز نرفال على شجاعة الأب دوبوكوا الذي استطاع الهرب من سجن الباستيل في القرن السابع عشر، ويرى فيه أحدَ الروّاد الأوائل للثورة الفرنسيّة الذين تمرّدوا على الحكم الملكيّ الاستبداديّ.

تاريخيّ على وجود هذا الشهير الغامض! وما كان مجرّد أُلهِيَةٍ بالنسبة إليك يا أستاذ -أنت يا من أتقنتَ فعلاً فنّ التلاعب بحوليّاتنا ومذكّراتنا بحيث أنّ الأجيال المقبلة سيصعب عليها تمييز الحقيقيّ من الزائف، وستسبغُ ابتكاراتِك على جميع الشخصيّات التاريخيّة التي استدعيْتَها للمثول في رواياتك- أصبح بالنسبة لي هاجساً يبعث على الدوار. أن تبدع هو في الحقيقة أن تتذكّر من جديد[1] كما قال أحد المفكّرين. لم أكن قادراً على إيجاد براهين الوجود الماديّ لِبَطلي فآمَنتُ فجأةً بتناسخ الأرواح إيماناً ليس بأقلّ حزماً من إيمان فيثاغوراس أو بيار لورو[2]. كان القرن الثامن عشر حيث تخيّلتُ أنّني عشت في زمنٍ سابق مليئاً بهذه الأوهام. وقد كتب فوازنون ومونكريف وكريبيون الابن ألف مغامرة بهذا الشأن[3]. لا يفوتنّكَ جليس السلطان الذي استذكّر أنّه كان أريكة، وكيف أنّ شاه

(1) سبق لنرفال أن كتب في «مهرّبو الملح»: «لم يخترع أحد شيئاً، كلّ ما فعلناه هو أنّنا اكتشفنا ما كان موجوداً».

(2) فيثاغوراس Pythagore: فيلسوف يونانيّ (القرن السادس قبل الميلاد) قال إنّ الأرقام هي مبدأ كلّ الأشياء، واعتقد بتناسخ الأرواح. بيار لورو Pierre Leroux (1797– 1871) من أتباع المذهب السان سيمونيّ، صديق الكاتبة الفرنسيّة جورج صاند، وأحد الدّعاة الأساسيّين للاشتراكيّة الطوباويّة المشبعة بروح التأليهيّة والإنجيليّة. في رسالة بعث بها نرفال في مايو 1844 إلى مدير «مجلّة المسارح وجريدتها» *La revue et gazette des théâtres*، هلّل لفيثاغوريّة لورو، مقيماً الصلة بين المسرح والتقمّص والانبعاث في العصور الماضية.

(3) الأب دوفوازنون Voisenon abbé de ويدعى كلود هنري دوفوزيه Claude-Henri de Fusée (1708–1775)، كاتب مؤلّفات ماجنة منها رواية «السلطان ميزابوف» *Le Sultan Misapouf* التي نُشرت في جريدة «مركور دوفرانس» *Le Mercure de France* عام 1830 وكان نرفال يكتب آنئذ فيها بانتظام. فرنسوا أوغوستان بارادي دومونكريف: François-Augustin Paradis de Moncrif (1687–1770)، مؤلّف «الأرواح المتناحرة» *Âmes Rivales*. كلود بروسبير جوليو دوكريبيون أو كريبيون الابن Claude-Prosper Jolyot de Crébillon (1707–1777) مؤلف وممثّل فرنسيّ. من قصصه: «أريكة» «Sopha» (1742). وكلّ هذه الأعمال تذْكر على نحوٍ مسلٍ تناسخ الأرواح.

باهام هتف به قائلاً وقد أخذه العجب: «ماذا تقول! كنتَ أريكة! يا للرّوعة!...ولكنْ قلْ لي هل كنتَ مطرّزاً؟[1]»

أمّا أنا فتوشّيتُ بجميع الحلَل. ومن اللّحظة التي خلْتني فيها مُدركاً كلّ حيواتي السابقة، لم يصعب عليّ أن أكون أميراً، وملكاً، ومجوسيّاً، وعبقريّاً، لا بل حتّى إلهاً. كانت السّلسلة محطّمة والسّاعات ترتسم دقائق. ولو استطعت أن أجمع ذكرياتي في رائعةٍ أدبيّة لكانت «حلم شيبيون»[2] أو «رؤيا تاسو»[3]، أو «الكوميديا الإلهيّة» لدانتي. وإذ تخلّيت مذذاك عن سمعتي كملهَم، أو متنوّر، أو نبيّ، لم يتبقّ لي والحال هذه إلّا أن أقدّم لك ما سمّيْتَه عَن حقٍّ نظريّات مستحيلة، و«كتاباً متعذّراً إنجازه». وهذا فصله الأوّل الذي يبدو وكأنّه تتمّة لرواية سكارون الهزليّة... احكُمْ على

---

(1) استشهاد شبه تقريبيّ بقصّة «أريكة» لكريبيون التي سبق ذكرها، وفيها يُحاكي «ألف ليلة وليلة»: كان أحد أتباع الحاشية مؤمناً بالتقمّص وشغوفاً بالتطريز. راح يروي للسلطان شاه باهام كيف أنّ البراهما حوّله إلى أريكة «لكي يُعاقب روحه على شططها». والنصّ الحرفيّ هو: «وهل كنت إذن أريكة يا بنيّ؟ إنّها لتجربة مرعبة!! قل لي هل كنت مطرّزاً؟» (القسم الأوّل، الفصل الأوّل).

(2) فصل مشهور من كتاب «في الجمهوريّة» *De republica* لشيشرون حيث يتراءى لشيبيون العالم الآخر. وهذه الرؤيا تنبثق، حسبَ العلّامة شارل فرنسوا دوبْوي **Charles-François Dupuis**، من العقيدة نفسها التي تطبع حديث أنكيسس لابنه إينياس في النشيد السادس من ملحمة «الإنياذة» التي كتبها الشاعر اللاتينيّ فيرجيل. «يصف فيرجيل الأرواح بأنّها [....] مكوّنة من هذه النار المتوقّدة التي تلتمع في السماوات والتي تعود إليها بعد انفصالها عن الجسد. ونجد العقيدة نفسها في «حلم شيبيون». وهذه العقيدة هي في أساس «خرافة التقمّص»» (دوبْوي: «موجز في أصل الأديان كلّها» *Abrégé de l'origine de tous les cultes, 1821*).

(3) أو بالأحرى الرؤيا الوحيدة لغودفروا دوبْويّون **Godefroy de Bouillon** في النشيد الرابع عشر من ملحمة «تحرير القدس» (1575) للشاعر الإيطاليّ توركواتو تاسّو **Torquato Tasso** حيث يصف المواجهات بين النصارى والمسلمين في أثناء حصار القدس في نهاية الحملة الصليبيّة الأولى.

ذلك بنفسك[1]:

«ها أنا لا أزال في سجني يا سيّدتي. لا أزال متهوّراً دوماً، مذنباً دوماً على ما يبدو، وواثقاً دوماً، ويا للأسف! بـ «نجمة» المسرح الجميلة تلك التي شاءت فعلاً أن تدعوني للحظةٍ قدرَها. «النجمة» و«القدر» يا للثنائيّ الطريف في رواية الشاعر سكارون[2]! ولكن كم من الصعوبة بمكانٍ تأدية هذين الدّورَين اليوم. فالعربة الثقيلة التي كانت ترتجّ قديماً على رصيف مون[3] المتعرّج استُبدِلت بعربات خفيفة واختراعات أخرى جديدة. أين هيَ تلك المغامرات؟ أين ذاك البؤس الساحر الذي كان يجعلنا نظراءكنّ ورفاقكنّ يا سيّداتي الممثّلات نحن الشعراء المساكين دوماً، الشعراء الفقراء غالباً؟ لقد غدرتنّ بنا وتنكّرتنّ لنا! وتشتكيْن من كبريائنا! بدأتنّ بمطاردة الأسياد الأثرياء، المبهرجين، المتأنّقين، الجسورين، وتركتنّنا في أحد النُزُل البائسة لكي

(1) المقطع الطويل التالي والممهور بتوقيع «بريزاسييه الشهير» استعادة لنصّ «الرواية المأساويّة» الذي نُشر في مجلّة «الفنّان» *L'Artiste* في 10 مارس 1844، وأراده نرفال بمثابة تتمّة خاصّة لرواية سكارّون السابق ذكرها، والتي تتحدّث في الأصل عن فرقة منَ الممثّلين تصل إلى مدينة مون Mans الفرنسيّة. أمّا الشخصيّتان الرئيسيّتان فيها فهما العاشقان القدر Le Destin والنجمة L'Éoile وقد التحقا بالفرقة ليهربا من ضائقتهما الماديّة. وهناك راغوتان Ragotin وهو قزم مغرور وغضوب، ولارانكون La Rancune (شخصيّة كارهة للبشر وماكرة، يعني اسمها: الضّغينة)، ولاكافيرن (يعني اسمها: الكهف)La Caverne وابنتها أنجيليك Angélique. تشهد هذه الرواية على عادات ذاك العصر بشخصيّاتها المتمثّلة في الشاعر الفاشل راغوتان Ragotin، والممثّلين الجوّالين La Rancune, La Caverne, Le Destin, L'Étoile.

(2) هذا الثنائيّ الطريف سنجده أيضاً في قصيدة «المحروم» «El Desdichado» التي أشرنا إليها آنفاً وكان عنوانها في الأصل «القدر» «Le Destin» حيث البطل الذي يحمل الاسم نفسه، فقدَ «نجمته الوحيدة».

(3) مون Mans: مدينة فرنسيّة تقع على نهر سارت. وكما أسلفنا، فإنّ رواية سكارّون تبدأ بوصول فرقة من الممثّلين إلى هذه المدينة.

ندفع ثمن مجونكنّ المسعور. وهكذا، فأنا، الممثّل اللّامع فيما مضى، الأمير المجهول، العاشق المكتنف بالأسرار، المنكود، المنبوذ، الجميل الغامض[1]، معبود الماركيزات والسيّدات الوقورات، أنا الأثير لدى مدام بوفيون[2]، وغير الجدير بها فعلاً، لم أعامَل بأفضل من راغوتان[3] المسكين، ذاك الشاعر الركيك من الريف، ذاك المدّعي!... ولم يفدْني مظهري اللطيف، الذي شوّهته ضمادة ضخمة[4] إلّا في هلاكي الأكيد[5]. صاحب النزل سحرَته أخبار لا رانكون وأراد فعلاً الاكتفاء بأن يحتجز لديه رهينةً ابنَ الخان الكبير للقرم[6] الذي أُرسِلَ إلى هناك لمتابعة دروسه واشتهر في جميع أنحاء أوروبا المسيحيّة باسم بريزاسييه المستعار. لو أنّ هذا البائس، لو أنّ هذا الدسّاس العجوز ترك لي بعض

(1) هذا الاستدعاءالرمزيّ للأنا المسرحيّة في «الرواية المأساويّة» يمكنه أن يبدو وكأنّه الرّديف الساخر للاستدعاء الرمزيّ للأنا الوجدانيّة في قصيدة «المحروم» في ديوان «الأوهام». ذلك أنّ «الأمير المجهول» هنا يقابله في القصيدة «أمير أكيتانيا» (أكيتانيا إقليم من أقاليم فرنسا وأمير أكيتانيا هو ريتشارد قلب الأسد، الذي اعتُقلَ في بُرج). و«الجميل الغامض» هنا يقابله «القاتم»، و«المنكود الحظّ» يقابله «المحروم» El Desdichado. ثمّ إنّ هذا الاستدعاء يحيل إلى آخرَ سابق عليه ذكره نرفال عام 1830 في مقدّمته لمختارات من قصائد بيار دورونسار Pierre de Ronsard (أحد أكبر أشهر شعراء عصر النهضة الفرنسيّ) في معرض ذكره للألقاب التي اتّخذها بعض شعراء ذلك العصر: المحروم، المنبوذ، العبد المحظوظ، عابر السّبل الخطرة، المتوحّد، إلخ.

(2) مدام بوفيون Mme Bouvillon شخصيّة من شخصيّات «الرواية الهزليّة» لسكارّون دعت الممثّل لو ديستان (القدر) لتناول الطعام في منزلها بِقصد إغوائه.

(3) راغوتان في «الرواية الهزليّة» نموذج الشاعر الفاشل.

(4) إشارة إلى لو ديستان (القدر) في «الرواية الهزليّة»، الذي كان يغطّي وجهه بضمادة.

(5) في «الرواية المأساويّة»، تخلّت الفرقة عن بريزاسييه في سواسون موهمةً صاحب النزل بأنّه ابن الخان الكبير للقرم منتحلاً اسم بريزاسييه، ولكنّ الحيلة لم تنطلِ عليه.

(6) من خلال هذه الهويّة لابن خان القرم الكبير، بريزاسييه هو فعلاً قرين نرفال كما تخيّله ألكساندر دوما: «سلطان القرم».

اللويسيّات[1] القديمة، أو بعض الشارليّات[2]، أو على الأقلّ ساعة رديئة مزيّنة بجواهر زائفة، لَكنت على الأرجح استطعت أن أفرض احترامي على وشاتي، ولَتجنّبت العواقب الأليمة التي أوقعتني فيها مثل هذه المكيدة البلهاء. لا بل، وأسوأ من ذلك، لم تتركوا لي شيئاً أرتديه إلّا دثاراً مخصّراً موشّىً بخطوط سوداء وزرقاء، وسروالاً مهلهلاً. حتّى إنّ مدير النزل إذ رفع حقيبتي بعد رحيلكم اعتراه القلق واشتبه بأنّ في الأمر مكيدة وأتى يقول لي بوضوح تامّ إنّني أمير غير شرعيّ[3]. لدى سماعي هذه الكلمات، أردت أن أسْتَلّ سيفي بسرعة، لكنّ لا رانكون أخذه منّي متذرّعاً بأنّه يتوجّب عليه منعي من أن أغرزه في قلبي على مرأى من الجاحدة التي خدعتني! هذا الافتراض الأخير كان غير مجدٍ يا لا رانكون! لا نطعن القلب بسيفٍ زائف، لا يمكننا تقليد الطبّاخ فاتيل[4]، ولا القيام بمحاكاةٍ ساخرة لأبطال الروايات عندما نكون أبطال مأساة: وأُشهِدُ كلّ رفاقنا على أنّ ميتة مماثلة يستحيل أن تعرض على المسرح بشيءٍ من الوقار. أعرف جيّداً أنّ في مستطاعنا غرز السيف في الأرض والارتماء فوقه والذراعان مفتوحتان. لكنّنا هنا في غرفة افتُرِشَتْ أرضها بالخشب، ولا سجّادة فيها على الرغم من الفصل البارد. والنافذة في أيّة حال مطلّة على الشارع ومن العلوّ بحيث

(1) جمع لويسيّة: ليرة فرنسيّة ذهبيّة.

(2) شارليّة: نقد سُكّ في عهد شارل الثامن واستُعملَ إلى القرن الثامن عشر.

(3) هذه الحقيقة المحزنة، حقيقة أنّ بريزاسييه ليس إلّا أميراً غير شرعيّ تذكّر أيضاً بأمير أكيتانيا في قصيدة نرفال «المحروم».

(4) فاتيل Vatel (1631–1671) أشهر طبّاخ عرفته فرنسا، كان يُلقّب بسيّد الولائم إبّان خدمته للأمير كونديه، انتحر عام 1672 بسبب تأخّر وصول السمك الطّازج. وانتحار فاتيل يذكره نرفال أيضاً في نصّيه «باندورا» *Pandora* و«نزهات وذكريات» *Promenades et souvenirs*.

يصعب أمام كلّ يائس مفجوع أن ينهي مصيره عبرها. ولكنّي... لكنّي قلت لك ألف مرّة إنّني ممثّل مؤمن.

«أتذكرون الطريقة التي أدّيتُ فيها دور أخيل[1]، لدى مرورنا صدفة بمدينة صغيرة وضيعة، حين اعترتنا نزوة أن نعيد المجد المنسيّ لمؤلّفي المآسي الفرنسيّين القدامى؟ بدوْتُ نبيلاً وجبّاراً في خوذتي الذهبيّة المزيّنة بلبدةٍ قرمزيّة، ودرعي البرّاق، والمعطف الأزرق الذي التحفته، أليس كذلك؟ يا له من منظرٍ كئيبٍ رأيته آنذاك حين كان أغاممنون الأب الجبان يزاحم الكاهن كلكاس على شرف تسليم ابنته المسكينة إيفيجينيا للذّبح دامعة العينين! دخلْتُ بسرعةِ البرق في هذا المشهد الرهيب معيداً الأمل للأمّهات، والشجاعة للفتيات التعيسات، المضحّى بهنّ دوماً في سبيل واجبٍ، أو إلهٍ، أو انتقام شعبٍ، أو شرفٍ، أو لمآرب عائلة!... فالجميع يعرف في كلّ مكان هذه القصّة الأبديّة للزيجات البشريّة: يسلّم الأب ابنته طلباً لجاهٍ، وتبيعها الأمّ بباعثٍ من الجشع أبداً؛ لكنّ العاشق لن يكون أبداً كمثل أخيل ذاك الشهم الرائع المقدام، الأغرّ والرهيب في آنٍ معاً، وإن يكنْ منمّق العبارة بإفراطٍ بالنسبة إلى محاربٍ! أحياناً كنت أستاء أنا نفسي من تلاوة هذه المقاطع الطويلة في مسألة جليّة كهذه وأمام مستمعين يقرّون بحقّي البديهيّ. سوّلت لي نفسي أن أنهي الأمر وأقطع بالسيف رؤوس كلّ أفراد الحاشية البلهاء لملك الملوك،

(1) أخيل بطل «الإلياذة»، مستعاداً في مسرحيّة «إيفيجينيا» *Iphigénie* (1675) للكاتب المسرحيّ الفرنسيّ جان راسين Jean Racine. إيفيجينيا هي ابنة أغاممنون وكليتمنسترا شقيقة هيلينا (هيلانة) التي كان اختطافها سبباً في نشوب حرب طروادة. أخيل مغرم بإيفيجينيا وهي تبادله الحبّ، لكنّ أغاممنون يريد التضحية بها على مذبح الربّة أرتميس بعدما استشار العرّاف كلكاس لتهدئة غضبها والسماح لسفنه بالإبحار إلى طروادة.

ومعهم هذه الزمرة من الممثّلين البلداء! لو فعلت هذا لانسحر الجمهور، لكنّه كان سيأخذ على المسرحيّة قصرها، فهو يحتاج إلى الوقت ليرى أميرة وعشيقاً وملكة يتعذّبون ويبكون ويغضبون ويقذفون سيلاً من الشتائم المنمّقة في وجه السلطة القديمة للكاهن والعاهل. وكلّ هذا يستحقّ فعلاً خمسة فصول وساعتَي انتظار، وقد لا يرضى الجمهور بأقلّ من ذلك، فهو يريد انتقاماً من عظمة تلك الأسرة الفريدة الجالسة بأبّهة على عرش اليونان، وأمامها أخيل نفسه الذي لا يمكنه أن يغضب إلّا بالكلام. يجب أن يستشعر الجمهور كلّ البؤس المحتجب خلف هذا الأرجوان، وكذلك الجلال اللامتناهي! أمّا هذه الدموع المنهمرة من أجمل عينين في العالم على نهدي إيفيجينيا المتلألئين فتُسكر الجمهور تماماً كما يسكره جمالها وأناقتها وبريق ثوبها الملكيّ! وأيضاً هذا الصوت الفائق العذوبة الذي يريد الحياة مذكّراً بأنّه لم يعش بعد، والابتسامة العذبة لهاتَين العينين اللتين حبستا دموعهما استدراراً لعاطفة والدٍ، وتدلّلها ذاك، ويا للأسف، لن يكون للحبيب!... آهِ ما أشدّ اندفاع كلّ واحدٍ ليظفر بشيء ما منها! أيراد قتلها؟ هي! من كان ليفكّر في ذلك؟ يا أيّتها الآلهة العظيمة! لا أحد ربّما؟... لا بل كانوا جميعاً يؤثرون أن تموت من أجل الكلّ بدلاً من أن تحيا لشخصٍ واحد. والكلُّ رأى أنّ أخيل بطلٌ في غاية الجمال والعظمة والروعة! هل سيخطف ذاك النسر التيساليّ[1] إيفيجينيا، كما سبق لأميرٍ راعٍ من ساحل آسيا الخلّاب أن خطف ابنة ليدا[2]؟ تلك

(1) يقصد أخيل الذي ولد في تيساليا (إقليم في اليونان).

(2) ابنة ليدا هي هيلينا زوجة ملك اسبرطة مينيلاوس التي خطفها باريس أمير طروادة وبسبب هذا الخطف نشبت حرب طروادة الشهيرة.

هي المسألة بالنسبة لجميع الإغريق، وكذلك بالنسبة للجمهور الذي يحكم علينا في أدوار البطولة هذه! أمّا أنا، فحين أدّيت أحد أدوار العاشق الرائع الظافر هذه، شعرت أنّني مكروه من الرجال قَدْرَ ما كنت محبوباً من النساء. ذلك أنّني لم أكن في حضرة ممثّلة باردة، معتادة على أن تتلو بشكلٍ مقيت هذه الأبيات الخالدة، بل كان عليّ أن أدافع عن فتاة حقيقيّة من بلاد الإغريق، عن لؤلؤة من الجمال والحبّ والنقاء، وأن أفتنها وأصونها، فهي جديرة فعلاً بأن يُزاحم الرجالُ في سبيلها الآلهةَ الطامعين! هل كانت إيفيجينيا فقط؟ لا بل كانت أيضاً مونيما، وجونيا، وبيرينيس[1]. كانت جميع البطلات اللواتي ألهمتهنّ لراسين عينا الآنسة شانميليه[2] الزرقاوان بلون الأثير، أو المفاتن الأخّاذة لعذارى سان سير[3] النبيلات. يا لأوريلي[4] المسكينة! يا رفيقتنا ويا أختنا، أفلا تتحسّرين أبداً أنت نفسك على لحظات

---

(1) مونيما، جونيا، بيرينيس: بطلات في مسرحيّات جان راسين.

(2) الآنسة شانميليه Mlle de Champmeslé أو ماري دِيمار Marie Desmares (1642– 1698): ممثّلة شهيرة كانت عشيقة راسين وقامت بأداء أدوار جميع بطلاته بدءاً بأندروماك Andromaque ووصولاً إلى فيدرا Phèdre.

(3) مدرسة سان سير l'École Saint-Cyr: مدرسة خاصّة للفتيات أسّستها مدام دومانتينون Mme de Maintenon زوجة ملك فرنسا لويس الرابع عشر (عام 1686) بعد وفاة الملكة ماري أنطوانيت النمساويّة. ويلمّح نرفال أيضاً إلى الممثّلات اللواتي أدّين الأدوار في مسرحيّتَي راسين: «إستير» *Esther*، و«أتاليا» *Athalie*.

(4) نرفال يحدّد هنا هويّة «نجمة المسرح الجميلة تلك: أوريلي المذكورة في الفصل الثالث عشر من قصّة «سيلفيا» *Sylvie*، والتي أفرد من أجلها نصّه الأخير الشهير ونشره في كتاب بعنوان «أوريليا» *Aurélia*. في مقطع من مخطوطة صغيرة معاصِرَة لقصص نرفال معَنونة: «أوريلي» *Aurélie*، كان يفترض به أن يستهلّ به رسالة بريزاسبيه، يشير نرفال إلى الصلة التي تربط بين «الرواية المأساويّة» و«سيلفيا»: «إنّ بعض المقاطع [من رسالة بريزاسبيه] كانت ترسم في فكري الصورة المثاليّة لأوريلي، الممثّلة، التي حُدّد بعضٌ من ملامحها في «سيلفيا»».

النشوة والكبرياء تلك؟ ألم تحبّبيني لحظة واحدة أيّتها النجمة الباردة وقد رأيتني أقاسي مرّ العذاب، وأحارب، أو أبكي من أجلك! هل سيطغى البريق الجديد الذي يغمرك به الناس اليوم على الصورة المشرقة لنجاحاتنا المشتركة؟ كانوا يقولون كلّ مساء: «من تكون إذَن هذه الممثّلة التي بذّت كلّ من صفّقنا لهنّ؟ أوَ نكون مخطئين؟ أهي حقّاً بهذا الشباب الذي تبدو عليه، وبهذه النضارة والاستقامة؟ وتلك اللآلئ وأحجار عين الهرّ[1] الرهيفة المنسابة من شعرها الأشقر المائل إلى الفضيّ أهي فعلاً حقيقيّة؟ وهذا الوشاح من الدانتيل هل يعود شرعاً لهذه الطفلة التعسة؟ أفلا تخجل من هذا الساتان المطرّز، وهذا المخمل ذي الثنيات الكبيرة، وهذه الأرياش وهذا الفراء وكلّها تشي بذوقٍ بائد وبزخارف لا تليق بعمرها؟ هكذا كانت الأمّهات يتكلّمن، على الرغم من إعجابهنّ بالحلى والزينة المختارة دوماً من عصر سابق، والتي تعيد إليهنّ ذكريات جميلة. النساء الشابّات كنّ يحسدنَها أو ينتقدنها أو يعجبن بها بإشفاق. أمّا أنا فكنت بحاجة لرؤيتها كلّ ساعة لئلا أشعر أنّني دائم الانبهار في حَضْرتها، لكي أستطيع التحديق في عينيها مدى ما كانت تقتضيه أدوارنا. لذا أحرزتُ نجاحاً باهراً في دور أخيل. ولكن كم أنّ اختيار الأدوار الأخرى أربكني على الدوام! وأيّ تعاسة تملّكتني لعدم جرأتي على تغيير الأوضاع لصالحي أو تكريس أفكار العبقريّة صوناً لكرامتي وحبّي! لم تكن تلائمني شخصيّات مثل بريتانيكوس وبايزيد[2]

(1) الأوبال Opale أو عين الهرّ أو عين الشمس: حجر كريم له ألوان مختلفة.

(2) «بريتانيكوس» *Britannicus* و«بايزيد» *Bajazet*: مسرحيّتان للأديب الفرنسيّ جان راسين. تجسد مسرحية «بريتانيكوس» صراعاً تراجيديّاً بين نيرون إمبراطور روما وبريتانيكوس أخيه =

وأمثالهم من العشّاق الأسرى الخُجُل. كان أرجوان القيصر الشابّ يسحرني أكثر بكثير! ولكنّه لأمرٌ محزن ألّا تجد شيئاً تقوله إلّا كلمات دنيئة باردة! عجباً! هل كان حقّاً نيرون ذاك الذي احتفت به روما أيّما احتفاء؟ ذاك المقارع الشجاع، ذاك الراقص، ذاك الشاعر الشغوف الذي كانت رغبته الوحيدة في أن يثير إعجاب الجميع؟ ذاك ما صنعه التاريخ منه، وما حلم به الشعراء عنه متوسّلين التاريخ! آه! امنحوني غضباته لأعيد إحياءها، ودعوا عنّي سلطته، أخشى أن أقبل بها. نيرون! فهمتك يا للأسف! ليس بفضل راسِين بل بفضل قلبي الجريح حين تجرّأتُ على استعارة اسمك! أجل، كنت إلهاً، أنت يا مَن رغبت في أن تحرق روما وأنت يا مَن تملك الحقّ في ذلك، ربّما، لأنّ روما أهانتك!...

«أسمع صفيراً، صفيراً معيباً، «على مرأى منها»، قربها، بسببها! وهذا الصفير تظنّه موجّهاً لها بسبب غلطتي (أتفهمون قصدي؟) وتسألون ماذا بمقدورنا أن نفعل عندما نقبض على الصاعقة!.... آه! اسمعوا يا أصدقائي! خطرت لي ذاتَ هنيهةٍ الفكرة بأن أكون صادقاً

= غير الشقيق حول الحبّ والسلطة. شعر نيرون بانجذاب نحو الحسناء جونيا بالرّغم من معرفته بالحبّ الذي يجمعها ببريتانيكوس. من هنا كانت أولى تجلّيات وحشيّة نيرون، حين سجن الحسناء في القصر مفرّقاً بينها وبين حبيبها. لكنّ جونيا كتمت حبّها لبريتانيكوس حين التقى بها نيرون عارضاً حبّه والزواج. ثمّ حين التقت ببريتانيكوس بتدبير من نيرون الذي كان يريد أن يتأكّد من الحقيقة، لم تتفوّه بكلمة حبّ واحدة لأنّها تعرف أنّ نيرون يتجسّس عليهما. لكنّ نيرون في النهاية قرّر الانتقام من الجميع، وهكذا، وبالرّغم من نصائح مستشاره بوروس، أقام مأدبة «صلح» مع أخيه، وضع له خلالها السمّ تخلصاً منه. أمّا «با يزيد» فيستلهم فيها راسين أحداثاً «حقيقية» شهدتها الأستانة، عاصمة الامبراطورية العثمانية، حوالى العام 1639، ولكنّ المسرحية لا تحمل سمة عثمانية محضة بل تعالج موضوعات كالحبّ والغيرة والغدر والتآمر يمكن أن تحدث في كلّ قصر ملكيّ في تلك الحقبة.

وعظيماً، وأن أجعل نفسي خالداً في آخر الأمر على مسرحكم المصنوع من ألواحٍ وستائر، وفي مسرحيّتكم المليئة بالبهارج! وبدل الردّ على الإهانة بإهانة مماثلة، وهذا ما سبّب لي «العقاب» الذي ما برح يشقيني؛ وبدل أن أستفزّ جمهوراً تافهاً فينقضّ على المسرح ويصرعني بجُبْنٍ... خطرت لي ذاتَ هنيهةٍ فكرة، تلك الفكرة السامية، الجديرة بالقيصر نفسه، والتي لا أحد هذه المرّة كان لِيجرؤ أن يضعها في مرتبة أدنى من فكرة راسِين العظيم، تلك الفكرة المقدّسة التي تقضي بأن أحرق المسرح[1]، والجمهور، وأحرقكم جميعاً! ثمّ أحملها وحدها عبر ألسنة النار، مشعّثة الشعر، نصف عارية، وفقاً لدورها، أو على الأقلّ حسبَ رواية بورّوس المعهودة[2]. وكونوا واثقين عندئذٍ من أنّه لا شيءَ بإمكانه اختطافها منّي بدءاً من هذه اللحظة ولا حبل المشنقة نفسه! ولا الأبديّة نفسها!

«آه يا ندامات لياليَّ المحمومة ونهاراتي المبلّلة بالدّموع! ماذا! كان بإمكاني تحقيق ذلك ولم أفعل؟ ماذا! لا زلتم تستخفّون بي، أنتم يا من تدينون بحياتكم لشفقتي أكثر ممّا تدينون بها لخوفي! كان باستطاعتي أن أحرقهم جميعاً! اشهدوا على كلامي: ليس لمسرح بـ... إلّا مخرج واحد. وهو يُطلّ فعلاً على شارع صغير في الخلف، لكنّ الحلقة التي تتجمّعون فيها جميعكم هي في الجهة الأخرى من المسرح. وأنا كلّ ما

(1) من خلال هذا الحلم المجنون بحرق المسرح، ومخاطبة نيرون في الفقرة السابقة، لا يلعب بريزاسيه دور نيرون في مسرحيّة «بريتانيكوس» بقدرما يتعث في جنونه نيرون الحقيقيّ، الإمبراطور الشاعر الذي أحرق روما.

(2) بورّوس Burrhus هو مربّي نيرون. ولكن في الواقع نيرون وليس بورّوس هو الذي يسرد في المشهد الثاني من الفصل الثاني اختطاف جونيا.

عليّ فعله هوَ أن أنتزع سراجاً وأشعل النار في الستائر وذلك من دون المخاطرة بأن يباغتني أحد، فالحارس لم يكن يستطيع أن يراني. كنت وحدي أستمع إلى الحوار الباهت بين بريتانيكوس وجونيا، لأظهر من ثمّ ثانية في وضعيّة جامدة. تصارعت مع نفسي خلال كلّ هذا الفاصل. وحين عدت كنت أقلّب بين أصابعي قفّازاً التقطته. كنت أتوقّع أن أنتقم لنفسي من إهانة أدركتني في الصميم وكأنّ لي قلب قيصر، وبشهامةٍ تفوق شهامة القيصر نفسه... لا عجب، لم يجرؤ هذان الوضيعان على الاسترسال في حديثهما! كانت نظراتي تصعقهما دون وجل، وكنت سأغفر للجمهور، لا بل لجونيا عندما تجرّأت... يا أيّتها الآلهة الخالدة!... ما بالكِ، دعيني أتكلّم كما أشاء!... أجل، منذ تلك الأمسية، انتابني الجنون فخلتُني رومانيّاً، وإمبراطوراً. تماهيت مع دوري نفسه، والتصق قميص نيرون بأطرافي فاحترق، كما التهم قميص القنطورسِ هرقلَ المحتضر[1]. لا يجوز التلاعب بالأشياء المقدّسة بما فيها تلك العائدة لشعبٍ وعصرٍ اندثرا منذ زمنٍ طويل، لربّما كان هناك بعض قبسٍ تحت رماد آلهة روما... يا أصدقائي! عليكم أن تعرفوا جيّداً أنّ الأمر لا يتعلّق بالنسبة لي بتلاوةٍ باردةٍ للكلمات المتكلّفة بل بمشهدٍ كلّ شيء فيه حيّ، وحيث ثلاثة قلوبٍ تتصارع بحظوظٍ متساوية، وحيث كان سيهرق دم حقيقيّ كما في لعبة السيرك. كان الجمهور يعرف ذلك جيّداً، كان ذاك جمهور المدينة الصّغيرة الملمّ

(1) في الميثولوجيا الإغريقيّة، قتلَ هرقلُ القنطورسَ نيسوس (القنطورس كائن خرافيّ نصفه إنسان ونصفه الآخر رجل)، لاغتصابه زوجته ديانيرا، فترك القنطورس قبل أن يلفظ نفسه الأخير قميصه المسموم لديانيرا ناصحاً إيّاها بإهدائه إلى هرقل، زاعماً أنّ القميص سيجعله مخلصاً لها. وبعد سنواتٍ ارتدى هرقل القميص وسرى في جسده السمّ وبدأ يمزّق أوصاله، فآثر أن يرمي نفسه في محرقة ويموت.

فعلاً بكلّ أمورنا التي تجري خلف الكواليس، هؤلاء النساء اللواتي كانت العديدات منهنّ ليغرمن بي لو أنّني فقط أردت أن أخون حبّي الوحيد! هؤلاء الرجال الذين يحسدونني جميعهم بسببها هي. أمّا الآخر، بريتانيكوس المختار بعناية، العاشق المسكين المرتبك الذي كان يرتجف أمامي وأمامها، وكان يفترض به أن يهزمني في هذه اللعبة المرعبة حيث من يصل أخيراً له كلّ الأفضليّة وكلّ المجد... آه! كان المبتدئ في الحبّ يعرف مهنته... لكنّه لم يكن لديه شيء ليخشاه، لأنّني أعدل من أن أرتكب جريمة بحقّ شخصٍ ذنبه أنّه أحبّ مثلي، وهذا ما يجعلني أختلف عن الوحش الفظيع الذي تخيّله الشاعر راسِين. سأحرق روما دون تردّد، ولكنّني حين أنقذ جونيا فسأنقذ معها أيضاً أخي بريتانيكوس.

«أجل يا أخي، أجل، يا ابن الفنّ والخيال التعس مثلي، لقد امتلكْتَها، لقد استحقّيتها فقط بمجرّد أنّك نافسْتَني عليها. معاذَ السماء أن أسيء استعمال سنّي وقوّتي، وهذا المزاج الأنوف الذي أعادته إليّ العافية، فأطعن في اختيارها أو أعيب عليها نزوتها هي، الكاملة الجبروت، العادلة، هي إلهة أحلامي وحياتي... إلّا أنّني خشيت طويلاً ألّا يفيدك شقائي بشيء، وأن ينتزع متأنّقو المدينة الوسيمون منّا ما ضاع فقط بالنسبة لي.

«إنّ الرسالة التي استلمتها للتوّ من لاكافيرن طمأنتني تماماً بخصوص هذه المسألة، فهي تنصحني بالتخلّي عن فنّ لم يُخلق لي ولا حاجة لي به إطلاقاً... يا للأسف! إنّها لمزحةٌ مريرة لأنّه لم يسبق لي أن احتجت إلى الفنّ كما أحتاج إليه الآن أو على الأقلّ إلى صنائعه الأخّاذة.

وهذا بالضبط ما لم تفهموه. ظننْتم أنّكم قمتم بواجبكم حين سلّمتموني إلى سلطات سواسون[1] بصفتي شخصاً شهيراً لا يمكن لعائلته أن تتخلّى عنه، ولكنّ تفاقم مرضه ألزمكم بمواصلة رحلتكم من دونه. صاحبكم لارانكون عرّف بنفسه في دار البلديّة، وعند صاحب النزل، مصطنعاً هيئة نبيل إسباني اضطرّه حادث طارئ إلى التوقّف ليلتين في مثل هذا المكان البائس. وأنتم أيضاً أُجبرتم على الرحيل من بـ... في اليوم التالي لاحتجازي، لم يكن لديكم، وأتفهّم ذلك، أيّ سببٍ يدعوكم لأن تُعتَبروا هنا «ممثّلين فاشلين». إنّه لأمر شاقّ أن يُسدل هذا القناع على الوجه في أمكنة بات مستطاعاً فيها خلعه. أمّا أنا، فماذا يجدر بي أن أقول وكيف أنجو بنفسي من الشبكة الجهنّميّة للدسائس التي ورّطتْني فيها للتوّ أخبار لارانكون؟ لا شكّ أنّ المقطع الطويل من مسرحيّة «الكاذب»[2] لكورناي ساعده في اختلاق قصّته، لأنّ خيال شخصٍ تافه ووضيع مثله ليس قادراً على بلوغ مثل هذا المستوى. تخيّلوا... ولكن هل سأقول شيئاً ولا تعرفونه في الواقع، وهل من مؤامرة لم تكيدوها جميعاً بغية ضياعي؟ تلك الجاحدة التي هي سبب شقائي، ألم تنسج بأصابعها، أصابع أراكنيه[3]، كلّ خيوط الحرير

---

(1) سواسون Soissons، مدينة في إقليم الأين aisne في بيكارديا Picardie شمال فرنسا، تقع على نهر الأين على بعد حوالي 100 كلم شمال شرق باريس. هي واحدة من أقدم المدن في فرنسا، وأوّل عاصمة لها.

(2) «الكاذب» *Le Menteur*: مسرحيّة كتبها الأديب الفرنسيّ بيار كورناي Pierre Corneille عام 1643 وتدور حول شخصيّة دورانت الشابّ الذي يهوى اختلاق الأكاذيب ويتباهى بهذه الموهبة.

(3) أراكنيه Arákhnê تعني العنكبوت في اللغة اليونانيّة، وأراكنيه كانت في الأصل فتاة من أشهر النسّاجات في الأساطير اليونانيّة والرومانيّة. وقد حوّلتها الإلهة أثينا إلى عنكبوت.

وتحبكها لتصيد بها فريسة تعسة مثلي؟... يا لنسيجها الرهيب! ويل لي، فقد علقت في الفخّ! أعترف بذلك مستسلماً طالباً الرحمة. بإمكانكم أن تصطحبوني معكم من جديدٍ دون خشية، وإذا كانت العربات الخفيفة السريعة التي أقلّتكم على طرق فلاندر[1] قد حلّت منذ ثلاثة أشهر تقريباً مكان العربة المتواضعة لمغامراتنا الأولى. فتفضّلوا واقبلوني على الأقلّ بصفتي مسخاً، أو ظاهرة غريبة، أو بصفتي دمياً يثير فضول الحشد من حَوله، وأتعهّد لكم بأن أقوم بهذه الأدوار المختلفة بطريقة أرضي بها هواة الأرياف الأكثر تطلّباً... أنتظر ردّاً سريعاً عبر مكتب البريد واستدراكاً لفضول صاحب النزل فسأرسل موظّفاً مخلصاً لي ليجلب لي رسالتكم...

بريزاسبيه الشهير».

ما العمل الآن بهذا البطل المهجور من قبَل عشيقته ورفاقه؟ ليس في الحقيقة إلّا ممثّلاً بالصدفة، وقد نال عقابه من جرّاء قلّة تهذيبه تجاه الجمهور، وغيرته البلهاء وادّعاءاته المجنونة! كيف سيتوصّل لأن يثبت أنّه ابن خان القرم كما أعلن ذلك لارانكون في القصّة التي اختلقها؟ وكيف من هذه الأدراك الرهيبة سيرتفع إلى الذرى الأكثر سموّاً؟... تلك مسائل قد لا تربككم أبداً، لكنّها رمتني في تشوّش فكريّ هو الأغرب. وحين اقتنعت

(1) فلاندر Flandre منطقة واسعة تمتدّ في فرنسا وبلجيكا على بحر الشمال. وبالطبع يقصد نرفال فلاندر الفرنسيّة وعاصمتها التاريخيّة ليل Lille، ومن مدنها كاليه Calais، ودنكرك Dunkerque. أمّا طريق فلاندر هذه التي تمرّ بسنليس Senlis (إحدى بلدات فرنسا في إقليم الواز Oise الذي يقع في شمال فرنسا، وفيه نهر الواز) فيسلكها أيضاً الراوي في قصّة «أنجيليكا» (في الرسالتين الخامسة والسادسة)، وأيضاً الراوي في قصّة «سيلفيا» (الفصل الثالث).

بأنّني كنت أكتب قصّتي بالذّات رحت أترجم أحلامي وانفعالاتي كلّها، ورقّ قلبي حبّاً بنجمةٍ «هاربة» تركتني وحيداً في ليلِ مصيري. وبكيت، وارتعدت من رؤى نومي الواهمة، ثمّ التمع شعاع إلهيّ في ظلمة جحيمي. ومحاطاً بالأمساخ التي كنت أقارعها بطريقةٍ مبهمَة، تلمّست خيط الهداية، وللحِينِ أصبحت جميع رؤاي سماويّة. ويوماً ما سأكتب قصّة هذا «النزول إلى الجحيم»[1]، وستَرَون أنّها ليست خالية تماماً من المنطق بالرّغم من افتقارها إلى العقل.

وبما أنّك تهوّرت واستشهدت بإحدى قصائدي المؤلّفة في هذه الحالة من أحلام اليقظة ما فَوق الطبيعيّة، كما كان سيقول الألمان، فعليك أن تسمعها كلّها. ستجدها في نهاية الكتاب وهي ليست بأشدّ غموضاً من ميتافيزيقا هيغل أو «مذكّرات» سويدنبورغ[2]، وستفقد من سحرها لو شُرِحت، لو كان الأمر ممكناً. امنحني على الأقلّ فضيلة التعبير. أن أحسبني شاعراً هو الجنون الأخير الذي سيتبقّى لي على الأرجح ويترتّب على النقد شفائي منه.

(1) قصّة هذا النزول إلى الجحيم هي «أوريليا» *Aurélia*، وهي آخر ما كتب نرفال، وقد صدرت بالعربيّة بترجمة لماري طوق نشرتها دار الفارابي ببيروت في 2003. وينبغي التفريق بين هذا النصّ وقصّة «أوريلي» التي يحملها الكتاب الحاليّ (المُراجِع).

(2) إيمانويل سويدنبورغ Emanuel Swedenborg عالم وفيلسوف سويديّ وصوفيّ وعالم باللّاهوت مسيحيّ له تاريخ حافل كعالم ومخترع. ولد في 1688 وتوفّي في 1772. من أشهر مؤلّفاته يوميّاته الروحانيّة، سمّاها *Memorabilia* («مذكّرات») تيّمناً بالعنوان نفسه الذي حمله كتاب المؤرّخ والفيلسوف كزينوفون عن سقراط وتأمّلاته الميتافيزيقيّة العميقة.

أنجيليكا

(إضاءة: من 24 أكتوبر إلى 22 ديسمبر 1850، نشرت جريدة Le National قصّة متسلسلة تحت شكل رسائل موجّهة إلى رئيس تحرير الصّحيفة، حملت عنوان «مهرّبو الملح» Les Faux Saulniers. تروي القصّة مغامرات الكاتب خلال بحثه عن كتاب مفقود وهو «قصّة الأب دوبوكوا» L'Histoire de l'abbé de Bucquoy. صحيح أنّ هذه «الرواية المضادة» التي تكثر من الاستطرادات والتعليقات ما وراء السرديّة والاستشهاد بالأرشيفات (ملفّات الشرطة أو اعتراف أنجيليكا دولونغفال) تدين في طبيعتها وشكلها، وكما تشير إليه في النهاية تأمّلات الكاتب نفسه، لطرائق السّرد الغرائبيّ على طريقة ستيرن Sterne، وديدرو Diderot، ونوديه Nodier، ومع ذلك فهي متعلّقة أيضاً بأحداث عاصرها نرفال، تتمثّل خصوصاً في تعديل ريانسي Riancey لقانون الصحافة في 16 يوليو 1850 الذي ألحق بالصحف التي تضمّ في صفحاتها رواياتٍ مسلسلة غرامة قدرها سنتيم عن كلّ عدد.

في مايو 1852، كانت «قصّة الأب دوبوكوا» مدرَجَةً في نصّ نرفال «المتنوّرون» Les Illuminés ثمّ أصبحت أوّل قصّة في الكتاب الحاليّ. من «مهرّبو الملح» إلى «أنجيليكا» فقدَ السرد الغرائبيّ جزءاً كبيراً من بعده السياسيّ وتمركز في جزء منه حول شخصيّة أنجيليكا دولونغفال، لكنّ هذا التمركز يبقى إشكالياً لأنّ قصّة شقيقة جدّ دوبوكوا ليست فقط استطراداً.

مفتتحاً بها مجموعة «بنات اللّهب»، أنجيليكا ليست فقط التوطيد الأوّلي للثيمات التي سيُعاد التطرّق إليها في «سيلفيا» (ثنائية قطبي باريس والفالوا، والتّسفر إلى كيتيريا، وأغاني منطقة الفالوا وخرافاتها، والعودة إلى الوطن الأمّ والحلقات الطفوليّة والتمثيليّة الديتية التي أدّتها المترهّبات الشابّات، وعيد القوس في ذكرى ميلاد سان بارتيلمي، والثنائيّ سيلفان/ سيلفيا، وزيارة قبر الأديب جان جاك روسو) بل هي أيضاً قصّة كتابٍ مفقود يريد له الكاتب أن يكون مفقوداً على غرار شخصيّة الأب دوبوكوا «الغرائبيّة والهاربة باستمرار». كتاب لا يتوقّف عن التلاعب بالأنواع الأدبيّة (فهو رواية، وحكاية، واعتراف)، مواجهاً العقول المحافظة لجامعي الكتب والمراقبين، وممتدحاً هذا الجنون الخاصّ الذي يزعج الجميع، والأدب بما هو فنّ أبديّ للتّهريب والتمرّد.[1]

الرسالة الأولى

إلى حضرة السيّد المدير[2]

رحلة البحث عن كتاب فريد- فرانكفورت وباريس- بيلاط في فيينا- مكتبة ريشليو- شخصيّات بارزة- مكتبة الاسكندريّة.

في عام 1851، كنت مارّاً بفرانكفورت، ولمّا كنت مضطرّاً للبقاء يومَيْن في هذه المدينة التي كنت أعرفها، لم يسعني إلّا أن أجوب الشوارع الرئيسيّة

(1) المترجمة، تلخيصاً عن شروح نشرة «فوليو كلاسيك» لهذا الكتاب، وضعها برتران مارشال.

(2) يقصد الكاتب مدير تحرير جريدة «الناسيونال» *Le National* وهي جريدة يوميّة صدرت عام 1830، واتّبعت سياسة معارضة للملك شارل العاشر. أسّسها أدولف تير Adolphe Thiers، من أشهر مؤرّخي الثورة الفرنسيّة، وأوّل رئيس للجمهوريّة الثالثة في فرنسا.

التي كانت تغصّ آنذاك بالباعة الجوّالين. كانت ساحة رومير تشعّ على نحوٍ خاصّ بالبريق المذهل للبضائع المعروضة، وعلى مسافة قريبة منها كانَ سوق الفراء يعرض جلود حيوانات لا عَديد لها، مجلوبة إمّا من أعالي سيبيريا، أو من ضفاف بحر قزوين. بدت جلود الدبّ الأبيض، والثعلب الأزرق، والقاقم[1]، الطرائفَ الأقلّ غرابة في هذا المعرض الفريد. وعلى مسافة أبعد، تلألأت زجاجيّات بوهيميا، مزخرفة، منقوشة، مطعّمة بالذّهب، متوزّعة بألوانها الزاهية التي لا تحصى على رفوف من خشب الأرز وكأنّها أزهار مقطوفة من جنّة مجهولة.

كانت مجموعة من البضائع الأكثر تواضعاً تنتشر على امتداد المحالّ القائمة، مجاورة الأقسام الأقلّ ترفاً من البازار، تلك المخصّصة للعِقادة، والسِكافة، ومختلف لوازم الخياطة. وكان هنالك باعة كتب جاؤوا من كافّة أنحاء ألمانيا، وكانت المبيعات الأوفر ربحاً تشتمل على الروزنامات واللّوحات والنقوش الحجريّة. بيد أنّ الروزنامة الشعبيّة («فولكس كالندر»)[2] المزدانة بنقوشٍ على الخشب، والأغاني السياسيّة، والمطبوعات الحجريّة التي تمثّل روبرت بلوم[3] وأبطال حرب هنغاريا، هي التي كانت تجتذب أنظار الحشد وكرويتسراته[4]. وخلف هذه الأشياء الجديدة عُرِضَ عددٌ كبير من الكتب القديمة لا يشفع بها إلّا أسعارها البخسة. وفاجأني وجود الكثير من الكتب الفرنسيّة بينها.

(1) من فصيلة العرسيّات، مثل ابن عرس لكنّه قصير الذيل.

(2) مذكورة بالألمانيّة في النصّ: Wolks-Kalender.

(3) روبرت بلوم Robert Blum (1807–1848): ثوريّ ألمانيّ، أُعدِمَ رمياً بالرصاص في 9 نوفمبر 1848 لأنّه دعم انتفاضة فيينا: «أموت من أجل حريّة ألمانيا التي ناضلت في سبيلها. ليتذكّرني الوطن».

(4) ج. كرويتسر Kreuzer: عملة معدنيّة نمساويّة قديمة تساوي ستّة سنتات.

ذلك أنّ فرانكفورت، وهي مدينة حرّة، شكّلت لوقتٍ طويل ملاذاً للبروتستانت. وعلى غرار المدن الرئيسيّة في هولندا، كانت لوقتٍ طويل مركز المطبوعات التي بدأت تنشر في أوروبا المؤلّفات الجريئة للمفكّرين والمستائين الفرنسيّين، والتي بقيت في بعض النواحي، مجرّد محترفاتٍ للانتحال الأدبيّ، وقد لن يكون من السهل التخلص منها.

يستحيل على باريسيّ أن يُقاوم رغبته في تصفّح مؤلّفات قديمة يبسطها بائع كتب. كان هذا القسم من سوق فرانكفورت الشعبيّ يذكّرني بأرصفة باريس. وتلك ذكرى تسحرني وتملؤني انفعالاً. اشتريت بعض الكتب القديمة، ما أعطاني الحقّ بأن أتصفّح طويلاً الكتب الأخرى. ووقعْت بينها على كتاب مطبوع نصفه بالفرنسيّة ونصفه بالألمانيّة، وهذا هو عنوانه الذي استطعت التأكّد منه في «دليل الكتبيّ» لبرونيه[1]:

«واحدة من أكثر المغامرات ندرَة، أو قصّة الأب الكونت دوبوكوا، وخصوصاً هروبه من سجنَي فورليفيك[2] والباستيل، مع عدّة أعمال شعريّة ونثريّة، وخصوصاً «إغواء النساء» الذي يُباع لدى جان دولافرانس، شارع لاريفورم، في ليسبيرانس، وفي بونفوا، 1749»[3].

---

(1) جاك شارل برونيه Jacques Charles Brunet (1780–1867)، مؤلف «دليل الكتبيّ وهاوي الكتب» *Manuel du libraire et de l'amateur de livres* الذي نُشر عام 1814 وصدرت منه طبعاتٌ عدّة. ونستخدم «الكتبيّ» هنا بمعنى صاحب المكتبة أو بائع الكتب.

(2) فورليفيك Fort-L'Evêque (حصن الأسقف) والباستيل Bastille: سجنان باريسيّان.

(3) العنوان الصحيح: «واحدة من أكثر المغامرات ندرَة أو قصّة السيّد الأب الكونت دوبوكوا وعلى وجهٍ أخصّ فراره من فورليفيك ومن الباستيل، ويقابله النصّ بالألمانيّة، طبعة ثانية منقّحة وأضيف إليها، العديد من أعماله شعراً ونثراً وخصوصاً «إغواء النساء» *La game des Femmes*، ومراكز البيع عند جان دولافرانشيز، شارع لاريفورم، في ليسبيرانس، وبونفوا 1719». يشير اسم الناشر وعنوانه الوهميّان بالطبع إلى الأصل البروتستانتيّ للكتاب والأرجح أنّه من تأليف مدام دونواييه Mme Du Noyer.

طلب منّي صاحب المكتبة مبلغاً قدره فلورين واحد[1] وستّة كرويتسرات. بدا لي السعر مرتفعاً بالنسبة إلى مكان البيع، واكتفيت بتصفّح الكتاب، وقد أُتيح لي ذلك مجّاناً نظراً لما سبق لي أن صرفته من نقود. كانت قصص فرار الأب دوبوكوا بالغة الأهميّة، لكنّي منّيت نفسي في نهاية المطاف قائلاً: سأجد هذا الكتاب في مكتبات باريس العامّة، أو ضمن آلاف المجموعات التي تشتمل على كلّ المذكّرات المتيسّرة المتعلّقة بتاريخ فرنسا. احتفظت فقط بالعنوان الصحيح ورحت أتنزّه على رصيف نهر الماين، وأنا أتصفّح «روزنامة الشعب».

لدى عودتي إلى باريس وجدت الأدب تحت رحمة إرهاب لا تحتمل. عقب تعديل ريانسي[2] للقانون المتعلّق بالصّحافة، حُظِرَ على الصحف أن تنشر ما طاب للمجلس الوطنيّ أن يدعوه «الرواية المسلسلة». رأيت العديد من الكتّاب المتحلّلين من كلّ صبغة سياسيّة وقد أصابهم اليأس من جرّاء هذا القانون الذي كان يصيبهم في أبواب رزقهم.

أنا نفسي الذي لم أكن روائيّاً، كنت أرتعد وأنا أفكّر في هذا الاجتهاد المبهم الذي يمكن إعطاؤه لهاتين الكلمتين المتزاوجتين بغرابة: الرواية المسلسلة. مبادراً لتزويدكَ بعنوانٍ على وجه السرعة، أشرت إلى «الأب دوبوكوا»، وأغلب الظنّ أنّني لن ألبث أن أجد في باريس الوثائق الضروريّة التي تتحدّث عن هذه الشخصيّة بطريقةٍ تاريخيّة وليس روائيّة؛

---

(1) فلورين: عملة أوروبيّة قديمة.

(2) نظراً للنجاح الذي لاقته الروايات المسلسلة المنشورة في الصحف آنذاك، أخذت أصابع الاتّهام تتجه إلى مثل هذا النوع الأدبي وعزت إليه نشر أفكار هدّامة وإثارة الانتفاضات الشعبيّة. وبهدف محاربة هذا النوع الأدبي الخطير، اعتُمد قانون ريانسي Riancey في يوليو 1850 ملزماً الصحف التي تنشر الروايات المسلسلة بدفع ضريبة عن كلّ عددٍ تصدره.

لأنّه يجب فعلاً التوافق على الكلمات.

تأكّدت من وجود الكتاب في فرنسا، ورأيتهُ مدرجاً ليس فقط في كتيّب برونيه[1]، بل أيضاً في «فرنسا الأدبيّة» لكيرار. كان يبدو واضحاً أنّ هذا العمل المصنّف على أنّه نادر، يمكن إيجاده بسهولةٍ إمّا في بعض المكتبات العامّة، وإمّا لدى بعض الهواة، أو لدى أصحاب مكتبات متخصّصة.

وفي الواقع، كنت قد تصفّحت الكتاب، لا بل عثرت على قصّة أخرى تروي مغامرات الأب دوبوكوا ضمن رسائل السيّدة دونواييه[2] المفعمة بالظرف والغرابة، لذا لم أكن أشعر بأيّ حرجٍ لعزمي على رسم شخصيّة الرجل وكتابة سيرته وفقاً لمعطياتٍ لا غبار عليها.

لكنّي بدأت أرتعب اليوم من العقوبات التي تهدّد الصحف عند أدنى إخلالٍ بنصّ القانون الجديد. كانت الغرامة خمسين فرنكاً لكلّ نسخةٍ مُصادَرَة، وهذا يدفع بأشدّ الناشرين شجاعة للتراجع لأنّه، بالنسبة للصّحف التي تطبع فقط خمساً وعشرين ألف نسخة -وهناك العديد منها-، إنّما يشكّل هذا مبلغاً يربو على المليون فرنك. يمكننا والحالة هذه أن نفهم كيف أنّ تأويلاً «مطّاطاً» للقانون قد يمنح السلطة وسائل لوأد أيّ معارضة في مهدها. ربّما كان نظام الرقابة أفضل بكثير. ففي كنف النظام

(1) برونيه Brunet (1780–1867)، وكيرار Quérard (1797–1865) مفهرِسان فرنسيّان.

(2) «قصّة الأب دوبوكوا» موجودة فعلاً في كتاب «الرسائل التاريخيّة والغراميّة بين سيّدتين نبيلتين»، من تأليف مدام دونواييه Madame Dunoyer التي اسمها في الأصل آن مارغريت بيتي Anne-Marguerite Petit (1663–1720)، في المجلّد الخامس من الطبعة التي نشرها بيار مارتو في كولونيا، وأيضاً في المجلد الثالث من «الطبعة الجديدة، المراجعة، والمصحّحة، والمزادة، والمرفقة بالصور»، التي نشرها بيار برونيل Pierre Brunel في أمستردام عام 1720. وبالإمكان قراءة ما يلي في المقدّمة: «أستطيع القول في هذا الصدد إنّني اتبعت في كتابة قصّة الأب دوبوكوا أسلوب الرسائل الغراميّة وعبقريّتها وهي محبّبة لدى الشعب. إنّهما سيّدتان تتكاتبان، الأولى في باريس والثانية في لاهاي، وتتبادلان ما تعرفانه من أمورٍ غريبة».

القديم، ومع موافقة الرقيب -الذي كان مسموحاً باختياره- كان الكتّاب واثقين من قدرتهم على عرض أفكارهم، وكانت الحريّة التي يتمتّعون بها مذهلة أحياناً. قرأت كتباً صدّق على توقيعها لويس وفيليبو[1]، وكانت ستُصادَر اليوم بلا نزاع.

جعلتني الصدفة أعيش في فيينّا في ظلّ نظام الرقابة. وإذ ألفيتُني منزعجاً بعض الشيء بسبب نفقات غير متوقّعة ترتّبت على إقامتي، وبسبب صعوبة الإتيان بالمال من فرنسا، لجأت والحالة هذه إلى الوسيلة الأسهل وهي الكتابة في الصحف المحليّة[2]. كانوا يدفعون مائة وخمسين فرنكاً على الصفحة التي تتضمّن ستة عشر عموداً وجيزة جدّاً. فأعطيت دفعتَين من المقالات التي توجّب إخضاعها للرقباء.

انتظرت بادئ الأمر عدّة أيّام. وحين لم يعيدوا لي شيئاً رأيتُني مرغماً على الذهاب لمقابلة السيّد بيلاط مدير هذه المؤسّسة، وقلت له إنّهم يجعلونني أنتظر طويلاً الإذن بالنشر. عاملني بتهذيبٍ قلّ نظيره، ولم يشأ، تمثّلاً بسَميّه[3]، أن يغسل يديه من الظلم الذي كنت أشتكي منه إليه. كنت، من جهة أخرى، محروماً من قراءة الصحف الفرنسيّة، فالمقاهي لم يكن

---

(1) لويس فيليبو Louis Phélypeaux، أو الكونت دوبونشارتران comte de Pontchartrain (1643–1727) الذي كان مستشار فرنسا من 1699 حتّى 1714 وكان بصفته هذه يعيّن الرقباء. أمّا كلمة لويس التي تسبق اسمه في النصّ فهي لا تعود لشهرته بل إلى الختم الملكي كما يشير إلى ذلك م. بريكس.

(2) نشر نرفال فعلاً مقالات في الصحيفة الألمانيّة *Die Allgemeine Theaterzeitung*.

(3) بالطبع، يقصد نرفال تماثُل اسم بيلاط (واسمه الكامل جوزف أنطون إدلر فون بيلاط، 1782–1865، سكرتير الأمير ميترينخ، أحد كبار رجال السياسة في أوروبا في القرن التاسع عشر) واسم بيلاطس البنطيّ الذي حاكمَ المسيح ويجسّد شخصيّة نرفاليّة في قصيدة: «المسيح في بستان الزيتون» في مجموعة نرفال الشعريّة «الأوهام» (انظر في آخِر هذا الكتاب).

يصلها إلّا صحيفتان: «لو جورنال ديه ديبا» و«لا كوتيديين»[1]. قال لي السيّد بيلاط: «أنت هنا في المكان الأكثر حريّة في الإمبراطوريّة (مكاتب الرقابة)، وبإمكانك المجيء هنا كلّ يوم لقراءة جريدتَي «لو ناسيونال» و«لو شاريفاري»[2].

ذاك تصرّف مرهف وشهم لا يمكن مصادفته إلّا لدى الموظّفين الحكوميّين الألمان، وليس فيه ما يبعث على الأسف إلّا أنّه يجعلك تحتمل التعسّف لوقتٍ أطول.

لم يسبق لي أن أسعفني مثل هذا الحظّ مع الرقابة الفرنسيّة -أقصد الرقابة على المسرح- وأظنّ أنّه إذا فُرِضَت الرقابة على الكتب والصحف فلن يكون في الأمر ما يرضينا. يبدو أنّه من سمات أمّتنا ذاك الميل الدائم لممارسة القوة لدى امتلاكها أو مقتضيات السّلطة لدى الاضطلاع بها.

كنت أتحدّث مؤخّراً عن معاناتي أمام أحد العلماء، ومن غير المُجدي الإشارة إليه بطريقة أخرى، اللهمّ إلّا إذا سمّيناه «مُحِبّ الكتب»[3]. قال لي: لا تستعن بكتاب «الرسائل الغراميّة لمدام دونوايبه إذا شئت أن تكتب قصّة الأب دوبوكوا لأنّ عنوان الكتاب وحدَه سيحول دون حمله على محمل الجدّ. انتظر حتّى تفتح المكتبة العامّة أبوابها مجدّداً (كانت آنذاك في عطلة)، وستجد بالتأكيد الكتاب الذي قرأته في فرانكفورت.

لم أنتبه آنئذٍ للابتسامة الماكرة التي ارتسمت على شفتي هاوي الكتب،

---

(1) *Le Journal des Débats*: «جريدة السجالات»، *La Quotidienne*: «الجريدة اليوميّة».

(2) كانت صحيفتا «لو ناسيونال» *Le National* و«لو شاريفاري» *Le Charivari* تنتميان إلى المعارضة بخلاف صحيفتَي *Le Journal des Dédats* و*La Quotidienne*،.

(3) ويقصد نرفال هاوي جمع الكتب بول لاكروا Paul Lacroix (1806–1884) الذي عُرف باسمه المستعار «جاكوب محبّ الكتب» Bibliophile Jacob، وكان أمين مكتبة الأرسنال.

وفي الأوّل من أكتوبر كنت أوّل الزائرين للمكتبة الوطنيّة.

السيّد بيلون[1] رجل واسع المعرفة وشديد اللطف. أمر الموظّفين بإجراء أبحاث لم تسفر، بعد انقضاء نصف ساعة، عن أيّ نتيجة. تصفّح دليلَي برونيه وكيرار، ووجد فيهما الكتاب المنشود، وطلب منّي أن أعود بعد ثلاثة أيّام. لكن، لم يجدوا له أثراً. قال لي السيّد بيلون بتهذيبه وصبره المعهودين إنّه ربّما كان مدْرَجاً مع الروايات.

فاضطربتُ قائلاً: «مع الروايات؟... لكنّه كتاب تاريخيّ! يُفترَض أن يوجد ضمن مجموعة المذكّرات المتعلّقة بعهد لويس الرابع عشر، ثمّ إنّه مرتبط بتاريخ سجن الباستيل، ويتطرّق إلى تفاصيل عن تمرّد الكالفنيّين[2] ونفي البروتستانت، وأيضاً عن عصبة مهرّبي الملح الشهيرة في اللّورين التي استعان بها ماندران[3] لاحقاً لاستنهاض مجموعات نظاميّة كانت قادرةً على الوقوف في وجه فيالق الجنود والإغارة على مدن مثل بوم وديجون!..».

قال لي السيّد بيلون:

- أعرف ذلك، لكنّ تصنيف الكتب الذي أجريَ في عهود مختلفة غالباً ما تشوبه الأخطاء. ولا يمكننا ملاحظتها إلّا عندما يسأل الجمهور

---

(1) ألكساندر بيّون Alexande Pillon (1792–1876) أمين مساعد في المكتبة الوطنية (التي أصبحت امكتبة الامبراطوريّة) منذ 1848 ولُقّب بـ«دليل المكتبات المتجسّد» Le catalogue incarné.

(2) نسبة إلى جان كالفان Jean Calvin (1509–1564) مصلح فرنسيّ نشر في فرنسا وسويسرا مذهباً حمل اسمه. أنشأ في جنيف حكومة تيوقراطيّة واشتهر بكتابه «أسُس المسيحيّة». والكالفينيّون المقاتلون هم أتباع المذهب البروتستانتيّ الذين حاربوا جيوش لويس الرابع عشر.

(3) لويس ماندران Louis Mandrin (1725–1755): بطل شعبيّ وأحد أشهر قطّاع الطرق في فرنسا خلال العهد الملكيّ وقبيل اندلاع الثورة.

عن المؤلّفات. ليس لديك هنا إلّا السيّد رافينيل[1] لإخراجك من الورطة. لكنّه للأسف، لا يعمل هذا الأسبوع.

انتظرت الأسبوع الذي يعود فيه السيّد رافينيل إلى المكتبة. لحسن الحظّ، صادفْتُ يوم الاثنين، في قاعة القراءة، شخصاً كان يعرفه وعرَض عليّ أن يعرّفني إليه. استقبلني السيّد رافينيل بكثيرٍ منَ التّهذيب وقال لي: «سيّدي أنا ممتنّ للصدفة التي أتاحت لي التعرّف إليك، وأرجو فقط أن تمهلَني بضعة أيّام. هذا الأسبوع عليّ الاهتمام بالزبائن. في الأسبوع المقبل، سأتفرّغ كلّياً لخدمتك».

وبما أنّه تمّ تعريفي بالسيّد رافينيل، لم أعد في عِداد الزبائن! صرت صديقاً والصديق يُحتفي به، ولا تقتصر معاملته على الخدمة المعهودة.

على أيّة حال، خُدِمتُ على أكمل وجهٍ. ولكن لكم أن تقدّروا مدى سوء حظّي!... وليس سوء الحظّ وحده ما أشتكي منه.

غالباً ما يُحكى عن عيوب المكتبة الوطنيّة ومردّ بعضها إلى النقص في عدد الموظّفين، وبعضها الآخر استمرار العادات القديمة. إنّ قسطاً كبيراً من الوقت والجهد الذي يبذله الخبراء المميّزون في سبيل القيام بمهمّات كتبيّة قلّما تدرّ أرباحاً يُنفق، والحقّ يُقال، على تزويد ستّمائة قارئ يأتون يوميّاً، بكتبٍ مألوفة يمكن إيجادها في جميع قاعات المطالعة. الأمر الذي يسيء إلى القرّاء كما إلى الناشرين والكتّاب على حدٍّ سواء، ويُصبح غير مجدٍ بالتالي شراء الكتب أو استئجارها.

وقيل أيضاً، وعن حقّ، إنّ مؤسّسة فريدة في العالم كالمكتبة الوطنيّة

---

(1) جول أميديه ديزيريه رافينيل Jules Amédée Désiré Ravenel (1801–1885) كان أميناً مساعداً في قسم المطبوعات.

لا يجدر بها أن تكون غرفة تدفئة أو ملجأ للمحتاجين، وزوّارها هم في غالبيّتهم ممّن يمثّلون خطراً على وجود الكتاب والحفاظ عليه. ذاك العدد مِنَ المتبطّلين المبتذلين، ومن البرجوازيين المتوحّدين، والرجال الأرامل، والطلّاب الذين لا مأوى لهم، والتلاميذ الذين يأتون لنسْخ فروضهم المدرسيّة، والشيوخ الممسوسين، مثل ذاك المسكين كارنافال[1] الذي كان يأتي كلّ يوم معتمراً قبّعةً مزيّنةً بالأزهار، ومرتدياً لباساً أحمر، أو أزرق فاتحاً، أو أخضَرَ تفّاحيّاً، ويستحقّ دون شكٍّ أن يولى اهتماماً... ولكن ألا يوجد مكتبات أخرى، أو حتّى مكتبات خاصّة بإمكانها أن تفتح أبوابها لهم؟...

كان هناك في قسم المطبوعات تسع عشرة طبعة لكتاب «دون كيخوته»، لا واحدة منها بقيت مكتملة. وهنالك أيضا كتب الرحلات والمسرحيّات الهزليّة، والقصص المسليّة كقصص السيّد تير والسيّد كابفيغ[2]، ودليل العناوين، وما شابه، وهي ما يطلبها هذا الجمهور باستمرار، منذ أقلعت المكتبات عن تقديم رواياتٍ للقراءة.

ثمّ، من حينٍ لآخر، تنقص طبعة، ويختفي كتاب نادر، وهذا بسبب نظام المكتبة المتساهل الذي لا يطالب حتّى بأسماء القرّاء.

---

(1) شخصيّة حقيقيّة جاءت من نابولي إلى فرنسا عام 1826 وقد ذكرها الأديب شانفلوري Champfleury (1821– 1889) في مقالة في جريدة «لارتيست» *L'Artiste* (عدد 11 أكتوبر 1846)، واستعادها في كتابه «غريبو الأطوار» *Les Exentriques* (1852)، وقد نوّه في إحدى ملاحظاته قائلاً: «في فرنسا يسمّونه كرنافال ولكنّ اسمه الحقيقيّ هو كارنافالي Carnavale».

(2) أدولف تير Adolphe Thiers (1797–1877): مؤرّخ الثورة الفرنسيّة وعهدَي القنصليّة والإمبراطوريّة. جان باتيست كابفيغ Jean-Baptiste Capefigue (1801–1872): هاوٍ كبير لجمع الأرشيفات ولكنّه كمؤرّخ قلّما يتحلّى بالدقّة. والاثنان ليسا مؤرّخين جديرين بالاهتمام.

يليق بجمهوريّة الآداب وحدها أن تحاط بهالة من الأرستقراطيّة، علماً أنّه لا أحد سيعترض على جمهوريّة العلم والموهبة.

لم تكن مكتبة الاسكندريّة الشهيرة تفتح أبوابها إلّا للعلماء والشعراء الذين كانت مؤلّفاتهم على قدرٍ من الأهميّة. لكنّ حسن الضيافة كان مراعى فيها أيضاً، وكان المأوى والطّعام يُقدّمان مجّاناً للزوّار الآتين لاستشارة الكتّاب، وطيلة الوقت الذي تستغرقه مدّة إقامتهم.

وفي هذا الصدد، اسمحوا لرحّالة وطأت قدماه أنقاضها وساءل ذكرياتها، أن ينزّه ذكرى الخليفة الشهير عمر ويبرّئه من تلك التهمة الأبديّة التي نُسبت إليه بحرق مكتبة الاسكندريّة. بالرّغم ممّا يدّعيه عددٌ من الأكاديميّين، لم يطأ عمر بن الخطّاب أرض الاسكندريّة، ولم يوعز إلى قائده عمرو بن العاص في هذا الأمر. المسيحيّون هم الذين أحرقوا ودمّروا مكتبة الاسكندريّة و«السيرابيوم» أو منزل الإغاثة الذي كان ملحقاً بها في القرن الرابع، وقتلوا بالإضافة إلى ذلك هيباتيا، الفيلسوفة الفيتاغوريّة الشهيرة، في الشوارع. تلك ولا شكّ معاصٍ لا يمكن عزوها للدّين، ولكن منَ الجيّد أن نبرّئ هؤلاء العرب المساكين من تهمة الجهل. وإلى ترجماتهم التي حَفظت لنا روائع الفلسفة والطبّ والعلوم الإغريقيّة، فإنّ مؤلّفاتهم أيضاً كانت تبدّد بإشعاعاتها المتوثّبة الضباب الصفيق للعهود الإقطاعيّة.

اعذروني على هذه الاستطرادات. سأطلعكم على مجريات الرحلة التي شرعت بالقيام بها بحثاً عن الأب دوبوكوا، فهذه الشخصيّة الغريبة الأطوار والهاربة باستمرار لا يمكنها أن تفلت إلى الأبد من قبضة مستقصٍ دؤوب.

الرسالة الثانية

عالِم بالمخطوطات القديمة[1]- تقارير الشرطة لعام 1709- قضيّة لوبيلور- مأساة منزليّة.

لا شكّ أنّ الكياسة بأبهى تجلّياتها تسود أرجاء المكتبة الوطنيّة. ليس لأيّ عالِم جادّ أن يشتكي منَ التنظيم الحاليّ. ولكن، حين يأتي كاتب روايات مسلسلة، أو روائيّ، إلى المكتبة فإنّ «الرفوف بكلّ ما فيها تهتزّ»[2].

إنّ المفهرس أو مَن يُعنى بالعلم الدقيق يعرفان بالضبط ما يريدانه. أمّا الكاتب المنصاع لنزواته والراغب في إتمام رواية مسلسلة فهو يخرّب كلّ نظام ويزعج الجميع إرضاءً لفكرة غريبة خطرت له[3].

وهنا بالذات يجب تقدير الصبر الذي يتحلّى به أمين المكتبة. إنّ الموظّف الثانويّ غالباً ما يكون من الفتوّة بحيث لا يسعه الامتثال لهذا النكران الأبويّ للذات. وأحياناً يأتي أناس غلاظ من أولئك الذين يبالغون في تقدير الحقوق التي يتمتّعون بها بمجرّد أنّهم من «روّاد المكتبة»، ويتحدّثون إلى أمين المكتبة بنبرة من يأمر خادماً في مقهى. بيْدَ أنّ العالِم الشهير، أو الأكاديميّ سيردّ على هؤلاء بخشوع راهب. وسيتحمّل كلّ سَماجتهم من الساعة العاشرة وحتّى السّاعة الثانية والنصف، ضمناً.

---

(1) باليوغرافيّ Paléographe.

(2) نرفال يحوّر هنا جملة مقتبسة من مسرحيّة الأديب الفرنسيّ فيكتور هوغو Victor Hugo «أنجلو طاغية بادوفا» *Angelo tyran de Padoue* في المشهد الأوّل من الفصل الأوّل: «حين تمرّ في شارع يا سيّدي فإنّ النوافذ تغلَق والمارّة يحتجبون وكلّ ما في البيوت يهتزّ».

(3) هذا التشويش لترتيب الكتب هو أيضاً شكل من أشكال الاضطراب العقليّ (الضروريّ والمحتفى به) في مواجهة العقول الممعِنة في رصانتها واحترامها للعلوم الدقيقة. الكاتب المنصاع لخياله وأوهامه ينتسب، من ناحيته، للعلم المتفلّت من القواعد.

وإذ أشفق العاملون في المكتبة على الحيرة التي أتخبّط فيها، تصفّحوا القوائم، وفتّشوا حتّى في المستودع، وفي الرزم المشوّشة للروايات التي قد تحتوي على الأب بوكوا عن طريق الخطأ. وفجأةً هتف أحد الموظّفين قائلاً:

- لدينا نسخة بالهولنديّة! ثمّ قرأ لي هذا العنوان: «جاك دوبوكوا: مغامرات شيّقة..».

فأوضحت قائلاً:

- اعذرني، الكتاب الذي أبحث عنه يبدأ بـ «مغامرة من أندر المغامرات..».

- لنلقِ نظرةً أخرى. ربّما هنالك خطأ في الترجمة: «... ستّ عشرة سنة في الهند، رحلة حافلة بالمغامرات، هارلم 1744».

- إنّه كتاب آخر... ومع ذلك فإنّه يعود إلى الفترة التي عاش فيها الأب دوبوكوا. والاسم الأوّل جاك هو اسمه بلا شكّ. ولكن ماذا تراه يفعل في الهند ذاك الأب العجيب؟

ثمّ أتى موظّف آخر وقال إنّ هنالك خطأ في كتابة الاسم: ليس دوبوكوا Du Bucqoy بل De Bucquoy. أو من الجائز أن يكون قد كُتِبَ دوبوكوا Dubucquoy، لذا يجب معاودة البحث وفقاً للحرف «د».

ألا لعن الله سوابق أسماء النّبالة![1] قلت إنّ اسم دوبوكوا قد يكون عائداً لرجلٍ عاديّ... لكنّ عنوان الكتاب يذكره بصفته الكونت دوبوكوا!

كان هنالك عالم بالمخطوطات القديمة يعمل على الطاولة المجاورة. رفع رأسه وقال لي: «إنّ سابقة أسماء العائلات لم تكن قطّ دليلَ نبالةٍ. بل

---

(1) يقصد السابقة اللغويّة التي كانت تضاف إلى أسماء النبلاء في أوروبا، ولا تزال بعض الأُسَر تحملها إلى الآن. هي في الفرنسيّة:de، وهي قريبة إلى حدّ ما من «آل» في العربيّة (المُراجِع).

كانت بخلاف ذلك تشير في أغلب الأحيان إلى البرجوازيّة المالكة التي بدأت بهؤلاء الذين يُدعَون الناس «المتحرّرين من كلّ حقّ ارتفاق[1]». وكان يشار إليهم بأسماء أراضيهم، ويُعمَدُ إلى تمييز الفروع المختلفة عبر لاحقات الانتهاء المتنوّعة لأسماء الأُسَر. إنّ العائلات التاريخيّة الكبيرة تدعى بوشار Bouchard (من منطقة مونمورنسي Montmorency) بوزون Bozon (من البيريغور Périgord)، بوبوال Beaupoil (من سانت أولير Saint-Aulaire) كابيه Capet (من بوربون Bourbon)[2]، إلخ... أمّا سوابق الأسماء: من قبيل de أو du فهي مليئة بالمغالطات والانتحالات. لا بل وأكثر: في كافة مقاطعات فلاندر وبلجيكا «دو» هي نفسها أداة تعريف مثل «دير» der الألمانيّة. وهكذا فإنّ «دومولير» de Muller تعني «الطحّان»، إلخ... ما يجعل ربع فرنسا مليئاً بالنبلاء المزيّفين.

وهزئ بيرنجيه نفسه أيّما هزء من السّابقة «دو» التي تسبق اسمه وتشير إلى أصله الفلمنديّ.

ليس بالإمكان مجادلة عالم بالنصوص القديمة بل يُترَكُ له الكلام.

ومع ذلك فإنّ تفحّص الحرف «د» في مختلف الفهارس لم يؤدّ إلى أيّ نتيجة.

قلت لموظّف المكتبة المهذّب الذي كان أتى آخر الأمر:

– وعلى هذا، فإنّك تفترض أنّ الاسم هو دوبوكوا du Bucquoy.

– بحثت لِتوّي عن هذا الاسم في المخطوطات العائدة إلى أرشيفات الشرطة لعام 1709... هذه هي الحقبة أليس كذلك؟

– دون شكّ. إنّها حقبة الفرار الثالث للكونت دوبوكوا.

(1) حقّ الارتفاق: حقّ مالك العقار في المرور إلى عقاره والخروج منه عبر أراضي الغير.

(2) الأسماء الموضوعة بين هلالين تعود للألقاب الأخرى لهذه العائلات.

- دوبوكوا du Bucquoy!... هكذا هو مذكور في فهرس المخطوطات.

اصعد معي، وسوف تطّلع على الكتاب بنفسك.

ثمّ ألفيتُني مطلق اليد في تصفّح كتابٍ نصفيّ ضخمٍ مغلّف بسختيان أحمر، ومشتملٍ على ملفّاتٍ عديدة من تقارير الشرطة العائدة إلى العام 1709[1].

المخطوطة الثانية في المجلّد تحمل هذه الأسماء:»لو بيلور، فرنسوا بوشار، السيّدة دوبولانفيليه، جانّ ماسيه، والكونت دوبوكوا du Buquoy.

كنّا إذن نسير على الدّرب الصحيح. لأنّ المخطوطة تتحدّث عن فرارٍ من سجن الباستيل. وهاك ما يكتبه السيّد دارجنسون[2] في تقريررفعه للسيّد دوبونشارتران[3]:

«أواصل التفتيش عن الكونت «المزعوم» دوبوكوا في كلّ الأماكن التي عيّنتها لي، ولكن دون جدوى، ولا إخاله في باريس».

في هذه الأسطر القليلة ثمّة ما يطمئن وما يبعث على الخيبة في آنٍ بالنسبة إليّ. الكونت دوبوكوا الذي لم أكن أملك عنه إلّا معطيات غامضة أو قابلة للجدل، يتّخذ بفضل هذا الكتيّب، وجوداً تاريخيّاً أكيداً. لم يعد

---

(1) تقرير الشرطة هذا محفوظ في مكتبة فرنسا الوطنيّة. ولائحة القضايا التي يتضمّنها تتعلّق بالأشخاص التالية أسماؤهم: «لوبيور Lepilleur، كلود فرنسوا Cl. François، بوشار Bouchard، السيّدة دوبوتونفيليه Dame de Boutonvilliers (وليس السيّدة دوبولانفيليه كما ذكر نرفال)، جانّ ماس Jeanne Masse (وليس ماسيه Massé)، والكونت دوبوكوا.

(2) مارك رينيه دوفوايه دارجنسون Marc-René de Voyer d'Argenson (1652–1721) ضابط في شرطة باريس في الفترة الممتدّة من1697 حتّى 1718، تاريخ تعيينه وزيراً للعدل.

(3) جيروم فيليبو Jérôme Phélypeaux، أو الكونت دوبونشارتران (1674–1747) ابن لويس فيليبو (المشار إليه سابقاً) وزير الديوان الملكيّ من 1699 حتّى وفاة لويس الرابع عشر (1715).

لأيّ محكمة الحقّ في تصنيفه بين أبطال الرواية المسلسلة.

من جهةٍ أخرى لماذا يصف السيد دارجنسون الكونت دوبوكوا بـ «المزعوم»[1]؟

أوَ يكون بوكوا مزيّفاً انتحل صفة الآخر لغاية يصعب اليوم تحديدها؟

أو يكون نفسه وقد انتحل اسماً مستعاراً؟

بما أنّه الدليل الوحيد بين يديّ فالحقيقة تفلت منّي، وما من مستشار قانونيّ لا يملك أسباباً وجيهةً لكي ينكر الوجود الماديّ نفسه للفرد!

بمَ يمكن الردّ على قاضٍ يهتف أمام المحكمة قائلاً: «الكونت دوبوكوا شخصيّة وهميّة ابتدعها خيال الكاتب القصصيّ!...»، ثمّ يطالب بتطبيق القانون، أي بدفع مليون فرنكٍ على سبيل الغرامة؟ وهذا المبلغ سيصبح أضعاف ما كان عليه نظراً للأعداد المصادرة يوميّاً أوالمتروكة لتتراكم!

لا يمكن لكاتبٍ ادّعاء صفة العالِم، لكنّه يُلفي نفسه أحياناً مرغماً على استخدام المنهج العلميّ. فشرعت بتَفحّص الكتابة المصفرّة على الورق الفاخر للتقرير الذي وقّعه دارجنسون. حين وصلت إلى هذا السطر: «أتابع التفتيش عن الكونت المزعوم...» رأيت على الهامش بضع كلمات مكتوبة بالقلم على عجلٍ وبحزم: «ليس بإمكاننا فعل الكثير»، ماذا يقصد؟ ربّما البحث عن الأب دوبوكوا...

كان هذا رأيي أيضاً.

إلّا أنّه لكي نصل إلى اليقين في مادّة الخطوط، يجب المقارنة. هذه الملاحظة تتكرّر على صفحة أخرى بخصوص الأسطر التالية للتقرير نفسه:

(1) قبل أن يصبح دارجنسون ضابطاً في الشرطة، كان نائباً عامّاً للجنة البحث عن منتحلي ألقاب النبالة. لا يخرج دوبوكوا إذن من التزييف الأدبيّ (فهو ليس بطلاً في رواية بل شخصيّة تاريخيّة) إلّا ليدخل في التزييف السّلاليّ (ألقاب النبالة).

«وضعت الفوانيس تحت ممرّات اللوفر وفقاً لرغبتك، وسأحرص على أن تُضاء كلّ مساء».

كانت الجملة تنتهي هكذا بخطّ السكرتير الذي نسَخ التقرير. يد أخرى أقلّ خبرةً أضافت إلى «تضاء كلّ مساء» هذه العبارة: «بدقّة تامّة».

على الهامش هذه الكلمات بخطّ الوزير بونشارتران ولا شكّ: «ليس بإمكاننا فعل الكثير».

الملاحظة نفسها بشأن الأب دوبوكوا.

ومع ذلك، من المحتمل أنّ السيّد بونشارتران كان ينوّع في عباراته. هاكم شيئاً آخر:

«أبلغت الباعة في معرض سان جرمان أنّه عليهم أن يمتثلوا لأوامر الملك التي تَحظِر تقديم الطعام زمن الصوم، وِفقاً لقوانين الكنيسة».

هناك في الهامش فقط هذه الكلمة المكتوبة بالقلم: «حسناً».

في موضع آخر يتعلّق الأمر بـ «رجلٍ ما»، اعتُقِلَ لأنّه قتل راهبَة من إفرو. ضُبط معه فنجان وختم من الفضّة وملابس داخليّة مدمّاة وقفّاز. وصادفَ أنّ هذا الرجل كاهن (هو أيضاً!)، لكنّ التُّهم تلاشت، وفقاً للسيّد دارجنسون، الذي يقول إنّ هذا الأب جاء إلى فرساي بحثاً عن عملٍ ولم يُكتَب له النجاح فيه لأنّه لا يزال في عوز دائم. ثمّ يُضيف قائلاً: «وهكذا، أظنّ أنّه يمكن اعتباره حالماً تجدر إعادته إلى بلدته في الريف بدلاً من إبقائه في باريس لأنّه لن يكون إلّا عالَة على الشعب».

وكتب الوزير بخط القلم: «فليكلّمه بداية». كلمات رهيبة ربّما غيّرت منحى قضيّة الكاهن المسكين.

وماذا لو كان الأب دوبوكوا نفسه! ليس هنالك اسم، فقط العبارة

«رجلٌ ما»[1]. وفي مكانٍ آخر، يتعلّق الأمر بالمدعوّة لوبو، زوجة المدعوّ كاردينال، المعروفة بأنّها مومس... والسيّد باسكييه المهتمّ لأمرها[2]...

ورد في الهامش بخطّ القلم ما يلي: «إلى الإصلاحيّة إذَن. لمدّة ستّة أشهر».

لا أعرف ما إذا كان الجميع سيهتمّ مثلي بتصفّح هذه الصفحات الرهيبة المعنونة: «وثائق أمنيّة مختلفة». هذا العدد الصغير من الوقائع يحدّد الفترة التاريخيّة التي شهدت حياة الأب دوبوكوا الخاطفة. وأنا الذي عرفت ذاك الأب التعس، ربّما أفضل ممّا سيتسنّى لقرّائي أن يعرفوه، ارتعدْتُ وأنا أقلّب صفحات التقارير المرعبة التي مرّت تحت يدَي هذين الرجلين: دارجنسون وبونشارتران[3].

ثمّة موضع كتب فيه الأوّل، بعد بضع عبارات تشي بإخلاصه لسيّده: «ربّما سأعرف كيف أتلقّى الملامات والتوبيخات التي سيروقك توجيهها إليّ..».

ويُجيب الوزير، مستخدماً ضمير الغائب، مستعملاً ريشة هذه المرّة: «ليس الأمر عائداً له، وسيغضبني فعلاً أن أشكّ في إخلاصه، أنا الذي لا أستطيع الشكّ بكفاءته».

---

(1) لكنّ هذا الرجل الغفل له اسم واضح في محضر الشرطة: «كلود فرانسوا»، وهو شمّاس وليس كاهناً.

(2) هذه الجملة المجتزأة قد تثير التباساً فالسيّد باسكييه Pasquier مهتمّ لأمر السيّدة لوبو Lebeau لأنّها كنّته ويريد مساعدتها.

(3) في تلك الأيّام، كان اسم بونشارتران Pontchartrain يتوافق مع ما يلي:
إنه جسر «Pont» من الألواح المتعفّنة
عربة «Char» تجرّها آلهة الغضب.
والشيطان الذي يقود القافلة «train».

تبقى وثيقة في هذا الملف «قضيّة لوبيلور»... مشهد مرعب دارَ أمام ناظري.

لم يكن فصلاً في «رواية».

حادثة عائليّة: قضيّة لوبيلور.

إنّها إحدى تلك المشادّات العائليّة الرهيبة التي تحدث أمام سرير الميت، ذاك المشهد الذي كان يؤدّى بإتقانٍ فيما مضى في مسرحيّات الجادّة[1]، حيث الوارث، وقد خلع قناع الرياء والحزن المصطنع، ينهض باعتزازٍ ويقول لأهل البيت: «أين مفاتيح الخزنة؟».

هنا في هذه القضيّة لدينا وارثان بعد وفاة بينيه دوفيلييه: شقيقة بينيه دوباس ميزون، وهو موصى له بكلّ المال، وصهره لوبيلور.

كان وكيلان قانونيّان، وكيل المتوفّى ووكيل لوبيلور، ينكبّان على حصر الإرث، يعاونهما في ذلك موثّق عام وكاتب عدل. اشتكى لوبيلور من أنّه لم يعمد إلى إرفاق عدد معيّن من الأوراق التي وصفها بينيه دوباس ميزون بأنّها قليلة الأهميّة، ثمّ قال لصهره لوبيلور إنّه لا يجدر به أن يثير المشاكل وإنّ بإمكانه الركون إلى ما يقوله شاتلان، وكيله القانونيّ.

لكنّ لوبيلور أجابه أنْ لا حاجة به إلى استشارة وكيله وإنّه كان يعرف ماذا يتوجّب عليه فعله، وإنّه إذا كان يثير المشاكل فإنّه سيّد عظيم، أعظم من أن يهون أمامها.

اقترب باس ميزون، وقد أغاظه هذا الخطاب، من لوبيلور وقال له، وهو يمسكه من عُروتي أعلى دثاره المخصّر، إنّه سيمنعه عن فعل ذلك.

---

(1) مسرحيّات هزليّة وشعبيّة أصلاً كانت تعرض في الجادّات.

فاستلّ لوبيلور سيفه وحذا باس ميزون حذوه. وتواجها بالسيف دون أن يقتربا كثيراً أحدهما من الآخر... ارتمت زوجة لوبيلور لتفصل بين زوجها ووالدها[1]. فتدخّل الحاضرون واستطاعوا تفريقهما، واقتيد كلّ منهما إلى غرفةٍ منفصلة وحُبس داخلها.

بعد قليل، سُمع انفتاح إحدى النوافذ. كان لوبيلور يطلب من مناصريه الذين ظلّوا في الباحة «الذهاب والإتيان بابنَي شقيقه».

بدأ رجال القانون بإعداد محضر رسميّ بشأن البلبلة الناشئة، وإذا بابنَي الأخ، وهما ضابطان في الديوان الملكيّ، يدخلان والسيف في يدهما. أبعدا الخدم وشهرا سيفيْهما بوجه الوكيلين والموثّق الرسميّ مستفسرَين عن مكان باس ميزون.

ولّما رفضوا الإفصاح عن مكانه، صاح لوبيلور من غرفته قائلاً: «أنجداني يا ابنَي أخي».

كان ابنا الأخ قد اقتحما باب الغرفة في الجانب الأيسر، وانهالا بالضّرب بعرض السيف على بينيه دوباس ميزون التعس الذي كان، بحسب التقرير، «مصاباً بالرّبو».

ظنّ الموثّق الرسميّ، وكان يُدعى ديونيس، أنّ غضب لوبيلور سيهدأ والحالة هذه، وأنّه سيردع ابنَي أخيه ففتح له الباب وأخذ يؤنّبه. ما إن أصبح لوبيلور خارج الغرفة حتّى هتف قائلاً: «سترون ما يسرّكم». وإذ صار بمحاذاة ابنَي أخيه اللذين كانا يواصلان ضرب باس ميزون، غرز سيفه في بطنه.

كانت الوثيقة التي تسرد هذه الوقائع متبوعة بأخرى أكثر تفصيلاً

---

(1) هو في الحقيقة شقيقها.

ومرفقة بإفادات ثلاثة عشر شاهداً، والأكثر تميّزاً فيها إفادتا الوكيلَين والموثّق الرسميّ.

منَ الصائب القول إنّ هؤلاء الشّهود الثلاثة عشر قد انسحبوا في اللحظة الحاسمة. وهكذا فإنّ أحداً لم يُفد أنّه واثق تماماً من أنّ لوبيلور هوَ من وجّه ضربة السيف.

أفاد الوكيل الأوّل أنّه كان متأكّداً فقط من أنّه سمع من بعيدٍ الضربات بعرض السيف.

والثاني ردّد ما قاله زميله.

وكان خادم يُدعى باري أكثر جرأة فقال إنّه رأى الجريمة من بعيدٍ عبر النافذة، لكنّه لم يكن متأكّداً ما إذا كان لوبيلور هو الذي غرز السيف في بطن باس ميزون أم رجل يرتدي زيّاً رماديّاً فاتحاً. وأدلى لويس كالو، خادم آخر، بالإفادة نفسها تقريباً.

والأخير في هؤلاء الشهود الثلاثة عشر الشّجعان، وهو الأقلّ اعتباراً، الكاتب العدل، الذي قال إنّه رأى زوجة لوبيلور تستولي على العديد من الأوراق الخاصّة بالمتوفّى. وأضاف أنّه، بعد الحادثة، جاء لوبيلور بكلّ هدوء للبحث عن زوجته في القاعة حيث كانت «وذهب في عربة بصحبتها والرجلين اللّذين قاما بالاعتداء».

كان هذا المحضر القضائيّ سيفتقر إلى العبرة الأخلاقية المتعلّقة بعادات ذاك الزمن، لو أنّا لم نقرأ في نهاية التقرير هذه الخاتمة الجديرة بالذكر: «هذه الحادثة مثال نادر على العنف الإجراميّ المشؤوم... ولكنْ، وبما أنّ ورثة الشقيقَين الرّاحلينَ هم أيضاً أنسباء القاتل، يخشى بحقٍّ أن تبقى هذه الجريمة دون عقاب وألّا ينتج عنها أيّ أثر سوى جعْل السيد لوبيلور،

ربّما، أكثر إذعاناً بشأن اقتراحات التراضي التي ستقدّم له من ناحية شركائه في الميراث لما فيه مصالحهما المشتركة».

قيل إنّه في القرن السابع عشر، كان أصغر موظّف يكتب بالبلاغة نفسها التي تميّز بها بوسويه[1]. يستحيل عدم الإعجاب بهذا التجرّد الجميل للتقرير الذي يأمل أن يصبح المجرم أكثر مرونة، وذلك مراعاةً لمصالحه... أمّا الجريمة، والاستيلاء على السندات، والضربات التي ربّما وجّهت للمتشرّعين، فلن تلقى العقاب لأنّه لا أحد سيرفع دعوى، لا الأهل ولا الآخرون. ثمّ إنّ «السيّد لوبيلور كان أعظم من أن يهون أمام التحدّيات».

هنا تنتهي هذه القصّة التي أنستني لوَهلةٍ الأب دوبوكوا المسكين؛ ولكنْ، ونظراً لغياب المحسّنات السرديّة، يمكننا على الأقلّ تخيّل أطياف تاريخيّة في خلفيّة اللوحة. كلّ شيء بالنسبة لي يحيا ويتشكّل من جديد: أرى دارجنسون في مكتبه، وبونشارتران في ديوانه، كما وصفه سان سيمون[2]، بونشارتران الذي جعل نفسه هزأة وهو يرفع من شأنه بأن يُسمّي نفسه «دو» بونشارتران، والذي كان، أسوة بالكثيرين من أمثاله، يستعيض عن التفاهة بالإرهاب.

ولكن ما جدوى هذه التمهيدات؟ هل سيتاح لي أن أعرض الوقائع على طريقة فرواسار أو مونسترليه[3]. ربّ قائلٍ يقول إنّها طريقة والتر

---

(1) بوسويه Bossuet (1627–1704) أسقف ومؤرّخ ومفكّر سياسيّ فرنسيّ، اشتهر بأسلوبه الرفيع ومواعظه.

(2) الدوق دوسان سيمون Le duc de Saint-Simon (1675–1755) أديب فرنسيّ قضى القسم الأكبر من حياته في بلاط فرساي وترك «مذكّرات» *Mémoires* قيّمة صوّر فيها رجال البلاط وأخلاق معاصريه.

(3) جان فرواسار Jean Froissart (1338–1401) وأنغرّان مونسترليه Enguerrand de Monstrelet هما مدوّنا وقائع. وحوليّات الثاني تبدأ بانتهاء حوليّات الأوّل عام 1400.

سكوت[1]، وهو روائيّ، وأخشى ألّا يتوجّب عليّ أن يقتصر مسعاي على تحليلٍ مجرّد وبسيط لقصّة الأب دوبوكوا عندما سأجدها.

الرسالة الثالثة

أمين مكتبة مازارين - فأرة أثينا - الجرس المسحور.

كان لديّ أمل بنجاح مسعاي لأنّ السيّد رافينيل سيهتمّ بالأمر. إنّها مجرّد ثمانية أيّام عليّ انتظارها. وفي الواقع، كان يمكنني في هذه المهلة الزمنيّة إيجاد الكتاب في مكتبة عامّة أخرى.

لسوء الحظ كانت المكتبات العامّة مقفلة جميعاً، ما عدا مكتبة مازارين. فذهبت لأعكّر سكون تلك الأروقة البديعة والباردة. كان يوجد فيها فهرس وافٍ قادرٍ على أن يحسم في عشر دقائق كلّ مسألة إيجاباً أو نفياً، ويمكننا الاطّلاع عليه بأنفسنا. والفتيان العاملون هناك هم أنفسهم من الثقافة والعلم بحيث لا يضطرّ الزائر إلى إزعاج الموظّفين وتصفّح الفهرس. توجّهت بالكلام إلى أحدهم، فأخذته الدهشة. أمعن في التفكير ثمّ قال لي: «ليس لدينا الكتاب... ومع ذلك فأنا أملك فكرة مبهمَة عنه».

أمين المكتبة معروف وهو في غاية الظرف، وواسع العلم[2]. تعرف إليّ على الفور وسألني: «ما شأنك بالأب دوبوكوا؟ أتنوي كتابة نصّ أوبرا؟

(1) والتر سكوت Walter Scott (1771–1832) روائيّ وكاتب مسرحيّ وشاعر اسكتلنديّ. وهو يعتبر مبتكر الرواية التاريخيّة وأعظم كتّابها.

(2) يقصد نرفال فيلاتير شال Philatère Chasles (1798–1873)، عيّنه فرنسوا غيزو Guizot François وزير التعليم آنذاك أميناً لمكتبة مازارين.

منذ عشر سنوات شاهدتُ أوبرا كتبتَها[1]. كانت الموسيقى رائعة، والممثّلة بديعة[2]... لكنّ الرقابة لن تسمح لك بأن تقدّم اليوم «رجل دينٍ» على خشبة المسرح.

- أريد الكتاب لأنّني أعمل على مؤلّف تاريخيّ.

نظر إليّ بانتباه كمن ينظر إلى هؤلاء الذين يطلبون كتباً عن الخيمياء. ثمّ قال أخيراً: «فهمت. تريد كتابة رواية تاريخيّة على غرار ألكساندر دوما».

- لم يسبق لي أن كتبت رواية تاريخيّة ولا أنوي ذلك. لا أريد أن أحمّل الصحف التي أكتب فيها كلفة طوابع بريديّة تتراوح بين أربعمائة وخمسمائة فرنك يوميّاً[3]... إذا كنت لا أتقن كتابة التاريخ فسأطبع الكتاب كما هو!».

هزّ رأسه قائلاً: «لدينا الكتاب».

- حقّاً؟

- أعرف مكانه. إنّه في عداد الكتب التي أتتنا من سان جرمان ديه بريه[4]. لهذا السبب لم يُدرج في فهرسٍ لغاية الآن... لا يزال في أقبية المستودع.

- آه! عساك تكون لطيفاً معي و...

- سأفتّش لك عنه، أمهلني بضعة أيّام.

- سأبدأ العمل بعد غد.

---

(1) أوبرا بيكيّو *Piquillo*، كتبها نرفال بالتعاون مع الروائيّ الكاتب ألكساندر دوما Alexandre Dumas.

(2) الممثّلة البديعة هي جيني كولون Jenny Colon التي أغرم بها نرفال وكانت تؤدّي دور سيلفيا. أوّل عرض لأوبرا بيكيّو جرى في 31 أكتوبر 1837 على مسرح «الأوبرا كوميك».

(3) بسبب قانون ريانسي وقد سبقت الإشارة إليه.

(4) يقصد من دير سان جرمان ديه بريه.

- آه! الفوضى هناك تعمّ المكان، والكتب متراكمة بعضها فوق بعض. يجب قلب الأشياء رأساً على عقب، لكنّي واثق من أنّي رأيت الكتاب هناك.

قلت: «عليك الانتباه لهذه الكتب الآتية من مستودعات سان جرمان ديه بريه بسبب الجرذان. يحكى عن أجناس جديدة كثيرة منها، هذا إذا لم نأخذ في الحسبان الجرذ الرماديّ الروسيّ الأصل الذي قَدِمَ مع القوزاق. صحيح أنّه ساهم في تدمير الجرذ الإنكليزيّ. ولكنْ يحكى الآن عن قوارض جديدة وصلت مؤخّراً: «فأرة أثينا». يبدو أنّها تعمّر طويلاً، وأنّها جاءت إلى هنا في الصناديق التي أرسلتها الجامعة التي تتعهّدها فرنسا في أثينا[1].

ابتسم أمين المكتبة مستخفّاً بخوفي، ثمّ استأذن بالانصراف وهو يعدُني بأن يعنى بالمسألة على أكمل وجه.

الجرس المسحور

خطرت لي أيضاً فكرة. صحيح أنّ مكتبة «الأرسنال» في عطلة، لكنّي أعرف أمين مكتبة يعمل فيها ويملك مفاتيحها[2]، وهو مقيم في باريس. عاملني فيما مضى بتهذيبٍ بالغ، ولن يتردّد في إعطائي استثنائياً هذا الكتاب، وهو أحد هذه الكتب المتوافرة في مكتبته بأعداد كبيرة.

توجّهت إليه، وفي الطريق استوقفتني فكرة رهيبة: ذكرى قصّة خياليّة

(1) تأسّست المدرسة الفرنسيّة في أثينا عام 1846.

(2) يقصد شارل كايس Charles Cayx (1793–1858) الذي عرفه نرفال بصفته أستاذ تاريخ في ليسيه شارلمان، وكان أوّل من درّس التاريخ في المعاهد عام 1815، وعمل بالتزامن مع ذلك أميناً لمكتبة الأرسنال وأصبح مديرها عام 1842.

سُردت لي منذ زمنٍ طويل.

أمين المكتبة الذي أعرفه خلفَ عجوزاً شهيراً[1] كان شغوفاً بالكتب ولم يتخلَّ عن تلك المؤلّفات الغالية على قلبه والتي تعود إلى القرن السابع عشر إلّا متأخّراً جدّاً وبحسرة كبيرة. وعند وفاته سكن أمين المكتبة الجديد شقّته.

كان قد تزوّج لتوّه، وكان يستلقي بجانب زوجته الشابّة عندما أيقظه فجأةً في ساعة مبكّرة من الصباح رنين جرس متواصل. كانت الخادمة ترقد في طابق آخر فنهض أمين المكتبة وذهب ليفتح الباب.

لا أحد.

تفقّد المنزل: كان الجميع نياماً، والحارس أكّد له أنّه لم يرَ شيئاً.

في اليوم التالي، وفي الساعة نفسها، دوّى الجرس بالطريقة نفسها وتواصل الرنين.

لا زائر كما في الأمس. افترض أمين المكتبة، الذي عُيّن أستاذاً منذ فترة قريبة، أنّه أحد التلامذة المستائين من الفروض الإضافيّة فاختبأ في المنزل، أو أنّه علّق هرّاً من ذنبه بأنشوطة لا تلبث أن ترتخي بفعل الجذب.

وأخيراً، وفي اليوم الثالث، كلّف الحارس بالوقوف على سفرة الدرج ومعه ضوء، إلى ما بعد الساعة المحتومة، ووعده بمكافأة إذا لم يرنّ الجرس.

وفي الساعة الواحدة صباحاً، رأى الحارس بانشداهٍ حبل الجرس يهتزّ من تلقاء نفسه والشّرّابة الحمراء تتراقص بجنونٍ مرتطمة بالحائط. فتح أمين المكتبة الباب ولم يرَ أمامه إلّا الحارس راسماً إشارة الصليب عدّة مرّات.

---

(1) يقصد أنطوان جان سان مارتان Antoine-Jean Saint-Martin (1791–1832) وهو مستشرق ومدير الأرسنال من 1824 إلى 1830. وفي الواقع شارل كايس خلفَ نوديه Nodier.

- إنّها روح من سبقك وقد عادت.
- هل رأيته؟
- لا، فالأشباح لا تُرى على ضوء الشمعة.
- إذَن سنجرّب غداً دون ضوء...
- سيّدي بإمكانك أن تجرّب لوحدك...

بعد إمعانٍ في التفكير، قرّر أمين الكتبة ألّا يسعى لرؤية الشّبح، وأن يُقام قدّاس لراحة نفس أمين المكتبة العجوز، لأنّ الأمر لم يتكرّر ثانية.

وسأذهب، أنا، لأقرع هذا الجرس!... مَن يدري إذا لم يكن الشبح هو من سيفتح لي؟

على أيّة حال، هذه المكتبة ملأى بالنسبة لي بالذكريات الحزينة. عرفت فيها ثلاثة أمناء، وكان الأوّل أصل الشبح المفترض، والثاني في غاية الظرف واللّطف... وكان أحد رعاتي الأدبيّين[1]. والأخير[2] كان يطلعني، وبلطفٍ شديدٍ، على مجموعاته الجميلة من الصور، وقد أهديته كتاب «فاوست»[3] مزداناً بالرسوم الألمانيّة.

لا، لن أعقد العزم على الذهاب إلى مكتبة «الأرسنال». على أيّة حال،

---

(1) ويقصد نوديه Nodier.

(2) أي جان باتيست أوغستان سوليه Jean-Baptiste-Augustin Soulié (1780–1845).

(3) «حياة الدكتور فاوست ومغامراته ونزوله إلى الجحيم» *Fausts Leben, Thaten und Höllenfahrt* للشاعر والكاتب المسرحي الألمانيّ فريدريش ماكسيميليان فون كلنجر Friedrich Maximilian von Klinger (1752–1831). أطلق عنوان مسرحيته «العاصفة والشغف» (*Sturm und Drang*) على الحركة الأدبيّة التي سيطرت من عام 1767 إلى عام 1785 وتميّزت بتمجيد العواطف والأهواء. ومن الأعمال الأدبيّة التي كتبت في ذلك العصر رواية غوته Goethe «آلام الشابّ فيرتر» *Die Leiden des jungen Werthers*.

علينا أيضاً زيارة الكتبيّين القدامى: فرانس، ومرلان، وتيشنير[1]. قال لي السيّد فرانس: «أعرف الكتاب جيّداً». تصفّحته عشر مرّاتٍ، وبإمكانك أن تجده على الأرصفة بالصدفة. وجدته هناك بعشرة فلوس.

التجوال على الأرصفة عدّة أيّام للبحث عن كتاب وُصِفَ بأنّه نادر... آثرتُ الذهاب إلى مرلان: «تريد «بوكوا»؟ سألني خَلَفُه. لا نعرف إلّاه. لديّ واحد على هذا الرفّ..».

من غير المُجدي التعبير عن فرحتي. جاءني الكتبيّ بكتاب من قطْع 12/1، إلّا أنّه كان سميكاً بعض الشيء (649 صفحة). وجدت، وأنا أفتحه، هذا العنوان إزاء أحد البورتريهات: «مديح الكونت دوبوكوا». وفي أسفل البورتريه كتب باللاتينيّة: *COMES A. BVCQVOY*[2].

لم يدُم توهّمي طويلاً. كان الكتاب يتناول قصّة الثورة في بوهيميا[3]، ويظهر فيه بورتريه للكونت دوبوكوا لابساً الدرع ولحيته مقصوصة على

(1) فرانس: فرنسوا نويل تيبو، المعروف بفرانس François-Noël Thibault, dit France (1805–1890)، والد الكاتب أناتول فرانس. بعد أن عمل لدى تيشنير Techener أدار مكتبة «فرانس» المتخصّصة في الكتابات المتعلّقة بالثورة الفرنسيّة. مرلان: جاك سيمون مرلان Jacques-Simon Merlin (1765–1835)، أسّس المكتبة التي تحمل اسمه. وجاك جوزف تيشنير Jacques-Joseph Techener (1802–1873)، مؤسّس صحيفة *Bulletin du Bibliophile* كان أمين مكتبة في ساحة اللوفر، وقد نشر عام 1847 «تأملات جادّة في ما يتعلّق بالمنشورات المختلفة الراهنة عن المكتبة الملكيّة، متبوعة بالخريطة الوحيدة الممكنة لإنجاز الفهرس الخاص بها في مدّة ثلاث سنوات».

(2) شارل بونافنتور دولونغفال المعروف بالكونت دوبوكوا Charles-Bonaventure de Longueval, comte de Bucquoy: ولد في أرّاس (راجع الحاشية التالية) قائد الجيش الإمبراطوري (في الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة للأمّة الجرمانيّة) الذي هزم قوّات من الاتّحاد البروتستانتيّ بقيادة الكونت مانسفيلد في معركة سابلات في العاشر من يونيو 1619.

(3) بوهيميا Bohême: مملكة كانت قائمة في إقليم بالاسم نفسه في أوروبّا الشرقيّة، أغلب أراضيها الآن تابعة إلى الجمهوريّة التشيكيّة.

طريقة لويس الثالث عشر. إنّه على الأغلب أحد أجداد الأب دوبوكوا التعس. ولكن كان منَ المفيد أيضاً امتلاك هذا الكتاب لأنّ الأهواء والملامح العائليّة تتوارث. هاكم رجلاً من آل بوكوا مولوداً في أرتوا[1] وقد قاد حرب بوهيميا. يُظهر رسمه سعة خياله وطاقته، على شيء من غرابة الأطوار. لا بدّ أنّ الأب دوبوكوا قد خلَفه كما يخْلف الحالمون رجال الفعل.

الكناريّ

أثناء توجّهي إلى تيشنير لأجرّب حظّي مرّة أخيرة، توقّفت أمام باب بائع للعصافير. كانت امرأة مسنّة ترتدي قبّعة وهندامها ينمّ عن ترف وأيّام عزّ خلت، تعرض عليه أن تبيعه كناريّاً مع قفصه.

أجابها البائع أنّه كان شبْه عاجزٍ عن إطعام عصافيره بالذّات. أصرّت المرأة المسنّة على طلبها بصوت متهدّج. فقال لها البائع إنّ عصفورها لا يساوي شيئاً. ابتعدت السيّدة متحسّرة.

أعطيت كلّ ما لديّ من مالٍ ثمناً للمآثر التي أنجزها الكونت دوبوكوا في بوهيميا. لولا ذلك لَكنت قلت للبائع: نادِ على هذه السيّدة من جديد وقل لها إنّك عزمت على شراء العصفور...

لكنّ القدر الذي يلاحقني فيما يخصّ آل بوكوا خلّف لديّ الحسرة لعدم قدرتي على تقديم المساعدة.

قال لي السيّد تيشنير: لم يعد لديّ نسخة عن الكتاب الذي تبحث عنه.

---

(1) أرتوا Artois: منطقة طبيعيّة في فرنسا وعاصمتها أراس Arras (مدينة شماليّ فرنسا عاصمة إقليم Pas-de-Calais با دوكاليه).

لكنّي أعرف أنّه ستباع نسخة منه قريباً في مكتبة أحد الهواة.

- أيّهم؟...

- فلان، إذا شئت، لن يدرج الاسم على الفهرس.

- ولكن ماذا لو كنت أريد شراء النسخة الآن؟...

- لا نبيع أبداً مسبقاً الكتب المبوّبة والمصنّفة ضمن مجموعات. سيجري البيع في الحادي عشر من نوفمبر.

الحادي عشر من نوفمبر!

البارحة، تلقّيت رسالة صغيرة من السيّد رافينيل، أمين المكتبة الذي قُدِّمتُ إليه. لم ينسني وأعلمني بالخبر نفسه. إلّا أنّ البيع أُرجئ على ما يبدو إلى العشرين من نوفمبر.

ما العمل حتّى ذلك التاريخ... ثمّ إنّ ثمن الكتاب سيسجّل ربّما رقماً قياسيّاً.

الرّسالة الرابعة

مخطوطة من الأرشيفات- أنجيليكا دولونغفال- رحلة إلى كومبْين[1]- قصّة شقيقة جدّ الأب دوبوكوا.

خطرت لي فكرة الذهاب إلى أرشيفات مكتبة فرانس حيث أطلعوني على شجرة العائلة الأصليّة لآل دوبوكوا. كنيتهم هي لونغفال. لدى تنقيبي في الملفّاتَ العديدة المتعلّقة بهذه العائلة، وجدت واحدة من أروع اللّقى.

إنّها مخطوطة من مائة صفحة تقريباً مصفرّة أوراقها، باهت حبرها،

(1) كومبيَن Compiègne مدينة في شمال فرنسا على ضفاف نهر الواز في منطقة بيكارديا.

وصفحاتها محبوكة بشرائط حريريّة رقيقة نصلَ لونها الورديّ، وتتضمّن قصة أنجيليكا دولونغفال. أخذت منها بضعة مقاطع وسأحاول أن أجمع بينها فيما بعد عبر تحليلٍ متفانٍ[1]. أحالتني حفنة منَ المستندات والمعلومات المتعلّقة بآل لونغفال وآل بوكوا إلى أخرى، يفترض أنّها موجودة في مكتبة كومبيَن. وافق اليوم التالي عيد جميع القدّيسين، لكنّي اغتنمت الفرصة لتزجية الوقت والدراسة في آنٍ معاً.

فرنسا بأريافها القديمة قلّما هي معروفة، لا سيّما في تلك النواحي التي تنتمي إلى ضواحي باريس. وهناك، في النقطة التي تلتقي فيها إيل دوفرانس وفالوا وبيكارديا[2]، ويفصل بينها نهرا الواز والأين، بجريانهما المتمهّل الوادع، يطيب للإنسان أن يحلم بأجمل القصائد الرعويّة في العالم.

إنّ اللّغة التي يتحدّث بها المزارعون أنفسهم هي من أصفى اللغات الفرنسيّة، يميّزها لحن أواخر الكلمات الذي يصعد إلى السماء أشبه ما يكون بتغريد القبّرة... وحين يتكلّمها الأطفال تبدو وكأنّها هذر جميل. هناك أيضاً في تركيبات الجمل شيء ما إيطاليّ. والأرجح أنّ هذا عائد إلى الإقامة الطويلة لآل ميديسيس وحاشيتهم الفلورنسيّة في هذه النواحي

---

(1) استطلع نرفال المخطوطات، واستشهد باعترافات أنجيليكا وأعاد صياغتها في النصّ المنشور في مجلّة *La Revue Rétrospective* في ديسمبر 1834 تحت عنوان «قصّة اختطاف في 1632. حياة أنجيليكا دولونغفال، ابنة السيّد داروكور، حاكم كليرمون وكاتليه في بيكارديا، بقلمها» *Un enlèvement en 1632: vie d'Angélique de Longueval, fille de M. d'Haraucourt, gouverneur de Clermont et de Catelet en Picardie, écrite par elle-même*.

(2) إيل دوفرانس Ile-de-France: منطقة في شمال وسط فرنسا وعاصمتها مدينة باريس. الفالوا Le Valois: منطقة في فرنسا تقع بين الأين والواز ومن مدنها الرئيسيّة سنليس Senlis. بيكارديا La Picardie: منطقة في شمال فرنسا، وتضمّ الأقاليم الثلاثة: الأين L'Aisne، والواز L'Oise، والسّوم La Somme.

المقسّمة فيما مضى إلى إقطاعات ملكيّة وأميريّة[1].

وصلت البارحة مساءً إلى كومبيَن، مقتفياً أثر آل بوكوا بجميع الوسائل، وبهذا العناد البطيء الذي هو في طبعي. لا سيّما وأنّ أرشيفات باريس حيث لم أستطع أن آخذ إلّا بعض الملاحظات، كانت مقفلة اليوم، بمناسبة عيد جميع القدّيسين.

في فندق لاكلوش الذي احتفى به ألكساندر دوما[2]، كانت جلبة صاخبة تعمّ هذا الصباح. الكلاب تعوي، والصيّادون يحضّرون أسلحتهم. سمعت مروّضاً يقول لسيّده: «هذه بندقيّة السيّد الماركيز».

عجباً لا يزال يوجد مركيزات!

كنت منشغلاً بصيدٍ من نوعٍ آخر مختلف تماماً... استعلمت عن الساعة التي تفتح فيها المكتبة أبوابها.

قيل لي:

- ولكنّها مقفلة بطبيعة الحال فاليوم عيد جميع القدّيسين.

- وفي الأيّام الأخرى؟

- تفتح من الساعة السابعة مساءً حتّى الساعة الحادية عشرة.

أخشى أن يكون حظّي هنا أتعس منه في الأمكنة الأخرى. كانت لديّ تزكية لأحد موظفيّ المكتبات العامّة، كان في الوقت نفسه أحد أشهر هواة الكتب[3]. لم يشأ أن يطلعني على كتب المدينة فحسب بل أيضاً على

---

(1) أضفت المصاهرة بين آل فالوا وآل ميديسيس Les Médicis (آل ميديتشي عند الطّليان) على منطقة الفالوا طابعا إيطاليّاً مصطنعاً، وذلك بتأثير من عصر النهضة والأفلاطونيّة الجديدة.

(2) الفندق نفسه موجود في عنوان الفصل الثامن والتسعين من رواية «الكونت دومونتي كريستو»، لألكساندر دوما.

(3) إنّه لويس نيكولا دوكيرول Louis- Nicolas de Cayrol (1775–1859) الذي كان والده عمدة كومبَين، وقد انعزل في الواز لكي يتكرّس للدراسات التاريخيّة. نشر عام 1856 مجلّدين =

كتبه، وبينها يوجد رسائل أصليّة قديمة نفيسة، كتلك المتعلّقة بالرسائل غير المنشورة لفولتير، ومجموعة أغانٍ لحّنها روسو[1] ومكتوبة بخطّ يده؛ لم أستطع أن أرى تدوينها الواضح الجميل دون أن يرقّ قلبي، وكانت مرفقة بهذا العنوان: «أغانٍ قديمة بألحانٍ جديدة». هذه هي الأغنية الأولى مكتوبة بأسلوب كليمان مارو[2]:

«لم أعدْ ما كنته سابقاً،
وربّما لن أقدر على العودة يوماً،
ربيعيَ العذب وصيفي
لاذا بالفرار عبر النافذة»، إلخ...[3]

ما أوحى لي فكرة العودة إلى باريس عبر أرمنونفيل[4]، وهي الطريق

= من الرسائل غير المسبوق نشرها لفولتير Voltaire. فولتير أحد أشهر أدباء القرن الثامن عشر ويعدّ مع جان جاك روسو (انظر الحاشية التالية) من الذين ساهمت أفكارهم في قيام الثورة الفرنسيّة.

(1) جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (ولد في جنيف 1712 وتوفّي عام 1778 في أرمنونفيل Ermenonville) أديب وفيلسوف فرنسيّ، يعد من أهمّ كتّاب عصر الأنوار. من مؤلّفاته: «العقد الاجتماعيّ» *Le Contrat social*، «إميل» *Émile*، «الاعترافات» *Les Confessions*، «خواطر السّائر المتوحّد» *Les Rêveries du promeneur solitaire*. تأثّرت الثورة الفرنسيّة، وكذلك الأدب الرومنطيقيّ بمبادئه.

(2) كليمان مارو Clément Marot: شاعر فرنسيّ من شعراء البلاط في عصر النهضة. تميّز بأسلوبه البسيط وبحثه عن إيقاعات جديدة لم تكن قد استخدمت بعد، ومنها السونيتة، حيث كان له الفضل في إدخالها إلى الشعر الفرنسيّ مع بعض التعديلات.

(3) هذه الأغنية موجودة في المجلّد: «تعزيات لتعاسات حياتي أو مجموعة ألحان وأغانٍ عاطفيّة وثنائيّات» *Les* consolations *des misères de ma vie, ou Recueil d'airs, romances et duos* لجان جاك روسو.

(4) أرمنونفيل: توفّي روسو في قصر إرمنونفيل Ermenonville شماليّ فرنسا حيث كان في ضيافة صديق له.

الأقصر مسافة والأطول وقتاً، وإن تكن سكّة الحديد تقوم بانعطافة هائلة للوصول إلى كومبيَن.

لا يمكن الوصول إلى أرمنونفيل، ولا الابتعاد عنها دون أن نسير مسافة ثلاثة فراسخ سيراً على القدمَين، لا يوجد عربة تصل مباشرة إليها. ولكن غداً هو يوم الموتى، وهذه رحلة سأنجزها بورعٍ وخشوعٍ، وأنا أفكّر في أنجيليكا دولونغفال الجميلة.

أرسل إليك كلّ ما جمعته عنها في أرشيفات كومبيَن، وقد كتبته دون كبير اعتناء، ووفقاً للوثائق المكتوبة باليد، وخاصّة هذا الدّفتر المصفرّ الذي كتبته كلّه بخطّ يدها، وربّما كان، نظراً لصدوره عن فتاة من أسرة نبيلة، أكثر جرأة من «اعترافات» روسو نفسها.

كانت أنجيليكا دولونغفال ابنة أحد أكبر الأسياد الإقطاعيّين في بيكارديا. كان والدها، الكونت داروكور، مستشار الملك في مجالسه، ومشير معسكراته وجيوشه، وحاكم شاتليه[5] وكليرمون أون بوفوازي[6]. وفي جوار هذه المدينة، في قصر سان ريمو، كان يترك زوجته وابنته عندما تستدعيه مهامّه إلى البلاط أو إلى الجيش.

منذ سنّ الثالثة عشرة كانت أنجيليكا دولونغفال ذات طبعٍ حالمٍ حزينٍ، ولم يكن لديها ميلٌ، كما كانت تقول، «لا للأحجار الكريمة، ولا النجود الجميلة، أو الثياب الجميلة، ولم تكن تتمنّى إلّا الموت لتداوي جرح روحها». وقع رجلٌ نبيل من حاشية والدها في غرامها. كان يلاحقها بنظراته باستمرار، ويحيطها بعنايته. ومع أنّ أنجيليكا لم تكن تعرف معنى

---

(5) يجب قراءتها كاتليه (على بعد 18 كلم شماليّ سان كانتان Saint-Quentin، المدينة الرئيسيّة في محافظة الأين على السوم).

(6) Clermont-en-Beauvoisis: مدينة في منطقة بيكارديا.

الحبّ بعد، إلّا أنّها كانت تجد سحراً ما في ملاحقة الشبّان لها.

الاعتراف بالحبّ الذي بثّه لها هذا الرجل النبيل ظلّ محفوراً عميقاً في ذاكرتها بحيث أنّها بعد ستّ سنوات، بعد أن اجتازت عواصف حبّ آخر، ومآسي من كلّ نوع، كانت تتذكّر باستمرار هذه الرسالة الأولى وتستعيدها كلمة كلمة. فليُسمح لي بأن أستشهد ههنا بهذا النموذج الغريب الذي يظهر أسلوب عاشق من الريف في زمن لويس الثالث عشر.

ها هي رسالة أوّل عاشقٍ للآنسة أنجيليكا دولونغفال:

«لا عجب من أنّ المفردات[1] لا تملك، من غير قوّة أشعّة الشمس، أيّة خاصيّة شفائيّة. وهكذا، فإنّي كنت اليوم في تعاسة عارمة لخروجي من دون أن أرى ذاك الفجر الجميل الذي غمرني بالضوء على الدوام، والذي في غيابه تلازمني حلقة من الظلام، فأردت التحرّر منها، واستعرتْ رغبتي في رؤيتك مجدّداً يا جميلتي، لأنّني لا أستطيع العيش دون رؤيتك، دافعة بي للعودة بمنتهى السّرعة كيما ألوذ بفيء فضائلك الكاملة. إنّ ولعي بها اختلس قلبي وروحي، وتلك خُلسةٌ أبجّلها لأنّها سمَت بي إلى مقامٍ هو في غاية القداسة والمهابة، وأريد أن أهيم به طيلة حياتي بورَعٍ وتفانٍ يوازيان كمالَك أنت».

لم تحمل هذه الرسالة فأل خيرٍ للشابّ المسكين كاتبها. فهو عندما حاول أن يَدُسّ الرّسالة لأنجيليكا، باغته والدها. وتوفّي بعد أربعة أيامٍ من الحادثة مقتولاً، ولم يُكشف عن السبب.

الألم الذي تسبّب به مقتل الشابّ لأنجيليكا أبان لها معنى«الحبّ». وبكت طيلة سنتين كاملتين. وإذ لم تجد، حسب قولها، ما تداوي به ألمها سوى الموت، أو الوقوع في حبّ جديد، توسّلت والدها أن يصطحبها معه

(1) المفردات: النباتات الطبيّة التي تعالج بها الأمراض.

في رحلاته، علّها تعثر، بين الأسياد الكثيرين الذين ستلتقيهم، على من ينسيها طيف ذاك الميْت الذي لا يغادر وجدانها.

أغلب الظنّ أنّ الكونت داروكور لم يمتثل لتوسّلات ابنته، لأنّه، بين الأشخاص الذين أغرموا بها، لا نرى إلّا موظّفين يعملون في دار والدها. اثنان منهم السيّد دوسان جورج، وهو رجل شريف ملحق بالكونت، والسّيد فارْغ، وكان فرّاشه، وجدا في هذا الشغف المشترك بابنة سيّدهما فرصة للتخاصم آلت إلى نهايةٍ مأساويّة. كان فارْغ يغار من تفوّق خصمه ما دفعه إلى الوشاية به. عرف السيّد دوسان جورج بالأمر فنادى على فارْغ ذاك وأنّبه على خطئه وانهال عليه في نهاية الأمر ضرباً بعرض سيفه حتّى التوى. جالَ فارْغ القصر باحثاً عن سيف وقد تولّاه غضب مسعور. وعندئذٍ التقى بالبارون داروكور، شقيق أنجيليكا، فانتزع منه سيفه وهرع وأغمده في صدر غريمه الذي انتُشل منه السّيف وهو يزهق روحه. لم يصل الطبيب إلّا ليقول لسان جورج: «احمد الربّ واشكره على موتك». وفي تلك الأثناء لاذ فارْغ بالفرار.

تلك كانت البواكير المفجعة للهوى الكبير الذي سيُغرق أنجيليكا المسكينة في بحر من المآسي.

قصّة شقيقة جدّ الأب دوبوكوا

والآن هي ذي السّطور الأولى من المخطوطة:

«لكأنّ سوء الحظّ تعمّد ملازمتي لينغّص عليّ حياتيّ. حدث ذلك ذات مساء في سان ريمو، عندما دخل رجل إلى غرفتي متذرّعاً بعزمه على التقرّب من وصيفة والدتي، وتدعى بوروغار. كنت أعرفه منذ أكثر من

سبع سنوات وعاشرته لسنتين بحالها دون أن أحبّه. فاقترب من سريري قائلاً: «أتسمحين بذلك سيّدتي؟» ثمّ اقترب أكثر متفوّهاً بهذه الكلمات: «آه! كم أحبّك، ومنذ زمن طويل!» فأجبته قائلة: «لا أحبّك ولا أكرهك. ابتعد من هنا لئلّا يعرف والدي أنّك في غرفتي وفي مثل هذه الساعة».

وحين طلع النهار، سعيت متحيّنةً الفرصة لرؤية ذاك الذي اعترف لي بحبّه في الليلة الفائتة. وحين راقبته لم أره كريهاً إلّا لناحية وضاعة أصله التي أضفت عليه طيلة ذاك اليوم رصانة واحتشاماً، وكان يلاحقني بنظراته باستمرار. وفي الأيّام التالية بالغ بالاعتناء بهندامه لكي يحظى بإعجابي. كان حقّاً ودوداً للغاية ولم تكن أفعاله تنمّ عن أصله لأنّه كان شجاعاً مقداماً وكريم النفس».

يخبرنا كاهن سيليستينيّ[1]، قريب لأنجيليكا، أنّ هذا الشاب كان يُدعى لاكوربينير ولم يكن إلّا ابن جزّار من كليرمون سور واز، مجنّداً لخدمة الكونت داروكور. كان الكونت، وهو مشير المعسكرات والجيوش، قد أضفى على داره طابعاً عسكريّاً، وتميّز خدمه بشواربهم ومهامزهم، واقتصر لباسهم على الزيّ العسكريّ. ممّا يفسّر إلى حدٍّ ما انخداع أنجيليكا بمظهر لاكوربينير.

حزنت أنجيليكا لدى رؤيتها لاكوربينير يرحل خلف سيّده الذاهب إلى شارلفيل لزيارة المونسنيور دولونغفيل الذي كان مصاباً بالزحار. أيّ مرض بغيض، فكّرت الصبيّة بسذاجة. مرض بغيض لأنّه كان يمنعها من رؤية ذاك الذي «لم يكن حبّه ينفّرها». رأته لاحقاً في فرنوي[2]. جرى

(1) سيلستينيّ: نسبة إلى نظام الرهبنة الذي أسسه البابا القديس سيلستان الخامس (1215–1296).

(2) فرنوْي: Verneuil (Verneuil-sous-Coucy) مدينة فرنسيّة في محافظة الأين في منطقة بيكارديا.

هذا اللقاء في الكنيسة. كان الشابّ قد اكتسب لياقةً وأدباً في بلاط الدوق دولونغفيل. كان يرتدي سترة رماديّة لؤلؤيّة من الجوخ الإسبانيّ مع ياقة صغيرة مستقيمة، وقبّعة مزدانة بأرياش رماديّة لؤلؤيّة وصفراء. اقترب منها هنيهة دون أن يلاحظ أحد ذلك وقال لها: «تفضّلي يا سيّدتي هذه أساور معطّرة جلبتها لك من شارلفيل حيث تولّاني ضجر هائل».

استعاد لاكوربينير مهامّه في القصر. كان يتظاهر دوماً بأنّه يحبّ الخادمة بوروغار ويُقنعها أنّه كان يأتي عند سيّدتها من أجلها. «هذه الفتاة السّاذجة، تقول أنجيليكا، كانت تصدّق تماماً ما يقوله. وهكذا كنّا نمضي ساعتين أو ثلاثاً ونحن نضحك ثلاثتنا كلّ ليلة، في برج فرنوي في الغرفة حيث أُسدِلتْ ستائر بيضاء».

لكنّ هذه اللقاءات توقّفت بسبب مراقبة وشكوك أحد الخدم ويُدعى دورديّي. لم يعد العاشقان قادرين على التواصل إلّا عبر الرسائل. في هذه الأثناء، ذهب والد أنجيليكا إلى روما لموافاة الدوق دولونغفيل، وكان يعمل ملازماً لديه، فهرب لاكوربينير ليلاً وتسلّق جداراً متسلّلاً عبر ثغرة واقترب من نافذة أنجيليكا ورمى عليها حجراً.

تعرّفت إليه الآنسة وقالت لخادمتها بوروغار مواصلة كذبها: «أظنّ أنّ عاشقك مجنون. اذهبي بسرعة وافتحي له باب الغرفة الأرضيّة التي تطلّ على الحديقة لأنّه دخل إليها. وفي هذه الأثناء سأرتدي ملابسي وأضيء شمعة».

وقُدّم العشاء للشابّ «وكان من المربّيات السائلة. «أمضينا ثلاثتنا طيلة تلك الليلة، تضيف الآنسة، ونحن نضحك».

ولكنّ المحزن في الأمر بالنسبة إلى الخادمة المسكينة أنّ الآنسة أنجيليكا

ولاكوربينير كانا يضحكان عليها في السرّ وخصوصاً من ثقتها بحبّه لها.

حين طلع النهار، خُبّئ الشاب في الغرفة التي يزعم أنّها غرفة «الملك»، حيث لا أحد كان يدخل أبداً. وفي الليل كانتا تذهبان للقائه. «اقتصر طعامه خلال الأيّام الثلاثة التالية على الدجاج الطازج الذي كنت أضعه بين قميصي وتنّورتي».

وأخيراً أُرغِم لاكوربينير على الذهاب لموافاة الكونت الذي كان يقيم آنئذٍ في باريس. وانقضى عام على أنجيليكا وهي في حال من الكآبة، تسلّيها فقط الرسائل التي كانت تكتبها إلى حبيبها. «لم تكن لديّ سلوى أخرى، حسب قولها، فلا الأحجار الكريمة، ولا النجود الجميلة، ولا الملابس الفاخرة بوسعها أن تروق لعيني دون محادثة الناس الشرفاء... التقينا من جديد في سان ريمو بسرور وابتهاج عظيمين لا يعرفهما إلّا أولئك الذين أحبّوا. بدا لي أكثر ظرفاً في ذاك الزيّ الأحمر..».

وعادت اللّقاءات المسائيّة من جديد. لم يعد الخادم دورديّي في القصر. شغل غرفته مدرّب صقور يُدعى لافيني كان يتظاهر بعدم رؤية شيء.

واستمرّت العلاقات هكذا، محافظة على عفّتها في الواقع، لا يعكّر صفوَها إلّا الأشهر التي يتغيّب فيها لاكوربينير المضطرّ دائماً إلى اللحاق بالكونت حيثما استدعته مهامه العسكريّة. «لو أردت أن أخبركم، كتبت أنجيليكا، عن جميع المسرّات التي نعمنا بها لثلاث سنوات في فرنسا[1]، لاستحال عليّ الأمر».

ذات يوم، ازداد لاكوربينير جسارة. ربّما كانت صحبات باريس

(1) كان يقال «في فرنسا» لكلّ الأمكنة الموجودة في نطاق «إيل دوفرانس» وبعدها تبدأ منطقتنا بيكارديا وسواسونيه. لا تزال التسمية قائمة حتّى الآن لتمييز بعض النواحي.

قد أفسدته قليلاً. دخل إلى غرفة أنجيليكا في وقتٍ متأخّر جدّاً. كانت وصيفتها راقدة أرضاً، وهي في سريرها. فأخذ لاكوربينير يقبّل الوصيفة وفقاً للذريعة المعهودة، ثمّ قال لها: «أريد إخافة السيّدة».

«آنذاك، أضافت أنجيليكا، كنت نائمة، لكنّه اندسّ توّاً في سريري وكان يرتدي فقط سروالاً قصيراً. كنت مرتعبة أكثر منّي مسرورة، فرجوته، بحقّ الشغف الذي يكنّه لي، أن يرحل، لأنّه كان منَ المستحيل أن يمشي أو يتكلّم في غرفتي دون أن يسمعه والدي. صَعُبَ عليّ كثيراً حمله على الانصراف».

اختلط الأمر على العاشق قليلاً فرحل إلى باريس. ولكن لدى عودته، استعرت العاطفة المتبادلة بينهما، وأخذت الشكوك تساور الأهل بشكلٍ مبهم. ذات يوم كانت الآنسة نائمة في الغرفة التي يقال لها «غرفة الملك»، فاختبأ لاكوربينير تحت سجّادة عثمانيّة كبيرة تغطّي إحدى الطاولات، «ثمّ أتى ليندسّ قربها في السرير». توسّلتْ إليه خمسين مرّة أن يرحل لأنّها كانت تخشى على الدوام رؤية والدها داخلاً الغرفة. وفي الواقع، حتّى حين كانا مضطجعين أحدهما قرب الآخر كانت مداعباتهما بريئة.[1]

الرسالة الخامسة

قصّة شقيقة جدّ الأب دوبوكوا- تابع

كانت علاقتهما موافقة لهوى ذلك الزمان، حين كانت قراءة الشعراء

(1) وفقاً لاعترافات البطلة («أن أخبركم عن المداعبات التي كنّا نقوم بها فإنّ هذا سيكون مستحيلاً بالنسبة إليّ، أمّا عن إفقادي عذريّتي، فهذا أمر بعيد الإمكان، وقد احتفظت بها خلال تلك الهجمات لأنّه كان يقول لي: «أنا متأكّد من أنّني ما إن أمتلكك بكليّتك حتّى تحبلين»)، لم تكن غراميّات أنجيليكا ولاكوربينير بهذه البراءة التي يظنّها نرفال.

الإيطاليّين لا تزال تشيع في الأرياف خصوصاً هوى عذريّاً جديراً بشعر بتراركه[1]. تطالعنا ملامح من هذا الحبّ في أسلوب التائبة الجميلة التي ندين لها بهذه الاعترافات.

إلّا أنّه حين طلع النهار وخرج لاكوربينير في وقتٍ متأخّر قليلاً عبر القاعة الكبيرة، لمحه الكونت الذي كان استيقظ في ساعة مبكرة. لم يكن متأكّداً تماماً من خروجه من غرفة ابنته بالذات، لكنّه ارتاب بالأمر ارتياباً شديداً.

«لهذا السبب، أضافت الآنسة، ظلّ والدي العزيز الغالي ذاك النهار شديد الكآبة، ولم يفعل شيئاً سوى التحدّث إلى والدتي. ومع ذلك لم يقل لي أيّ منهما شيئاً على الإطلاق».

في اليوم الثالث، اضطرّ الكونت للذهاب إلى جنازة صهره مانيكان. أمر لاكوربينير بمرافقته، وكذلك ابنه وسائس خيل وخادمين. وإذ بلغ الكونت وسط غابة كومبيَن، اقترب فجأةً من العاشق وفاجأه بسحب سيفه من غمده، ثمّ وضع المسدّس على صدره قائلاً للخادم: «انزع المهماز من هذا الخائن وابتعد قليلاً...».

استطراد

لا أنوي ههنا تقليد طرائق الرواة في القسطنطينيّة أو الحكواتيّين في القاهرة الذين، امتثالاً لفنٍّ موغلٍ في القدم، يتوقّفون عن السرد في المكان الأكثر تشويقاً ليحثّوا الجمهور على العودة في اليوم التالي إلى المقهى

(1) بتراركه Pétrarque (1304–1374) شاعر إيطاليّ من روّاد النهضة. اشتهر بديوانه «الانتصارات». أحبّ امرأة تدعى لورا من أوّل نظرة وبقي ثابتاً على حبها حتّى وافتها المنية في سن الثامنة والثلاثين. كان حبّه عذريّاً مثاليّاً، وقصائده تحتفي بما تتحلّى به المرأة من مزايا نبيلة تبعث على الإلهام وتوقظ في الرجل مشاعر سامية وعواطف رقيقة.

نفسه[1]. قصّة الأب دوبوكوا موجودة. وسينتهي بي الأمر للعثور عليها. ولكنْ، في مدينة مثل باريس تعدّ مركز الإشعاع والنور، وتضمّ مكتباتها العامّة مليوني كتاب، لا يسعني إلّا أن أُفاجأ بألّا أجد كتاباً فرنسيّاً سبق لي أن تصفّحته في فرانكفورت، وتقاعست عن شرائه.

كلّ شيء يختفي تدريجيّاً، بسبب نظام إعارة الكتب، وأيضاً لأنّ هواة المجموعات الأدبيّة والفنيّة لم يتجدّدوا منذ الثورة. كلّ الكتب الغريبة التي سُرِقَت أو بيعت أو ضاعت، يمكن العثور عليها في هولندا وألمانيا وروسيا. أخشى القيام برحلة طويلة في هذا الفصل، لذا سأكتفي بإجراء أبحاث على مساحة حول باريس يبلغ قطرها أربعين كيلومتراً.

علمت أنّ بريد سنليس[2] استغرق سبع عشرة ساعة لينقل إليك رسالة كان بإمكانها الوصول إلى باريس بظرف ثلاث ساعات. أظنّ أنّ هذا لا يعود سببه إلى أنّني مستصغر في هذه البلاد التي ربيت فيها. ولكنْ هاك تفصيلاً غريباً.

منذ بضعة أسابيع بدأتُ بوضع خطّة للعمل الذي تريد فعلاً أن تنشره، وكنت أقوم بأبحاثٍ تمهيديّة عن آل بوكوا، الذين يتردّد صدى اسمهم في فكري دوماً وكأنّه ذكرى طفولة. كنت في سنليس برفقة صديق، صديق من بروتاني[3]، فارع الطول، أسود اللحية. وصلنا في ساعة مبكرة، عبر

---

(1) هذا الاعتراض للراوي هو بطبيعة الحال تعريض (الغمز بشيء مع عدم ذكر اسمه). عن رواة القسطنطينيّة انظر «ليالي رمضان» في «رحلة إلى الشرق» *Voyage en Orient* لنرفال.

(2) سنليس: تقع مدينة سنليس Senlis في فرنسا في إقليم الواز (منطقة بيكارديا) على نهر نونيت La Nonette بين غابتي شانتيي Chantilly وأرمنونفيل Ermenonville جنوباً وآلات Halatte شمالاً.

(3) هو إدوارد جورج، صديق نرفال أنهى رواية «المركيز دوفايول» *Le Marquis de Fayolle* عام 1856، وهي رواية كان قد بدأها نرفال ولم ينهها.

القطار الذي يتوقّف في سان ميكسان[1]، ومن ثمّ استقلّينا عربة عامّة تجتاز الغابات سالكة طريق فلاندر القديمة، وغامرنا عندئذٍ بالدخول إلى المقهى الأبرز في المدينة، لنستردّ نشاطنا.

كان المقهى مليئاً بالجنود المأذونين الذين يتيح لهم المقهى، بعد الخدمة، بعض التسليات. كان بعضهم يلعب الدومينو، والبعض الآخر البلياردو.

تعجّب هؤلاء الجنود ولا شكّ من مظهرنا ولِحانا الباريسيّة لكنّهم لم يعبّروا عن دهشتهم في ذاك المساء.

في اليوم التالي، تناولنا الغداء في الفندق الممتاز: «الترويتة الهاربة»[2] (بودّي أن تصدّق أنّني لا أخترع شيئاً). عندئذٍ جاء قائد السريّة وسألنا بتهذيبٍ بالغ عن أوراقنا.

عذراً علَى هذه التفاصيل التافهة ولكنّ ذلك بإمكانه أن يعود بالفائدة على الجميع...

أجبناه على غرار الجنديّ الذي أجاب رجال الشّرطة وفقاً لأغنية في تلك البلاد عينها... (وكانت تُغنّى لي على سبيل التهويدة):

«سألوه:

- أين هي مأذونيتك؟

- المأذونية التي أخذتها؟

---

(1) والصحيح هو بون سانت ماكسنس Pont-Sainte Maxence، إحدى بلدات فرنسا وتقع في الحوض الباريسيّ جنوبيّ منطقة بيكارديا وشماليّ تجمّع الغابات الثلاث: آلات Halatte، وأرمنونفيل Ermenonville، وشانتيي Chantilly. تنتمي بون سانت ماكسنس تاريخيّاً إلى منطقة الفالوا.

(2) في كتاب «مهرّبو الملح» لنرفال كان الفندق يدعى «الخنزيرة الهاربة». ووفقاً لإدوار جورج، اللافتتان وُجِدَتا حقّاً لكنّ تغييرهما سابقٌ للعام 1850.

إنّها تحت حذائي».

الجواب جميل. لكنّ اللّازمة مرعبة:

«ذلك أنّ الرّوح القدس
رحيمٌ وعطوف!»

ما يشير بوضوح إلى أنّه حصل للجنديّ ما لا تُحمَدُ عقباه... أمّا قضيّتنا فانتهت بطريقة أقلّ سوءاً. أجبناه بصدقٍ كليّ بأنّنا لا نحمل عادة معنا أوراقنا إذا أردنا زيارة ضواحي باريس الكبرى. وحيّانا العريف دون أن ينبس بكلمة.

كنا نتحدّث في الفندق عن خطّة مبهمة للذهاب إلى أرمونونفيل. ثمّ، غيّرنا رأينا بسبب سوء الطقس، وذهبنا لنحجز أمكنة في العربة الذاهبة إلى شانتيي فنقترب من باريس.

ولحظة الرحيل، رأينا مفوّض شرطة يتّجه صوبنا برفقة جنديَّين ثمّ قال لنا: «أوراقكما لو سمحتما!».

فردّدنا ما قلناه سابقاً.

فقال الشرطيّ:

- حسناً أيّها السيّدان أنتما موقوفان.

قطّب صديقي البروتاني حاجبيه، ما زاد الوضع خطورة.

قلت له: اهدأ. أنا دبلوماسيّ تقريباً... رأيت عن كثبٍ في البلاد الأجنبيّة ملوكاً وباشاوات وحتّى سلاطين وأعرف كيف أتحدّث مع السّلطات.

ثمّ قلت للمفوّض:

- سيّدي مفوّض الشّرطة (لأنّه يجب دوماً إعطاء الألقاب للأشخاص)، قمت بثلاثة أسفار إلى إنكلترا؛ ولم أُسأل قطّ عن جواز السفر إلّا ليجيزوا لي الحق بالخروج من فرنسا... أنا عائد للتوّ من ألمانيا حيث اجتزت ستة بلدان مستقلّة، ومن بينها هيس [1]، ولم يسألني أحد عن جواز سفري في بروسيا.

- حسناً! أسألك عنه في فرنسا.

- أنت تعلم أنّ الأشرار لديهم دوماً أوراق ثبوتيّة.

- ليس دوماً...

- عشت سبع سنوات في هذه البلاد. لا بل إنّ لديّ فيها بعض الأملاك...

- ولكنّك تفتقر إلى أوراقك الثبوتيّة أليس كذلك؟

- صحيح... ولكن أَوَ تظنّ أنّ أناساً مشبوهين سيذهبون لاحتساء قصعة من البانش في مقهى يلهو فيه الجنود مساء؟

- بإمكان ذلك أن يكون وسيلة أفضل للتمويه.

رأيت أنني في مواجهة رجلٍ فطنٍ.

أضفت قائلاً:

- حسناً يا سيّدي المفوّض. أنا كاتب بكلّ صراحة. وأقوم بأبحاث عن عائلة بوكوا دولونغفال. وأريد أن أحدّد المكان الذي عاشوا فيه، أو أن أعثر ثانية على أنقاض القصور التي كانوا يملكونها في الأرياف.

فأشرق وجه المفوّض فجأةً وقال:

- حقّاً! أنت تهتمّ بالأدب؟ وأنا أيضاً يا سيّدي! كنت أنظم الأشعار في

(1) في الألمانيّة: Hessen. تقع هِسِن في وسط ألمانيا.

شبابي... وكتبت مسرحيّة مأساويّة.

ها إنّ خطراً آخر يتهدّدني. كان المفوّض يبدو مستعدّاً لدعوتنا إلى العشاء ليقرأ لنا مأساته. توجّب علينا التذرّع بمشاغل في باريس لكي يُسمح لنا بالصّعود في عربة شانتيي التي كان انطلاقها معلّقاً بسبب توقيفنا.

لسْتَ بحاجة لأن أقول لك يا سيّدي المدير إنّني أتابع فقط إعطاءك تفاصيل دقيقة عمّا حصل لي في سعيي الحثيث عن عائلة دوبوكوا.

من لا يمارس الصيد لا يلاحظ كما يجب جمال مناظر الخريف. في تلك اللحظة، وبالرغم من ضباب الصباح، رأينا لوحاتٍ جديرة بكبار الرسّامين الفلمنديّين. في القصور والمتاحف، لا يزال بالإمكان العثور على روح رسّامي الشمال، على تلك المناظر المصطبغة دوماً بمسحات ورديّة أو زرقاء في البعيد، وأشجار شبه عارية وسط حقول تتصدّر المشاهد الريفيّة أو تنأى عنها. لا بدّ أنّ لوحة السفر إلى كيتيريا[1] رُسمت في الأبخرة الشفّافة الملوّنة لهذه البلاد، كيتيريا منطبعة في هذه الجزيرة الصغيرة التي شكّلتها بُرَكٌ فاضت عن نهري الواز والأين المسترسلين في هدوئهما وهناءتهما صيفاً.

لا تفاجئنّك شاعريّة هذه الملاحظات. لقد سئمتُ نزاعات باريس الباطلة واضطراباتها العقيمة، وأنا أشعر بالارتياح حين أرى من جديد هذه الأرياف بأخضرها الداكن وخصبها الوافر فلا ألبث أن أستعيد قواي على هذه الأرض الأمّ[2].

---

(1) «الرحلة إلى كيتيريا» *Voyage à Cythère* للرسّام الفرنسيّ الشهير واتّو Watteau، رسمها في 1717، وستعطي عنوانها للفصل الرابع.

(2) هذه الجملة تجعل من الراوي في «أنجيليكا» بطلاً من أرومة أنتايوس (أو عنتي) في الميثولوجيا الأمازيغيّة والدته جايا ربّة الأرض التي يستمد منها قوّته أي تجعل منه أنتيروس جديداً (ثمّة قصيدة تحمل عنوان «أنتيروس» Antéros في مجموعة نرفال الشعريّة «الأوهام»).

مهما قلنا من وجهة نظر الفلسفة، تربطنا بالأرض صلات كثيرة. لا نحمل معنا رفات آبائنا في نعالنا[1]. والأتعس بيننا يحفظ في مكان ما ذكرى مقدّسة تربطه بأحبابه. سواء في الدين أو الفلسفة، كلّ شيء يعزّز لدى الإنسان هذا الإجلال للذكريات.

الرسالة السادسة

يوم الموتى - سنليس - أبراج الرومان - الصبايا - دلفين.

أكتب لكَ في يوم الموتى وأستميحك عذراً على هذه الأفكار الكئيبة. وصلت إلى سنليس البارحة ومررت بالمناظر الأشدّ جمالاً وحزناً التي تتسنّى لنا رؤيتها في هذا الفصل. كانت أشجار السنديان والحور الرجراج تصطبغ بلونٍ أمغر وسط أخضر العشب الداكن، والجذوع البيضاء لأشجار السندر تتقاطع وجنبيّاتِ الخلنج والأجمات. إلّا أنّ طريق فلاندر المهيب الطويل، والذي يصعد أحياناً ليترامى أمامك مدى بديع من الغابات الضبابيّة، هو الذي حملني على أجنحة الحلم. لدى وصولي إلى سنليس، رأيت المدينة في عيد، وسمعت الأجراس، التي كان روسو يعشق رنينها البعيد، تدوّي من الجهات جميعها. وكانت الفتيات يتنزّهنَ جماعاتٍ في المدينة أو يقفن أمام أبواب المنازل مبتسماتٍ مثرثرات. لا أعرف إنْ كنت ضحيّة وَهم ما لكنّي لم أصادف فتاة قبيحة واحدة في سنليس. ربّما كانت القبيحات لا يظهرْن للملأ!

بَيْدَ أنّ النسل في سنليس جميل عامّةً، ومَرَدّ ذلك وَلا شكّ إلى الهواء النقيّ، والطعام الوافر، وجودة الماء. سنليس مدينة معزولة عن حركة

(1) بتصرّف من جملة لدانتون Danton يقول فيها: «لا نحمل الوطن في نعالنا».

سكك الحديد الشماليّة التي تقود السكّان إلى ألمانيا. لم أعرف قطّ لماذا لم يكن الخطّ الشماليّ لسكك الحديد يمرّ ببلادنا مباشرة بدلاً من أن يشكّل انعطافة هائلة تلتفّ حول مونمورنسي في جزءٍ منها، ولوزارش، وغونيس، ونواحٍ أخرى محرومة منَ الامتياز الذي كانت لتنعم به لو كان الطريق مستقيماً. منَ المحتمل أنّ الأشخاص الذين أنشأوا هذه الطّرق كانوا يحرصون على جعلها تمرّ بممتلكاتهم. يكفي استطلاع الخارطة للتثبّت من صواب هذه الملاحظة.

اليوم عيد في سنليس ومنَ الطبيعيّ الذهاب لزيارة الكاتدرائيّة. إنّها في غاية الروعة وقد رمّمت حديثاً، مع تِرْسِ الطُغْراء المنثور بأزهار الزنبق، الذي يُمثّل شعار المدينة والذي عُنِيَ بوَضعه من جديد على الباب الجانبيّ. كان المطران يخدم القداس شخصيّاً، وكان جناح الكنيسة ممتلئاً بالوجهاء أصحاب القصور والبرجوازيّين الذين لا زلت تصادفهم في هذه الناحية.

الصبايا

لدى خروجي، نظرت بإعجابٍ، عبر التماعة شعاع الشمس الغاربة، إلى الأبراج القديمة للتحصينات الرومانيّة التي دُمّرَ نصفها واكتست باللبلاب. لدى مروري بالقرب من الدير، رأيت جماعة من الفتيات الصغيرات اللواتي جلسْنَ على الأدراج أمام الباب. كنّ يُغَنّينَ تحت إشراف الكبرى بينهنّ التي وقفت أمامهنّ مصفّقة بيديها لتضبط الإيقاع.

- هيّا يا آنساتي، لنعاودْ من جديد. الصّغيرات لا يمتثلن لأوامري!... أريد أن أسمع تلك الصغيرة التي على اليسار، الأولى على الدرجة الثانية:

هيّا غنّي وحدك.

وراحت الصغيرة تغنّي بصوتٍ خافت ولكنّه رخيم:

«البطّات في النهر....، إلخ».

لحن آخر هدهدني. حين يصل المرء إلى منتصف عمره تعتمل ذكريات طفولته من جديد كمثل طرس تتكشّف خطوطه إثر معالجته بطرق كيميائيّة.

أنْشدت الفتيات الصّغيرات معاً أغنيَةً أخرى، أذكرها هي أيضاً:

«ثلاث فتياتٍ في الحقل

قلبي يطير (مكرّر)

قلبي يطير كيفما تشاء!».

يا لكم من فتياتٍ شقيّات! قال فلّاح لطيف كان توقّف بالقرب منّي ليستمع إليهنّ. ولكنْ، ما أشدّ ظرفكنّ!... عليكنّ بالرقص الآن».

نهضت الفتيات الصغيرات عن الدرج وأدّيْنَ رقصة رائعة ذكّرتني برقصة الفتيات في الجزر الإغريقيّة.

وبالصفّ، «الواحدة تلو الأخرى»، كما يُقال عندنا، أخذْن جميعاً بالرقص. ثمّ أمسك صبيّ بِيَدَي الفتاة الأولى وجذبها إلى الوراء فيما أمسكت الأخريات كلّ واحدة بذراع زميلتها، وبَدَوْنَ مثل أفعى تتمايل بخطّ لوْلَبيّ ثمّ تلتفّ لتشكل دائرة ضيّقة حول المستمع المرغم على سماع الأغنية، وأيضاً على تقبيل الأطفال المساكين الذين يؤدّون هذه الرقصة كرمى للغريب العابر.

لم أكن غريباً لكنّي كنت منفعلاً حتّى الدمع وأنا أتعرّف، في هذه

الأصوات الصغيرة، على نغمات متقاطعة سريعة، ونبرات شجيّة قديمة ترثها الفتيات عن أمّهاتهنّ كما هي دون أيّ تغيير...

في هذه النواحي، لم تفسد الموسيقى محاكاةُ أغاني الأوبرا الباريسيّة أو أغاني الصالونات العاطفيّة، أو الألحان التي تعزفها الأراغن. لا تزال سنليس قابعة في عهد موسيقى القرن السادس عشر، المحفوظة بطريقة تقليديّة منذ أيّام آل ميديسيس. لا ننسَ أنّ عهد لويس الرابع عشر خلّف آثاره أيضاً. في ذاكرة الفتيات الريفيّات أغانٍ حزينة سيئة الذوق لكنّها محبّبة. كذلك نجد بقايا من مقاطع أوبراليّة تعود إلى القرن السادس عشر ربّما، أو تراتيل دينيّة من القرن السابع عشر.

دلفين

شاهدتُ فيما مضى تمثيليّة عرِضتْ في نزل للآنسات في سنليس.

كنّ يؤدّين تمثيليّة دينيّة كما في الأزمنة الغابرة، وكانت حياة المسيح معروضة في كلّ تفاصيلها، والمشهد الذي أذكره كان عن نزول المسيح إلى جهنّم.

داخل كرة نصفيّة تمثّل كوكباً منطفئاً ظهرت فتاة شقراء في غاية الجمال مرتدية ثوباً أبيض. كان شعرها مزيّناً باللآلئ، ورأسها مطوّقاً بهالة وفي يدها سيف مذهّب. أخذت تغنّي:

«أيّتها الملائكة انحدري بسرعة
إلى عمق المطهر!..».

وتتكلّم عن مجد المسيح الذي سيزور هذه الأمكنة القاتمة.

ثمّ أضافت:

«ستَرونه بوضوح
بإكليل المجد
مستوياً على عرش!»

تعود تلك الذكرى إلى عهد الحكم الملكيّ. كانت الآنسة الشقراء تنتمي إلى إحدى أكبر العائلات في البلاد وتدعى دلفين. لن أنسى أبداً هذا الاسم!

.... قال السيّد دولونغفال لرجاله: «فتّشوا هذا الخائن لأنّ لديه رسائل من ابنتي». ثمّ أضاف متوجّهاً إليه: «قلْ أيّها السافل، من أينَ كنت آتياً عندما خرجت فجراً من القاعة الكبيرة؟»

قال: «كنت آتياً من غرفة السيّد دولابورت ولا أعرف ماذا تقصد بتلميحك إلى رسائل».

لحسن الحظّ، كان لا كوربينير قد أحرق الرسائل التي استلمها من قبل فلم يعثروا على شيء في حوزته. ومع ذلك قال الكونت دولونغفال إلى ابنه وهو لا يزال يمسك بالمسدّس في يده: «قصّ شاربيه وشعره».

كان الكونت يتصوّر أنّه بعد هذا الإجراء التأديبيّ لن يروق لاكوربينير ابنتَه ثانيةً.

وهاكم ما كتبتُه عن هذا الموضوع:

«حين رأى هذا الشابّ ما صار بحاله رغب في الموت ظنّاً منه أنّني

سأقلع عن حبّه. ولكنّي، خلافاً لذلك، لمّا رأيته على هذه الحال بسبب حبّه لي، تضاعفت عاطفتي تجاهه فقطعت عهداً على نفسي أن أقتل نفسي أمام والدي إذا ازدادت معاملته له سوءاً. وقد تصرّف والدي بحذرٍ لأنّه كان رجلاً نبيهاً، ولم يزدد غيظه حيال لاكوربينير احتداماً، بل أرسله مع حصان أصيل إلى بوفوازي[1] ليخطر هؤلاء السادة الجنود بأن يستعدّوا للقدوم لحراسة الموقع في أوربيه[2]».

وأضافت الآنسة:

«لا معاملة والدي السيّئة له، ولا الأمر بأن يلزم حدود واجبه، استطاعا أن يردَعاه عن قضاء تلك الليلة برفقتي بفضل هذه الحيلة: بعد أن أمره أبي بالذهاب إلى بوفوازي، امتطى حصانه، وبدلاً من أن ينطلق بعَزم ونشاط، توقّف في غابة غوني[3] حتّى هبوط الليل. وعندئذٍ قصدَ تانكار في كوسي لا فيل[4]، وبعد أن تناول العشاء أخذ مسدّسَيه وأتى إلى فرنوْي متسلّقاً الجدار عبر الحديقة حيث كنت أنتظره بكلّ تصميم ودون خوف ليقيني من أنّهم يظنّونه قد ابتعد كثيراً. اقتدته إلى غرفتي وعندئذٍ قال لي: «يجب ألّا نفوّت علينا هذه المناسبة السعيدة دون أن نتبادل العناق والقبلات: لذا علينا أن نخلع ملابسنا... ليس من خطرٍ يداهمنا».

أصيب لاكوربينير بمرض، ما جعلَ الكونت أقلّ قسوة معه. ولكن، لكي يبعده عن ابنته، قال له: «عليك أن تنضمّ إلى حامية أوربيه، لأنّ

---

(1) بوفوازي Beauvoisis: منطقة في أقاليم فرنسا القديمة، كانت تنتمي في ظلّ الحكم الملكيّ القديم إلى ولاية بيكارديا ثمّ انتقلت إلى إيل دوفرانس. واليوم أعيدت إل منطقة بيكارديا.

(2) كتبها Orbaix، والصحيح Orbais في منطقة المارن في فرنسا.

(3) غوني Guny: مدينة فرنسيّة في محافظة الأين l'Aisne في بيكارديا.

(4) كوسي لا فيل Coucy-la-Ville في محافظة الأين l'Aisne في منطقة بيكارديا.

الجنود الآخرين سبقوك إلى هناك».

ما جعله يقوم بذلك على مضض.

وفي أوربيه، لمّا كان مربّي الصقور لدى الكونت قد أرسل إلى فرنوي خادمه المدعوّ توكيت، حمّله إذ ذاك لاكوربينير رسالة إلى أنجيليكا دولونغفال. ولكنّه ولخشيته أن يُكتشَفَ أمر الرسالة، أوصاه بوضعها تحت حجرٍ قبل الدّخول إلى القصر حتّى لا يجدوا معه شيئاً لدى تفتيشه.

ما إن سُمح له بالدخول سهل عليه جدّاً الذّهاب لإحضار الرسالة من تحت الحجر وتسليمها إلى الآنسة. قام الفتى بمهمّته على أكمل وجهٍ، ثمّ اقترب من أنجيليكا دولونغفال وقال لها: «لديّ رسالة لك».

أحسّت ببهجةٍ عارمة لدى استلامها هذه الرسالة التي كان لاكوربينير يقول فيها إنّه تخلّى عن مكاسب عديدة في ألمانيا بغية المجيء لرؤيتها، وإنّه كان يستحيل عليه العيش دون أن تمنحه سبيلاً لرؤيتها.

وحين اصطحبها شقيقها إلى قصر لانوفيل[1]، قالت أنجيليكا لأحد خدّام والدتها ويدعى العدّاء: «ساعدني واذهب لموافاة لاكوربينير الذي عاد من ألمانيا وسلّمه هذه الرسالة بطريقة سريّة تماماً».

الرسالة السابعة

ملاحظات – الملك لويس – تحت أشجار الورد البيضاء

قبل الكلام عن القرارات المصيريّة التي ستتخذها أنجيليكا دولونغفال، أطلب السماح بأن أضيف كلمة بعد. وبعدها لن أقاطع السرد إلّا فيما ندر. بما أنّه ممتنع علينا كتابة رواية تاريخيّة، اضطرّنا الأمر إلى الاهتمام بمواضيع

(1) لا نوفيل La Neuville-en-Hez، مدينة في الواز بين بوفيه Beauvais وكليرمون Clermont.

أخرى، أي التطرّق إلى وصف الأماكن وهوى ذاك العصر، وتحليل الطبائع، بصرف النظر عن الوجهة الحقيقيّة للسّرد.

يصعب عليّ أن أتبيّن الرحلة التي قام بها لاكوربينير إلى ألمانيا، لأنّ الآنسة دولونغفال لم تذكرها بكلمة. في تلك الأيّام، كان يُطلَقُ على البلدان الواقعة في منطقة بورغونيا العليا اسم ألمانيا. وكنّا علمنا أنّ السيّد دولونغفيل أصيب فيها بمرض الزّحار. منَ الجائز أن يكون لاكوربينير قد ذهب إلى هناك لبعض الوقت ولازمه في مرضه.

أمّا عن طبائع الآباء في الريف الذي أجوله، فقد كانت هي نفسها بشكل أبديّ إذا أردت الركون إلى الأغاني التي سمعتها في شبابي، وهي مزيج من القسوة والبساطة اللتين طبعتا حياة الأجداد. هاكم واحدة من الأغاني التي استطعت حفظها في إيل دوفرانس هذه البلاد القديمة التي تمتدّ من باريزيس[1] إلى تخوم بيكارديا:

«أمام باب قصره، جلس الملك لويس
محتضناً ابنته.
رجته أن يبارك حبّها لعاشقٍ مُعدِمٍ!

«- آه يا والدي سيكون لي
بالرّغم من والدتي التي حملت بي،
وبالرّغم عن كلّ أهلي،
وبالرّغم منك يا أبي... يا مَن أحبّه كثيراً!

«- يا ابنتي، عليك أن تستبدلي حبيبك

(1) باريزي Parisis: أو ما يسمّى «سهل فرنسا»، منطقة طبيعيّة في شماليّ باريس.

وإلّا لحبستك في البرج.
- أفضّل البقاء في البرج
يا أبي! على أن أستبدل حبيبي!

«- بسرعةٍ، أين هم حرّاسي
أين هم خدمي؟
«فليأخذوا ابنتي بسرعة إلى البرج،
وهناك، لن ترى النور!»

وهناك أمضت سبع سنوات
دون أن يعرف أحد بمكانها.
وفي نهاية السنة السابعة
جاء والدها لزيارتها.

«- صباح الخير يا ابنتي! كيف الأحوال؟
- الأحوال سيّئة للغاية يا أبي والحقّ يُقال.
تعفّنت في التراب قدماي
وأكل الدود خاصرتَيّ.

«- يا ابنتي عليك أن تستبدلي حبّكِ
وإلّا لَبقيْتِ في البرج.
- أفضّل البقاء في البرج،
يا أبي، على أن أستبدل حبّي[1]».

(1) لا شكّ أنّ نرفال كان يفكّر في هذه الأغنية عن الملك لويس في معرض كلامه عن =

رأينا نموذج الأب المتوحّش. سنرى الآن نموذج الأب المتسامح.

يؤسفني ألّا أقدر على إسماعكم الألحان التي هي شاعريّة كهذه الأبيات، الزّاخرة بالجناس وفق الذائقة الإسبانيّة، والموقّعة موسيقيّاً:

«تحت شجرة الورد البيضاء،
تتنزّه الحُلوة...
بيضاء كالثّلج،
جميلة كضوء النهار،
في حديقة أبيها
فاختطفها ثلاثة فرسان».

ومنذ ذلك الحين شُوّهَتْ هذه الأغنية بالأبيات المتكرّرة التي أضيفَت إليها وبالادّعاء بأنّها من بوربونيه[1]. لا بل أُهديت إلى ملكة الفرنسيّين السابقة مرفقة بتصاوير جميلة[2]... لا يمكنني أن أزوّدكم بها كاملة. هذه هي التفاصيل التي لا أزال أذكرها.

مرّ ثلاثة خيّالة على الحصان بالقرب من شجرة الورد البيضاء:

«الأشدّ فتُوّة بين الثلاثة

= «أغاني الفالوا وخرافاتها» في الفصل الثاني من قصّة «سيلفيا» حيث غنّت أدريانا إحدى تلك الأغاني العاطفيّة القديمة المفعمة كآبةً وولهاً التي تروي شقاء أميرة محتبسة في برجها بموجب أوامر أبيها الذي عاقبها لِكونها أحبّت.

(1) بوربونيه: Bourbonnais: بلاد صغيرة في السون واللّوار بفرنسا.

(2) هذه الأغنية: «فتاة لاغارد الجميلة» La Jolie fille de la Garde التي نشرها أشيل أليه Achille Allier (1808–1838) عام 1836 مرفقة برسم مطبوع لسيليستان نانتوْي Célestin Nanteuil، أهديت إلى الملكة ماري أميلي زوجة لويس فيليب. وهي ستُذكر أيضاً في «سيلفيا» (ضمن «أغاني الفالوا وخرافاتها»).

أمسكها من يدها البيضاء وقال:

- اصعدي، اصعدي يا حسنائي

على حصاني الأغبر».

نلاحظ أيضاً في هذه الأبيات الأربعة أنّ منَ الممكن ألّا يكون هناك قافية في الشعر. هذا ما يُدركه الألمان الذين يستعملون، في بعض القصائد، المقاطع اللفظيّة الطويلة والوجيزة فقط بحسب الطريقة القديمة.

اعتلت الصبيّة الحصان خلف الفارس الأشدّ فتوّة. وما إن وصل الفرسان الثلاثة إلى سنليس، حتّى انتبهت صاحبة النزل لأمرهم:

«ادخلي ادخلي يا حلوتي

ادخلي دون صخبِ

ستقضين اللّيلة

مع ثلاثة فرسان!»

عندئذٍ أدركت الحسناء أنّها تصرّفت بخفّةٍ. وهكذا، بعد أن جلست إلى رأس الطاولة لتناول العشاء، تظاهرَت بأنّها ميتة، وكان الفرسان الثلاثة من السّذاجة بحيث انطلت عليهم هذه الخدعة. وأخذوا يقولون فيما بينهم: «ماذا، أيُعقل أن تكون صديقتنا قد توفّيَتْ؟»، وتساءلوا إلى أين يجب إعادتها:

- «إلى حديقة والدها! «

قال الأصغر سنّاً. وتحت شجرة الورد البيضاء ذهبوا ليضعوا الجثمان.

ويُتابع الراوي:

«وبعد ثلاثة أيّام
بُعثَتِ الحُلوة من جديد!

«- افتح، افتح يا أبي
افتح فوراً؛
ثلاثةَ أيّامٍ وأنا أتظاهر بالموت
كيما أصونَ شرفي».

كان الوالد يتناول العشاء مع أفراد العائلة مجتمعين، فهلّلوا فرحاً بعودة الصبيّة بعد أن اشتدّ بهم القلق لغيابها مدّة ثلاثة أيّام.

ومن المحتمل أنّها تزوّجت لاحقاً بطريقة مشرّفة للغاية.

والآن لنعدْ إلى أنجيليكا دولونغفال.

«أمّا بالنسبة للقرار الذي اتّخذتُه بالرحيل عن وطني، فقد جرت الأمور على هذا النحو: لدى عودة من كان في مين[1] إلى فرنوي، سأله والدي قبل تناول العشاء: «هل لديك الكثير منَ المال؟» وكان جوابه: «لديّ الكثير». استاء أبي وأخذ سكّيناً من الطّاولة، لأنّ المائدة كانت قد وُضعَت، وانقضّ عليه ليطعنه. فهَرعنا أنا وأمّي نحوه، لكنّه، أقصد ذاك الذي تسبّب في آلام كثيرة، جرح إصبعه أثناء محاولته انتزاع السكّين من أبي... وبالرّغم من تلقّيه هذه المعاملة السيّئة، فإنّ حبّه لي كان يمنعه منَ الرّحيل كما كان حريّاً به أن يفعل.

ومضت ثمانية أيّام دون أن يقول له والدي لا خيراً ولا شرّاً. وفي تلك

---

(1) مين: Maine: هيَ إحدى المقاطعات القديمة في فرنسا التي ارتبطت بكونتيّة مين القديمة. كما تجدر الإشارة إلى أنّ أنجيليكا لا تسمّي أبداً لاكوربينيير الذي عرفنا اسمه من الراهب السيليستينيّ، قريب أنجيليكا.

الأثناء كان يحرّضني من خلال الرسائل على اتّخاذ القرار بالرّحيل معاً، ولم أكن قد عقدْتُ عزمي على هذا القرار، ولكن بعد مرور الأيّام الثمانية قال له والدي في الحديقة: «تفاجئني وقاحتك، وقاحة أن تبقى في منزلي بعد ما حدث. ارحَل من هنا بسرعة ولا تأتِ إلى أيّ من منازلي لأنّه غير مرحّب بك».

وانطلق مسرعاً ليسرج حصانه، ثمّ صعد إلى غرفته لأخذ أمتعته. وعندئذٍ أشار إليّ بالصّعود إلى قاعة داروكور، حيث كان في غرفة الانتظار باب مقفل وبإمكاننا التحدّث في أمان. فهرعت لموافاته وهناك قال لي ما نصّه: «هذه المرّة عليك باتّخاذ القرار، وإلّا فلن تريني بعد اليوم».

طلبْتُ منه إمهالي ثلاثة أيّام للتفكير. فذهب إلى باريس ثمّ عاد بعد ثلاثة أيّام إلى فرنوي. وفي تلك الأثناء فعلت كلّ ما بوسعي لأتخلّى عن هذا الحبّ، ولكنّ الأمر كان مستحيلاً بالنسبة إليّ، لا سيّما وأنّ كلّ ألوان العذاب التي قاسيتها عبرت في خاطري قبل الرّحيل. الحبّ واليأس فاقا كلّ اعتبار، وما كان منّي إلا أن صمّمت على الرحيل».

وبعد ثلاثة أيّام جاء لاكوربينير إلى القصر ودخل عبر الحديقة الصّغيرة حيث كانت أنجيليكا دولونغفال تنتظره، وأشرق وجهه فرحاً حين أخذ علماً بقرار الآنسة.

وحُدّد موعد الرّحيل في أوّل آحاد الصّوم، وحين نبّهها إلى «وجوب الحصول على مالٍ وحصانٍ» أجابته أنّها ستفعل كلّ ما في وسعها للظفر بذلك.

أخذت أنجيليكا تفكّر في الوسيلة التي تتيح لها الحصول على أوانٍ فضيّة، لا سيّما وأنّه يجب استبعاد فكرة المال قطعاً: لأنّ والدها أخذ معه

كلّ مالِه إلى باريس.

وحين وافى الموعد، طلبت من سائس يدعى بروتو قائلة:

«أرغب في أن تعيرني حصاناً لأرسله إلى سواسون هذه الليلة فأنا بحاجة إلى تَفْتَة لأخيط عباءة، وأعدك بأنّ الحصان سيكون هنا قبل نهوض أمّي. ولا تعجب إذا كنت أسألك ذلك ليلاً فهذا لأجنّبك تأنيبها».

امتثل السائس لمشيئة الآنسة. كان عليها أيضاً أن تستحصل على مفتاح الباب الرئيسيّ للقصر. قالت للبوّاب إنّها تريد أن ترسل أحدهم ليلاً ليشتري لها شيئاً من المدينة، وإنّه لا يفترض بالكونتيسة أن تعرف. وهكذا توجّب عليه أن ينتشل من علّاقة المفاتيح مفتاح الباب الرئيسيّ لئلا تلحظ الأمّ شيئاً.

تمثّل الأمر الجوهريّ إذَن في الحصول على الأواني الفضيّة. لكأنّ الله ألهم الكونتيسة التي، على حدّ قول ابنتها، أمرت أثناء العشاء خادمتها قائلة: «أوبيرد، بما أنّ السيّد داروكور ليس هنا، ضعي تقريباً كلّ الأواني الفضيّة في هذا الصندوق وائتيني بالمفتاح».

امتقع وجه الصبيّة، وتوجّب عليها إرجاء يوم الرحيل. في تلك الأثناء، ذهبت الأمّ لنزهة في الرّيف يوم الأحد، فخطرت لها الفكرة بأن تأتي ببيطارٍ من القرية لخلع قفل الصندوق بحجّة أنّ المفتاح كان مفقوداً.

وأضافت الآنسة: «لكنّ هذا لم يكن كلّ شيء، لأنّ أخي الفارس، الذي بقي معي وحده في المنزل وكان صغير السنّ، قال لي، إذ رآني أطلب خدمات من الجميع، وأغلق بنفسي باب القصر الرئيسيّ: «إذا كنت تريدين يا أختي سرقة والديّ، فأنا لا أريد القيام بذلك من جهتي. سأذهب إلى والدتي في الحال وأخبرها بما يجري»، فقلت له: اذهب أيّها الصغير المتهوّر

لأنّي سأقول لها ذلك بنفسي، وإذا اعترضت طريقي فسأعرف كيف أتدبّر أمري». ولكنّي كنت أقول هذه الكلمات دون أن أعني منها حرفاً. سارع هذا الصبيّ ليشي بما كنت أريد إخفاءه. ظلّ يلتفت ناحيتي لِيَرى ما إذا كنت أراقبه، فألفاني غير مهتمّة البتّة بما سيفعله، ما جعله يعود أدراجه. كنت أتقصّد اللامبالاة لعلمي أنّ الأطفال، كلّما أظهرنا لهم خوفنا ازدادت حماستهم للبوح بما توسّلنا إليهم بأن يكتموه».

هبط الليل وعند اقتراب وقت النوم تمنّت أنجيليكا لوالدتها ليلة سعيدة والألم الشديد يعتصر قلبها. وحين دخلت غرفتها، قالت لخادمتها:

- جانّ! نامي.هناك أمر يشغل بالي. لا أستطيع نزع ملابسي الآن.

وارتمت بكلّ ملابسها على السّرير منتظرةً حلول منتصف الليل.

كان لاكوربينير دقيقاً في موعده.

«آه! يا إلهي! يا لتلك الساعة، كتبت أنجيليكا، ارتعشْتُ بكليّتي عندما سمعته يرمي حصاة على نافذتي... بعد دخوله الحديقة الصّغيرة».

عندما أصبح لاكوربينير في القاعة، قالت له أنجيليكا:

«خطّتنا تسير بشكلٍ سيّئ، لأنّ والدتي أخذت مفتاح صندوق الأواني الفضيّة، وهذا ما لم تفعله من قبل، ولكن لديّ مع ذلك مفتاح بيت المؤنة حيث يوجد الصندوق».

عندئذٍ قال لي:

«يجب أن تبدئي بارتداء ثيابك، ومن ثمّ نرى ما الذي بإمكاننا فعله».

فبدأت بارتداء السروال والجزمة والمهمازين وأعانني في ذلك. ثمّ جاء السائس حتّى باب القاعة مع الحصان. كنت في غاية الاضطراب وسارعت لارتداء عباءة الجوخ لكي أخفي ملابسي الرجوليّة التي وصلت حتّى

الخصر، ثمّ ذهبت لأستلم الحصان من بروتو وقدته خارج باب القصر الرئيسيّ وصولاً إلى شجرة دردار كانت ترقص تحتها فتيات القرية في الأعياد، ثمّ عدت إلى القاعة حيث وجدت «قريبي» (هكذا توجّب عليّ مناداته خلال الرحلة) الذي كان ينتظرني بفارغ الصبر. قال لي: «لنذهب ونرَ ما إذا كان بإمكاننا أن نأخذ شيئاً وإلّا فإنّنا سنضطرّ للذهاب فارغَي الأيدي». وعلى هذه الكلمات ذهبت إلى المطبخ الذي كان بالقرب من بيت المؤنة، وإذ حرّكتُ النار لأرى بوضوح أكبر، لمحتُ رفشاً حديديّاً كبيراً فأخذته، ثمّ قلت له:

«لنذهب إلى بيت المؤنة». وحين اقتربنا من الصندوق، أمسكنا بالغطاء الذي لم يكن مطبقاً بإحكام، وقلت له: «ضع الرفش بين الغطاء والصندوق». رفعناه معاً بأذرعنا ولكن دون جدوى. أعدنا الكرّة فانقطع نابضا القفل وألفيْتُ يدي فجأةً داخل الصندوق».

وجدَتْ كدسة من أطباق الفضّة فأعطَتْها إلى لاكوربينير، وعندما أرادت أن تأخذ غيرها، قال لها: «يكفي! امتلأ كيس الخيش».

أرادت أن تأخذ المزيد من الطسوت، والشماعد، والأباريق، لكنّه قال: «سيكون حملها مربكاً لنا».

وألزمها بالذهاب لترتدي صِداراً وسترة فارس كالرجال فلا يتعرّف إليهما أحد.

وذهبا توّاً إلى كومبيَن، حيث بيع جواد أنجيليكا دولونغفال بأربعين ريالاً. ثمّ استقلّا عربة خيلٍ ووصلا مساءً إلى شارنتون.

كان النهر فائضاً ما أوجبهما الانتظار حتّى طلوع النهار. وهناك، استطاعت أنجيليكا في زيّها الرجوليّ أن تخدع صاحبة النزل التي سألتهما

«فيما كان الحوذيّ يُساعدها في خلع جزمتها»:

- يا أيّها السّيّدان ماذا يَطيب لكما أن تأكلا؟

وكان الجواب:

- كلّ ما لديكم من أطايب يا سيّدتي.

لم تستطع أنجيليكا تناول الطعام لِفرط ما كانت متعبة فخلدت إلى النوم. كانت تشعر بالخوف وخصوصاً من والدها الكونت دولونغفال «الذي كان موجوداً آنئذٍ في باريس».

وحين طلع النهار، استقلا المركب حتّى إسون[1]؛ لكنّ الآنسة كانت منهكة القوى فقالت إلى لاكوربينير:

- اسبقني إلى ليون مع الأواني.

وبقيا ثلاثة أيّام في إسون، أوّلاً لانتظار عربة خيل، ومن ثمّ لاندمال الخدوش التي أصيبت بها الآنسة في فخذيها حين أطلقت لجوادها العنان.

بعد أن اجتازا مولان، سألهما رجل كان في العربة ويدّعي أنّه منَ النبلاء:

- أوَ تكون الآنسة متنكّرة بزيّ رجل؟

فأجابه لاكوربينير:

- أصبت يا سيّدي... ثمّ ما شأنك بالموضوع؟ ألست حرّاً بأن ألبِسَ زوجتي ما يحلو لي؟

في المساء وصلا إلى ليون، إلى «شابو روج» حيث باعا الأواني لقاء ثلاثمائة ريال. وهناك أوصى لاكوربينير «على لباسٍ قرمزيّ فاخر مزدان بزخارف ذهبيّة وفضيّة على الرغم من أنّه لم يكن بحاجة إلى ذلك».

---

(1) إسّون Essonne: من أقاليم فرنسا، يقع جنوبيّ باريس وتابع لمنطقة إيل دوفرانس، وسمّي هذا الإقليم تيمّناً بنهر إسون الذي يعبره.

ونزلا على الرون. وعندما قصدا مساء أحد النُزُل، أراد لاكوربينير أن يجرّب مسدّساته وفعل ذلك بطريقة خرقاء فأصابت رصاصةٌ قدَم أنجيليكا دولونغفال اليمنى، ولكلّ من أخذ عليه تهوّره اكتفى بالقول: «إنّها لمصيبة حلّت بي... حلّت بي أنا بالذات، لأنّ الأمر يمسّ زوجتي».

مكثت أنجيليكا ثلاثة أيام في السرير ثمّ استقلّا من جديد قارباً في الرون، واستطاعا بلوغ أفينيون حيث عالجت أنجيليكا جروحها. وحين تحسّنت حالها انتقلا إلى قارب جديد، ووصلا أخيراً إلى تولون يوم الفصح.

واجهتهما عاصفة عند خروجهما منَ الميناء للذهاب إلى جنوى. لاذا بمرفأ آمن في قصر يدعى «سان سوبير»[1]، وإذ رأتهما صاحبته سالمَين أمَرت بأن يُنشَدَ لهما «سالفيه ريجينا»[2]. ثمّ أوصت بتقديم وجبةٍ لهما وفق عادات البلاد مع زيتون وأزهار الكَبر[3]، ولخادمهما الأرضي شوكي.

قالت أنجيليكا: «أرأيتم ماذا يفعل الحبّ؟ كنّا في مكانٍ غير مأهول، وتوجّب علينا أن نصوم ثلاثة أيّام منتظرين هبوب الريح المؤاتية. ومع ذلك فإنّ الساعات بدَت لي دقائق على الرغم من جوعي الشديد. حين كنّا في فيلفرانش، حظروا علينا تناول الطعام خوفاً من عدوى الطاعون. وهكذا أبحرنا والجوع ينهش أحشاءنا، ولكن قبل الإبحار، وخشية

(1) قصر سان سوبير Saint- Soupir هو قلعة سان هوسبيس Saint-Hospice القديمة التي بنيت عام 1561 ودمّرت عام 1706، على الرأس الذي يحمل الاسم نفسه في كاب فيرا (كان تابعاً آنذاك لمحافظة فيلفرانش في كونتيّة نيس). سان هوسبيس هو اسم ناسك من القرن السادس كان السكّان المحليّون يدعونه سان سوبير.

(2) : نشيد للسيّدة العذراء: «عليك السلام أيّتها الملكة».

(3) أزهار الكَبَر (Câpres): تُكبس في الخلّ وتُستعمل في الأطعمة.

الغرق، أردت الاعتراف إلى كاهنٍ فرنسيسكانيّ كان برفقتنا وكان ذاهباً إلى جنوى هو أيضاً.

«بيْدَ أنّ زوجي (أخذت تدعوه على هذا النحو)، إذ رأى رجلاً نبيلاً من جنوى يدخل إلى غرفتنا وكان يرطن قليلاً باللغة الفرنسيّة، سأله: «يا سيّد هل تريد شيئاً؟» فأجابه: «يا سيّد، أودّ أن أتحدّث إلى السيّدة». فقال له زوجي وقد امتشق السيف: «هل تعرفها؟ اخرج من هنا وإلّا لَقتلتك».

«وعلى الفور أتى السيّد أوديفريه لرؤيتنا ونصحه بالرحيل بأسرع ما يمكن لأنّ ذاك الجنويّ سيتسبّب له بالمتاعب.

«ووصلنا إلى تشيفيتافيكيا[1]، ثمّ إلى روما حيث نزلنا في أفضل فندق، منتظرين أن نجد الراحة في غرفةٍ مجهّزةٍ أرشدونا إليها في شارع البورغينييّن، عند رجلٍ من بيامونته وزوجته من روما. وذات يوم، وفيما كان قريبُ قداسةِ البابا ماراً برفقة تسعة عشر حارساً مدجّجاً، أرسل أحد حرّاسه ليقول لي هذه الكلمات باللغة الإيطاليّة: «يا آنستي، أرسلني نيافته لمعرفة ما إذا كنت تتفضّلين بالسماح له بزيارتك». وأجبته وأنا أرتعش بكلّيتي: «لو كان زوجي هنا لقَبِلت هذا الشرف. لكنْ، بما أنّه ليس هنا أتوسّل إليك بكلّ حرارةٍ أن تنقل اعتذاري إلى سيّدك».

«أوقف مركبته الفخمة منتظراً على مسافة ثلاثة منازل من مسكننا، وما إن بلغه الجواب حتّى أمَرَ الحوذيّ بالانطلاق، ومنذ ذلك الحين لم أسمع عن أخباره».

أخبرَها لاكوربينير فيما بعد بوقتٍ قصير أنّه التقى مدرّبَ صقورٍ يعمل لدى والدها ويُدعى لارواري. اجتاحتها رغبة جامحة في رؤيته، وحين

(1) تشيفيتافيكيا Civita-Vecchia: مدينة في إيطاليّا، في مقاطعة روما ضمن إقليم لاتسيو.

اجتمعا، «ظلّ صامتاً» ثمّ، بعد أن اطمأنّ إليها، قال لها إنّ السيّدة السفيرة سمعت عنها وتودّ رؤيتها.

استقبلت السفيرةُ أنجيليكا دولونغفال بالترحاب. ومع ذلك، خشيَت أن يشي بهما مدرّب الصقور، وأن يُلقى القبض عليهما هي ولاكوربينير.

استاءا لبقائهما تسعة وعشرين يوماً في روما متّخذَين جميع الاجراءات للزواج ولكن دون جدوى. «وهكذا، تقول أنجيليكا، رحلْتُ دون أن أرى البابا..».

وفي أنكونا[1] أبْحَرا يقصدان البندقيّة. واجهتهما عاصفة في البحر الأدرياتيكيّ، ثمّ لدى وصولهما ذهبا للسكن على القنال الكبير.

تقول أنجيليكا دولونغفال: «ومع أنّ هذه المدينة رائعة، فإنّها لم ترقْني بسبب البحر. وكان يستحيل عليّ أن أتناول شراباً أو طعاماً فيها إلّا ما يقيني خطر الموت».

وفي هذه الأثناء أخذ المال ينفد فقالت أنجيليكا لعشيقها: «ولكن ماذا سنفعل؟ لن يبقى لدينا فلس عمّا قريب!».

وأجابها: «عندما نطأ اليابسة، يدبّر الله... ارتدي ملابسك وسنذهب لحضور القدّاس في كنيسة القدّيس مرقس».

وحين وصلا إلى كنيسة القدّيس مرقس، جلس العريسان على المقعد الخاصّ بأعضاء مجلس الشيوخ. وهناك، ومع أنّهما غريبان، لم يُبادر أحد للاعتراض عليهما، والسبب أنّ لاكوربينير كان يرتدي سروالاً من المخمل الرقيق الأسود وصديريّ[2] من القماش الأبيض الفضيّ، ومعطفاً

---

(1) أنكونا: مدينة في الجزء الشماليّ من وسط إيطاليّا وهي ميناء على البحر الأدرياتيكيّ.

(2) صديريّ أو أصدة: ثوب بلا كمّين.

مماثلاً، وشرائط من فضّة.

استوت أنجيليكا في جلستها مسرورة لأنّ ثوبها الفرنسيّ الطراز جذب أنظار أعضاء مجلس الشيوخ إليها.

وأثناء الزيّاح حيّاها سفير فرنسا الذي كان يسير برفقة الدوج[1].

وعند العشاء، لم تشأ أنجيليكا الخروج من الفندق مفضّلة الخلود إلى الراحة على الذهاب إلى البحر في الجندول.

أمّا لاكوربينير فقد ذهب للتنزّه في ساحة القدّيس مرقس، وهناك التقى بالسيّد دولامورتيه الذي عرَض عليه خدماته. حدّثه عن المشقّة التي يواجهها وأنجيليكا في الزواج، فقال له إنّ من الأفضل أن يذهب إلى حاميته في بالمانوفا حيث بإمكانهما معالجة الموضوع، وحيث يستطيع لاكوربينير أن يلتحق بالخدمة.

وهناك عرّف السيّد دولامورتيه العريسَين المقبلين على سيادة الجنرال الذي لم يشأ أن يُصدّق أنّ رجلاً بهذه الأناقة يتقدّم للالتحاق بسريّة. وتلك التي اختارها كانت بإمرَة السيّد ريبير دومونتيليار.

وافق سيادة الجنرال مع ذلك على أن يكون شاهداً على الزواج[2]... وبعدئذٍ أقيمت مأدبة صغيرة أُنفِقت فيها البستولات العشرون الأخيرة التي كانت لا تزال في حوزة العريسين.

وفي خلال ثمانية أيّام، أعطى مجلس الشيوخ الأمرَ للجنرال بإرسال سريّته إلى فيرونا، ما جعل أنجيليكا دولونغفال تصاب باليأس، لأنّ

---

(1) الدوج: القاضي الأوّل في جمهوريّتَي جنوى والبندقيّة. والزيّاح خو موكب الكنيسة.

(2) أقيم هذا الزواج في يونيو 1632 في بالمانوفا بالقرب من أوديني (مدينة في شمال شرق إيطاليّا في إقليم فريولي). لا بدّ أنّ نرفال أخطأ بشأن اسم الشاهد (الإشبين) لأنّه كان، كما تقول أنجيليكا في اعترافاتها، السيّد ريبير Ripert (مع السيّد دولامورت M. De La Morte) وليس الجنرال.

العيشَ راقَ لها في بالمانوفا حيث كانَ الطعام بخس الثمن.

ولدى وصولهما إلى فيرونا، التقيا العديد من الضبّاط الفرنسيّين. أوصى بهما السيّد دوبرونيل، وهو ملازم في البحريّة، إلى السيّد دوبوبوي، الذي وجد لهما مسكناً بسهولة فالمنازل كانت زهيدة الثمن. قبالة المنزل كان هنالك دير للراهبات اللواتي حاولن التقرّب من أنجيليكا دولونغفال وسألنها المجيء لزيارتهنّ، وقد «بالغن في تودّدهنّ إليها ما أشعرها بالإحراج».

في تلك الفترة، أنجبت أنجيليكا طفلها الأوّل الذي حضر عمادته سيادة الجنرال ألويزي جورج والكونتيسة بيفيلاكوا. بعد أن قضت نفاسها كان الجنرال يرسل إليها مركبته في أغلب الأحيان.

وخلال حفلٍ راقصٍ أقيم لاحقاً، فاجأت جميع سيّدات فيرونا بزِيّها الفرنسيّ وهي تراقص الجنرال ألويزي: «كان جميع الضبّاط الفرنسيّين في الجمهوريّة، على حدّ قولها، مغتبطين لرؤية هذا الجنرال العظيم، المرهوب الجانب في كلّ مكان، يكرّمني أيّما تكريم».

أثناء الرقص لم يتوانَ الجنرال عن التحدّث إلى أنجيليكا دولونغفال «على انفراد بعيداً عن زوجها»، قائلاً لها: «ما الذي تنتظرينه في إيطاليّا؟... أن تعيشي معه البؤس معه حتّى آخر أيّامك. إذا قلت إنّه يحبّك، فلا تظنّي أنّ حبّي لكِ سيكون بأقلّ منه... سأشتري لكِ أجملَ اللآلئ الموجودة هنا، وعباءات الديباج التي تهوينها. فكّري يا آنستي أن تتخلّي عن حبّك له من أجل من يريد مصلحتكِ ويأخذ بيدك كي تستعيدي الحظوة لدى السادة أهلك».

إلّا أنّ هذا الجنرال كان ينصح لاكوربينير بالانخراط في حروب ألمانيا

قائلاً له إنّه سيحظى بالكثير من الفرص في أنسبروك التي كانت على مسافة سبعة أيّام من فيرونا، وإنّه سيلتحق هناك بسَرِيّة جديدة...

الرسالة الثامنة

تأمّلات - ذكريات عن العصبة المقدّسة - السيلفانيكت[1] والفرنكيّون[2] - العصبة المقدّسة

رأيت خلال تجوالي ملصقاً أزرق وعليه إعلان لمسرحيّة «شارل السابع» من تمثيل بوفاليه والآنسة ريمبلو[3]. كان العرض مختاراً بعناية. في تلك البلاد، يحبّون ذكرى أمراء القرون الوسطى وعصر النهضة الذين أنشأوا الكاتدرائيّات الرائعة التي ما برحنا نشاهدها فيها، والقصور البديعة التي لم تستطع أن تصمد في وجه الزمن والحروب الأهليّة.

والحال أنّ صراعات خطيرة نشأت في عهد العصبة المقدّسة[4]... حين تواجهت لاحقاً خليّة قديمة من البروتستانت التي استعصى تدميرها مع أخرى من الكاثوليكيّين الذين لا يقلّون حميّة وسعوا لطردِ ذاك «الكلفنيّ»

(1) السيلفانيكت Sylvanectes: من الشعوب الغاليّة، وقد أقاموا في مدينة سنليس.

(2) الفرنكيّون أو الفرنجة: مجموعة قبائل جرمانيّة دخلت مناطق الامبراطوريّة الرومانيّة من خلال مايعرف اليوم بألمانيا واستوطنت المناطق الشماليّة من بلاد الغال (حاليّاً فرنسا وأجزاء من غرب ألمانيا).

(3) «شارل السابع» *Charles VII* مسرحيّة شعريّة للكاتب الفرنسيّ ألكساندر دوما وأوّل عرضٍ لها كان في العشرين من أكتوبر 1831 على مسرح الأوديون الباريسيّ. عُرِضت المسرحيّة في سنليس في الأوّل من نوفمبر 1850، ومثّل فيها بيار فرنسوا بوفاليه Pierre-François Beauvallet (1801–1873) وجولي كونستانس رمبلو Julie Constance Rimblot (؟–1855).

(4) العصبة المقدّسة: المنظمة الكاثوليكيّة التي أسّسها هنري دوغيز عام 1576 لقمع البروتستانت إبّان الحروب الدينيّة التي اجتاحت اوروبا.

المسمّى هنري الرابع[1].

احتدمت الأمور حتّى بلغت ذروتها، كما في جميع النزاعات السياسيّة الكبرى، في هذه الأصقاع التي تشكّل جزءاً من الإقطاعات القديمة لمارغريت الفالوانيّة[2] وآل ميديتشي، الذين جاؤوا لأهلها بمنافع شتّى. وغدا الناس مصابين بحقدٍ له قوّة دستورٍ على العرق الذي حلّ محلّهم. كم من المرّات سمعت جدّتي تقول، نقلاً عمّا توارثته، عن زوجة هنري الثاني: «تلك السيّدة العظيمة كاترين دي ميديتشي[3]... التي قتلوا أطفالها المساكين!»

ومع ذلك، فإنّ عادات بقيت راسخة في هذا الإقليم دون غيره، تشير إلى نزاعات الماضي القديمة. فالعيد الأساسيّ في بعض النواحي هو «السان بارتيلمي»[4]. ومن أجل هذا اليوم نظّمت جوائز كبيرة لرماة

---

(1) هنري الرابع (1553–1610): ملك نافار، وملك فرنسا، وأوّل ملوك آل بوربون الفرنسيّين. منح البروتستانت بموجب مرسوم نانت عام 1598 حريّة العبادة. و«كالفنيّ» نسبة إلى الكالفينيّة وهي مذهب بروتستانتي أسّسه جان كالفان Jean Calvin (1509–1564)، مصلح دينيّ ولاهوتيّ فرنسيّ، من أتباع مارتن لوثر الأكثر تشدّداً.

(2) مرغريت الفالوانيّة Marguerite de Valois، زوجة هنري الرابع، ملكة نافار. تجدر الإشارة إلى أنّها ابنة ملكة فرنسا كاترين دوميديسيس التي كانت زوجة هنري الثاني واشتهرت بمحاربتها البروتستانتيّة، وربّما كانت سبباً، مضخّماً في اضطرام الحروب الدينيّة، وفي المذابح التي رافقتها كمذبحة سان بارتيلمي الشهيرة.

(3) فيما يخصّ كاترين دوميديسيس، راجع تأمّلات نرفال حول نصب آل ميديتشي في بازيليك سان دوني في قصّته «المتنوّرون». تبدو الملكة وكأنّها فينوس جديدة والدة إيروس وأنتيروس. بالنسبة للراوي في «أنجيليكا» المتماهي أصلاً مع أنتيروس، كاترين دي ميديتشي هي الإلهة الأمّ لمنطقة الفالوا.

(4) مذبحة سان بارتيلمي المذكورة آنفاً وقد ارتكبت في فرنسا عام 1572، وذُبح خلالها نحو 30 ألف بروتستانتيّ فرنسيّ على يد السلطات الكاثوليكيّة، وبأوامر من الملك شارل التاسع ووالدته كاترين دي ميديسيس.

القوس. والقوس هوَ اليوم سلاح خفيف للغاية، لكنّه يرمز ويذكّر بدءاً بذلك العهد حين كانت قبائل السيلفانيكت[1] الهمجيّة تشكّل فرعاً مخيفاً من الأعراق السلتيّة[2].

إنّ الصخور الدرويديّة[3] في أرمنونفيل[4]، والفؤوس الحجريّة، والمقابر حيث الهياكل العظميّة يُدار وجهها دوماً ناحية الشرق تشهد هي أيضاً على أصول الشعب الذي سكن هذه المناطق المنطوية على الغابات، المغمورة بالمستنقعات وقد أصبحت بحيراتِ اليوم.

لكأنّ الفالوا والبلاد الصغيرة القديمة التي تُدعى «فرنسا» يرسّخان من خلال انقسامها وجود الأعراق المتباينة تماماً. كانت فرنسا، وهي مقاطعة خاصّة من إيل دوفرانس، مسكونة، كما يُقال، بالفرنكيّين الأوائل الآتين من جرمانيا، وكانت، بحسب المدوّنين، «محطّتهم الأولى». من المعترف به اليوم أنّ الفرنكيّين لم يُخضِعوا بلاد الغال. كلّ ما في الأمر أنّهم ألفَوا أنفسهم منزلقين إلى الصراعات الداخليّة في بعض الأقاليم. أرسل الرومان في طلبهم ليعمّروا بعض المناطق، وخصوصاً ليستصلحوا الغابات الكبيرة أو يجفّفوا المستنقعات في الأصقاع الواقعة آنذاك شمال باريس. كان الفرنكيّون متحدّرين عامّة من العرق القوقازيّ، ويعيشون

(1) أعطت قبائل السيلفانيكت وهي أحد فروع الشعوب السلتيّة القديمة اسمها لمدينة سنليس (في اللاتينية سيلفانيكتوم Silvanectum، وأصل الكلمة في اللاتينيّة سيلفا silva أي غابة).

(2) السلتيّة: نسبة إلى السلتيّين: شعب هنديّ جرمانيّ استوطن أوروبا الوسطى قديماً واندمج لاحقاً بالشعوب الرومانيّة.

(3) الصخور الدرويديّة: أنصاب حجريّة كان السلتيّون، وفقاً لبعض المؤرّخين، يستخدمونها لممارسة طقوسهم الجنائزيّة وتقديم قرابينهم وأضاحيهم. وكلمة «درويديّ» نسبة إلى «درويد» Druides: طبقة من رجال الدين تمتّعت بنفوذٍ عريض بين الشعوب السلتية في غاليا وبريطانيا توارى نفوذها مع رسوخ الفتح الرومانيّ وانتشار المسيحيّة.

(4) أرمنونفيل: بلدة فرنسيّة على مسافة 13 كلم من سنليس وسبقت الإشارة إليها.

على قدم المساواة، وفق عادات الأسلاف. فيما بعد، أنشئت إقطاعات حين توجّب الدفاع عن البلاد ضدّ هجمات الشمال. إلّا أنّ المزارعين كانوا يحتفظون بالأراضي التي أعطيت لهم حرّة ويسمّونها أراضي متحرّرة من كلّ حقّ ارتفاق.

إنّ الصراع بين عرقين مختلفين أمرٌ بديهيّ لا سيّما خلال حروب العصبة المقدّسة[1]. يمكن الافتراض أنّ أحفادَ الغاليّين الرومانيّين كانوا يفضّلون البيارنيّ[2]، فيما العرق الآخر الأكثر استقلاليّة كان يلتفت إلى ماين، وديبرنون والكاردينال دولورين[3]، والباريسيّين. ولا نزال نجد، في بعض النواحي، وخصوصاً في مونتيبيلوا[4] أكواماً من الجثث التي سقطت من جرّاء المجازر أو المعارك في ذاك العهد وأبرزها معركة سنليس.

وحتّى ذاك الكونت الكبير، الكونت دولونغفال دوبوكوا، الذي

(1) هذا الصراع بين العرْقَين بوصفه محرّكاً لتاريخ فرنسا هو الطرح الأساسيّ لأغوستان تييري Augustin Thierry في كتابه «أخبار من الأزمنة الميروفنجيّة» (ميروفنجيّ: خاص بالدولة الميروفنجيّة وهي السلالة الملكيّة الأولى منَ الفرنكيّين في فرنسا) الذي صدر عام 1840. ولكنّ الباحث والناقد جاك بوني Jacques Bony أظهر أنّ نرفال يستوحي من «الشهداء» *Les Martyrs* كتاب شاتوبريان ومن «تاريخ دوقية فالوا» *Histoire du duché de Valois* (1764) لكلود كارلييه Claude Carlier (1725–1787).

(2) البيارنيّ: من ألقاب الملك هنري الرابع، نسبة إلى بيارن Béarn عند سفح جبال البيرينيس وكانت دولة صغيرة مستقلّة عرفت كيف توفّق بين الديمقراطيّة والأرستقراطيّة، ومن أشهر شخصيّاتها الملك هنري الرابع.

(3) ماين Mayenne: شارل دولورين (أو اللّورينيّ) Charles de Lorraine دوق ماين (1554–1611) والكاردينال دولورين، كاردينال دوغيز (1555–1588)، وكان كلاهما شقيقين للدّوق دوغيز الذي اغتيل عام 1588، وكانا رئيسَي الحزب الكاثوليكيّ. جان لوي دونوغاريه دولافاليت Jean-Louis de Nogaret de la Valette، دوق ديبرنون duc d'Epernon (1554–1642) وكان محظيّ هنري الثالث. معركة سنليس جرت في مايو 1589.

(4) مونتيبيلوا Montépilloy: مدينة فرنسيّة تقع على مسافة 8 كلم شرقي سنليس.

صنع حروب بوهيميا، أتراه كان سيكسب الشهرة التي تسبّبت بالكثير من العناء لخلفه، القسّ دوبوكوا، لو لم يتزعّم أفراد العصبة المقدّسة، ويسعَ إلى حماية سواسون وآراس وكاليه[1] زمناً طويلاً من جيوش هنري الرابع؟ بعد أن صمَد ثلاث سنوات في بلاد الفلاندر أُبعِدَ حتّى حدود فريزلند[2]، واستطاع مع ذلك تحقيق اتّفاقيّة هدنة لمدّة عشر سنوات لصالح هذه الأقاليم التي اجتاحها لويس الرابع عشر لاحقاً. ليس ما يدعو للعجب إذَن من الاضطهادات التي قاساها القسّ دوبوكوا في ظلّ وزارة بونشارتران.

أمّا أنجيليكا دولونغفال فإنّها تجسّد التمرّد نفسه في جرأتها[3]. ومع ذلك فهي تحبّ والدها ولم تتركه إلّا رغماً عنها ولكن، من اللحظة التي اختارت فيها الرجل الذي كان يبدو لها مناسباً -كما اختارت ابنة الدوق لويس الفارس لوتريك عشيقاً لها- فإنّها لم تتراجع عن قرارها بالهرب مع ما ينطوي عليه من تبعات، لا بل إنّها شاركت في سلب أواني والدها الفضيّة، وحينئذٍ هتفت: «! آه منَ الحبّ وغوايته!».

كان أهل القرون الوسطى يؤمنون بالسِّحر. ربّما كانت تعويذةٌ السببَ في تعلّقها بابن اللحّام ذاك الذي كان جميلاً حسب قولها؛ ولكنّه لم يسعدها على ما يبدو. ومع ذلك وعلى الرغم من اعترافها بوجود بعض الهفوات لدى ذاك الذي لا تسمّيه مطلقاً، إلّا أنّها لا تقول كلمة واحدة مسيئة بحقّه،

(1) سواسون Soisson: في إقليم الأين في بيكارديا، واحدة من أقدم المدن وهي أوّل عاصمة لفرنسا.

(2) فريزلاند: مقاطعة في شمال هولندا.

(3) في رأي نرفال قد تكون مخطوطة أنجيليكا أكثر جرأة من اعترافات روسو، والسبب أنّ أنجيليكا تنتمي إلى عائلة كبيرة.

بل تكتفي بوصف الوقائع وتواظب على حبّها له بوصفها زوجة مثاليّة متقبّلة لمصيرها برضى وصبر.

يبدو أنّ أحاديث المقدَّم، الذي كان يريد إبعاد لاكوربينير من البندقيّة فعلت فعلها. باع شارته فجأةً ليذهب إلى أنسبروك بحثاً عن الثروة، وقرّر ترك زوجته في البندقيّة[1].

تقول أنجيليكا: «ها إنّ الشارة قد بيعَت إلى ذاك الرجل الذي كان يحبّني وقد سُرّ (أي المقدّم) لظنّه أنّه لم يعد بإمكاني الاعتراض. لكنّ الحبّ، وهو المَلكُ على الأهواء كلّها، يهزأ بالمصاعب. ما إن رأيت زوجي يقوم باستعداداته للرحيل حتّى استعصت عليّ فكرة العيش من دونه».

في اللحظة الأخيرة، وفيما كان المقدّم يبتهج مسبقاً بنجاح هذه الخدعة التي كانت تتيح له أن يستفرد امرأة تقيم بعيداً عن زوجها، قرّرت أنجيليكا أن تلحق بلاكوربينير إلى أنسبروك. «وهكذا فإنّ الحبّ أودى بنا في إيطاليّا كما في فرنسا، علماً أنّ حبّي في إيطاليّا لم تكن تشوبه شائبة».

وهكذا رحلا عن فيرونا برفقة رجلٍ يُدعى بواييه وعدَه لاكوربينير بالتكفّل بمصاريفه حتّى ألمانيا، لأنّه لم يكن لديه مال. (في تلك الفترة، انتعش لاكوربينير قليلاً على الصعيد الاقتصاديّ). على مسافة خمسة وعشرين ميلاً من فيرونا، في المكان الذي يمكن فيه سلوك البحيرة للوصول إلى ضفّة ترنتو[2]، شعرت أنجيليكا بالوهَنِ قليلاً وتوسّلت إلى زوجها أن يعود بها إلى أيّ مدينة في بلاد البندقيّة، بريشيا مثلاً[3].

كان يصعب على هذه المعجبة بتراركه أن تترك بلاد البندقيّة العذبة

(1) والصحيح هو فيرونا.

(2) ترنتو: مدينة في شمال إيطاليّا.

(3) بريشيا Brescia: مدينة في شمال إيطاليّا بإقليم لومبارديا.

تلك من أجل الجبال الضبابيّة التي تسوّر ألمانيا. «كنت أعرف، على حدّ قولها، أنّ الخمسين بستولاً التي كانت بحوزتنا لن تلبث أن تتبدّد، لكنّ حبّي فاق جميع الاعتبارات».

أمضيا ثمانية أيّام في أنسبروك، حيث صادف مرور الدوق فيريا ونصح لاكوربينير بأنّ عليه الذهاب أبعد ليجد عملاً، إلى مدينة تُدعى فيش[1]. وهناك، نزفت أنجيليكا دماً غزيراً واستُدعيَتْ امرأة أفهمتها أنّها «فقدت جنينها».

لطالما اعتبر رجال الدين أنّه لمن من النجاسة إنجاب خاطئ جديد إلى العالم، مع أنّ أنجيليكا كانت متزوّجة وما فعلته كان شرعيّاً. شتّان ما بين هذه النظرة وروح الإنجيل. ولكنْ لنقلب الصفحة.

وأنجيليكا المسكينة، بعد أن برئت قليلاً، أُرغمت على ركوب الحصان، وكان الرّهوان الوحيد الذي تملكه العائلة. وتروي بهذا الصدد: «بكلّ الوهن الذي كنُت عليه، أو شبه ميتة والحقّ يقال، امتطيت الحصان لأذهب مع زوجي بغية الالتحاق بالجيش، وهناك فوجئت بعدد النساء اللواتي كنّ يوازين الرجال، وكثيرات منهنّ كن زوجات العقداء والنقباء».

ذهب زوجها يقدّم احترامه لكبير العقداء ويُدعى جيلداز[2]، وكان، على غرار والون، قد سمع عن الكونت لونغفال دوبوكوا الذي دافع عن فريزلاند في وجه هنري الرابع. عامل العقيدُ زوجَ أنجيليكا بلطفٍ، وقال له إنّه سوف يمنحه رتبة ضابط ريثما تصل السريّة -وإنّه سيرافق الآنسة

(1) كتب Fisch، والمقصود فيشت Fiecht، بالقرب من شواز شماليّ شرقيّ أنسبروك، وهي مدينة نمساويّة عاصمة ولاية تيرول الواقعة غربيّ البلاد.

(2) أنجيليكا تنطق باسمه على السمع فيما اسمه الحقيقيّ هو: جيل دوهاز Gilles de Haes .(1657-1597)

دولونغفال إلى مركبة شقيقته التي كانت قرينة الضابط الأعلى رتبة في كتيبته.

لم تكن المصائب تتوقّف عن ملاحقة العريسَين الجديدين. أصابت الحمّى لاكوربينير وتوجّب الاعتناء به. ثمّة أناس خيّرون في كلّ مكان: أنجيليكا لا تشتكي إلّا من أنّها انتقلت «من مكانٍ لآخر» -على غرار الغجريّات- بسبب ويلات الحرب. وهذا الترحّل لا يمكن أن يروق لها علماً أنّ الشروط متوافرة لكي تشعر بالرضى أكثر من أيّ امرأة أخرى لأنّها كانت الوحيدة التي تأكل إلى مائدة العقيد برفقة شقيقته فقط، «وكذلك كان العقيد يتصرّف بكثير من الطيبة حيال لاكوربينير -أي أنّه كان يعطيه أجود الطعام... إشفاقاً منه على مرضه».

وذات ليلة، وأثناء سير الجيوش، بدا أنّ أفضل مأوى يمكن تقديمه للسيّدات كان حظيرة، وأُلزِمَ الجميع بالنوم في ملابسهم خشية أن يداهمهم العدوّ. «حين استيقظت في منتصف الليل، تقول أنجيليكا، شعرت ببردٍ قارس ما حملني على القول بصوتٍ عالٍ: «يا إلهي! سأموت برداً!»». وعندئذٍ ألقى العقيد الألمانيّ بمعطفه عليها، وبات هو دون لباس يدفئه لأنّه كان يرتدي بذلته فقط.

وهنا تقوم أنجيليكا بملاحظة تنمّ عن عمق فتقول: «كلّ هذه المراعاة يمكنها أن تستوقف امرأة ألمانيّة، ولكن أنّى لها أن تروق للفرنسيّات فهنّ يمقتن الحرب!..».

ليس هنالك ما هو أصوب من هذه الملاحظة. النساء الألمانيّات لا زلْن منتسبات إلى العهد الرومانيّ حين كانت تروسنلدا[1] تحارب مع هرمان.

---

(1) والصحيح هو توسنلدا Thusnelda، زوجة هرمان Hermann؛ وهو بطل قوميّ جرمانيّ. خصّه الشاعر الألمانيّ كلوبشتوك Klopstock بقصيدة: «هرمان وتوسنلدا» «Hermann und Thusnelda» (1752) وقد ترجمها نرفال (مرتكباً الخطأ نفسه بالنسبة للاسم).

وفي معركة الكمبر[1] حيث انتصر ماريوس، كان عدد النساء يوازي الرجال.

تتميّز النساء بالشجاعة إبّان المصائب العائليّة، وفي مواجهة العذاب والموت. لم تتورّع النساء، أثناء الاضطرابات الشعبيّة التي عرفتها فرنسا، عن نصب الرايات فوق المتاريس، وقدّمن ببسالة رؤوسهنّ إلى المشنقة. وفي الأقاليم القريبة من الشمال أو من ألمانيا، أمكننا العثور على مثيلات جان دارك وجانّ هاشيت[2]. لكنّ غالبيّة النساء الفرنسيّات يخشين الحرب بسبب الحبّ الذي يُضمرنه لأطفالهنّ.

النساء المحاربات متحدّرات من العرق الفرنكيّ. عند هؤلاء القوم الآتين من آسيا، ثمّة تقليد يقضي بعَرض النساء في المعارك لتجييش شجاعة المقاتلين عبر التلويح لهم بالمكافأة المنتظرة. نجد لدى العرب العادة نفسها. الأنثى المستعدّة للتضحية بنفسها، ويسمّونها «عذراء»، تتقدّم الصفوف، محاطة بهؤلاء الذين عزموا على أن يُقتلوا من أجلها. ولكنّ الفرنكيّين كانوا يرسلون نساء كثيرات إلى القتال.

بلغت شجاعة أولئك النسوة لا بل قسوتهنّ أحياناً حدّاً كبيراً، ما أدّى إلى تبنّي الشريعة الساليّة[3]. ومع ذلك فإنّ النساء، سواء كنّ محاربات أم لا، لم يفقدن قطّ سطوتهنّ في فرنسا، ملكات كنّ أم محظيّات.

كان مرض لاكوربينير سبباً في عزمه على العودة إلى إيطاليّا. إلّا أنّه نسي

---

(1) الكمبر هم البرابرة الذين استباحوا غاليا في أواخر القرن الثاني ق.م. وهزمهم القائد الرومانيّ ماريوس عام 101 ق.م. في معركة فرسيل بعد انتصاره على التوتونيّين عام 102.

(2) جان دارك Jeanne d'Arc وجان هاشيت Jeanne Hachette رمزا البطولة النسائيّة في فرنسا القرون الوسطى.

(3) الشريعة السّالية (نسبة إلى الفرنكيّين الساليّين): قانون عُمِلَ به عند الفرنجة وفي فرنسا في العصر الوسيط المبكّر يحظُر على النساء وراثة العرش وتملّك الأرض بالميراث.

أن يحمل معه جواز سفره. «تولّانا ارتباك شديد، تقول أنجيليكا، عندما وصلنا إلى قلعة تُدعى ريستر[1]؛ رفضوا السماح لنا بالمرور وأوقفوا زوجي بالرغم من مرَضه». وبما أنّها احتفظت بحريّتها، استطاعت الذهاب إلى أنسبروك والارتماء عند قدمَي الأرشيدوقة ليوبولد متوسّلة إليها أن تمنحها العفو لزوجها. ربّما كان على الأرجح قد هرَب من الجنديّة مع أنّ زوجته لا تعترف بذلك.

مزوّدة بالعفو الموقّع من الأرشيدوقة، عادت أنجيليكا إلى المكان حيث أوقف زوجها. سألت السكّان في قرية ريتّز عمّا إذا كانوا يعرفون شيئاً عن رجلٍ فرنسيّ نبيل أسير. أعلموها بالمكان الذي احتجز فيه فوجدته ملتصقاً بموقدٍ، شبه ميت، فأعادته إلى فيرونا.

وهناك التقت السيّد دولاتور (من بيريغور)[2] ولامَته على أنّه أوعز لزوجها ببيع شارته ما تسبّب في شقائه. أضافت: «لا أعرف إذا كان لا يزال يضمر لي شيئاً من الحبّ أم أنّه أشفق عليّ لكنّه أرسل لي عشرين بستولة وأثاث بيتٍ كامل. وكالعادة، لم يستطع زوجي السيطرة على نفسه، وبدّد كلّ شيء».

استعاد عافيته قليلاً وكان يعيش باستمرار عيشة فجور مع اثنين من أصدقائه السيّدين دولابيرل وإسكوت. ومع ذلك فإنّ عاطفة زوجته لم تتضاءل حياله. وقرّرت، لتدارك العوز، أن تؤجّر أناساً غرفاً في بيتها - وهذا ما نجحت في إدارته- لكنّ لاكوربينير كان يبدّد خارج المنزل جميع

---

(1) أو ريتز Reitz جنوب برينر Brenner حسب ما يدّعي أ. لونيون. لكنّ القلعة ربّما هي قلعة رودينيك أي أبعد شمالاً.

(2) هذا السيّد الذي يُدعى دولاتور (وكلمة «تور» tour تعني «البرج») هو من خلال اسمه قرين لنرفال. راجع قصيدة «المحروم» في مجموعة نرفال الشعريّة «الأوهام».

المال الذي تكسبه، ما تسبّب لها «بألم مميت» حسب قولها. وآل به الأمر إلى بيع الأثاث بحيث إنّ المنزل لم يعد صالحاً للسكن.

«ومع ذلك، تقول المرأة المسكينة، كنت أشعر دوماً بعاطفتي مستعرة كما لدى رحيلنا من فرنسا. صحيح أنّه بعد أن تلقّيت أوّل رسالة من أمّي توزّعت هذه العاطفة على اثنين... لكنّي أعترف أنّ الحبّ الذي كنت أكنّه لهذا الرجل كان يفوق عاطفتي لوالديّ».

الرسالة التاسعة

تفاصيل جديدة غير مسبوقة- مخطوطة السيليستينيّ غوسنكور- آخر مغامرات أنجيليكا- وفاة لاكوربينير- رسائل

إنّ المخطوطة التي تحتفظ بها الأرشيفات الوطنيّة المكتوبة بيَدِ أنجيليكا تنتهي هنا.

ولكنّنا وجدنا ملحقاً بالملفّ نفسه يتضمّن الملاحظات التي كتبها قريبها الراهب السيليستينيّ غوسنكور إلّا أنّه يفتقر إلى السلاسة التي تتّصف بها قصّة أنجيليكا دولونغفال، على أنّ الجامع بينهما هو تلك السذاجة الصادقة.

ذاك مقطع من ملاحظات الراهب السيليستينيّ غوسنكور:

«أرغمتهما الحاجة على أن يديرا خمّارة، وكان الجنود الفرنسيّون يذهبون للشرب والأكل فيها مظهرين احتراماً كليّاً لأنجيليكا حتّى أنّهم كانوا يأبون أن تخدمهم. كانت تخيط أطواقاً منَ القماش تكسب منها ثمانية قروش فقط يوميّاً، وكانت إلى جانب ذلك تنزل باستمرارٍ إلى القبو، أمّا هوَ

فكانَ يشرب مع زبائنه طيلة الوقت إلى أن أصيب بالعدّ الورديّ[1].

«وذات يوم، كانت أمام بابها، فأتى نقيب وانحنى أمامها باحترامٍ كبير، وكذا فعلَت هي، ما أثار حفيظة زوجها الغيور فناداها وأمسكها منَ عنقها. أخذت في الصراخ فهرَع الشاربون ووجدوها شبه ميتةٍ مضطجعة أرضاً بعد أن وجّه إليها رفساتٍ في الأضلع جعلتها عاجزةً عن الكلام، وقال، لكي يبرّر فعلته، إنّه كان قد حظرَ عليها التحدّث إلى ذاك الرجل وإنّه لو تحدّثت إليه لَنشبَ فيها سيفه».

أصبح هزيلاً من جرّاء فسقه. آنذاك كتبت إلى أمّها رسالةً تطلب فيها أن تصفح عنها. وأجابتها والدتها بأنّها تسامحها وتنصحها بالعودة، وإنّه لن تنساها في وصيّتها.

حُفِظَتْ هذه الوصيّة في كنيسة نوفيل أون هيس وتضمنّت إرثاً بلغت قيمته عشرة آلاف ليرة.

خلال غياب أنجيليكا دولونغفال، أرادت آنسة من بيكارديا أن تنتحل صفَتها. وتجرّأت على المثول أمام السيّدة داروكور، والدة أنجيليكا، لكنّها نفت أن تكون ابنتها. كانت تروي أشياء وأشياء واستطاعت أن تدفع بأقارب كثر على تصديق ما كانت تدّعيه...

كتب القريبُ السيليستينيّ لأنجيليكا يحثّها على العودة، لكنّ لاكوربينير رفض البحث في الأمر. كان يخشى أن يُلقى القبض عليه ويُعدم في حال عودته إلى فرنسا. كذلك لم تكن الأمور على ما يرام بالنسبة لعائلته، لأنّ الخطأ الذي ارتكبته أنجيليكا كان السبب في أنّ الكونت داروكور طرد من نواحي كليرمون سور واز والدتَه وأشقّاءه الذين كانت

---

(1) العدّ الورديّ أو الورديّة: تورّد الوجه بسبب تمدّد الشعيرات الدمويّة لفرط احتساء الكحول.

المقْصبة مورد رزقهم».

وأخيراً وبعد وفاة السيّدة داروكور في ديسمبر 1636[1] في نوفيل أون هيس حيث دُفِنَتْ (أمّا السيّد داروكور فتوفّي عام 1632)، ألحّت أنجيليكا على زوجها كثيراً إلى أن وافق على العودة إلى فرنسا.

حين وصلا إلى فيراري أصيبا كلاهما بالمرض، ومكثا هناك اثني عشر يوماً، ثمّ أبحَرا من ليفورنا ووصلا إلى أفينيون وهما على حالهما. وهناك توفّي لاكوربينيير في 5 أغسطس 1642 ودُفِنَ في سانت مادلين. قبيل وفاته تولّاه ندمٌ شديد لأنّه أساء إلى زوجته. قال لها: «إذا أردت أن تتعزّي وتخفّفي من حزنك تذكّري معاملتي لك».

«آنذاك، يتابع الراهب السيليستينيّ، كانت في عوز شديد بحيث إنّها كتبت لي وقالت لي شفاهاً إنّها أوشكت أن تموت منَ الجوع لو لم يساعدها السيليستينيّون.

«وصلت إلى باريس يوم الأحد في 19 أكتوبر في عربة للسفر، وطلبت من السيّدة بولوني، صديقتها العزيزة، أن تأتي لاصطحابها. وإذ لم تكن هناك فقد جاء صاحب النزل. وفي اليوم التالي، بعد العشاء، أتت للقائي مع السيّدة بولوني وحَماتها، والدة لاكوربينيير، وكانت تعمل خادمة في المطبخ لدى السيّد فيران، وقد أُرغمت على القيام بهذا العمل منذ طردَت من كليرمون بسبب ابنها.

«وللحال جاءت أنجيليكا وارتمَت عند قدميّ جامعة يديها، طالبة منّي الغفران، ما أبكى المرأتين. قلت لها إنّني لن أغفر لها (تنهّدت ثمّ تنفّست الصّعداء لدى سماعها البَقيّة) لأنّها لم تؤذِني. أمسكتها من يدها وقلت لها

(1) توفّيت في الواقع عام 1640، عام 1636 هوَ عام كتابتها الوصيّة.

أن انهضي، ثمّ أجلستها بالقرب منّي حيث ردّدت ما كانت كتبته لي غالباً: بعد الله ووالدتها، حياتها من مسؤوليّتي».

بعد أربع سنوات سكنتْ في نيفيلير[1]، وكانت في فقرٍ مدقع، لا تملك قميصاً تكتسي به، كما يبين في الرسالة التالية.

الرسالة التي كتبتْها إلى ابن عمّها الرّاهب السّيليستينيّ بعد أربع سنوات من عودتها من نيفيلير

السابع من يناير 1646

سيّدي يا أبتي الطيّب (هكذا كانت تنادي الرّاهب السّلستينيّ)

أتوسّل إليك بتواضعٍ كليّ ألّا تعزو صمتي لفقدان التقدير الذي سأكنّه لك طيلة حياتي لما لك من أفضال عليّ، بل اعزِه لخجلي لأنّي لا أملك إلّا الكلمات لأعبّر لك عن امتناني. أؤكّد لك أنّ الحظّ السيّئ يُلاحقني ويجعلني في عوز شديد. هذا البؤس منعني حتّى الآن من أن أكتب لكَ وللسيّدة بولوني لأنّه يبدو لي أنّه حرِيّ بي أن أعوّضكما ولو قليلاً عمّا فعلتماه من أجلي أنتما الاثنين. اعذر شقائي وليس رغبتي وتكرّم عليّ، يا أبتي العزيز، بالسؤال عن أخبارك.

خادمتك الوضيعة

أ. دولونغفال

(إلى السيّد غوسنكور، دير السيليستينيّين، باريس.)

هذا كلّ ما نعرفه. للسيليستينيّ غوسنكور نظرته الخاصّة إلى قصّة الحبّ تلك. لا يستطيع خياله البسيط كراهب أن يتقبّل، في الواقع، حبّ

(1) نيفيلير Nivillers: إحدى بلدات فرنسا في منطقة بيكارديا.

قريبته «لقصّابٍ» بسيط، لذا فهوَ يعزو كلّ شيءٍ إلى السَّحر.

وإليكم رأيه:

«رحلا عشيّة الأحد الأوّل منَ الصّوم عام 1632 وعادا عام 1642 في زمن الصوم. بدأت علاقتهما العاطفيّة قبل ثلاثة أعوام من هرَبهما. لكي يحبّبها إليه، قدّم لها مربّى كان أوصى عليه في كليرمون وأضيف إليه ذباب إسبانيّ[1]، ما جعل الفتاة تلتهب حماسة ولكن ليس حبّاً. ثمّ قدّمه لها في سفرجلة مطهوّة، ومنذ ذلك الحين هامَت به».

لا شيء يثبت أنّ الأخ غوسنكور أعطى قميصاً لقريبته. لم تكن أنجيليكا موقّرة في عائلتها؛ وهذا واضح لأنّها لم تُسمَّ في شجرة العائلة التي تذكر أسماء جاك أنيبال دولونغفال، حاكم كليرمون أون بوفوازي، وسوزان داركنفيلييه سيّدة سان ريمو. وأُهمِل شخصان اسمهما أنيبال، وثانيهما ألكساندر أنيبال، وهوَ الطفل نفسه الذي لم يكن يريد أن «تسرق أخته ماما وبابا»، بالإضافة إلى صبيَّين آخرين، لكن لا ذكر للفتاة[2].

الرسالة العاشرة

صديقي سيلفان - قصر دولونغفال في سواسونيه - رسائل - حاشيَة.

(1) الذّباب الإسبانيّ mouches espagnoles هو الاسم التجاريّ لمسحوق الذُّرّاح mouches cantharides، والأخير اسم حشرة يُصنع من تجفيفها مسحوق مهيّج جنسيّاً، خطير على الصحّة ويمكن أن يتسبّب بالموت.

(2) هنا يخطئ نرفال لأنّ أنجيليكا مذكورة فعلاً في شجرة عائلة لونغفال بين أولاد جاك أنيبال دولونغفال وسوزان داركنفيلييه الثمانية عشر (وليس فقط أربعة أو خمسة). من جهةٍ أخرى، ألكساندر هو اسم الأوّل، وليس الثاني، ولم يكن أيّ منهما، وهما أكبر سنّاً منها، الأخ الأصغر الذي ذكرته أنجيليكا في مخطوطتها.

لا أسافر أبداً في هذه النواحي دون أن أصطحب معي صديقاً سأدعوه باسمه الصّغير سيلفان.

إنّه اسم شائعٌ جدّاً في هذا الإقليم- مؤنّثه هو الاسم الأنيق: سيلفيا[1]، مجسّداً من خلال غيضة في غابة شانتيي حيث كان الشاعر تيوفيل دوفيو يذهب غالباً وهناك يستسلم لأحلامه[2].

قلت لسيلفان: هلّا ذهبنا إلى شانتيي؟

وأجابني: لا... قلتَ أنت نفسك البارحة إنّه يجب الذهاب إلى أرمنونفيل والتوجّه من هناك إلى سواسون ومن ثمّ زيارة آثار قصر آل دولونغفال في سواسونيه، على حدود شامباني.

أجبته:

- نعم، البارحة مساءً أهاجت تلك الجميلة أنجيليكا دولونغفال أفكاري، وأردت أن أرى القصر الذي اختطفها منه لاكوربينيير، هناك حيث امتطت حصاناً وتنكّرت في زيّ رجلٍ.
- هل أنت واثق على الأقلّ من وجود قصرٍ لبني لونغفال؟ لأنّ هناك بني لونغفال وبني لونغفيل في كلّ مكان...أضف إلى ذلك بني بوكوا...
- لست مقتنعاً في ما يخصّ العائلة الأخيرة؛ لكن إصغِ إلى هذا المقطع من مخطوطة أنجيليكا:

(1) سيلفي Sylvie في النصّ الفرنسيّ لكنّنا ارتأينا أن نضيف «ألفاً» للأسماء الواردة في الكتاب لتجميل موسيقى لفظها: أنجيليك: أنجيليكا؛ سيلفي: سيلفيا؛ أوكتافي: أوكتافيا (المترجمة).

(2) راجع «منزل سيلفي» La maison de Sylvie لتيوفيل دوفيو Théophile de Viau، حيث كانت سيلفي روح الطبيعة. شخصيّة سيلفيا هذه ستعطي اسمها للقصّة الثانية من قصص نرفال، وهي مع قرينها الذكوري سليفان، جنيّة المكان في بلاد السيلفانيكت. وتجدر الإشارة إلى أنّ اسم سيلفيا مشتقّ من الجذر اللاتينيّ سيلفا sylva: ومعناه «غابة».

«وحين أتى اليوم الذي يُفترض فيه أن يصطحبني ليلاً، قلت لسائس يُدعى بريتو: أودّ أن تعيرَني حصاناً لأرسله هذه الليلة إلى سواسون لأنّني أريد أن أوصي على عباءة لي، وأعدكَ بأنّ الحصان سيَكون هنا قبل أن تنهض أمّي..».

فقال لي سيلفان: «يبدو إذَن أكيداً أنّ قصر آل لونغفال كان يقع في جوار سواسون، لذا ليس الوقت ملائماً للعودة إلى شانتيي. هذا التغيير للاتّجاه أوشك أن يتسبّب بتوقيفك في المرّة السابقة لأنّ من يغيّر رأيه فجأةً يثير الشبهات دوماً»...

رسائل

بعثْتَ لي برسالتين تتعلّقان بمقالاتي الأولى عن الأب دوبوكوا. توضح في الرسالة الأولى، بالاستناد إلى سيرَة حياةٍ مختصرَة، أنّ بوكوا Bucquoy وبوكوا Bucquoi لا يُمثّلان الشخص نفسه. وعلى هذا أجبتك بأنّ الأسماء القديمة ليس لها كتابة موحّدَة. إنّ هويّة العائلات لا تتعيّن إلّا عبرَ الشعارات. لقد سبق لنا وأشرنا إلى شعارات هذه العائلة[1] (شعار الشرف المؤلّف من ستّة أجزاء مزيّنة بالفراء والحمرة). وهذا يمكن العثور عليه في جميع الأسر سواء في بيكارديا، أو في إيل دوفرانس، أو في شمباني التي يتحدّر منها الأب دوبوكوا. لونغفال ينتمي إلى شمباني، ومن غير المُجْدي الاسترسال في هذا النقاش الشعاريّ.

استلمت منك رسالة ثانية مصدرها بلجيكا وتقول فيها:

«بما أنّني قارئ معجَب بالسيّد جيرار دونرفال وأرغب في أن أكون

(1) خطأ من نرفال لأنّها هذه هي المرّة الأولى التي تُذكَر فيها هذه الشعائر.

لطيفاً معه، أرسل له هذه الوثيقة المرفقة، التي ربّما ستكون له ذات منفعةٍ من أجل استكمال جولاته المسلّية بحثاً عن الأب دوبوكوا، تلك الذبابة الصغيرة المتعذّر إمساكها التي خرجت من قانون ريانسي.

«أوليفييه دوفري، «الحملات العسكريّة الباهرة للجنرال المدهش شارل دولونغفال، كونت فان بوكوا van Busquoy، بارون دوفو»، بروج 1625. وللكاتب نفسه: «توليفات شعريّة»، باخوس كورتريك، بروج 1625. وأيضاً: «منفى الحبّ»، بروج 1625[1]».

«كتاب نادر ومثير للفضول. النسخة مبقّعة من جرّاء الماء».

لن أسعى إلى ترجمة هذا المقال من البيبليوغرافيا الفلمنديّة. إلّا أنّني ألحظ أنّه جزء من كرّاس مطبوع لمكتبة يفترض أن تُباع في الخامس من ديسمبر والأيّام التالية تحت إشراف السيّد هيبرليه، 5 شارع بارواسيان، بروكسيل.

أفضّل انتظار مزاد تيشنير الذي سيُقام، كما آمل، في 20 ديسمبر.

الآثار- النزهات- شاآليس- أرمنونفيل- قبر روسو.

في إحدى رسائلي استعملت خطأ عبارة «ردّ فعل» في معرض حديثي عن: «تجاوزات السلطة» التي تؤدّي إلى ردود أفعال «في الاتّجاه المعاكس»[2].

يبدو الخطأ بسيطاً بادئ الأمر. ولكنّ هناك عدّة أنواع من ردود الأفعال. البعض يتبعون سبل المراوغة، والبعض الآخر ينكفئون. أردت

(1) أوليفييه دوفري Olivier de Wree (1596–1652) كان مؤرّخاً بلجيكيّاً (من منطقة فلاندر). وهنا نلاحظ طريقة سادسة لكتابة الاسم المبحوث عنه: Busquoy.

(2) إحالة إلى مقطع في «مهرّبو الملح» لم يستعده نرفال في «أنجيليكا».

القول إنّ إفراطاً يقود إلى إفراط آخر. وهكذا يغدو مستحيلاً عدم التنديد بالحرائق وأعمال التخريب الفرديّة، على ندرتها في أيّامنا. ينضمّ دوماً إلى الحشد الثائر عنصر عدوانيّ أو غريب يقود الأمور أبعد من الحدود التي يفرضها الحسّ السّليم العامّ والتي يؤول به الأمر دوماً إلى رسمها.

أريد أن أروي نادرةً بهذا الصدد وقد أخبرني إيّاها هاوي كتبٍ شهير، وكانت تتحدّث عن هاوي كتبٍ آخر...

إبّان ثورة فبراير[1]، أُحرِقتْ بعض العربات-التي قيل إنّها تابعة لمخصّصات الملك، وكان ذلك خطأً جسيماً ارتكبه هذا الحشد المشوّش ويُلامُ عليه بقسوةٍ اليوم، إذ كان يجتذب خلف المقاتلين، خونة أيضاً...

كان هاوي الكتب الذي أتحدّث عنه ذاهباً في ذلك المساء إلى القصر الوطنيّ[2]. لم تكن العربات تستحوذ على اهتمامه بل كان قلقاً بخصوص رواية عنوانُها «برسفوريه»[3]، مؤلّفة من أربعة مجلّدات بالقطْع الكبير.

كانت إحدى تلك الروايات المندرجة في سلسلة حكايا أرتوس[4] -أو سلسلة حكايا شارلمان[5]- حيث توجد أقدَم ملاحم حروبنا الفروسيّة.

---

(1) اندلعت ثورة فبراير في باريس من 22 إلى 25 فبراير 1848، وقد أطاحت هذه الثورة في فرنسا بملكيّة أورليان ومعها لويس فيليب الملك الأخير لفرنسا (1830–1840)، وأدّت إلى قيام الجمهوريّة الفرنسيّة الثالثة.

(2) القصر الوطنيّ: هو القصر الملكيّ الذي أُطلقت عليه تسمية القصر الوطنيّ في أعقاب ثورة فبراير 1848.

(3) *Perceforest*: رواية نثريّة فرنسيّة مجهولة الكاتب، بريطانيّة الأجواء، وتعود إلى القرن الرابع عشر. أمّا وصف نرفال للنسخة الصّادرة عام 1528، وكانت موجودة في مكتبة الملك لويس فيليب، فإنّه غير مطابق للحقيقة.

(4) رواية مجهولة الكاتب وبطلها المدعوّ أرتوس ابن الدوق جيان Jehan البريطانيّ.

(5) شارلمان: ملك الفرنجة وحاكم امبراطوريّتهم (768–800) والإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة (800–814).

دخل إلى بلاط القصر مخترقاً الأزدحام، وكانوا يفسحون له الطريق ذاهلين. كان رجلاً ضامراً، طويل القامة يرتدي زيّاً أسود رزيناً، وذا وجهٍ متجهّم يبشّ أحياناً عن ابتسامة ودودة.

قال:

- يا أصدقائي هل أحرقوا رواية «برسفوريه»؟

- لا يحرقون إلّا العربات.

- عظيم! تابعوا. والمكتبة؟

- لم يمسّها أحد... ثمّ، ما مطلبك؟

- أطلب ألّا يمسّ أحد طبعة «برسفوريه» الصادرة في أربعة مجلّدات. برسفوريه بطل من الماضي. إنّها طبعة وحيدة تحتوي صفحتين معدّلَتين وفيها بقعة هائلة من الحبر على المجلّد الثالث.

وعلى هذا أجابوه:

- اصعدْ إلى الطّابق الأوّل.

وفي الطابق الأوّل التقى أناساً قالوا له:

- نأسف لما حصل في بداية الشغب... أُتلِفَت، في خِضمّ الفوضى، بعض اللّوحات...

- نعم، أعرف، لوحة لهوراس فيرنيه وغودان[1]... كلّ ذلك ليس مهمّاً: ماذا عن برسفوريه؟

ظنّوه مجنوناً. ابتعد، وذهب للبحث عن حارسة القصر التي كانت قد انزوَت في منزلها.

- سيّدتي، إذا لم يدخلوا إلى المكتبة فاذهبي وتأكّدي من هذا الأمر:

(1) هوراس فيرنيه Horace Vernet (1789–1863) رسّام فرنسيّ يستوحي موضوعاته من التاريخ. تيودور غودان Théodore Gudin (1802–1880) رسّام مناظر بحريّة.

وجود رواية «برسفوريه»، طبعة القرن السادس عشر، منشورات غوم[1]، وغلافها من الرقّ، أمّا باقي محتويات المكتبة فلَيست مهمّة، لا بل مختارة بشكلٍ سيّئ! وزوّارها لا يقرأون! ولكنّ رواية «برسفوريه» تُساوي أربعين ألف فرنك قبل وضعها في المَزاد العلني.

جحظت عينا الحارسة.

- أنا أدفع اليوم عشرين ألف فرنكٍ ثمناً لها بالرغم من انخفاض الأسعار الذي ستسبّبه الثورة بطبيعة الحال.

- عشرون ألف فرنك!

- أحمل هذا المبلغ في حوزَتي. وكلّ هذا لكي أعيدَ الكتاب إلى الأمّة. إنّه نصب تذكاريّ.

دُهشت الحارسة واندفعت سالكة طريق المكتبة عبر درجٍ صغير. كانت حماسة العالِم قد انتقلت إليها عدواها.

عادت الحارسة بعد أن رأت الكتاب على الرفّ حيث حدّد لها هاوي الكتب مكانه.

- سيّدي، الكتاب في مكانه. ولكنّك مخطئ إذ ليس هناك إلّا ثلاثة مجلّدات.

- ثلاثة مجلّدات!... يا للخسارة!... سأذهب لأُطلع الحكومة المؤقّتة على الأمر... هناك مجلّد رابع... رواية «برسفوريه» ناقصة! الثورات مريعة!

هرع هاوي الكتب إلى مبنى البلديّة. وكان لديهم اهتمامات أخرى

(1) غوم Gaume: منطقة في بلجيكا.

تشغلهم غير فهرسَة الكتب. ومع ذلك استطاع أن ينفرد بالسيّد آراغو[1]، ويطلعه على أهمّيّة الموضوع فاقتنع وأصدر الأوامر في الحال.

لم تكن رواية «برسفوريه» ناقصة إلّا لأنّ مجلّداً أعير من قبل.

نشعر بالسرور لدى التفكير في أنّ هذا العمل الأدبي استطاع أن يبقى في فرنسا.

أمّا كتاب «قصة الأب دوبوكوا» الذي يُفترض به أن يُباع في العشرين من هذا الشهر، فقد لن يلقى المصير نفسه...

والآن، انتبه، أرجوكَ للأخطاء التي يمكن أن تُرتكب -في جولةٍ سريعةٍ غالباً ما نعرض عنها بسبب الشتاء أو الضباب...

أتركُ سنليس بحسرة، ولكنّ صديقي يريد المغادرة لكي يجعلني أمتثل لفكرة عبّرتُ عنها عرَضاً...

كانت هذه المدينة تروق لي كثيراً حيث يتآلف عصر النهضة والقرون الوسطى والعهد الرومانيّ في غير مكان، عند منعطف أحد الشوارع، في أحد الإسطبلات أو الأقبية. كنت أحدّثك عن «أبراج الرومان تلك المكسوّة باللبلاب!». إنّ الاخضرار الأبديّ الذي يكسوها لَيُشعِر بالخزي الطبيعة المتقلّبة لبلادنا الباردة. في الشرق، الغابات خضراء دوماً. لكلّ شجرةٍ فصلها الذي تتغيّر فيه ولكنّ هذا الفصل يتبدّل تبعاً لطبيعة الشّجرة. رأيت في القاهرة أشجار الجمّيز تفقد أوراقها في الصّيف لتعود خضراء في شهر يناير.

في الممرّات المحيطة بسنليس، والتي حلّت محلّ التحصينات الرومانيّة

(1) فرنسوا آراغو François Arago (1786–1853)عالم فيزيائيّ وعضو في الحكومة المؤقّتة بعد ثورة فبراير.

القديمة، وقد رُمِّمَتْ فيما بعد عقب المكوث الطويل للملوك الكارولنجيّين[1]، لم تعد تُرى سوى أوراق الدردار الصدئة، والزيزفون. ومع ذلك فإنّ المنظر لا يزال جميلاً في الضواحي عند أصيلٍ جميل. ترتسم غابات شانتيي وكومبيَن وأرمنونفيل، وكذلك غابات شاليس، وبونت أرميه، بكتلها الحمراء متداخلة مع أخضر البراري الزاهي. ثمّة قصور بعيدة لا تزال ترتفع أيضاً بأبراجها المبنيّة من حجارة سنليس الصلبة، لكنّها باتت مهجورة عامّة إلّا من الحمام الذي جعل فيها مواكِنه.

قبب الأجراس المسنونة، المشكوكة بنتوءات متتابعة ندعوها في البلاد «العظام» (ولا أعرف السبب) لا تزال تصدح بأجراسها الصاخبة التي كانت تحمل كآبة عذبة إلى نفس روسو[2]...

فلنكمل رحلة الحجّ التي تعهّدنا بأن نقوم بها، ليس قريباً من رفاته الذي يرقد في البانثيون، ولكن قريباً من قبره في أرمنونفيل، في الجزيرة التي تُدعى جزيرة أشجار الحَور.

ليس في كاتدرائيّة سنليس، أو كنيسة القديس بطرس التي تحوّلت اليوم إلى ثكنة المدرّعين، أو قصر هنري الرابع المتّكئ على تحصينات المدينة القديمة، والأديرَة البيزنطيّة لشارل البدين[3] وخلفائه، ما يستوقف الناظر... لا تزال اللّحظة مؤاتية لاجتياز الغابات، بالرغم من الضباب

(1) تولّت الدولة الكارولنجيّة الحكم بعد الدولة الميروفنجيّة، ويعود مجتدها إلى شارل مارتل بطل معركة بواتييه (732). أشهر ملوكها على الإطلاق شارلمان (742–814)، مؤسّس إمبراطوريّة الفرنجة الذي حكم حتّى 814 من مدينة آخن (بالألمانية: Aachen) وكانت له علاقات وديّة ومراسلات مع أمير المؤمنين هارون الرشيد في بغداد وكانا يتبادلان الهدايا.

(2) يقصد الأديب الشهير جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau.

(3) تشارلز البدين Charles le Gros: هو تشارلز الثالث المعروف بهذا اللقب (839–888) ملك ألمانيا ثمّ إيطاليّا وامبراطور وملك الفرنجة الشرقيّين. كان آخر امبراطور من الذريّة الشرعيّة للسلالة الكارولنجيّة.

المعاند الذي يغمر الصباح.

انطلقنا من سنليس مشياً على القدَمين عبر الغابات، متنشّقين بسعادةٍ ضبابَ الخريف.

سلكنا طريقاً تؤدّي إلى الغابات، وإلى قصر مون ليفيك[1]. كانت مستنقعات تلتمع هنا وهنالك عبر الأوراق المكتنفَة حمرتها بالاخضرار القاتم لأشجار الصنوبر. أنشد لي سيلفان هذا اللّحن البلديّ القديم:

«تشجّع يا صديقي تشجّع!
ها نحن اقتربنا من القرية
وعند أوّل منزل
سنتناول شراباً منعشاً!»

احتسينا في القرية نبيذاً خفيفاً لم يكن سيّئاً بالنسبة لمسافرين. قالت لنا المضيفة إذ رأت لِحانا: هل أنتم فنّانون... هل أتيتم لزيارة شاليس[2]؟

شاليس... لدى سماعي هذا الاسم تذكّرت زمناً بعيداً كلّ البعد، حين كانوا يصطحبونني إلى الدّير مرّة في السّنة، فأحضر القدّاس، وأرى السوق الشعبيّ الذي كان يُقام قريباً من هناك.

- شاليس، قلت في نفسي، ألا يزال كلّ ذلك موجوداً؟

---

(1) مون ليفيك: Mont-L'Evêque: إحدى بلدات فرنسا في محافظة الواز في منطقة بيكارديا، تبعد مسافة 3،7 كلم عن سنليس، وتجاور الحدود الشماليّة لغابة أرمونفيل.

(2) شاليس: Chaalis أو فونتين شاليس Fontaine-Chaalis: إحدى بلدات فرنسا تقع على تخوم غابة أرمونفيل في محافظة الواز في منطقة بيكارديا. ودير شاليس دير قديم في فونتان شاليس في قلب منطقة الفالوا التاريخيّة وسط غابة أرمونفيل قبالة بحر الرمال. بناه ملك فرنسا لويس السادس وعهد به إلى رهبان دير مونتينيي Montigny. وقد أصبح لاحقاً مركزاً اقتصاديّاً وفكريّاً مزدهراً.

لا شابيل أون سرفال[1] في عشرين نوفمبر ذاك

كما أنّ من الجيّد في سمفونيّة ولو رعوية أن تُستعاد بين الفينة والأخرى اللازمة الرئيسيّة، رشيقة كانت أم عذبة، أم رهيبة، وتنشد في الختام بصوتٍ عالٍ تواكبها العاصفة المتصاعدة تدريجاً لكلّ الآلات، كذلك أعتقد أنّه من المفيد أن أواصل حديثي لك عن الأب بوكوا، دون أن أقطع السباق الذي أجريه في هذه اللحظة باتّجاه قصر آبائه، مع نيّتي القيام بعرضٍ دقيق الوصف للمعالم لولاه لكانت مغامراته دون أهميّة تذكر.

لكنّ الختام لا يزال بعيداً، وسترَى أنّ ذلك يحصل رغماً عنّي...

بدايةً، لنرفع ظلماً ارتكبناه بحقّ ذاك السيّد الطيّب رافنيل الذي يعمل في المكتبة الوطنيّة، والذي صبّ كلّ اهتمامه في البحث عن الكتاب، وقلّب ثمانمائة ألف مجلّد، أي كلّ محتوياتها، رأساً على عقب. علمت بالأمر منذ ذلك الحين. ولكن، بما أنّه لم يستطع العثور على الكتاب الضائع فقد نبّهني سرّاً إلى مبيعات تيشنير، وذاك هو تصرّف عالِمٍ حقيقيّ.

وإذ علمت أنّ كلّ بيعٍ لمكتبةٍ كبيرةٍ يستمرّ لبضعة أسابيع فقد سألت عن اليوم المحدّد لبيع الكتاب، راغباً في الذهاب مساءً إلى المزايدة إنْ كانت ستتمّ في العشرين من الشهر.

لكنّ تاريخ البيع حُدّد في الثلاثين منه!

الكتاب مصنّف في باب «التاريخ» تحت الرقم 3584، «أندَر الأحداث»، إلخ... المعنوَن كما تعرفون.

وقد أرفقَتْ به الملاحظة التالية:

---

(1) لا شابيل أون سرفال La Chapelle en Serval: إحدى بلدات فرنسا في محافظة الواز في منطقة بيكارديا.

«كتاب نادر»: هكذا أُدرِج عنوان هذا الكتاب الغريب ويوجد في أعلاه رسم يمثّل «جحيم الأحياء» أو الباستيل. باقي الكتاب يتضمّن على أمور من بين أكثرها فرادة.

كاتالوغ مكتبة السيّد م...، إلخ».

بمستطاعي أيضاً أن أعطيك انطباعاً أوّليّاً عن أهمّية هذه القصّة، التي يبدو أنّ بعض الأشخاص يشكّون في وجودها، عبر ملاحظات أخذتها من مراجع ميشو[1].

بعد تطرّق ميشو لسيرة حياة شارل بونافنتور، الكونت دوبوكوا، القائد الأعلى للجيش، والعضو في جمعيّة جزّة الكبش الذهبي[2]، الذي اشتهر بحروبه في فرنسا وبوهيميا وهنغاريا، ونُصّب حفيده شارل أمير الإمبراطورية، يُدرج مقالة عن الأب دوبوكوا، المشار إليه بصفته متحدّراً من عائلة سَلَفِه نفسها. بدأت حياته السياسيّة بتمضية خمس سنوات في الخدمة العسكريّة. بعد أن نجا بأعجوبة من خطر كبير، قطع عهداً على نفسه أن يترك العالم وينعزل في لاتراب[3]. الأب

(1) لوي غابريال ميشو Louis-Gabriel Michaud (1858–1773)، أديب وأمين مكتبة فرنسيّ، كتب مؤلّفات تاريخيّة وبيوغرافيّة أهمّها: *Biographie universelle ancienne et moderne: histoire par ordre alphabétique de la vie publique et privée de tous les hommes* («بيوغرافيا عالميّة قديمة وحديثة، تاريخ الحياة العامّة والخاصّة لكافّة الأعلام مرتبّة حسب أحرف الهجاء»)، الصادر عام 1811 في طبعته الأولى، وعام 1843 في طبعته الثانية.

(2) «جمعيّة الجزّة الذهبيّة» Ordre de la Toison d'Or: جمعيّة فرسان عريقة قديماً أسّسها دوق بورغونيا فيليب لوبون Philippe le Bon في مدينة بروج Bruges ببلجيكا في 10 يناير 1430 بمناسبة اقترانه بإيزابيل البرتغالية، واسم الجمعيّة مستوحاة من الأسطورة اليونانيّة عن الجزّة الذهبيّة.

(3) لاتراب La Trappe: بلدة قديمة في فرنسا واقعة في محافظة دوردونيا في منطقة أكيتانيا. وفيها ظهرت رهبانيّة لاتراب التي أنشئت عام 1140 وهي رهبانيّة اشتهرت بالعزلة وقسوة حياتها والصمت والعمل.

دورانسيه[1] الذي ألّف عنه شاتوبريان كتابه الأخير يشير إليه بصفته قليل الإيمان. استعاد ثوبه العسكريّ ليقايضه لاحقاً بأسمال متسوّل.

وعلى غرار الزهّاد والدراويش، كان يجول العالم مصمّماً على إعطاء أمثلة في التواضع والتزهّد. جعل الآخرين يسمّونه «الميت» وأنشأ تحت هذا الاسم مدرسة مجّانيّة في روان.

أتوقّف هنا خشية أن أفقد الموضوع رونقه. أريد فقط أن أضيف شيئاً واحداً بعد لأثبت أهميّة قصّة الأب دوبوكوا وهو أنّه اقترح لاحقاً على ولايات هولندا المتّحدة، التي كانت في حرب مع لويس الرابع عشر، خطّة تهدف إلى «جعل فرنسا جمهوريّة وتدمير السلطة الاعتباطيّة السائدة فيها»، على حدّ قوله. توفّي في هانوفر في عمر الثمانين واهباً أثاثه وكتبه إلى الكنيسة الكاثوليكيّة التي ظلّ وفيّاً لها على الدوام. أمّا بالنسبة للسنوات الستّ عشرة التي هاجر فيها إلى الهند، فأنا لا أملك بهذا الخصوص معطيات إلّا عبر الكتاب الصادر باللغة الهولنديّة في المكتبة الوطنيّة.

ذهبنا إلى شاليس لرؤية المِلكيّة بالتفاصيل قبل أن ترمّم. هناك السور الواسع المحاط بالدّردار. ثمّ شاهدنا إلى اليسار مبنى على طراز القرن السّادس عشر، يُرجَّح أنّه رُمّم لاحقاً وفقاً للهندسة الثقيلة لقصر شانتيي الصّغير.

رأينا المطابخ وملحقاتها، والسلّم المعلّق الذي يرقى إلى زمن هنري الرابع ويقودك إلى الشقق الواسعة للأروقة الأولى، شقق كبيرة وأخرى صغيرة مطلّة على الغابات. لاحظت بعض الرسوم المؤطّرة وفيها كونديه

(1) «الأب دورانسيه» *L'Abbé de Rancé*: آخر مؤلّف كتبه الأديب الفرنسيّ الشهير شاتوبريان Chateaubriand، وهو كتاب سيرة قديسيّة عن حياة الأب أرمان جان لوبوتيّيه دورانسيه Arman Jean Le Bouttillier de Rancé (1626–1700) الذي توفّي في دير رهبانيّة لاتراب وهو أحد روّادها.

الكبير[1] ممتطياً الحصان، ومناظر للغابة. هذا كلّ شيء. في غرفةٍ منخفضة، رأيت رسماً لهنري الرابع في عمر الخامسة والثلاثين.

آنذاك التقى غابرييل[2]، وربّما كان هذا القصر شاهداً على غراميّاتهما. هذا الأمير الذي قلّما أستلطفه، في الواقع، أقام طويلاً في سنليس، خصوصاً في العهد الأوّل لحكمه. ويعلو بابَ المبنى البلديّ والكلماتِ الثلاثَ: «حريّة، مساواة، إخاء»، رسمُه بالبرونز مرفقاً بشعار محفور ورد فيه أنّه عرف السعادة لأوّل مرّة في سنليس، عام 1590. ومع ذلك لم يشأ فولتير أن يجعل من سنليس إطاراً للمشهد الأوّل لغراميّات هنري الرابع وغابرييل ديستريه[3]، والذي يُحاكي فيه أريوستو[4].

ألا ترى أنّ من الغريب أن يكون آل أستريه هم أيضاً أقارب للأب دوبوكوا؟ ومع ذلك فهذا ما تظهره شجرة العائلة... أنا لا أخترع شيئاً.

كان ابن الحارس هو الذي اصطحبنا لزيارة القصر المهمل منذ وقت طويل. كان رجلاً ملمّاً بالاحترام الذي يجب أن نوليه للآثار التاريخيّة، مع أنّه لم يكن مثقّفاً. وأرانا في إحدى القاعات «راهباً» عثر عليه بين الأنقاض. لدى رؤية هذا الهيكل الراقد في مذودٍ حجريّ، خُيّل إليّ أنّه لم يكن راهباً بل محارباً سلتيّاً أو فرنكيّاً مضطجعاً حسب الأصول مولياً وجهه صوب

---

(1) كوندديه الكبير Le grand Condé هو لويس الثاني دوبوربون كونديه الملقّب بكونديه الكبير، أمير فرنسيّ (1621–1686) من مشاهير قادة لويس الرابع عشر. اشتهر بانتصاراته على الإسبان. لقّب بالكبير.

(2) غابرييل: إشارة إلى غابرييل ديستريه Gabrielle d'Estrée خليلة هنري الرابع في 1591. أنجبت منه ثلاثة أطفال.

(3) في النشيد التاسع من ملحمة «لا هنرياد» *La Henriade* لفولتير.

(4) أريوستو (1474–1533) شاعر إيطاليّ، سبق ذكره. له «أورنالدو الغاضب» وهي قصيدة ملحميّة ومن أشهر مؤلّفات النهضة الإيطاليّة.

الشرق في هذه المحلّة حيث اسما إيرمان أو آرمين شائعان في الجوار، ناهيك عن اسم أرمنونفيل الواقعة قريباً من هنا -والتي ندعوها في البلاد آرم- نونفيل أو نونفال وفق الاسم القديم[1].

تشكّل مجموعة الأنقاض الرئيسيّة بقايا الدير القديم الذي بُنيَ على وجه التقريب في عهد شارل السابع، وفق الطّراز القوطيّ المزدان بالزّهر والقبب الكارولنجيّة ذات الأعمدة الضخمة التي تغطّي القبور. لم يبق إلّا رواق طويل من الأقواس القوطيّة يصل الدير بمبنى أوليّ حيث تُرى أيضاً أعمدة بيزنطيّة منحوتة في عهد شارل البدين مولجة في أسوار ثقيلة من القرن السادس عشر.

قال لنا ابن الحارس:

- يريدون هدم جدار الدير لكي يكون للقصر إطلالة على البِرَكِ. تلك نصيحة أعطيَت للسيّدة.

قلت:

- يجب إسداء النصيحة لسيّدتك بأن تفرغ فقط الأقواس القوطيّة من الحجارة التي تملؤها، وعندئذٍ يطلّ الرواق على البِرَكِ، وهذا يجعل المنظر أكثر جمالاً بكثير.

وعدني بأنّه سيتذكّر نصيحتي.

كانت بقيّة الأنقاض تضمّ أيضاً برجاً ومصلّى. صعدنا إلى البرج. ومن هناك رأينا الوادي كلّه تتخلّله السبخات والأنهار، والبطاح الكبيرة الجرداء التي تُدعى صحراء أرمنونفيل، وتحتوي فقط أحجاراً رمليّة

---

(1) يشتقّ نرفال اسم المدينة على ذوقه فيما هي سمّيت تيمّناً باسم مطران سنليس: أرمنون .Ermenon

رماديّة، وبعض أشجار الصنوبر الهزيلة ونبات الخلنج.

كانت مقالع مغراء ترتسم أيضاً في غير مكان عبر الغابات المتساقطة أوراقها معيدةً لخضرة السهول والغابات ألقها، وهناك كانت أشجار السندر البيضاء بجذوعها المكسوّة باللبلاب وأوراق الخريف الأخيرة تتجاور مع كتل الغياض المحمّرة المتقاطعة مع زرقة الأفق.

نزلنا من جديد لِنَرى المصلّى. إنّه روعة هندسيّة، إذ رشاقة الأعمدة والتعاريق والزخرفة المرهفة والدّقيقة للتفاصيل تكشف عن المرحلة الوسطيّة بين طرازَي القوطيّ المزدهر والنهضة. ولكن ما إن دخلنا حتّى أعجبنا بالرّسوم التي بدَت لي وكأنّها تنتمي إلى عصر النهضة.

قال لنا ابن الحارس:

- سترَون قدّيسات بأثوابٍ مكشوفة الصّدر قليلاً.

وبالفعل لمحنا ما يشبه لوحة المسيح في مجده الإلهيّ مرسومة على جداريّة لجهة الباب، محفوظة بشكلٍ كامل، بالرغم من ألوانها الشاحبة، ما عدا الجزء السفليّ المكسوّ بالرّسوم الناصلة ألوانها، ولكنّ ترميمها لن يكون صعباً.

ربّما راودت رهبان شاليس الأتقياء الرغبة في حذف بعض الرسوم العاريَة النافرة من طراز ميديتشي. وفي الواقع، بدت كلّ هؤلاء الملائكة والقدّيسات أقرب إلى ملائكة الحبّ والحوريّات بصدورهنّ وأفخاذهنّ العارية. كان محراب المصلّى يبين في فسحات تعاريقه عن رسوم أخرى محفوظة بشكلٍ أفضل وفق الطّراز الرمزيّ المستخدم فيما بعد في عهد لويس الثاني عشر.

حين استدرنا للخروج لاحظنا فوق الباب علائم نسبٍ يُفترض بها أن

تشير إلى عهد الزخارف الأخيرة.

صعبَ علينا تميّز التفاصيل في شعار النسب المقسوم إلى أربعة أجزاء الذي أعيدَ طلاؤه لاحقاً بالأبيض والأزرق. في القسمَين الأوّل والرابع طيورٌ دعاها ابن الحارس بالبجع موضوعة اثنين ثمّ واحداً؛ لكنّها لم تكن بجعاً.

هل هيَ نسور شرّعت أجنحتها أو شحارير أو رنوك عقابيّة[1] أو أجنحة صغيرة مصلّبة في صواعق؟

في القسمين الثاني والثالث ترى رماحاً أو أزهار زنبق، فالرسم غير واضح. كانت قبّعة كاردينال تحيط بالشعار وتنسدل من الجهتين بشبكتها المثلثة المزدانة بشرّابات. ولكن بما أنّه يتعذّر عدّ صفوفها نظراً لخشونة الحجارة يخطر للناظر أن يتساءل عمّا إذا كانت قبّعة كاهن.

ليس لديّ كتب هنا ولكن يبدو لي أنّها شعارات نبالة اللّورين متفرّعة عن تلك التي لفرنسا ولكن مع بعض التعديل. أوَ تراها تكون أيضاً شعارات كاردينال لورين الذي أعلن ملكاً على هذه البلاد تحت اسم شارل العاشر، أم شعارات الكاردينال الآخر الذي كان مدعوماً هو أيضاً من العصبَة المقدّسة؟... ما عدت أعرف شيئاً، ذلك أنّي لست إلّا مؤرّخاً ضعيفاً، أعترف[2].

(1) رنك عقابيّ: شعار نسَب يمثّل عقاباً بلا منقار وبلا قدمين.

(2) نرفال هنا ضائع فعلاً (كما تؤكّد الملاحظة المرفقة بآخر القصّة القصيرة) فالشعارات هي في الواقع عائدة لهيبوليت ديست Hippolyte d'Este، أوّل رئيس يتمتّع بحقّ الانتفاع بإيراد دير شاليس. وشارل العاشر الذي أعلنته العصبة المقدّسة ملكاً عام 1589 كان الكاردينال دوبوربون (1523–1590) وهو عمّ الملك العتيد هنري الرابع.

الرسالة الحادية عشرة

قصر أرمنونفيل – المتنوّرون – ملك بروسيا – غابرييل وروسو – المقابر – رؤساء الدير في شاليس.

لدى مغادرة شاليس يجدر بنا اجتياز مجموعة من الغابات، لندخل بعدئذٍ في الصّحراء. صحراء شاسعة لدرجة أنّنا حين نصل إلى منتصفها لا نرى أيّ أفق على الإطلاق. ولكن، بعد نصف ساعةٍ من المسير، نصل إلى المنظر الأكثر هدوءاً وسحراً في العالم... طبيعة سويسريّة مقتطعة وسط الغابة: وذلك مذ خطرت لرينيه دوجيراردان[1] فكرة أن يجعلها على صورة البلاد التي تتحدّر منها عائلته.

قبل الثّورة ببضع سنوات، كان قصر أرمنونفيل ملتقى المتنوّرين[2] الذين كانوا يحضّرون المستقبل بصمتٍ. في حفلات العشاء الشهيرة لأرمنونفيل، شوهد تباعاً الكونت سان جرمان، وميسيمر وكاغليوسترو، وهم يتداولون، في أحاديثهم الملهمة، أفكاراً ومفارقات ورثتها عنهم فيما بعد

---

(1) الماركيز رينيه دوجيراردان René de Girardin (1753–1808) حاكم أرمنونفيل ومصمّم حدائقها. وهو أوّل من صمّم حدائق على الطريقة الإنكليزيّة وكان له تأثير على هذا الفنّ حتّى منتصف القرن التاسع عشر. يعود أصله إلى عائلة جيرارديني التوسكانيّة. ارتبط بصداقةٍ مع الأديب الشهير روسو. وقد توفّي روسو حين كان في ضيافته، ودفن في أرمنونفيل قبل أن ينقل رفاته إلى البانثيون أو مدفن العظماء.

(2) المتنوّرون Les illuminés: جمعيّة سريّة باطنيّة، نشأت في مدينة إنغولشتات بولاية بافاريا الألمانيّة في 1776 على يد آدم فايسهوبت، وهو يسوعيّ سابق (يُعرّف به في حاشية لاحقة)، ثمّ انتشرت في أنحاء أوروبا وأميركا. يعتبر المتنوّرون بصورة عامّة معارضين للكنيسة والنبلاء وقد استلهموا فلسفة التنوير والعقل التي سادت في القرن الثامن عشر وأدّت إلى نشوء الثورة الفرنسيّة. كان هدف الجمعيّة الرئيسيّ سيادة الشعب وإقامة مجتمع عقلانيّ. وقد أغرى فكر المتنوّرين الكثير من الأدباء والفنّانين مثل الأديب الألمانيّ الشهير غوته.

المدرسة التي دُعيَت مدرسة جنيف. وفي اعتقادي أنّ السيّد دوروبسبيير، ابن مؤسّس المحفل الإسكوتلنديّ في أرّاس، الذي كان شابّاً آنذاك، وأنّ سينانكور لاحقاً، وسان مارتان، ودوبون دونومور، وكازوت[1] جاؤوا ليعرضوا أفكارهم إمّا في هذا القصر، وإمّا في قصر لو بلوتييه في مورتفونتان، أفكارهم الغريبة التي كانت تقترح طرائق لإصلاح مجتمع يقتضي إعمال تغيير جذريّ فيه، مجتمع بات قديماً حتّى في عاداته كمثل تلك المساحيق التي كانت تُستخدَم وتضفي على أفتى الجبهات مظهرَ شيخوخةٍ زائفاً.

ينتمي سان جرمان إلى عهدٍ سابق. لكنّه أتى إلى هنا. وهو الذي أظهر للويس الخامس عشر في مرآة فولاذيّة حفيده مقطوع الرأس[2].

وكان نوسترادراموس قد أظهر لماري دوميديسيس[3] ملوك أسرتها، وبدا

(1) الكونت دوسان جرمان Saint- Germain de، مغامر مهووس بتحضير الأرواح؛ فرانز أنطون ميسمير Franz Anton Mesmer (1734–1815) طبيب ألمانيّ، مكتشف المغناطيس الحيوانيّ؛ جوزيف بالسامو Joseph Balsamo، أو الكونت دوكاغليوسترو comte de Cagliostro (1743–1795) مغامر إيطاليّ؛ ماكسيميليان دوروبسبيير Maximilien de Robespierre (1758–1794) إحدى أهمّ الشخصيّات المؤثّرة في الثورة الفرنسيّة، بدأ عهد الإرهاب فكان من ضحاياه؛ إيتيان بيفار دوسينانكور Etienne Pivert de Senancour (1770–1846) مؤلّف رواية «أوبرمان»؛ لويس كلود دوسان مارتان Louis-Claude de Saint-Martin (1743–1803) الملقّب بـ «الفيلسوف المجهول»؛ بيار صامويل دوبون دونومور Pierre Samuel Dupont de Nemonrs، (1793–1817)، منظّر الفيزيوقراطيّة؛ جاك كازوت Jacques Cazotte (1719–1792) مؤلّف «الشيطان العاشق». معظم هؤلاء المتنوّرين مذكورون عام 1852 في المؤلّف الذي كتبه نرفال ويحمل الاسم نفسه «المتنوّرون» *Les Illuminés*، ويتضمّن «قصّة الأب دوبوكوا» في سياق عنوان ثانويّ: «روّاد الإشتراكيّة».

(2) كتب نرفال في «المتنوّرون»: «أظهر [أي سان جرمان] للويس الخامس عشر مصير أولاده في مرآة سحريّة فتراجع الملك رعباً لرؤية صورة وليّ العهد مقطوع الرأس».

(3) والصحيح هو: كاترين دوميديسيس.

الرابع فيهم مقطوع الرأس أيضاً.

إنّها مجرّد أعمال صبيانيّة. أمّا قدرة المتصوّفين الحقيقيّة فهي تتمثّل في الخبر الذي يرويه بومارشيه عن البروسيّين لدى اقترابهم من فردان ثمّ ما لبثوا أن انكفأوا فجأةً نتيجة ظهور عجائبيّ أذهل ملكهم، وأملى عليه أن يقول لجنوده «لنصرف النظر» أسوةً بما كان يقوله الفرسان في بعض الحالات.

كان المتنوّرون الفرنسيّون والألمان يتفاهمون وفق علاقات انتساب. اخترقت نظريّات فايسهوبت وياكوب بوميه[1] مناطقنا الفرنكيّة والبورغينيّة القديمة بفضل التعاطف القديم والعلاقات العتيدة بين الأعراق المنتمية إلى الأصول نفسها. كان رئيس الوزراء لدى ابن شقيق فريدريك الثاني متنوّراً هو نفسه. يفترض بومارشيه أنّ ما حصل في فردان هو جلسة تنويم مغناطيسيّ أُظهِرَ فيها لفريدريك غليوم عمَّه يقول له: «عُد أدراجك» كما قال شبح لشارل السادس.

هذه المعطيات الغريبة تشوّش الخيال. إلّا أنّ بومارشيه، الذي كان شكّاكاً، ادّعى أنّه لجلسة الاستشباح[2] استُقدِمَ من باريس الممثّل فلوري[3]

---

(1) كان آدم فايسهوبت Adam Weisshaupt (1748–1830) أستاذاً في القانون الكنسيّ والفلسفة العمليّة في جامعة إنغولشتات في (بافاريا العليا). أسّس «جمعيّة المتنوّرين» عام 1776 في بافاريا، وكان هدفها تحسين مهارات التفكير والتعلّم وفق نظريّات وأفكار معيّنة مبنيّة على الحكمة، وحريّة التفكير، وتنوير العقل بنقله من ظلام الجهل إلى نور المعرفة. ياكوب بوميه Jakob Boehme (1575–1624) متصوّف ألمانيّ شهير.

(2) استشباح: فنّ إظهار الأشباح في قاعة مظلمة بمساعدة خدَع بصريّة.

(3) أبراهام جوزيف بينار Abraham-Joseph Bénard المعروف بـ «فلوري» Fleury (1750–1822): انتصاره الأعظم كان يوم أدّى على المسرح شخصيّة فريدريك ملك بروسيا. يقال إنّ شقيق هذا العاهل قدّم نصائح ودروساً للممثّل لكي يحاكي حركات قاهر روسباخ ومشيته. قال لاهارب La Harpe في اليوم التالي: «طوّع نفسه كما يجب إستناداً إلى البورتريه الشمعيّ الذي لدينا في باريس وحاكى بشكل مذهل زيّ الملك فريديك وهيئته لدرجة أنّه طابق الأصل».

الذي كان قد أدّى سابقاً للفرنسيّين دور فريدريك الثاني، والذي أوحى لملك بروسيا بالانسحاب من اتّحاد الملوك المتحالفين ضدّ فرنسا[1]، فامتثل لأمره منذ ذلك الحين، كما هو معروف.

إنّ ذكريات هذه الأمكنة التي تحيط بي تثقل كاهلي أنا نفسي بحيث إنّني أرسل لك كلّ هذا كيفما اتّفق ولكن وفقاً لمعطيات أكيدة. ثمّة تفصيل أكثر أهميّة تجدر الإشارة إليه، وهو أنّ الجنرال البروسيّ، حين احتلّ البلاد إبّان تلك الإعادة الكارثيّة للحكم الملكيّ بعد سقوطه، وعلم أنّ قبر جان جاك روسو موجود في أرمنونفيل، أعفى البلاد كلّها من أعباء الاحتلال العسكريّ، بدءاً بكومبيَن. كان ذاك الجنرال يُدعى، على ما أظنّ، الأمير دانالت[2]. لنتذكّر عند الحاجة هذه النادرة.

لم تكن إقامة روسو إلّا قصيرة في أرمنونفيل[3]. ولئن كان قد ارتضى بأن يكون له ملاذ فيها فهذا لأنّه منذ وقتٍ طويل، وخلال النزهات التي كان يقوم بها منطلقاً من «الأرميتاج»[4] في مونمورنسي، أيقن أنّ هذه

(1) إنّ مصدر هذه النادرة لا يوجد في كتابات بومارشيه Beaumarchais بل في مقال نُشِرَ في المجلّة البريطانيّة *Monthly Magazine* في عددها الصادر في فبراير 1839، «المتنوّرون: الكونت دوكايلوس. ملك بروسيا فريدريك غيّوم، والممثل فلوري». الكاتب (المجهول) للمقال يزعم أنّه سمع الخبر من «الأب ساباتييه، وهو مستشار في الديوان الكبير لبارلمان باريس» الذي هاجر بسبب الثورة وقد نقل الخبر هو نفسه عن بومارشيه ويختم قائلاً: «وفقاً لهذه الأقوال، قد تكون حركة المتنوّرين قد ساهمت في تأكيد نصر الثوّار على ائتلاف الملوك». الأب أنطوان ساباتييه دوكاستر Antoine Sabatier de Castres (1742–1817) صاحب كتاب «ثلاثة قرون من الأدب الفرنسيّ» *Trois siècles de la littérature française* (1774) ومؤسّس «الجريدة السياسيّة الوطنيّة» *Journal politique national* عام 1789.

(2) المقصود هو أمير فالشتادت Wahlstadt، الجنرال بلوشير Blücher.

(3) من 20 مايو حتّى وفاته في 2 يوليو عام 1778.

(4) الأرميتاج L'Ermitage: اسم المنزل الصغير الذي وضعته السيّدة ديبيناي Mme d'Epinay في تصرّف روسو في أبريل 1756 على تخوم غابة مونمورنسي. ويعني الاسم «صومعة النّاسك».

المنطقة توفّر لجامع الأعشاب فصائلَ نباتيّة مثيرة للاهتمام وذلك بسبب تفرّع خصائص التربة.

ذهبنا للإقامة في نزل يُدعى «لا كروا بلانش»[1] حيث أقام روسو نفسه بعض الوقت لدى وصوله. وبعدها سكن أيضاً في الجهة المقابلة للقصر، في منزل يشغله اليوم سمّانٌ. لقد وضع السيّد رينيه دوجيراردان[2] تحت تصرّفه بيتَ ضاحيةٍ غير مسكون مواجهاً لبيت كان يسكنه حارس القصر. وهناك توفّي.

لدى نهوضنا، ذهبنا لنجول في الغابات التي كانت لا تزال مغلّفة بضباب الخريف الذي راح ينجلي شيئاً فشيئاً كاشفاً من جديدٍ عن المرآة الأثيريّة للبحيرات. رأيت مثل هذه المؤثّرات البصريّة على علب تبغ أيّام زمان... رأيت من جديدٍ جزيرة «بوبلييه»[3] في ما يتعدّى البرك التي تعلو مغارة مصطنعة تتساقط عليها المياه لدى تساقطها... ويمكن أن نرى وصفاً مطابقاً لها لدى قراءتنا قصائد غيسنر[4] الغزليّة.

على الصخور التي نصادفها لدى التجوال في الغابات كتابات شعريّة. فهنا كُتب:

«كتلتها الخالدة أضنت الزمن».

---

(1) لا كروا بلانش la Croix-Blanche أي الصليب الأبيض.

(2) الماركيز رينيه دوجيراردان، سبقت الإشارة إليه، تلميذ جان جاك روسو ومضيفه، ومصمّم حديقة أرمنونفيل.

(3) جزيرة بوبلييه أو جزيرة أشجار الحَور Ile des peupliers حيث رقد رفات روسو قبل نقله إلى البانثيون عام 1794.

(4) هو سالومون غيسنر Salomon Gessner (1730–1788): شاعر سويسريّ يكتب بالألمانيّة وقصائده الغزليّة *Les Idylles* (1756) عرفت في جميع انحاء أوروبا نجاحاً كبيراً. راجع قصة «سيلفيا»، الفصل الرابع عشر: «أرمنونفيل، البلاد حيث ما برحت تزهر أنشودة الغزل القديمة»، من قصيدة غيسنر التي ترجمها نرفال مرّة جديدة!».

وفي مكانٍ آخر:

«هذا المكان ميدان السباقات البطوليّة

التي تشي بعاطفة الأيل المشبوبة».

أو أيضاً هذه العبارة، المرفقة بنقشٍ بارز يمثّل كهنَة سلتيّين يقطعون الهدال:

«هكذا كان أجدادنا في غاباتهم المتوحّدة!»

هذه الأبيات المفخّمة يبدو لي أنّها تعود لروشيه. ذلك أنّ دوليل كان سيجعلها أقلّ متانة[1].

كان السيّد رينيه دوجيراردان ينْظم أيضاً الأشعار. وكان فضلاً عن ذلك رجلاً صالحاً. أظنّ أنّنا نَدين له بهذه الأبيات التالية المنحوتة في مكانٍ مجاور فوق نافورة يعلوها تمثال لنبتون وآخر لأمفيتريت[2] التي ترتدي ثوباً مكشوف الصدر قليلاً كملائكة شاليس وقدّيسيها:

«على الضفاف المزهرة كان يطيب لي

أن أُفيض صفوة مياهي البلوريّة،

أيّها العابر، آتي إلى هنا ممتثلةً

للرغبات، لحاجات الإنسان والقطعان.

فكّر، وأنت تغرف من كنوز أحواضي الخصبة،

أنّك تدين بهذا لعطاياي التي لا تنضب،

ألا ليتني أستطيع أن أروي بمياهي

(1) جان أنطوان روشيه Jean Antoine Roucher (1745–1794) شاعر وصفيّ. جاك دوليل Jacques Dellile (1738–1813) شاعر تعليميّ ومترجم لفيرجيل. التدوين الأوّل موقّع باسمه.

(2) أمفيتريت: إلهة البحر عند اليونان.

الهانئين فقط من النّاس والسعداء!»

لن أتوقّف عند شكل الأبيات. ما يعجبني هو فكر ذاك الرجل الشريف. إنّ الأثر الذي تركته إقامته لا يزال مرئيّاً في البلاد. هناك قاعات رقص حيث خُصّصَ «مقعد للمسنّين»، ولحفلات رمي السهام مع المنصّة حيث كانت توزّع الجوائز... وعلى ضفاف المياه معابد مستديرة ذات أعمدة رخاميّة، مكرّسة إمّا لفينوس الأمّ أو لهرمس مواسي الأحزان. كان لكلّ هذه الميثولوجيا آنئذٍ معناها الفلسفيّ العميق.

لا يزال قبر روسو على حاله بشكله القديم البسيط، في صحبة أشجار الحور العارية التي تضفي على النصب المنعكس في مياه المستنقع الراكدة منظراً مهيباً. إلّا أنّ القارب الذي كان يقود الزائرين إليه مغمورٌ اليومَ بالمياه. وطيور البجع، ولا أعرف لماذا، بدلاً من أن تسبح برشاقة حول الجزيرة، آثرت السباحة في جدول شكّلته المياه الموحلة يجري بين شجرتَي صفصاف محمرّتَي الأغصان وصولاً إلى مغسل يمتدّ على طول الطريق.

عدنا إلى القصر الذي يرقى بناؤه أيضاً إلى عهد هنري الرابع، وقد أعيد ترميمه في عهد لويس الخامس عشر، وشُيّد ربّما على أنقاض سابقة لأنّه احتُفظ ببرج محزّز متنافر مع المجموع، وأساساته الضخمة محاطة بالماء وتتخلّلها أبواب سريّة وبقايا جسور متحرّكة.

لم يسمح لنا الحارس بزيارة أجنحة القصر لأنّ أسيادها يسكنونها. الفنّانون لديهم حظّ أوفر في قصور الأمراء حيث يُشعرهم مضيفوهم بأنّ لديهم فضلاً على الأمّة.

سمحوا لنا فقط بالتجوّل على ضفاف البحيرة الكبيرة التي كان منظرها، إلى جهة اليسار، محجوباً بالبرج المسمّى برج غابرييل، وهو بقيّة من قصرٍ

قديم. كان المزارع الذي يرافقنا يقول لنا: «ذاك هو البرج الذي احتُبست فيه غابرييل الجميلة... كلّ سنة كان روسو يأتي تحت نافذتها ليعزف لها على الغيتار. والملك كان غيوراً ويترصّده غالباً وانتهى به الأمر لقتله».

تلك هي الطريقة التي تُحاك بها الخرافات. بعد بضع مئات من السنين سيصبح الأمر وكأنّه حقيقة. هنري الرابع وغابرييل وروسو يشكّلون الذكريات الأهمّ لهذه البلاد. ولقد مزج الناس منذ اليوم الذكريَيْن على الرغم من أنّ مائتي سنة تفصل بينهما. غدا روسو شيئاً فشيئاً معاصر هنري الرابع. وبما أنّ الشعب يحبّه فهو يفترض أنّ الملك كان يغار منه، وأنّ عشيقته خانته لصالح الرجل اللّطيف ذي الأصول المعذَّبة. الشعور الذي أملى هذه الفكرة هو ربّما أصدق ممّا نظنّ. روسو الذي رفض اللويسيّات المائة التي منحته إيّاها مدام دوبومبادور، وقوّض البناء الملكيّ الذي شيّده هنري. كلّ شيء انهار، أمّا صورته الخالدة فتبقى منتصبة فوق الأنقاض.

أمّا أغانيه التي سمعنا آخرها في كومبيَن فكانت تحتفل بنساء أخريات غير غابرييل. ولكن أليس نموذج الجمال أبديّاً مثل العبقريّة؟

لدى خروجنا من الحديقة، توجّهنا نحو الكنيسة الرابضة على التلّة. إنّها قديمة جدّاً ولكنّها أقلّ تميّزاً من معظم كنائس البلاد. كان المدفن مفتوحاً. طالعنا في البداية ضريح دوفيك، وهو رفيق سلاح قديم لهنري الرابع وقد أهداه مقاطعة أرمنونفيل. ثمّ رأينا مقبرة عائليّة ذكر على ضريحها المنقوش أحد الآباء الكهنة. وهناك مقابر فتيات اقترنّ ببرجوازيّين. هكذا كان مصير غالبيّة الأسر الغابرة. يُرى أيضاً قريباً من المصطبة ضريحان مسطّحان موغلان في القدم وُوري فيهما كاهنان، ويصعب قراءة ما كُتِبَ على شاهدهما. ثمّ، بالقرب من ممرّ حجريّ بسيط ضريحٌ كُتِبَ فوقه: هنا

يرقد ألمازَور. أهو مجنون؟ أم خادم؟ أم كلب؟ لا تقول الشاهدة شيئاً آخر على الإطلاق.

من أعلى مصطبة المدفن، يسْرح النظر في أجمل ناحية في المنطقة. تتلألأ المياه عبر الأشجار الباسقة الصهباء وأشجار الصنوبر والسنديان الخضراء. إلى اليسار، تتّخذ صخور الصحراء هيئة أصنام درويديّة. وإلى اليمين يتراءى قبر روسو. وعلى مسافة أبعد، عند الضفّة، معبد رخاميّ لإلهة مفقودة، يفترض أن تكون إلهة الحقيقة.

لا بدّ أنّه كان يوماً مهيباً حين أتى وفدٌ أرسلته الجمعيّة الوطنيّة لنقل رفات الفيلسوف إلى البانثيون[1]. حين نجول في القرية تدهشنا نضارة الفتيات الصغيرات وظرفهنّ، لكأنّهنّ سويسريّات بقبعاتهنّ الكبيرة من القشّ... تبدو مفاهيم التربية التي تطرّق إليها مؤلّف «إميل»[2] وكأنّها طُبّقت في هذه النواحي. فتمارين القوّة، والمهارة، والرقص، والأعمال الحرفيّة التي تتطلّب الدقّة والتي تشجّع عليها مؤسّسات مختلفة، قد منحت هؤلاء الشبّان الصحّة والنشاط والذكاء العمليّ.

أحبّ كثيراً هذا الطريق الذي احتفظتِ عنه بذكرى من الطفولة والذي، إذ يمرّ أمام القصر المزوّد بأربعة أبراج خفيضة عند طرفيه، يصل قسمَي القرية.

قال لي سيلفان: رأينا قبر روسو. علينا الآن بلوغ دامارتان لنجد عربات تقلّنا إلى سواسون، ومن هناك إلى لونغفال. سنذهب للاستعلام عن الطريق من الغاسلات اللواتي يعملن أمام القصر.

---

(1) البانثيون: Le Panthéon مدفن العظماء. والفيلسوف هو جان جاك روسو.

(2) يقصد جان جاك روسو الذي كتب مؤلّفاً في التربية عنوانه «إميل أو في التربية» *Émile ou de L'éducation* ويدعو فيه إلى تنشئة حسيّة وبدنيّة في قلب الطبيعة.

قلْنَ لنا:

- اذهبا قدُماً عبر الطريق إلى اليسار، أو إلى اليمين، وستصلان إمّا إلى فير وإمّا إلى أيف، ثمّ تمرّان عبر أوتيس وبعد ساعتين من المسير تبلغان دامارتان.

هؤلاء الصبايا المضلِّلات جعلننا نسير على طريق غريبة فعلاً. ويجب أن أضيف أنّها كانت تمطر.

كان الطريق منحدراً بشدّة تتخلّله أخاديد ممتلئة ماءً، وتوجّب علينا تجنّبها أثناء السير على العشب الأخضر. كذلك لامسَتْ أشواك هائلة صدورَنا، أشواكٌ متجلّدة إلى حدّ كبير ومشرئبّة مع ذلك، وتعرقل مسيرنا أحياناً.

بعد أن سرنا مسافة فرسخ، أدركنا أنّنا لم نبلغ لا فير ولا أيف ولا أوتيس، ولا حتّى السهل، وأنّنا قد ضللنا السبيل على الأرجح.

وفجأةً ظهرت لنا فرجة في الغابة إلى يميننا، إحدى تلك الفرجات القاتمة التي تضيء الغابات بنورٍ فريد.

لمحنا كوخاً مبنيّاً من الأغصان الصلبة المكحّلة بالطين وسطحه من القشّ البدائيّ الخالص. كان حطّاب يدخّن غليونه أمام الباب. سألناه:

- كيف الذهاب إلى فير؟

- أنتم بعيدون جدّاً عنها... إذا تبعتم الطريق تصلون إلى مونتابي.

- نريد الذهاب إلى فير، أو إلى أيف...

- حسناً! عليكم أن تعودوا أدراجكم. تسيرون مسافة نصف فرسخ (بالإمكان ترجمة المسافة إذا شئتم بالأمتار بموجب القانون)[1]، ثمّ

(1) أصبح الاستعمال الحصريّ للنظام المتريّ في النشرات الرسميّة ملزماً ابتداء من الأوّل من يناير 1840.

لدى الوصول إلى ساحة الرماية، تتّجهون يميناً ثمّ تخرجون من الغابة وستجدون السهل. وهناك يَدلّكم «الجميع» على فير.

بلغنا ساحة الرماية مع منصّتها وحلقتها النصفيّة المخصّصة للعجائز السبعة. ثمّ ولجنا زقاقاً بدا لي أنّه سيكون ساحراً عندما تخضرّ الأشجار. كنّا نغني أيضاً بعض الأغاني البلديّة لنحثّ أنفسنا على السير ونؤنس وحشتنا.

كان الطريق يطول طولاً عفريتيّاً، ولا أعرف كثيراً لأي حدّ يمكن لعفريتٍ أن يطول: تلك فكرة تخطر لباريسيّ. وسيلفان، قبل أن يغادر الغابة، أنشد هذه الرّوندة[1]:

«كان فارس
عائداً من فلاندر»

البقيّة تصعب روايتها. اللازمة تتوجّه إلى الطبل:

«أطلق موسيقى النّفير
حتّى طلوع الصباح!»

عندما يبدأ سيلفان -وهو رجل صموت- بالغناء، فلا يمكن إسكاته بسهولة. غنّى لي أغنية غريبة عن «الرهبان الحمر» الذين كانوا يسكنون شاليس في الأصل. عن أيّ رهبان يتحدّث! عن فرسان الهيكل[2] الذين اتّفق الملك والبابا على إحراقهم!

(1) الرّوندة (أي الدوّارة) ronde هي أغنية يرافقها رقص دائريّ.

(2) فرسان الهيكل أو الهيكليّون: جمعيّة عسكريّة رهبانيّة تأسّست عام 1118 للدفاع عن مملكة أورشليم.

لننسَ أمر هؤلاء الرهبان الحمر.

لدى الخروج من الغابة، ألفينا أنفسنا في الأراضي المحروثة. كنّا نحمل الكثير من تراب وطننا في نعالنا[1]، ومضينا به بعيداً في المروج. وأخيراً وصلنا إلى فير، وهي قرية كبيرة.

كانت صاحبة النزل ودوداً، وابنتها في غاية اللّطف. كان شعرها كستنائيّاً جميلاً ووجهها عذباً وذا ملامح متناسقة. وكانت لديها هذه اللكنة الساحرة التي يتميّز بها سكّان بلاد الضباب وتتّخذ عند الفتيات اليافعات نبرات رنّانة أحياناً!

قالت المضيفة:

- على الرحب والسعة يا ولديَّ. حسناً سنضع حطبة في النار!

- نريد منكما أن تعدّا لنا العشاء، بدون كلفة.

قالت المضيفة:

- هل تريدان أن نحضّر لكما حساء بالبصل؟

- ليست بفكرة سيّئة، وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، لدينا لحم طريدة.

عندئذٍ تأكّدنا من أنّ الحظّ أسعفنا.

سيلفان فتىً موهوب، ولديه حيويّة ذهنيّة. لم يتلقّ ثقافة كبيرة لكنّه قادر مع ذلك على تدارك ما اعترى الدروس القليلة التي تلقّاها من نقص.

لديه أفكار عن كلّ شيء، فهو قادر على صناعة ساعة... أو بوصلة. ما يزعجه في الساعة هو «السلسلة» التي لا يمكنها أن تطول أكثر... وما يزعجه في البوصلة هو أنّها تجعله فقط يعترف بأنّ المغناطيس القطبيّ للكرة

---

(1) إنّها عبارة دانتون التي سبق لنرفال أن عدّل فيها.

الأرضيّة يجتذب حتماً الإبر، ولكن في ما يتعلّق بالبقيّة، بالمبدأ والوسائل المتعلقة باستخدامها فالوثائق ناقصة!

كان النزل حيث أمكننا أن نجد ملاذاً، منعزلاً بعض الشيء، ولكنّه كان متين البنيان، ويشتمل على باحة داخليّة بأروقة من طراز أفلاقيّ[1] خالص.

قبّل سيلفان الفتاة التي كانت جميلة القوام، واستمتعنا بتدفئة أقدامنا ونحن نداعب كلبَيْ صيد، وأعيننا على مقلّب السّفود الذي كان يعِد بعشاء قريب.

الرسالة الثانية عشرة

السيد تولوز- عاشقا الكتب- دير القديس ميدار في سواسون- قصر آل لونغفال دوبوكوا- تأمّلات

لا ألوم نفسي على إرجائي كتابة القصّة التاريخيّة التي طلبتها منّي لعشرة أيّام إضافيّة. كان من المفترض أن يباع الكتاب مرتكز القصّة الأساسيّة، أي السيرة «الرسميّة» للأب دوبوكوا، في العشرين من نوفمبر، ولم يحصل ذلك إلّا في الثلاثين منه، إمّا لأنّه سُحِبَ بدايةً (كما قيل لي) وإمّا لأنّ أمر البيع نفسه، المذكور في الفهرس، لم يسمح بإدراجه ضمن المزاد العلنيّ في وقتٍ أبكر.

كان يمكن للكتاب، أسوة بالكثير من الكتب، أن يسلك طريقه إلى

(1) أفلاقيّ Valaque، نسبة إلى أفلاق أو فالاشيا Valachie، وهو الاسم الذي أطلقه العثمانيّون على هذه المنطقة الجغرافيّة والتاريخيّة في رومانيا التي تقع في الشمال من نهر الدانوب وفي الجنوب من سلسلة جبال الكارابات. ويبدو أنّ هندسة النزل الذي يتحدّث عنه نرفال متأثّرة بطابع تلك المنطقة.

خارج فرنسا، والمعلومات التي وصلتني من بلاد الشمال كانت تشير فقط إلى ترجمات هولنديّة للكتاب، دون إعطاء أيّة إيضاحات عن الطبعة الأصليّة، الصادرة في فرانكفورت مع الترجمة الألمانيّة بالمقابل.

كنت قد بحثت عبثاً، كما تعلم، عن الكتاب في باريس. لم يكن لدى المكتبات العامّة. والكتبيّون المختصّون لم يروا له أثراً منذ زمنٍ طويل، إلّا كتبيّاً واحداً وهو السيّد تولوز الذي قيل لي إنّ الكتاب قد يكونُ في حوزته.

السيّد تولوز مختصّ في الكتب الدينيّة المثيرة للجدل. سألني عن طبيعة الكتاب؛ ثمّ قال لي: «يا سيّدي ليس في حوزتي. ولكن لو كان في حوزتي فقد لا أبيعك إيّاه!».

أدركت أنّه يبيع في العادة كتباً لرجال دين، لذا فإنّه لم يكن مهتمّاً بخدمة «ابن لفولتير».

أجبته بأنّ بإمكاني الاستغناء عنه فعلاً لا سيّما وأنّني أملك أفكاراً عامّة عن الشخصيّة المقصودة.

فأجابني:

- أما هكذا تُكتبُ القصص!

ستقول لي إنّه كان بإمكاني أن أحصل على قصّة الأب دوبوكوا مستعيناً ببعضٍ من هواة الكتب الذين لم ينقرضوا بعد، أمثال السيّد دومونمركيه[1] وغيرهم. وعلى هذا سأجيب بأنّ هاوي كتب جديّاً لا يعير كتبه. هو نفسه لا يقرأها خشية أن يتلفها.

كان لأحد هواة الكتب صديق. وهذا الصديق أغرم بكتاب لأناكريون

---

(1) لوي جان نيكولا دومونمركيه Louis- Jean Nicolas de Monmerqué (1780–1860)، هاوي كتب وعضو في أكاديميّة التدوينات.

من قطْع 16، في طبعة ليونيّة[1] من القرن السادس عشر أضيف إليها قصائد لبيون وموسكوس وسافو[2]. مالك الكتاب لم يكن ليدافع عن زوجته بالحميّة نفسها التي كان يدافع بها عن كتابه هذا. كان صديقه يأتي في معظم الأحيان ليتغدّى عنده وكان يجول المكتبة بلا اكتراث لكنّه يختلس النظر إلى كتاب أناكريون.

ذات يوم قال لصديقه: ماذا تفعل بهذا الكتاب من قطع 16، المجلّد بشكلٍ سيّئ... والمقصوصة أطرافه؟ سأعطيك طوعاً «رحلة بوليفيل[3]» بالإيطاليّة طبعة أصليّة، ألدينيّة[4]، مرفقة برسوم بيلين[5]، مقابل ملزمتك هذه... وهذا بصراحة لكي أكمل مجموعتي عن الشعراء الإغريق.

اكتفى صديقه بالابتسام:

– ما الذي يلزمك أيضاً؟

– لا شيء، لا أحبّ أن أبادل كتبي.

---

(1) نسبة إلى مدينة ليون الفرنسيّة.

(2) أناكريون Anacréon (560–478 ق. م): أشهر الشعراء الإغريق الغنائيّين؛ بيون الإزميريّ Bion de Smyrne، وموسكوس السرقوسيّ Moschus de Syracuse: شاعران رعويّان إغريقيّان من القرنين الثالث والثاني قبل المسيح. صافو (نحو630–565ق. م) هي الشاعرة الغنائيّة الشهيرة.

(3) مؤلّف معروف أكثر باسم «حلم بوليفيل» *Le Songe de Poliphile* لفرانشيسكو كولونّا Francesco Colonna، وقد ذكره نرفال في كتابه «رحلة إلى الشرق» راجع أيضاً قصّة «سيلفيا» في هذا الكتاب.

(4) نسبة إلى ألدو مانوزيو Aldo Manuzio، ألد مانوس Alde Manuce عند الفرنسيّين، الطبّاع الإيطاليّ الشهير وأحد روّاد الطباعة في القرن الخامس عشر وبدايات السادس عشر. كان ناشراً من عصر النهضة، أسّس الصحافة الألدينيّة في مدينة البندقيّة. يشمل إرثه اختراع خطّ الطباعة المائل، ووضع الاستخدام الحديث للفاصلة المنقوطة، وإدخال الكتب الرخيصة في أحجام صغيرة يضمّها الرق والتي كانت مثل كتب الجيب الحديثة.

(5) بيلين Belin: والمقصود الرسّام الإيطاليّ جوفاني بلّيني Giovanni Bellini.

- ماذا لو أهديتك أيضاً كتاب «رواية الوردة»، مرفقاً بهوامش مطوّلة وحواشٍ من مارغريت دوفالوا.

- لا، دعكَ من هذا.

- بالنسبة للمال أنا فقير كما تعرف، ولكنْ بوسعي أن أدفع لك ألف فرنك.

- انسَ الموضوع.

- هيّا! ألف وخمسمائة ليرة.

- لا أهوى التعامل بالأمور الماليّة بين الأصحاب.

لم يكن تمنّع هاوي الكتب إلّا ليزيد من حميّة صديقه. بعد عدّة عروض قوبلت بالرفض هي أيضاً، قال له وقد بلغ شغفه الذروة:

- حسناً! سأحصل على الكتاب عند بيع مكتبتك بعد موتك.

- بعد موتي؟... لكنّي أشدّ فتوّة منك...

- نعم لكن سعالك سيّئ.

- وأنت... ألا تعاني من عرْق النّسا؟

- يمكننا أن نعيش ثمانين عاماً مع هذا المرض!...

أتوقّف هنا يا سيّدي. فهذا الجدال صالح ليكون مشهداً في مسرحيّات موليير أو إحدى تلك الدراسات البائسة للجنون البشريّ التي لم تُعالَج بجذلٍ إلّا على يد إيراسموس[1]. وفي المحصّلة، توفّي هاوي الكتب بعد

(1) إيراسموس Erasmus (1469؟– 1536) فيلسوف ولاهوتيّ هولنديّ. من مشاهير رجال الفكر في عصر النهضة. له طبعة العهد الجديد الأولى باليونانيّة مرفقة بترجمة لاتينيّة. ومن أعماله الرئيسة: «مديح الجنون».

راجع العبارة الأولى لمقدمة «المتنوّرون» *Les Illuminés*: «لم يُعطَ لأيّ كان أن يكتب «مديح الجنون» [كتاب إيراسموس الشهير]. ولكن من دون أن يكون الواحد منّا إيراسموس =

بضعة أشهر، وفاز صديقه بالكتاب لقاء 600 فرنك.

ولاحقاً كلّما أطلع أحداً على الكتاب، كان يقول:

- أرأيتم؟ رفض إعطائي إيّاه بألف وخمسمائة فرنك!

ومع ذلك، حين كان ينسى أمر هذا الكتاب الذي كدّر صفو صداقة دامت خمسين عاماً، كانت عيناه تدمعان لدى تذكّر الرجل الفاضل الذي أحبّه.

هذه النادرة يطيب تذكّرها في عصر لم يعد فيه الميل لجمع الكتب والتواقيع الأصليّة والتحف الفنيّة شائعاً في فرنسا. ومع ذلك بإمكانها أن تبين لك المصاعب التي عانيتها في الحصول على قصّة «الأب دوبوكوا».

السبت الماضي، في تمام الساعة السابعة، كنت عائداً من سواسون -حيث ظننت أنّه بإمكاني العثور على معلومات عن آل بوكوا- لأحضر المزاد الذي نظّمه تيشنير لمكتبة السيّد موتلي، والذي لا يزال مستمرّاً، وقد نُشر عنه أوّل أمس مقال في «استقلال بروكسيل»[1].

إنّ لبيع الكتب أو الطرائف بالنسبة لهواتها الجاذب نفسه الذي يشعر به المقامر لطاولة الميسر. ومكشاط البيّاع بالمزاد العلنيّ الذي يدفع بالكتب ويحصد بعذئذٍ المال يجعل هذه المقارنة صائبة تماماً.

كانت المزايدات محتدمة. واستطاع كتاب نادر أن يصل إلى ستمائة

= [...] بمكننا أن ننتشل من ركام القرون بعض الوجوه الفريدة [...]». سواء في كتاب «المتنوّرون» أو في القصص، فإنّ أدب نرفال يحمل في طيّاته شيئاً من التغنّي بالجنون.

(1) لا يتعلّق الأمر بمكتبة هاوي الكتب جان شارل موتيلي Jean-Charles Motteley (1778-1850) بل بمكتبة السيد ماريشال. إنّ الخطأ الذي ارتكبه نرفال بخصوص اسم جامع الكتب، المشار إليه فقط بالحرف الأوّل من اسمه على الكاتالوغ، مصدره الجريدة البلجيكيّة التي تدعى الاستقلال البلجيكي *L'Indépendance belge* وليس استقلال بروكسيل *L'Indépendance de Bruxelles*.

فرنك. وفي الساعة العاشرة إلّا ربعاً وضعت «قصة الأب دوبوكوا» على الطاولة بسعر خمسة وعشرين فرنكاً... لدى عرض السعر بخمسة وخمسين فرنكاً تخلّى الزبائن والسيّد تيشنير نفسه عن الكتاب. ثمّة شخص واحد ينافسني عليه.

بخمسةٍ وستين فرنكاً، فقد الهاوي حماسه.

وقضت لي مطرقة البائع بتملّك الكتاب بمبلغ ستة وستين فرنكاً.

ثمّ طُلبَ منّي دفع ثلاثة فرنكات وعشرين قرشاً بمثابة بدل أتعابٍ على البيع.

وعلمت أنّ منافسي على الكتاب كان مفوّضاً من المكتبة الوطنيّة وقد زاحمني حتّى آخر لحظة.

وها قد أصبح الكتاب في حوزتي وأجد نفسي قادراً على متابعة عملي. لا بل عملك، إلخ.

من فير إلى دامارتان لم يعد أمامنا إلّا ساعة ونصف من المسير. تمتّعت، في تلك الصبيحة الجميلة، بالمناظر الممتدّة على مسافة عشر فراسخ حول القصر القديم الذي كان مهيباً عظيماً فيما مضى والمشرف على المنطقة كلّها. دمّرت الأبراج العالية، لكنّ موقع القصر لا يزال يتراءى على هذه التلّة المرتفعة حيث زُرعت ممرّات من أشجار الزيزفون في المكان نفسه حيث كانت المداخل والباحات. وكذلك غُرست أشجار حرجيّة من البرباريس، وستّ الحسن، درءاً للسقوط في هاوية الخنادق. كما أقيم حقل رماية للقوّاسين في أحد هذه الخنادق القريبة من المدينة.

عاد سيلفان إلى دياره. وتابعت طريقي إلى «سواسون» عبر غابة «فيلّر كوتريه»، المجرّدة تماماً من أوراقها، ولكن التي أعيد إليها اخضرارها

بفضل غرسات الصنوبر التي تحتلّ اليوم المساحات الشاسعة للأشجار التي قُطعت بشكلٍ مكثّفٍ فيما مضى. عند المساء، وصلت إلى سواسون، إلى «أوغوستا سويسونيوم» قديماً، حيث تقرّر مصير الأمّة الفرنسيّة في القرن السادس[1].

من المعروف أنّه بعد معركة سواسون التي انتصر فيها كلوفيس تعرّض قائد الفرنكيّين ذاك للذلّ لعجزه عن الاحتفاظ بإناء ذهبيّ بعد سلبه من رَانْس. ربّما كان يفكّر حينئذٍ بإقامة سلام مع الكنيسة عبر إعادته هذا الإناء المقدّس النفيس. آنذاك أراد أحد جنوده أن يُدرج الإناء في القسمة، لأنّ المساواة كانت المبدأ الأساسي لهذه القبائل الفرنكيّة المتحدّرة من آسيا. فحُطّم الإناء، ولاحقاً لاقى رأس الفرنكيّ المطالب بالمساواة المصير نفسه، تحت فأس قائده. وهكذا نشأت ممالكنا.

سواسون مدينة حصينة تحوي تحفاً قديمة غريبة. للكاتدرائيّة برجها العالي ومنه نرى على مدى سبع فراسخ من البلاد. ثمّة لوحة جميلة لروبنز[2] خلف مذبحها. الكاتدرائيّة القديمة أكثر غرابة بعد، بقبب أجراسها المخرّمة بزخارف كبيرة الفتحات. لم يبقَ منها إلّا الواجهة والأبراج لسوء الحظّ. هناك أيضاً كنيسة أخرى يجري ترميمها بهذه الحجارة وهذا المِلاط الرومانيّ اللذين يشكّلان مفخرة المنطقة. تحدّثت هناك إلى قصّابي الحجارة الذين كانوا يتناولون غداءهم حول نار من الخلنج، والذين بدوا لي ملمّين جدّاً بتاريخ الفنّ. كانوا يتحسّرون، مثلي، على عدم ترميم الكاتدرائيّة

(1) في عام 486 انتصر قائد الفرنكيّين كلوفيس على القائد الرومانيّ سياغريوس. وهذا الانتصار هو في أصل القصّة الشهيرة لإناء سواسون الذي أراد كلوفيس إعادته إلى مطران رانس. آنذاك تقرّر مصير الأمّة الفرنسيّة من خلال تأسيس الممالك، والانتقال من الوثنيّة إلى المسيحيّة.

(2) لوحة روبنز «تعبّد الرعيان».

القديمة[1] «سان جان ديفيني»، بدلاً من الكنيسة الضخمة حيث كانوا يعملون. ولكنّ هذه الأخيرة، كما يقولون، أكثر أهليّة للسّكن في عصورنا حيث الإيمان قلّ، وحيث الأناقة والراحة تشكّلان وحدهما عامل جذبٍ للمؤمنين.

أشار المرافقون إلى مَعْلم تجدر بي زيارته وهو سان ميدار الواقع على مقربة من المدينة خلف جسر ومحطّة الأين. الأبنية الأكثر حداثة تشكّل مؤسّسة للصمّ والبكم. إلّا أنّ مفاجأة كانت تنتظرني هناك. أوّلاً صادفت البرج المتهدّم في جزء منه حيث اعتقل أبيلار[2] لفترة من الزمن. ثمّ أهدوني إلى كتابات لاتينيّة بخطّ يده على الجدران، ثمّ على أقبية واسعة أزيلَت أنقاضها منذ بعض الوقت، وعُثر فيها على مقبرة لويس الورع، المصنوعة من حوض كبير من الحجارة ذكّرني بمقابر المصريّين.

وبالقرب من هذه الأقبية المؤلّفة من حجُرات سفليّة ومَشاكٍ متناثرة، كتلك التي في المقابر الرومانيّة، يُرى السجن نفسه حيث اعتُقل هذا الإمبراطور[3] على أيدي أولاده، والتجويف الذي كان ينام فيه على حصيرة، وأشياء أخرى محفوظة لأنّ الأرض الكلسيّة وأكاسير المتحجّرات التي كانت تملأ هذه الدياميس جنّبتها كلّ رطوبة. لم يكن عليهم سوى أن يُزيلوا الأنقاض. وهذا العمل لا يزال مستمرّاً ويأتي كلّ يوم باكتشافات

---

(1) هفوة يقصد منها الدير القديم الذي لم يتبقّ منه اليوم إلّا الواجهة.

(2) بيار أبيلار Pierre Abélard: لاهوتيّ فرنسيّ (1079– 1142) أُخصي بسبب حبّه لإيلوييز Héloïse واقترانه بها، له أعمال لاهوتيّة وتربوية، وتُنسب له ولإيلوييز رسائل متبادلة تُعدّ إحدى روائع فنّ الترسّل في العشق. وقد استوحى منها جان جاك روسو كتابه الشهير «جولي أو إيلوييز الجديدة» *Julie ou la Nouvelle Héloïse*.

(3) المقصود إمبراطور الغرب لويس الأوّل الملقّب بالورع (778–840)، ابن شارلمان وخليفته.

جديدة. إنّها بومبيي أخرى كارولنجيّة[1]. لدى الخروج من دير سان ميدار، تسكّعت قليلاً على ضفاف نهر الأين الذي يسيل بين حقول الصفصاف المغراء وأشجار الحور المجرّدة من أوراقها. كان الطقس جميلاً وكانت المروج خضراء، وبعد كيلومترَين، ألفيتُني في قرية تدعى كوفي[2]، حيث كانت تُرى بشكلٍ تامّ أبراج المدينة المخرّمة كالدانتيل وسطوحها الفلمنديّة المطرّزة بسلالم حجريّة.

ينعش المرء قلبه في هذه القرية بقليل من النبيذ الأبيض الفوّار الذي يشبه كثيراً الشمبانيا الخفيفة المسْكرة.

وفي الواقع، التربة هي تقريباً نفسها كما في إيبرناي[3]، إنّها أحد مَنابت شمبانيا المجاورة التي، على هذا النجد المعرّض للجنوب، تنتج خموراً حمراء وبيضاء مُسْكرة جدّاً. جميع المنازل مبنيّة من حجارة الشحذ التي ثقبتها العطفاتُ والحلازينُ البحرية فغدت مثل الإسفنج. الكنيسة قديمة لكنّها ريفيّة. وهنالك مصنع للزجاج أُنشئَ في الأعالي.

بدت العودة إلى سواسون محتّمة. عدت إليها لمتابعة أبحاثي عبر المكتبة والأرشيفات. في المكتبة لم أعثر على شيء لا يمكن إيجاده في باريس. الأرشيفات موجودة في القائمقاميّة، ويفترض بها أن تكون مثيرة للاهتمام بسبب قدم المدينة. قالت لي أمينة السرّ: «يا سيّدي، أرشيفاتنا هي فوق في العليّة، لكنّها ليست مصنّفة».

- لماذا؟

---

(1) هذه البومبيي الكارولنجيّة تماثِل بين عصرين غابرين العصر الإغريقي-اللّاتينيّ والفرنسيّ، وأيضاً بين منطقتين ناريّتين الفالوا وإيطاليّا الجنوبيّة.

(2) كوفي Cuffies: شماليّ سواسون.

(3) إيبرناي Epernay: بلدة فرنسيّة في محافظة المارن في مقاطعة شمبانيا أردين.

- لأنّ المدينة لم ترصد ميزانيّة لهذا العمل. أغلبيّة الأعمال هي باللغتَين القوطيّة واللاتينيّة... ينبغي أنْ يرسلوا لنا أحدهم من باريس».

من البديهيّ أنّني لم أكن أستطيع أن آمل بالعثور هنا على معلومات عن آل بوكوا بسهولة. أمّا بالنسبة للوضع الحاليّ لأرشيفات سواسون فإنّي أكتفي بإبلاغ علماء النصوص القديمة بالأمر. إذا كانت فرنسا ثريّة بما يكفي لكي تدفع ثمن دراسة ذكريات تاريخها، فسأكون سعيداً بأنّني حرّضت على هذه المسألة.

أودّ أن أخبرك أيضاً عن السّوق الشعبيّة الكبيرة التي كانت تُقام آنذاك في المدينة، وعن المسرح حيث عرضت «لوكريتسيا بورجا»[1]، وعن العادات المحليّة المصونة حقّاً في هذه البلاد الواقعة خارج حركة سكك الحديد، وحتّى عن الضيق الذي يشعر به السكّان حيال هذا الوضع لا سيّما وأنّهم أملوا لبعض الوقت أن يُلحقوا بخطّ الشمال، الأمر الذي كان سيحرّك عجلة الإقتصاد... إنّ شخصاً طويل الباع كان سيقدر على جعل خطّ ستراسبورغ يمرّ عبر هذه الغابات فيؤمّن لها آفاقاً تجاريّة. لكنّها مجرّد مطالب محليّة وافتراضات مغرضة يمكن ألّا تكون صائبة حقّاً.

ها إنّ الغاية من جولتي تحقّقت. عربة المسافرين الذاهبة من سواسون إلى رانْس قادتني إلى برين. وبعد ساعةٍ استطعت الوصول إلى لونغفال، مهد عائلة بوكوا. هاكم إذَن مقام أنجيليكا الجميلة والقصر الرئيسيّ لوالدها الذي يبدو أنّه كانت لديه من الثروات بقدر انتصارات جدّه في حروب بوهيميا. الأبراج دُمّرت، كما في دامارتان. ومع ذلك فإنّ الأقبية لا تزال موجودة. والموقع الذي يطلّ على القرية الموجودة في شِعْبٍ طويل اجتاحته

(1) «لوكريتسيا بورجا» *Lucrèce Borgia*: مسرحيّة كتبها فيكتور هوغو Victor Hugo عام 1833.

العمائر منذ سبع سنوات أو أكثر، يوم بيعت الأنقاض. مفعماً بذكريات هذه النواحي التي من شأنها أن تضفي سحراً على كتابةٍ روائيّة، والتي لا تخلو من الفائدة في ما يخصّ وجهة النظر الإيجابيّة للتاريخ، وصلت إلى شاتو تييري حيث يطيب للمرء إلقاء التحيّة على التمثال الحالم للافونتين[1] الطيّب، الرابض على ضفّة المارن قبالة سكّة حديد ستراسبورغ.

تأمّلات

«ومن بَعدُ...» (سيقال لي إنّ ديدرو[2] كان يبدأ قصصه على هذا النحو.)

- تابع!

- قلّدْتَ ديدرو نفسه.

- الذي قلّد بدوره ستيرن.

- الذي قلّد بدوره سويفت.

- الذي قلّد بدوره رابليه.

- الذي قلّد بدوره ميرلان كوكاي.

- الذي قلّد بدوره بيترون.

- الذي قلّد بدوره لوسيان. ولوسيان قلّد آخرين كثيرين[3]... بدءاً

(1) الشاعر الفرنسيّ الشهير جان دولافونتين Jean de la Fontaine (1621–1695) الذي ولد في مدينة شاتو تييري Château-Thierry.

(2) ديدرو: دوني ديدرو Denis Diderot (1713–1784): فيلسوف وروائيّ وكاتب مسرحيّ وناقد ومترجم فرنسيّ نشر مبادئ الفلسفة العقلانيّة في القرن الثامن عشر. أسّس «الأنسيكلوبيديا» («دائرة المعارف») وأشرف على إصدارها.

(3) هذا التعداد يحاكي «قصّة ملك بوهيميا وقصوره السبعة» *Histoire du roi de Bohême et de ses sept* chateaux لشارل نوديه Charles Nodeir: «وتريد منّي، أنا الذي =

بمؤلّف «الأوديسة» الذي جعل بطله يجول لمدّة عشر سنوات حول المتوسّط ليعيده في النهاية إلى إيثاكا الخرافيّة حيث كانت ملكتها المحاطة بخمسين طالب زواج، تنكث كلّ ليلةٍ ما نسجته خلال النهار.

- لكنّ عوليس انتهى به الأمر للعودة إلى إيثاكا.

- وأنا عدت إلى الأب دوبوكوا.

- حدّثنا عنه.

- لم أفعل شيئاً آخر منذ شهر. لا بدّ أنّ القرّاء تعبوا من الكونت دوبوكوا العضو في العصبة المقدّسة وفيما بعد قائد جيوش النمسا، ومن السيّد دولونغفال دوبوكوا وابنته أنجيليكا التي اختطفها لاكوربينير، ومن قصر هذه العائلة الذي داست قدماي للتوّ أنقاضه...

وأخيراً من الأب الكونت دوبوكوا نفسه الذي كتبت عنه سيرة حياة قصيرة، والذي يسمّيه السيّد دارجنسون في رسائله: الأب دوبوكوا المزعوم.

الكتاب الذي اشتريته حديثاً في مزاد موتلي يساوي على الأرجح أكثر من ستّة وستين فرنكاً وعشرين سنتيماً بكثير لو أنّه لم تُقلَّم صفحاته بفظاظة. لا يزال الغلاف جديداً تماماً ويحمل بأحرف ذهبيّة العنوان الجذّاب التالي: قصّة السيّد الأب الكونت دوبوكوا، إلخ.. إنّ قيمة الكتاب ذي القطْع $\frac{1}{12}$ تأتي ربّما من الكرّاسات الثلاثة الرقيقة شعراً ونثراً التي ألّفها الكاتب، والتي بما أنّها من حجم أكبر اقتُطعت هوامشها حتّى حدود النص الذي

= انتحلت منتحلي ستيرن، الذي انتحل سويفت، الذي انتحل ويلكنز، الذي انتحل سيرانو، الذي انتحل ريول، الذي انتحل غيوم ديزوتيل، الذي انتحل رابليه، الذي انتحل موروس، الذي انتحل إيراسمزس، الذي انتحل لوسيان–أو لوسيوس دوباتراس– أو أبوليوس [...]».

يبقى مع ذلك مقروءاً.

للكتاب جميع العناوين المذكورة سابقاً والموجودة في دليل برونيه، ودليل كيرار، وبيوغرافيا ميشو. إزاء العنوان، رسمٌ يمثّل الباستيل وفوقه هذا العنوان «جحيم الأحياء» وهذه العبارة «إنّ النزول إلى أفيرنا سهل»[1].

بالإمكان قراءة قصّة الأب دوبوكوا في كتابي المعنون: «المتنوّرون» (باريس، منشورات فيكتور لوكو). وبالإمكان أيضاً الرجوع إلى المؤلّف الذي من قطْع $\frac{1}{12}$ الذي أهديته للمكتبة الإمبراطوريّة.

ربّما أخطأت في وصفي شعار النسب لمؤسّس كنيسة شاليس.

لقد نقلوا لي ملحوظات عن آباء شاليس. «روبير دولا توريت الذي كان كاهناً تحديداً هناك، من 1501 إلى 1522 وقام بإصلاحات كبيرة...» يمكن رؤية قبره أمام المذبح.

«هنا يصل آل ميديسيس: هيبوليت ديست، كردينال فيراري 1554، المسمّى ألويس ديست، 1586.

«ثمّ لويس، كاردينال غيز، 1601؛ وشارل لويس دولورين، 1630».

تجدر الملاحظة أنّ آل ديست لا يملكون إلّا نمنمة نسر في القسمين الثاني والثالث من الشعار، وأنّني رأيت ثلاثاً في الجزئين الأول والرابع في الشعار المقسّم.

---

(1) عبارة مأخوذة من «الإنياذة»، النشيد السادس، البيت 126، تحدّث عن النزول إلى أفيرنا مذكّرةً بالنزول إلى الجحيم. الرسم يمثّل الباستيل يعلوه في الواقع العنوان التالي: «جحيم الأحياء/ الباستيل»، متبوعاً بعبارة أكثر اكتمالاً (ولكن محذوف بعضها) من «الإنياذة»: «النزول إلى أفيرنا سهل ولكنّ الصعوبة تكمن في العودة إلى الوراء». أمّا بالنسبة للرسم نفسه فهو يمثّل شيطانَين على شكل تنّين مجنّح يدعى أحدهما «بلزبوت أو دارجنسون الرئيس» والآخر «عشتروت أو برنافيل الحاكم»، الأوّل يقذف النار والآخر يسكبُ دلواً في الباستيل المسمّى: «بئر الهاوية».

«شارل الثاني، كاردينال بوربون (منذ شارل العاشر، القديم) الضابط العامّ لإيل دوفرانس منذ 1551، كان لديه ابن يُدعى بولان».

أريد فعلاً أن أصدّق أنّ هذا الملك الكاردينال أنجب ابناً غير شرعيّ لكنّي لا أفهم نمنمات النسر الموضوعة في الجزئين الثاني والأوّل. إنّ نمنمات نسور اللّورين موجودة على الشريط الشعاريّ. عذراً على هذه التفاصيل لكنّ معرفة شعار النّسب هو مفتاح لمعرفة تاريخ فرنسا... والكتّاب المساكين ما بيَدِهم حيلة!

سيلفيا
ذكريات الفالوا

(إضاءة: في «مهربو الملح» و«أنجيليكا»، يظهر اسم «سيلفيا» Sylvie العذب بصفته مؤنّث سيلفان، اسم المرافق للراوي في رحلته عبر الفالوا، وكذكرى لمُلهمه الشّاعر تيوفيل دوفيو Théophile de Viau (1590-1626). وحول هذا الاسم بالذات تستعاد ذكريات الطفولة. في 5 نوفمبر 1853 كتب نرفال إلى موريس صاند Maurice Sand، ابن الكاتبة جورج صاند George Sand، يقول: «أكتب منذ ثلاثة أو أربعة أشهر رواية صغيرة ليست تماماً قصّة خرافيّة وعنوانها «سيلفيا» وقد نشرت في La Revue de deux mondes. إنها نوع من قصّة عاطفيّة خياليّة. أردت أن أجسّد فيها بلادي الفالوا». لا شكّ أنّ سيلفيا هي النصّ السرديّ الأكثر اكتمالاً لدى نرفال، ذاك الذي يعيد تلئيم كلّ الثيمات التي يتمحور حولها أدبه وفق منطق «رحلة الذاكرة الشخصيّة والتاريخيّة الخرافيّة التي هي في الوقت نفسه شكل من المسارّة الذّاتيّة والمراجعة النقديّة لرومنطقيّة ثلاثينيّات القرن التاسع عشر. الفصول الاثنا عشر الأولى تغطّي بالضبط أربعاً وعشرين ساعة وتكثّف هذا «البحث عن الزمن المفقود». الفصول الليليّة (من الأوّل إلى التّاسع) تضيئها ذكريات الطفولة، فيما الفصول النهاريّة (من الثامن إلى الثاني عشر) لا تستعيد الماضي إلّا والسّحر قد زال، بحيث يبدو الفصل الثالث عشر وكأنّه، بعد دورة زمنيّة رمزيّة، يعود إلى الوضع الأوليّ في إطار المسرح. وفي الفصل الأخير المنتزع من الزمن الحاضر ينصّب الراوي نفسه بطلاً مروّضاً

للأوهام. هذه الأوهام التي تفتن وتضلّل في «صباح الحياة» ليست فقط أوهام الشباب بل أيضاً أوهام رومنطقيّة ثلاثيتيّات القرن التاسع عشر التي يلقي راوي 1853 عليها نظرة حنين بلا شكّ، ولكنّها أيضاً ساخرة وناقدة. إذا كان المسرح، كالعالم الآخر الخياليّ الذي هو الأدب، هو عالم الخداع والوهم، فإنّ الوهم الأقصى بالنسبة لذاك الذي يبتعد في لوازي عن المسرح ويحاول أن ينسى الكتب هو وهم العودة المحتملة إلى الطبيعة كمكان للحقيقة والبراءة والصّفاء. لأنّ هذه الطّبيعة بالذات ليست إلّا أسطورة، وتركيباً رومنطقيّاً. وهذه الصورة عن الطبيعة الطّيبة للإنسان التي روّج لها روسو والتي شوّهها المجتمع، يقابلها نرفال «بالإنسان الذي يتشوّه في كلّ مكان». فالإشكاليّة إذَن ليست بإهلاك النفس داخل المسرح أو بالهروب منه بحثاً عن طبيعة غير موجودة. فالطبيعة في الفالوا نفسها مشبعة بالأدب، وفصل أدريانا، أو ذلك المتعلّق بالعرس الطفوليّ ليسا شيئاً آخر إلّا مسرحاً. إنّ «سيلفيا» رواية مسرحيّة أكثر منها رواية ريفيّة أو قصيدة رعويّة عن الفالوا. ولنتذكّر أنّ الممثّلة في «سيلفيا» تحمل الاسم نفسه الذي حملته الممثّلة في القصّة المأساويّة الأخيرة لنرفال التي كتبها قبل انتحاره: «أوريليا». ولا نلبث أن نتعرّف في شخص الراوي على قرين لبريزاسييه في المقدّمة التي كتبها نرفال لألكساندر دوما، ورغبته الجنونيّة في إحراق المسرح، كطريقة انتحار رمزيّة أو وهميّة للخروج من عالم الوهم. وكما في مشروعه غير المكتمل «الرّواية المأساويّة،» الذي يستعيد صفحات منه في المقدّمة، تستعيد قصّة «سيلفيا» فكرة موت «النجمة». ولكن في «سيلفيا» لم تعد النجمة الوحيدة تشير إلى الممثّلة بل إلى «الثنائيّ أدريانا-سيلفيا، وجهَي الحبّ نفسه». أمّا الكلمة الفصل فتعطى للممثّلة أوريليا

التي تعرف أسرار المسرح فتقول: «أنت لا تحبّني! تنتظر أن أقول لك: الممثّلة هي نفسها الراهبة. تبحث عن مأساة، هذا كلّ شيء، والنهاية تفلت منك. هيّا لم أعد أصدّقك.»[1]

1– ليلة ضائعة

كنت خارجاً من إحدى قاعات المسرح[2] حيث كنت أجلس كلّ مساء في المقصورة القريبة من الخشبة متأنّقاً بلباس العاشق الولهان. أحياناً كانت القاعة تضجّ بالحاضرين وتخلو تماماً منهم أحياناً أخرى. ولكن، قلّما كان يهمّني أن أراقب الردهة المأهولة بحفنة صغيرة من الهواة يصطفّون مستوين في مقصورات تزدان بتسريحاتهم وملابسهم التي بَطلت موضتها، أو أن أنضمّ إلى صالة نابضة مختلجة بالحياة تكلّل مدارجها كافّةً الشعورُ المزيّنةُ بالأزهار، والمجوهرات البرّاقة، والوجوه المشرقة. لم أكن أبالي بمشهد القاعة، ولا كانت المسرحيّة تستوقفني البتّة، إلّا في المشهد الثاني أو الثالث من التحفة الفنيّة المضجرة التي كانت تعرض آنذاك، حين يظهر طيف امرأةٍ حبيب ليضيء المساحة الفارغة، ويعيد بنفثةٍ واحدةٍ، بكلمةٍ واحدةٍ، الحياةَ إلى تلك الوجوه الباهتة المحدّقة بي.

كنت أشعر أنّني أعيش فيها وأنّها تعيش من أجلي وحدي. كانت ابتسامتها تملؤني بغبطةٍ لا متناهية، ونبرة صوتها المفعمة بالعذوبة والرنّانة القويّة في آنٍ تجعلني أرتعش فرحاً وحبّاً. كانت تمتلك بالنسبة إليّ الشمائل

---

(1) المترجمة، تلخيصاً عن شروح نشرة «فوليو كلاسيك» لهذا الكتاب، وضعها برتران مارشال.

(2) يستهلّ نرفال هذه الرحلة الأخرى إلى الشرق أي الحجّ إلى الفالوا في «سيلفيا»، بمشهد الخروج من المسرحِ وأوهامه، وهذا يذكّر ببداية «اعترافات نيقولا» في كتابه «المتنوّرون» *Les Illuminés*.

كلّها، وتستجيب لجميع اندفاعاتي ونزواتي. كانت بهيّة الطلعة حين تنيرها أضواء المسرح من الأسفل، وشاحبة كاللّيل حين تُخفَضُ هذه الأنوار تاركةً للثريّا أن تنيرها من علٍ فتبين أكثر طبيعيّة، مشعّة بظلّ جمالها وحده، كمثل ربّات الفصول اللّواتي تعلو نجمةٌ جبهاتهنّ ويتوالين على الخلفيّات السمراء للّوحات الجداريّة في هيركولانيوم[1].

سنة مرّت ولم يخطر ببالي الاستعلام عن أحوالها في الواقع. كنت أخشى أن أعكّر صفو المرآة السحرية التي كانت تعكس لي صورتها. وعلى أكثر تقدير كنت أرعيت سمعي لبعض الأقوال التي تتعلّق ليس بها كممثّلة، بل كامرأة. كنت أستعلم عنها كمَن يستعلم عن الشائعات التي يمكنها أن تطال أميرة إيليد أو ملكة تريبيزوند[2]. كان أحد أعمامي[3]، وقد عاش

---

(1) راجع تيوفيل غوتييه Théophile Gautier الأديب والشاعر الفرنسيّ (1811–1872) في معرض وصفه للراقصة فاني ألسلر Fanny Elssler: «تشبه [...] أولئك الراقصات الإيونيّات [إيونيا في آسيا الصغرى] اللّواتي يحلّقن شبه عاريات على الخلفيّات السوداء لجداريّات هيركولانيوم». إنّ ربّات الفصول (واسمهنّ الأصليّ «السّاعات») هنّ الإلهات الثلاث الراقصات اللّواتي يتحكّمن بنظام الطبيعة ويتماهين مع الفصول. ربّات الفصول أولئك في جداريّات هيركولانيوم (مدينة رومانيّة قديمة جنوبيّ إيطاليّا بالقرب من مدينة بومبيي الأثريّة التي تعرّضت أيضاً للدمار إثر ثوران بركان فيزوف عام 79)، اقترح نرفال إعادة إحيائهنّ في باليه «الساعات» *Ballet des Heures* في مسرحيّة «رسّام هارلم» *L'imagier de Harlem* (1851)، وبغنّهنّ شعريّاً في مخطوطة «أرتميس» Artémis (انظر في آخر هذا الكتاب أشعاره المعنونة: «الأوهام»)، تحت العنوان نفسه: «باليه الساعات».

(2) أميرة إيليد Elide، وملكة تريبيزوند Trébizonde، تشيران إلى شخصيّتين خرافيّتين، أو أنّهما ثمرتا خيال مسرحيّ أكثر ممّا تشيران إلى شخصيّتين تاريخيّتين. («أميرة إيليد» *La Princesse d'Elide*، مسرحيّة لموليير Molière).

(3) لا شكّ أنّه يقصد شقيق جدّه لأمّه، أنطوان بوشيه Antoine Boucher من مورتفونتان Mortefontaine (بلدة فرنسيّة في محافظة الواز في منطقة بيكارديا)، وقد أقام جيرار دونرفال بالقرب من مورتفونتان من 1810 حتّى 1814 لدى عمّه أنطوان بوشيه في كوخ لوازي Loisy ثمّ كان يعود كلّ الأصياف إلى هنالك حتّى وفاة عمّه في 1820.

السنوات قبل الأخيرة من القرن الثامن عشر عيشة مكّنته من أن يخبَرَه كما ينبغي، أخطرني باكراً بأنّ الممثّلات لسن من صنف النساء، وأنّ الطّبيعة أغفلت أن تمنحهنّ قلوباً. كان يتحدّث عن ممثّلات ذلك الزمان على الأرجح، لكنّه أخبرني قصصاً كثيرة عن أوهامه وخيباته وأظهر لي الكثير من البورتريهات المرسومة على العاج، والميداليّات البديعة التي راح يستعملها منذ ذلك الحين لتزيين علب التبغ، وأيضاً الكثير من الرسائل القصيرة الشاحب لونها، والكثير من الهدايا الذابلة، وهو يروي لي قصّتها ويفنّد المحصّلة النهائيّة لخيباته، لدرجة أنّني اعتدت ظنّ السوء بهنّ جميعاً دون أن آخذ بعين الاعتبار تغيّر الأزمنة.

كنّا نعيش آنذاك مرحلة غريبة[1]، كتلك المراحل التي تعقب عادةً الثورات أو العهود الذهبيّة بعد خفوت بريقها. لم تكن تشبه زمن البطولات الغراميّة التي وسمت حروب المقلاع[2]، أو زمن الرذيلة المتأنّقة المجمّلة كما في فترة الوصاية[3]، أو عهد الارتيابيّة والعربدات المجنونة التي سادت إبّان حكومة المديرين[4]، بل كانت مزيجاً من النشاط والتردّد والكسل، ومن الطوباويّات البرّاقة والمنازع الفلسفيّة أو الدينيّة، والاندفاعات

---

(1) هذه المرحلة هي مرحلة انقضاء الوهم الذي أعقب ثورة 1830 المجهضة، تلك التي يذكرها الشاعر الفرنسيّ ألفريد دوموسيه Alfred de Musset (1810–1857) في روايته الوحيدة «اعترافات فتى العصر» *La Confession d'un enfant du siècle*.

(2) حركة العصيان أو حروب المقلاع: انتفاضة فرنسيّة استمرّت من 1648 إلى 1652 إبّان حكم الملك لويس الرابع عشر ووزارة مازارن Mazarin.

(3) الريجنس أو الوصاية La Régence: عهد وصاية دوق أورليان في فرنسا من 1715 إلى 1723 أثناء تسلّم لويس الخامس عشر للعرش وكان بعدُ قاصراً.

(4) حكومة المديرين le Directoire هي التسمية التي مُنحت للجمهوريّة الفرنسيّة الأولى، من 26 أكتوبر 1795 إلى 9 نوفمبر 1799، وهي آتية من الجهاز الإداريّ المشكّل من وجود خمسة رؤساء حكومة سُمّوا «مدراء»، تقاسموا الجهاز التنفيذيّ والوزارات، تفادياً للطّغيان.

الغامضة المشوبة ببعض ميول عصر النهضة[1]، وأيضاً من البَرَم بالنزاعات القديمة والآمال الحائرة. كانت مرحلة أقرب ربّما إلى عهد بيريغرينوس وأبوليوس[2]. كان الإنسان الماديّ يطمح إلى باقة من الورود تُحييه من جديد على يدَي إيزيس الجميلة، تلك الإلهة الشابّة أبداً والنقيّة التي كانت تظهر لنا في الليالي وتُعيب علينا ساعات نهارنا الضائعة. لكنّ الطّموح لم يكن حليفنا، والتهافت النّهم الذي كان يُمارس آنذاك على المناصب والأمجاد كان يبعدنا عن دوائر النشاط الممكنة. وهكذا لم يتبقّ لنا من ملاذ إلّا ذاك البرج العاجيّ الذي يسكنه الشعراء، حيث كنّا نصعد باطّراد لكي ننعزل عن المجتمع. وفي هذه الأعالي التي كان يرشدنا إليها معلّمونا، كنّا نتنشّق أخيراً هواء الخلوات النقيّ، ونحتسي النسيان في كأس الخرافات الذهبيّة، كنّا سكارى من الشعر والحبّ. أجل، من الحبّ ويا للأسف! كانت الأشكال تسكرنا، وكذلك الألوان الورديّة والزرقاء، والأشباح الميتافيزيقيّة! كنّا حين نقارب امرأة حقيقيّة تثار حفيظة سذاجتنا. كان يجدر بها أن تكون ملكة أو إلهة، وكان علينا خصوصاً ألّا ندنو منها.

إلّا أنّ بعضنا كان قلّما يقيم اعتباراً لمثل هذه المفارقات الأفلاطونيّة ومن

(1) عن هذا الحلم النرفاليّ بالانبعاث أو الولادة الجديدة renaissance الذي يؤالف بين متخيّل النهضة التاريخيّة Renaissance والحلم بالانبعاث، راجع المحاولة الخاصّة بتجديد الحياة في «إيزيس» *Isis*، والمقال الذي كتبه في 22 ديسمبر عام 1838 بخصوص «مسرح النهضة» Théâtre de la Renaissance، الذي كان يستحقّ هذه التسمية فعلاً.

(2) الفيلسوف الإغريقيّ بيريغرينوس Pérégrinus المدعوّ بروتيه Protée (بروتيوس باليونانيّة) الذي أحرق نفسه، ومعاصره الكاتب اللاتينيّ لوسيوس أبوليوس *Lucius Apuleius* مؤلّف «الحمار الذهبيّ» هما الوجهان المنتميان إلى العصور القديمة اللّذين يحلو لنرفال أن يرى فيهما صنويه أو قرينَيه، واللذين تجتمع لديهما الحماسة والسخرية، أو النار واللّعب. عن أبوليوس راجع البورتريه الذي يرسمه له نرفال في «المتنوّرون»، ص307، سلسلة فوليو Folio، وكأنّه بورتريته أو صورته الشخصيّة موضوعة بضمير الغائب.

خلال أحلامنا المتجدّدة بالاسكندريّة[1] كانوا يلوّحون لنا أحياناً بمشعل الآلهة السّفليّين الذي يُضيء لبرهةٍ الظلمة بشراراته المتعاقبة. وهكذا حين خرجت من المسرح والحزن المرير يعتصر قلبي كحزنٍ يخلّفه حلم مضمحلّ، كنت أذهب طوعاً لأوافي مجلس الأصحاب حيث كنّا نتناول العشاء بأعدادٍ كبيرة، وحيث كلّ الكآبة كانت تتلاشى أمام الحميّة التي لا تنضب لبعض المفكّرين الثاقبين، المتوثّبين، القلقين، العظماء أحياناً، نظائر أولئك الذين واكبوا دوماً عهود التجدّد أو الانحطاط، والذين كانت نقاشاتهم يحتدم وطيسها بحيث إنّ الأكثر خجلاً بيننا كانوا يذهبون إلى النوافذ ليروا ما إذا كانت أقوام الهان أو التركمان أو القوزاق قد أتوا أخيراً ليضعوا حدّاً لحجج هؤلاء الخطباء البلغاء والسفسطائيّين.

«لنشرب ونحبّ، هي ذي الحكمة!» تلك كانت القناعة الوحيدة للأصغر سنّاً بيننا، وأحد هؤلاء قال لي: «منذ زمن طويل وأنا أصادفك في نفس المسرح كلّما قصدتُه. قلْ لي كرمى لأيّ منهنّ تكلّف نفسك هذا العناء؟»

لأيّ منهنّ؟... لم يكن يبدو لي أنّه يمكن الذهاب إلى هناك من أجل «سواها». ومع ذلك بحْتُ باسمها. فقال لي صديقي بلهجة تشوبها الرأفة: «ألا انظرْ هناك إلى الرجل المحظوظ الذي اصطحبها للتوّ، والذي عملاً بقوانين معشرنا لن يذهب لموافاتها ربّما إلّا فيما بعدُ ليلاً».

من دون كبير انفعال، أشحت بنظري صوب الشخص المشار إليه. كان

(1) هذه المفارقات الأفلاطونيّة، وهذه الأحلام المتجدّدة بالاسكندريّة، تذكّر بالمدرسة الأفلاطونيّة للاسكندريّة في القرن الثالث (أمونيوس وأفلوطين وبورفير)، وبالنهضة الفلورنسيّة في القرن الخامس عشر (مارسيليو فيتشينو Marsilio Ficino 1433–1499، أحد الفلاسفة الإنسانيّين الأكثر نفوذاً في أوائل عصر النهضة الإيطاليّة. أسّس أكاديميّة فلورنسا التي سعت لإحياء مدرسة أفلاطون وتطور الفلسفة الأوروبيّة).

رجلاً في مقتبل العمر أنيق المظهر، شاحب الوجه متّقده، لائقاً في تصرّفه، وعيناه تكتنفهما كآبة عذبة. كان يرمي بالذهب على طاولة الويست[1] غير مكترثٍ بالخسارة.

قلت له:

- ما همّني، سواء كان هو أم رجلاً آخر؟ يجب أن يكون هناك واحد على أيّة حال. وهذا الرجل يبدو لي جديراً بأن يُختار.

- وماذا عنك أنت؟

- عنّي أنا؟ إنّها صورة أطاردها، ولا شيء أكثر.

لدى خروجي مررت بقاعة القراءة، ووقع نظري صدفةً على إحدى الصحف. كنت أريد، على ما أظنّ، أن ألقي نظرة على سعر البورصة. ضمن ما تبقّى لي من ثروتي كان لديّ مبلغ كبير بسندات أجنبيّة. كان يُشاع أنّه سيتمّ الاعتراف بها بعد أن أهملت طويلاً، وهذا ما حصل بالفعل عقب تغيير في الوزارة. كانت الأرصدة ترتفع بشكل باهظ، وعدت ثريّاً من جديد[2].

فكرة واحدة عبرت رأسي نتيجة تغيّر هذا الوضع. فكرة أنّ المرأة التي أحبّها منذ زمن طويل ستصبح ملكي لو شئت. كنت على شفا أن ألامس مثالي. ولكنْ أتراه يكون وهماً آخر، أو خطأً مطبعيّاً يستهزئ بي؟ لكنّ الصحف الأخرى كانت تتحدّث عن الأمر نفسه. وانتصب المبلغ الذي ربحته أمامي وكأنّه تمثال مولوخ[3] الذهبيّ. فكّرت: «ماذا سيقول الآن الشابّ الذي رأيته لتوّي إذا أخذت مكانه لدى المرأة التي تركها وحيدة؟...» ارتعشتُ لهذه الفكرة، وثارت كبريائي.

---

(1) الويست Whist: ضرب من لعب الورق بين أربعة أشخاص، اثنان مقابل اثنين.

(2) في هذه النقطة تحديداً يبدو الرّاوي أكثر حظّاً من نرفال.

(3) مولوخ: إله عبرانيّ، لم يكن يرضيه شيء إلّا قرابين الأطفال.

لا! لا يُعقَلُ أن يكون الأمر هكذا. ليس في مثل عمري يُقتلُ الحبّ بالذهب. لن أكون مفسِداً. على أيّة حال تلك فكرة تنتمي إلى زمنٍ آخر. ثمّ من يقول إنّ هذه المرأة تُباع وتُشتَرى. كنت شارداً أجول بنظري الصحيفة التي لا أزال أمسك بها، ثمّ قرأت هذين السطرين: «عيد الباقة الريفيّة: غداً يفترض بقوّاسي سنليس أن يُعيدوا الباقة لقوّاسي لوازي[1]». هذه الكلمات التي هي في منتهى البساطة أيقظت فيّ دفعة جديدة من المشاعر، ذكرى من الريف المنسيّ منذ وقت طويل، صدى بعيداً للأعياد الشعبيّة أيّام الشباب، حين كان البوق والطبل يصدحان بعيداً في القرى والغابات، والصبايا يجدلن أكاليل الزهر ويُنَسّقن الباقات ويزيّنها بالشرائط وهنّ ينشدن الأغاني. وكانت عربة ثقيلة تجرّها عجول تتلقّف هذه الهدايا لدى مرورها. أمّا نحن، أبناء تلك الأصقاع، فكنّا نؤلّف الموكب بأقواسنا وسهامنا، متّخذين لقب «الفرسان»، ولم نكن نعرف آنئذٍ أنّ ما نفعله كان مجرّد تكرارٍ متوارث لعيدٍ سلتيّ لا يزال مستمرّاً بالرّغم من الممالك والأديان الجديدة.

2– أدريانا

خلدت إلى سريري ولم أستطع أن أجد السكينة. مستغرقاً في شبه غفوة[2] كان شبابي يعبر من جديد ذاكرتي. تلك الحالة التي يقاوم خلالها

(1) أثبت الناقد جاك بوني Jacques Bony أنّ جماعة منَ القوّاسين كانت موجودة فعلاً في لوازي Loisy. ومع ذلك فإنّ أعياد الباقة هذه التي دامت حتّى النصف الثاني من القرن العشرين لم يكن فيها شيء درويديّ (سلتيّ) بل كانت تعود إلى القرن السادس عشر. نرفال هنا يُضحّي بها إيثاراً للأسطورة الدرويديّة التي كان الاهتمام بها شائعاً آنذاك.

(2) هذه الذكريات هي إذن شبه محلومة. راجع مطلع الفصل الثالث.

الفكر التراكيب الغريبة للحلم، غالباً ما تتيح أنّ يتوالى، في بضع لحظات، شريط طويل من مشاهد الحياة الأكثر التماعاً.

كنت أستحضر في ذهني قصراً من زمن الملك هنري الرابع بسطوحه المسنّنة المكسوّة بالأردواز وواجهته المغراء ذات الزوايا المخرّمة بالحجارة المصفرّة، وساحة كبيرة خضراء محاطة بأشجار الدردار والزيزفون، وأشعّة الشمس الغاربة تخترق أوراقها بسهامها المتوهّجة. كانت فتيات يافعات يتحلّقن للرقص في حلقة على المرج المُعشب وهنّ ينشدْنَ ألحاناً ورثنها عن أمّهاتهنّ، وبلغة فرنسيّة على سليقتها غاية في النقاء والتلقائيّة فيشعر المرء أنّه في رغدٍ من العيش في هذه البلاد القديمة من الفالوا، التي كانت لأكثر من ألف سنة قلب فرنسا النابض.

كنت الفتى الوحيد في هذه الحلقة التي اصطحبت إليها سيلفيا رفيقتي اليافعة، فتاة صغيرة من ضيعة مجاورة، مفعمة حيويّة ونضارة بعينيها السوداوين، وجانب وجهها المتناسق، وبشرتها التي لوّحتها الشمس قليلاً!... لم أكن أحبّ إلّاها ولم أكن أرى إلّاها إلى ذلك الحين، إلى أن لمحْتُ في الحلقة التي كنّا نرقص فيها فتاة شقراء جميلة طويلة القامة تُدعى أدريانا. وفجأة، وتبعاً لقوانين الرقصة، ألفت أدريانا نفسها وحدها بمعيّتي وسط الحلقة. كانت قامتانا متساويتَين. طُلِبَ منّا أن نتبادل قبلة، ودارت الرقصة والجوقة معها بحيويّة أكثر من أيّ وقتٍ مضى. حين قبّلتها لم أستطع أن أمنع نفسي من الشدّ على يدها. لامسَتِ الحلقاتُ الطويلةُ لشعرها الذهبيّ وجنتي. ومنذ ذلك الوقت تملّكني اضطراب لم أعرفه من قبل. كان على الجميلة أن تغنّي لكي يحقّ لها العودة إلى الرقصة. جلسنا حولها، وفي الحال، وبصوت نضرٍ شجيّ، أبحّ قليلاً مثل أصوات فتيات تلك البلاد المكتنفة بالضباب،

أنشدت إحدى الأغاني القديمة المفعمة بالكآبة والحبّ التي تروي دوماً مآسي أميرة تقبع حبيسةَ برجها لأنّ والدها أراد أن تنال جزاء حبّها.

كان اللّحن ينتهي عند كلّ مقطع بهذه الزغردات المتهدّجة التي تبرز محاسنها الأصواتُ الشابّة، عندما تقلّد برجفةٍ منغّمةٍ صوتَ الجدّات المتهدّج.

كلّما غنّت انهمر الظلّ من الأشجار الكبيرة. كان ضوء القمر البازغ يغمرها وحدها، هي البعيدة عن مدى عيوننا. ثمّ صمتت ولم يجرؤ أحدٌ على قطع الصمت. كانت الحشائش مكسوّة بأبخرة رقيقة كثيفة تكلّل بنديفها الأبيض رؤوس الأعشاب. كنا نفكّر أننا في الجنّة. نهضتُ أخيراً، راكضاً إلى حديقة القصر، حيث كانت توجد أشجار غار مزروعة في أوانٍ من الخزف مطليّة على الطريقة التدرّجيّة[1]. جلبت معي غصني غارٍ مضفورَين على شكل إكليلٍ ومحبوكَين بشريط. وضعتُ هذه الزينة على رأس أدريانا فالتمعت أوراقها البرّاقة على شعرها الأشقر تحت أشعة القمر الشاحبة. كانت تشبه بياتريشي دانتي التي ابتسمت للشاعر المتسكّع عند تخوم المساكن المقدّسة[2].

نهضت أدريانا متمطّية بقامتها الرشيقة، ثمّ ألقت علينا تحيّة لطيفة، وعادت مهرولة إلى القصر. قيل لنا إنّها كانت حفيدة أحد المتحدّرين من أسرة صاهرت ملوك فرنسا القدامى. كان دم أهل الفالوا يسير في عروقها. في يوم العيد ذاك سُمح لها بأن تنضمّ إلى ألعابنا. لن تسنح لنا

---

(1) طريقة في الرسم يستعمل فيها الفنّان لوناً واحداً متدرّجاً من الغامق إلى الفاتح أو العكس. وقد شاعت هذه الطريقة في أوروبا في القرن الثامن عشر.

(2) إشارة إلى «الكوميديا الإلهيّة» للشاعر الإيطاليّ دانتي (1265–1321)، وهي من أهمّ وأبرز الملاحم الشعريّة في الأدب الإيطاليّ.

الفرصة برؤيتها مجدّداً لأنّها كانت ستعود في اليوم التالي إلى الدّير حيث كانت تلميذة داخليّة.

عندما عدت بالقرب من سيلفيا، أيقنت أنّها كانت تبكي. الإكليل الذي سلّمته بيديّ للمغنّية الجميلة كان سبب بكائها. عرضتُ عليها الذهاب لأقطف لها غصناً آخر لكنّها قالت إنّها لا تتمسّك بعرضي إطلاقاً لأنّها لا تستحقّه. أردت عبثاً أن أدافع عن نفسي لكنّها لم تقل كلمة واحدة فيما كنت أعيد توصيلها إلى أهلها.

وإذ استدعيت أنا نفسي إلى باريس لاستئناف دروسي، احتفظت بهذه الصورة المزدوجة لصداقة رقيقة قُطِعت بشكل محزن، ثمّ لحبٍّ مستحيل وغامض بات مصدراً لأفكار أليمة عجزت منظومة المدرسة عن تهدئتها.

بقي وجه أدريان وحده ساطعاً، أشبه بسراب المجد والجمال يلطّف ساعات الدروس الصارمة أو يشاطرني إيّاها. في عطلة السنة التالية علمتُ أنّ هذه الجميلة التي رأيتها خطفاً قد نذرتها عائلتها لحياة الرهبنة.

3- قرار

كلّ شيءٍ توضّح لي عبر هذه الذكرى شبه المحلومة[1]. ذاك الحبّ الغامض الميؤوس منه، الممنوح لممثّلة، الذي كان يستأثر بي لحظة العرض المسرحيّ ولا يتركني إلّا ساعة النوم... ذاك الحبّ كان باعثه ذكرى أدريانا، زهرة اللّيل المتفتّحة تحت ضوء القمر الشاحب، والطيف الورديّ

(1) راجع اعترافات نيكولا في «المتنوّرون»، الفصل الأوّل، القسم السادس: «هذه المرأة، رآها فيما مضى، ولكن ليس كما كانت تظهر له الآن: كان وجهها شبه مغمور كما في أحد هذه الانطباعات الغامضة للطفولة التي تعود أحياناً وكأنّها ذكرى حلم».

الأشقر المنزلق على العشب الأخضر المتماوج في سحائب من أبخرة سنيّة.
بات ذاك الشبه مع وجه منسيّ منذ سنوات يبين بوضوح فريد، كمثل رسم بالقلم أوهاه الزمن ثمّ انجلى، أو كمثل تخطيط قديم لرسّام عبقريّ أثارَ إعجابنا في متحف ثمّ عثرنا على نسخته الأصليّة المبهرة في مكانٍ آخر.

أن تحبّ راهبة في ثوب ممثّلة!... وماذا لو كانت هي نفسها[1]! ثمّة في الأمر ما يثير الجنون! إنّه انجرار حتميّ حيث المجهول يجذبك مثل الوهج المستنقعيّ العابر فوق قصب المياه الراكدة... والآن لنعد إلى أرض الواقع.

سيلفيا التي كنت أحبّها كثيراً، كيف غابت عن بالي ثلاث سنوات؟... كانت فتاة في غاية الجمال، لا بل الفتاة الأجمل في لوازي!

هي لا تزال هناك، كما كانت، طيّبة وصافية السّريرة ولا شكّ. أرى من جديدٍ نافذتها حيث دوالي العنب تعانق شجرة الورد[2]، وحيث قفص الهوازج معلّق إلى اليسار. وأسمع صوت مغزلها الرنّان وأغنيتها المفضّلة:

«كانت الحُلوة جالسةً
قربَ الجدول الجاري..».

لا تزال تنتظرني... فمن سيتزوّجها وهي على هذا الفقر!

(1) راجع «المتنوّرون»، الفصل الثاني، المشهد الثالث: «نظريّة التشابهات هذه هي إحدى الأفكار المفضّلة لدى ريتيف، إذ بنى العديد من رواياته على افتراضات مماثلة. تلك ميزة بعض النفوس التي يرتكز الحبّ لديها إلى الشكل الخارجيّ بدلاً من الروح. وتلك، يمكن القول، فكرة وثنيّة، وليس ممكناً البتّة التسليم بها، كما يدّعي ريتيف أنّه لم يحبّ قط إلّا المرأة نفسها... في ثلاث نساء». (يقصد نرفال الأديب الفرنسيّ رتيف دولا بروتون **Restif de La Bretonne**، 1734–1806، وكان نرفال قد نشر دراسة عن حياة ومؤلّفات هذا الأديب في مجلّة *La Revue des Deux Mondes* ثمّ في «المتنوّرون» مستنداً بشكلٍ رئيسيّ إلى روايته «السيّد نيكولا» *Monsieur Nicolas* 1796–1797).

(2) راجع قصيدة «المحروم» في أشعار نرفال المعنونة: «الأوهام».

في قريتها، وفي القرى التي كانت تحيط بها، ثمّة فلّاحون طيّبون يرتدون ملابس العمل، أيديهم خشنة ووجوههم ناحلة وبشرتهم لوّحتها الشمس! كانت تحبّني وحدي أنا الباريسيّ الصغير، عندما كنت أذهب بالقرب من لوازي لأزور عمّي الذي بات اليوم في عداد الأموات. منذ ثلاث سنوات وأنا أبدّد بلا حساب الثروة المتواضعة التي خلّفها لي والتي كانت ستكفيني مدى الحياة. لو كنت مع سيلفيا لكنت احتفظت بها ربّما. أعادت لي الصدفة جزءاً منها. لا تزال الفرصة سانحة إذَن.

تُرى ماذا تفعل في هذه الساعة؟ لا بدّ أنّها نائمة... لا ليست نائمة. اليوم عيد القوس، العيد الوحيد في السنة حيث يدور الرقص طيلة اللّيل. لا بدّ أنّها ذهبَتْ إلى العيد...

كم الساعة الآن؟

ليس لديّ ساعة.

وسط كلّ روائع المتروكات العتيقة التي كان شائعاً جمعها في تلك المرحلة لإضفاء اللّون المحليّ على بيت قديم، كانت تلتمع ببريق نضر إحدى تلك الساعات الدقّاقة المطعّمة بالصدف والمشغولة وفق طراز عصر النهضة، يعلو قبّتها إله الزمن وتستند إلى كريتيدات[1] وفق طراز عائلة ميديتشي[2]، يستندن بدورهنّ إلى أحصنة شبه جَرِنَة. وديانا الشهيرة المتّكئة إلى إيّلها، منقوشة نقشاً ضئيل البروز تحت ميناء الساعة حيث تظهر

(1) كريتيدات Cariatides: عذارى كاريا بإقليم لاكونيا جنوب اليونان مُنحَ اسمهنّ لتماثيل على شكل أعمدة تحمل سقوف المعابد.

(2) ميديتشي Médicis: (آل ميديتشي) إحدى أشهر عائلات فلورنسا، وقد لعبت الدور الرئيسيّ في تاريخها إذ شجّعت على النهضة. نكتب اسمها بالنطق الإيطاليّ عندما يدور الكلام على حضورها في إيطاليّا، وهي عند الفرنسيّين عائلة آل ميديسيس.

على الخلفيّة المرصّعة بالميناء السوداء أرقام الأوقات المزخرفة. لا شكّ أنّ نوابض هذه السّاعة لا تزال في حالة ممتازة ولكنّها لم تُحرَّك منذ قرنين. لكنّي لم أشترِها من تورين لمعرفة الوقت[1].

نزلتُ عند الحارس. كانت ساعته تشير إلى الواحدة صباحاً. قلت في نفسي: في ظرف أربع ساعات يمكن الوصول إلى حفل «لوازي». كان لا يزال هنالك في ساحة القصر الملكيّ خمس أو ستّ عربات متوقّفة لتقلّ زبائن الأندية والمقامرين. قلت للأقرب: إلى لوازي! - أين هي؟ - بالقرب من سنليس، على مسافة ثمانية فراسخ. قال الحوذيّ الذي لم يهتمّ لحماستي: سأقودك إلى المحطّة.

أيّ طريق حزين في اللّيل هو طريق فلاندر[2] هذا الذي لا يصبح جميلاً إلّا لدى بلوغ منطقة الغابات! دائماً هذان الصفّان من الأشجار الرتيبة التي ترسم أشكالاً غامضة. وفي البعيد مربّعات من الخضرة والأراضي المحروثة التي تحدّها شمالاً التلال الزرقاء لمونمورنسي، وإيكوان، ولوزارش. هاكم غونيس، الضيعة التافهة الممتلئة بذكريات العصبة المقدّسة وحروب المقلاع...

أبعد من لوفر هناك طريق تحفّ بها أشجار التفّاح وقد رأيت عدّة مرّات الأزهار تتفتّح في الليل كأنّها نجوم طالعة من الأرض: هذا الطريق هو الأقصر لبلوغ الدساكر. وفيها العربة تصعد أكتاف السفوح، لنعد تركيب ذكريات الزمن حين كنت آتي إلى هنا غالباً.

(1) هذه السّاعة الدقّاقة من طراز عصر النهضة حيث ديانا الشهيرة (ديانا دوبواتييه Diane de Poitiers: كونتيسة ودوقة فرنسيّة 1500–1566،عشيقة ملك فرنسا هنري الثاني) تتماهى مع ديانا الميثولوجيّة، هي رمز ذلك الرجوع في الزمن الذي ينضاف إليه الحلم بالنهضة. وهي على صلة بسونيتة «أرتميس» في مجموعة «الأوهام» لجيرار دونرفال.

(2) على طريق فلاندر، راجع «إلى ألكساندر دوما» في هذا الكتاب.

4- الرحلة إلى كيتيريا[1]

مضت عدّة أعوام: المرحلة التي قابلت فيها أدريانا أمام القصر لم تعد إلّا ذكرى من الطفولة. كنتُ في لوازي في عيد شفيعها. ذهبت من جديدٍ أوافي فرسان القوس، متّخذاً مكاني في الجمعيّة التي كنت منتسباً إليها سابقاً. نظّم الاحتفال شبّانٌ ينتمون إلى عائلات قديمة لا تزال تملك هنا العديد من تلك القصور المنعزلة في الغابات، وقد قاست من الزمن أكثر من الثورات. كانت مواكب الفرسان الهازجة تهرع من شانتيي، وكومبيَن، وسنليس، لتلتحق بالقافلة الريفيّة لجمعيّات القوس. بعد النزهة الطويلة عبر القرى والدساكر، وبعد رتبة القدّاس في الكنيسة، ومسابقات الرّماية وتوزيع الجوائز، دُعِيَ الفائزون إلى مأدبة تقام في جزيرة تظلّلها أشجار الحور والزيزفون وسط إحدى البحيرات التي يغذّيها رافدا النونيت والتيف[2]. قادتنا قوارب موشّاة بالأعلام إلى الجزيرة، التي كان اختيارها عائداً لوجود معبد بيضاويّ مزادن بالأعمدة وكان بمثابة قاعة للمأدبة. هناك البلاد، كما في أرمنونفيل، ملأى بتلك المباني الضئيلة التي ميّزت نهاية القرن الثامن عشر حيث أصحاب ملايين كيّسون استلهموا في تصاميمهم الذوق السائد آنذاك. وأغلب ظنّي أنّ هذا المعبد كُرِّسَ في البدء إلى أورانيا[3]. ثلاثة من الأعمدة سقطت جارفة في سقوطها قسماً

---

(1) الرسّام الفرنسيّ أنطوان واتو Antoine Watleau (1721–1864): تعتبر لوحته «الإبحار إلى جزيرة كيتيريا» *Voyage à Cythère* أهمّ أعماله. وقد استوحى من كيتيريا أربع لوحات. أمّا كيتيريا (سيتير Cythère عند الفرنسيّين) فهي جزيرة إغريقيّة في بحر إيجه.

(2) النونيت والتيف La Nonette et la Thève: رافدان من نهر الواز (الواز Oise: نهر في فرنسا بالحوض الباريسيّ من روافد السين يمتدّ على 302 كلم).

(3) أورانيا: إحدى إلهات الإلهام التسع وعُنيت بالعلوم الفلكيّة.

من العوارض. لكنّ الأنقاض أزيلت من داخل القاعة، وعُلّقت أكاليل من زهرٍ، وجُدِّدَت هذه الأطلال المعاصرة التي تنتمي إلى وثنيّة بوفلير أو شوليو[1] أكثر منها إلى وثنية هوراس.

ربّما كان اجتياز البحيرة وسيلة للتذكير بـ«الرحلة إلى كيتيريا» لأنطوان واتو. وحدها كانت ملابسنا المعاصرة تشوّش هذا المشهد. انتُشِلَتْ باقة الاحتفال الهائلة من العربة التي تحملها، ووُضِعَتْ على قاربٍ كبير، واحتلّ موكب الصبايا المرتديات الأبيض اللواتي يرافقن العربة حسب الأصول، مكانه على المقاعد. كانت هذه «البعثة» الظريفة تعيد إحياء الزمن القديم، وكانت صورتها تنعكس في مياه المستنقع الهادئة التي تفصلها عن ضفّة البحيرة المتوهّجة الحمرة تحت أشعّة المغيب مع أجمات الشوك المحيطة بها، وصفّ الأعمدة، والأوراق الغضّة. بعد قليل رست جميع المراكب. ووُضعت السلّة المحمولة إبّان الاحتفال في منتصف الطاولة. اتّخذ كلٌّ مكانه، وجلس الأوفر حظّاً بالقرب من الصبايا. كان يكفي من أجل ذلك أن يكون الشابّ معروفاً من الأهل. وكان هذا ما جعلني أجدني بالقرب من سيلفيا. كان شقيقها قد وافاني إلى الاحتفال، وخاصمني لانقطاعي عن زيارة العائلة منذ وقتٍ طويل. عزوت السبب إلى دراستي التي كانت تبقيني في باريس مؤكِّداً له أنّني أتيت بهذا الهدف. قالت سيلفيا: «لا، أنا التي نسيَها. نحن قرويّون بسطاء، وباريس لعلية القوم!». أردت أن أقبّلها لكي أسكتها لكنّها كانت لا تزال تحمل عليّ. وتوجّب على أخيها أن يتدخّل ليحثّها على أن تقرّب خدّها منّي فامتثلت ببرودة. لم أسرّ قطّ بهذه

(1) الفارس دوبوفلير De Boufflers (1738–1815) والأب شوليو Chaulieu (1639–1720) شاعران متواضعا الموهبة وكلِفان بالقديم.

القبلة التي يمكن أن يحظى بها الكثيرون، لأنّه في هذه البلاد القديمة حيث تلقى التحيّة على كلّ آدميّ يمرّ، ليست القبلة إلّا مجرّد لياقة بين الناس الطيّبين.

كان منظّمو الحفلة قد دبّروا مفاجأة. عند نهاية المأدبة، شوهدت بجعة بريّة كانت كامنة تحت الأزهار وهي تطير خارج السلّة الواسعة، وأخذت تنتشل بأجنحتها الجبّارة كرات من الشرائط المضفورة والأكاليل مبعثرة إيّاها في كلّ الجهات. وفيما كانت البجعة تندفع مبتهجة نحو التماعات الشمس الاخيرة، كنّا نلتقط كيفما اتّفق الأكاليل، وراح كلّ منّا يزيّن بها جبين جارته. سنحت لي الفرصة بأن ألتقط أحد أجمل الأكاليل، وابتسمت سيلفيا وتركتني أقبّلها بطريقة أرقّ هذه المرّة. أدركت أنّني كنت أمحو بهذه القبلة ذكرى زمن آخر. أعجبت هذه المرّة بها وحدها، كانت صارت في غاية الجمال! لم تعد تلك الفتاة الجميلة من القرية التي جفوتُها من أجل واحدة أخرى أطول قامة وأكثر تكلّفاً وتآلفاً مع ذائقة العصر. كلّ شيءٍ في سيلفيا ازداد تألّقاً؛ بات سحر عينيها السوداوين المفعمتين إغواء منذ طفولتها لا يُقاوم. وتحت قوسَي حاجبيها كان لابتسامتها التي أضاءت فجأةً ملامح وجهها المتناسقة الوادعة، رهافة إغريقيّة. كنت معجباً بملامحها التي تذكّر بالرسوم القديمة، المتألّقة وسط وجوه رفيقاتها العابسة. أناملها الرشيقة الرهيفة، ذراعاها اللتان ابيضّتا واستدارتا، قامتها المشيقة... كلّ ذلك كان يجعلها إنسانة مختلفة تماماً عمّا رأيتها. لم أستطع الامتناع عن القول لها كم كنت أجدها مختلفة عن نفسها، راجياً أن أعوّض بهذا المسعى خيانتي القديمة العابرة.

كلّ شيءٍ كان يؤازرني على أيّة حال: صداقة شقيقها، والانطباع السّاحر

عن هذا الحفل، والمساء، والمكان نفسه حيث بُعِثَتِ الاحتفالات الأنيقة لأيّام زمان وهذا بفضل خيالٍ مفعم بالذوق. كنّا نتحاشى قدر الإمكان الرقص لكي يتسنّى لنا التحدّث عن ذكريات طفولتنا وتأمّل انعكاسات السماء على الظلال والمياه حالمَين. توجّب على شقيق سيلفيا أن ينتشلنا من هذا التأمّل وهو يقول إنّه حان الوقت للعودة إلى القرية النائية حيث كان يُقيم أهله.

5- القرية

أوصلتها إلى لوازي، عند منزل الحارس القديم، ثمّ عدت أدراجي إلى مونتانيي حيث كنت أقيم عند عمّي. حين انحرفت عن الدرب لأجتاز غابة صغيرة تفصل لوازي عن سان س...[1]، لم ألبث أن توغّلت في مسلك عميق يجاور غابة أرمنونفيل. كنت أتوقّع من ثمّ أن أعثر على جدران ديرٍ كان ينبغي السير بمحاذاتها مسافة ربع فرسخ. كان القمر يحتجب بين الفينة والأخرى خلف الغيوم، لا يضيء إلّا قليلاً الصخور الرمليّة القاتمة ونباتات الخلنج التي كانت تتكاثر تحت خطواتي. يميناً ويساراً، فرجات في الغابات دون طرق مرسومة، وأمامي دوماً تلك الصخور السّلتية المنتشرة في النواحي والمحتفظة بذكرى أبناء أرمان[2] الذين بدّدهم الرومان! من أعالي هذه الكتل الصخريّة المهيبة، كنت أرى البحيرات البعيدة تتقاطع كمَرايا في السهل الضبابيّ دون أن أتمكّن من تمييز البحيرة حيث جرى الاحتفال.

---

(1) سان سولبيس دوديزير Saint-Sulpice-du-Désert في مورتفونتين Mortfontaine حيث الدّير المذكور في المقطع التالي أزيلت عنه الصفة الدينيّة منذ 1778. كان من جهة أخرى ديراً للرجال.

(2) أرمان بطل جرمانيّ سبقت الإشارة إليه في قصّة «أنجيليكا».

كان الهواء دافئاً وعطراً. صمّمت على عدم التوغّل بعيداً وانتظار الصباح مضطجعاً على باقات الخلنج. حين استيقظت تعرّفت تدريجيّاً إلى المواقع المجاورة للمكان الذي كنت تهت فيه ليلاً. إلى يساري رأيت الجدار الطويل الممتدّ لدير سان س...، ثمّ في الجهة الأخرى من الوادي، «هضبة الجنود»، وأطلال المسكن الكارولنجيّ القديم بأنقاضه المثلومة. وقريباً من هناك، فوق حُزم الغابات، المساكن العالية الحقيرة لدَير «تيير» تتوالى جوانب جدرانها المزدانة بالنفليّات[1] والأقواس القوطيّة. وأبعد منها، قُصَير بونتارميه[2] الريفيّ القوطيّ محاطاً بالمياه، كما فيما مضى، وعاكساً أولى أنوار النهار. أمّا في الجنوب فينتصب برج تورنيل العالي، وأبراج برتران فوس الأربعة على أولى نجود مونميليان[3].

كانت تلك ليلة عذبة، ولم أكن أفكّر إلّا بسيلفيا. ومع ذلك أوحى لي شكل الدير هنيهة بأنّه ربّما كان ذلك الذي تقيم فيه أدريانا. ما برح رنين جرس الصباح الذي أيقظني يطنّ خلف الجدران. خطرت لي لثانيةٍ الفكرة بأن أتسلّق أعلى نقطة في الصّخور وألقي نظرة خلف الجدران. ولكنّي إذ فكّرت بذلك، تراجعت وكأنّ في الأمر تدنيساً. ثمّ طرد النهار المتنامي من فكري هذه الذكرى الباطلة، ولم يترك لي إلّا قسمات سيلفيا الورديّة. قلت في نفسي: «لنذهب ونوقظها»، وسلكت طريق لوازي.

ها هي القرية في آخر المسلك الذي يحاذي الغابة: عشرون كوخاً حيث دوالي الكرمة والورود المعرّشة تزيّن الجدران. كانت الناسجات غاديات يعتمرن مناديل حمراء ويعملن مجتمعات أمام إحدى المزارع. لم

(1) نفليّة: زخرف على شكل وريقات النفل الثلاث.

(2) بونتارميه Pontarmé: في منطقة الواز وفيها قصر بونتارميه.

(3) مونميليان Montmélian: بلدة فرنسيّة في مقاطعة السافوا في منطقة رون آلب.

تكن سيلفيا بينهنّ. أضحت آنسة تقريباً منذ شرعت في صنع قطع دنتيلا مرهفة[1]، فيما ظلّ أهلها قرويّين بسطاء. صعدْتُ إلى غرفتها دون أن يُفاجأ أحد. كانت استيقظت منذ وقت طويل. راحت تحرّك مبارم الدانتيل التي اصطكّت بصخبٍ عذبٍ على الوسادة الخضراء الموضوعة على ركبتيها. قالت لي بابتسامة رائعة: «ها أنت أيّها الكسول. أنا أكيدة أنّك غادرت للتوّ سريرك!» رويت لها ليلتي التي أمضيتها دون نوم وتجوالي الهائم عبر الغابات والصخور. أرادت فعلاً أن ترثي لحالي قليلاً. «إذا لم تكن متعباً فسأجعلك تواصل تجوالك، سنذهب لزيارة عمّتي في أوتيس». ما كدت أجيبها حتّى نهضت بسرور، ورتّبت شعرها أمام المرآة، ثمّ اعتمرت قبّعة قشّ ريفيّة. كانت البراءة والفرحة تلتمعان في عينيها. انطلقنا محاذين ضفاف نهر تيف عبر الحقول المنثورة بأزهار الأقحوان وأزرار الذهب[2]، ثمّ على امتداد غابات سان لوران مجتازين أحياناً الجداول والأجمات لاختصار الطريق. كانت الشحارير تصفر بين الأشجار، وطيور أبي الحنّ تفرّ بسعادة من الجنبيّات التي لامسناها أثناء سيرنا.

أحياناً كنّا نصادف تحت أقدامنا أزهار العناقيّة الغالية على قلب روسو[3] باسطةً تويجاتها وسط هذه الأغصان الطويلة من الأوراق الموصولة. كانت نباتات معترشة وضيعة تعْلق بقدمي رفيقتي الرشيقتين. غير مبالية بمذكّرات الفيلسوف الجنيفيّ[4]، كانت تبحث هنا وهناك عن الفراولة

(1) الفلّاحة الصغيرة أصبحت صانعة دنتيلا (نسيج مخرّم).

(2) جنس نباتات عشبيّة من الفصيلة الحوذانيّة صفراء الأزهار.

(3) راجع «الاعترافات» لجان جاك روسو، الفصل السابع حيث التعرّف غير المتوقّع على زهرة العناقيّة ذكّره بمدام دوفارَنس Madame de Warens بعد ثلاثين سنة من انفصالهما.

(4) أي جان جاك روسو الذي وُلِد في جنيف.

العطرة، وأنا كنت أحدّثها عن «إيلوييز الجديدة»[1] تالياً عليها بعض المقاطع غيباً. سألتني: «هل الرواية جميلة؟ فأجبتها: إنّها رائعة. - وهل هي أفضل ممّا كتبه أوغست لافونتين[2]؟ - إنّها أكثر رقّة. فقالت: «حسناً يجب أن أقرأها. سأقول لأخي أن يأتيني بها لدى ذهابه إلى سنليس». وتابعتُ أتلو على سيلفيا مقاطع من «إيلوييز» فيما كانت سيلفيا تقطف ثمار الفريز.

6- أوتيس

لدى خروجنا من الغابة، صادفنا أجمات كبيرة من القمعيّة[3] القرمزيّة. صنعت سيلفيا منها باقة هائلة وهي تقول لي: «هذه لعمّتي. ستكون سعيدة جدّاً لرؤية هذه الأزهار الجميلة في غرفتها». لم يعد لدينا إلّا مسافة قصيرة من السهل اجتيازها لبلوغ أوتيس. كانت قبّة الجرس بارزة على النجود الزرقاء الممتدّة من مونميليان إلى دامارتان. وكان نهر التيف يدمدم من جديد بين الحجارة الرمليّة والحصى هزيلاً في جوار منبعه حيث يرتاح بين الحقول محدثاً بحيرة صغيرة وسط أزهار الزنبق والسّوسن. بعد قليلٍ بلغنا المنازل الأولى. كانت عمّة سيلفيا تقطن كوخاً صغيراً مبنيّاً من الحَجارة الرمليّة غير المتساوية تغطّيها تعريشات من حشيشة الدينار والكرمة البريّة. كانت تعيش وحيدة وكان مورد رزقها مساحة صغيرة من الأرض يتولّى أهل القرية زراعتها منذ وفاة زوجها. لكأنّ مجيء ابنة أخيها أذكى

---

(1) «إيلوييز الجديدة» *La Nouvelle-Héloise*: عنوان رواية ترسليّة لجان جاك روسو وقد لاقت نجاحاً كبيراً في زمانها في القرن الثامن عشر.

(2) أوغست لافونتين Auguste La Fontaine (1758–1831) روائيّ شعبيّ ألمانيّ كان رائجاً آنذاك.

(3) القمعيّة: جنس زهرة بتلاتها كالأجراس.

الحماس والحيويّة في المنزل[1]. قالت سيلفيا: «صباح الخير يا عمّتي، جاءك ولداك. نحن جائعان!». قبّلتها بحنان، ووضعت في يديها باقة الأزهار، ثمّ فكّرت أخيراً بالتعريف بي وهي تقول: «إنّه حبيبي!». عندئذٍ قبّلتُ العمّة بدوري التي قالت: «إنّه لطيف... وأشقر فوق ذلك!...» قالت سيلفيا: «ولديه شعر جميل ناعم». «هذا لا يدوم، قالت العمّة، لكن أمامكما الكثير من السّنين، ثمّ إنّ لونه يتواءم ولونَك، أنتِ السّمراء». - «ينبغي إطعامه يا عمّتي» قالت سيلفيا. ثمّ ذهبت تبحث في الخزائن، وفي التخشيبة، فوجدت حليباً وخبزاً أسمر وسكّراً، وبسطت دون كبير عناية على الطاولة الصحون وأوعية من الخزف مبرنقة مزدانة بالأزهار الكبيرة والديوك ذات الأرياش الفاقعة. تربّع في وسط الطاولة قصعة من خزف كرَيّ[2]، مليء بالحليب تسبح فيه ثمار الفراولة. وبعد أن قطفت من البستان بضع حفنات من الكرز والكشمش، وضعت إناءين مليئين بالأزهار على طرفي الطاولة. لكنّ العمّة قالت هذه الكلمات اللطيفة: «كلّ هذا ليس إلّا تحلية. عليكما أن تتركاني أتصرّف الآن». وأتت بالمقلاةّ المعلقة إلى الجدار، ووضعت حطبة في المدفأة العالية. قالت لسيلفيا التي هبّت لمساعدتها: «لا أريدك أن تلمسي شيئاً! لا تشوّهي أناملك الجميلة التي تصنع الدنتيلا أجمل ممّا يصنعونها في شانتيي. أهديتني منها، وأنا خبيرة في ذلك».

- على فكرة ياعمّتي!... قولي لي هل لديك قطع دنتيلا قديمة لأنّها قد تكون مصدر إلهام لي.

- هيّا اصعدي إلى العِليّة وانظري. ربّما كان لديّ منها في الصوان.

---

(1) سيلفيا هي فعلاً من بنيّات اللّهب.

(2) كرَيّ: Creil من بلدات فرنسا في الواز اشتهرت بخزفها.

- أعطيني المفاتيح، استأنفت سيلفيا.
- ما بالك ! قالت العمّة، الأدراج مفتوحة.
- هذا ليس صحيحاً هناك درج مقفلٌ دوماً.
وفيما كانت المرأة الطيّبة تنظّف المقلاة بعد أن مرّرتها على النار، فكّت سيلفيا من معلّقات حزامها مفتاحاً صغيراً من الفولاذ المشغول وأرتني إيّاه مبتهجة.

لحقتُ بها بسرعة صاعداً الدرج الخشبيّ المؤدّي إلى الغرفة. أيّها الشّباب، أيّتها الشيخوخة المقدّستان! مَن ذا الذي يفكّر في تشويه صفاء حبّ أوّل في محراب الذّكريات الوفيّة هذا؟ في صورة ذات إطار بيضاويّ مذهّب علّقت في أعلى السرير الريفيّ صورة مرسومة لشابّ من أيّام زمان يبتسم بعينيه السوداوين وفمه الورديّ. كان يرتدي بذلة خفراءِ الصيد لدى آل كونديه. كان بمظهره شبه العسكريّ، ووجهه الورديّ اللطيف، وجبينه الوضّاء الذي يعلوه شعره المنثور بالذرور، يُضفي رونق الشباب والبساطة على هذه الصورة، التافهة ربّما، المرسومة بقلم بَستِل. لا بدّ أنّ فنّاناً متواضعاً دُعِيَ إلى جولات الصيد الأميريّة، وانكبّ على رسم صورته بأفضل ما يمكن، وأيضاً على رسم زوجته الشابّة التي نراها في قلادة أخرى، جذّابة، شقيّة، رشيقة القامة في صدريّتها المكشوفة المحبوكة بالشرائط، مداعِبة بأنفها الخانس عصفوراً يحطّ على إصبعها. كانت مع ذلك المرأة نفسها، العجوز الطيّبة التي تطهو الطعام في هذه اللّحظة منحنية على نار موقدها. ما جعلني أفكّر في جنيّات فونامبول[1] اللّواتي يخفين

(1) إشارة إلى مسرح فونامبول Théâtre des Funambules («فونامبول» كلمة تعني «بهلوان») على جادّة تامبل Boulevard du Temple القديمة في باريس (ساحة الجمهوريّة Place de la République اليوم).

خلف أقنعتهنّ المجعّدة، وجهاً ساحراً يكشفنه في النهاية عندما يظهر معبد إله الحبّ وشمسه المتنقّلة الملتمعة بنيران سحريّة. هتفتُ: «آه يا عمّتي الطيّبة، كم كنتِ جميلة!» «- وماذا عنّي أنا؟» قالت سيلفيا التي توصّلت إلى فتح الدرج الشهير. وجدَتْ فيه فستاناً طويلاً من التفتا البرّاقة، وكانت ثنيّاته المتغضّنة تحدث خشخشة. قالت: «سأجرّبه وأرى ما إذا كان يليق بي. ويلٌ لي! سأبدو مثل جنيّة عجوز!».

قلت في نفسي: «جنيّة الخرافات الشابّة أبداً!» ولم تلبث سيلفيا أن حلّت أزرار فستانها الهنديّ الأحمر الطراز، وتركته يسقط عند قدميها. تآلف فستان العمّة العجوز الفضفاض مع قامة سيلفيا بأفضل ما يكون، وطلبت منّي أن أزرّره. قالت: «أف! الكمّان المستويان كم هما مضحكان!» ومع ذلك كان الكُمّان المزيّنان بالدنتيلا يكشفان عن ذراعين عاريتين رائعتين، وجِيدها كان يحيط به الصّدار البارز ذو التول[1] المصفرّ والأشرطة الشاحبة التي لم تحتضن إلّا لزمنٍ وجيزٍ مفاتن العمّة التي اضمحلّت. «ولكنْ ماذا دهاك! ألا تعرف أنْ تزرّر فستاناً؟»، قالت لي سيلفيا. كانت تبدو مثل الخطيبة في لوحة غروز[2]. «يلزمك القليل من البودرة»، قلت. «-سوف نجدها»، أجابت. وفتّشت من جديدٍ الأدراج. آه، كم من الأشياء الثمينة! كم كانت الرائحة طيّبة، كم كان كلّ ذلك برّاقاً! كم من الألوان الحيّة الملتمعة، ومن الحليّ المتواضعة. كان هناك مروحتان مصنوعتان من الصدف، مكسورتان قليلاً، وعلب من مراهم

---

(1) التول: الحرير الرقيق.

(2) هو جان باتيست غروز Jean-Baptiste Greuze (1725–1805) رسّام فرنسيّ من مقلّدي الكلاسيكيّة. له لوحات ذات مغزى أخلاقيّ من بينها «خطيبة القرية» *L'Accordée de Village* (المقصودة في النصّ)، و«لعنة الأب» *La malédiction paternelle*.

التجميل برسوم صينيّة، وعقد من العنبر، وألف حلية بخسة، يلتمع بينها زوجا حذاء صغيران من القماش المدبّج المزدان بأنشوطتين مطعّمتين بالستراس[1]! قالت سيلفيا: «أريد أن أنتعلهما إذا وجدت الجوارب المطرّزة!»

بعد لحظات، كنّا نبسط جوارب حريريّة من اللّون الورديّ الفاتح بحَواشٍ خضراء. لكنّ صوت العمّة المرفق بهشيش المقلاة أعادنا فجأةً إلى الواقع. «انزلْ بسرعة»، قالت سيلفيا، وأيّاً يكن ما قلتُه لم تسمح لي بأن أساعدها في ارتداء حذائها. في هذه الأثناء كانت العمّة تسكب لتوّها في وعاءٍ محتوى المقلاة: قطعة من اللّحم المقدّد المقليّ مع البيض. استدعاني صوت سيلفيا بعد قليل. قالت لي: «ارتدِ هذا بسرعة». دلّتني وهي في كامل هندامها على زيّ العرس الخاصّ بخفير الغابة الموضوع على الصوان. وبلمحة بصر، تحوّلْتُ إلى عريسٍ من القرن المنصرم. كانت سيلفيا تنتظرني على الدرج. ونزلنا كلانا ونحن نشبك يدَينا. التفتت العمّة ثمّ هتفت مندهشة: «يا ولديّ الحبيبَين». وأجهشت بالبكاء ثمّ ابتسمت عبر دموعها. رأت أمامها صورة شبابها متجسّدة، بوحشتها وسحرها في آنٍ معاً! جلسنا قربها وقد أخذنا الحنين والوجوم. ثمّ عادت إلينا الغبطة لأنّه بعد حين، لم يعد يحلو للعجوز الطيبة إلّا أن تتذكّر مراسم عرسها الباذخة حتّى أنّها استعادت ذكرى الأغاني الشعبيّة، الشائعة آنذاك، والتي كانت تتردّد على جانبي مأدبة الزفاف، وقصيدة العرس الساذجة التي ترافق العريسَين العائدَين من الرقص. رحنا نكرّر هذه المقاطع البسيطة الإيقاع مع الوقفات والجناسات الخاصّة بذلك الزمن، تلك المقاطع

(1) ستراس: ألماس اصطناعيّ.

العاشقة الزاهية كنشيد «سفْر الجامعة»[1]. كنّا العريس والعروس لتلك الصبيحة الصيفيّة الجميلة.

7- شاليس

إنّها الساعة الرابعة صباحاً. الدرب تضيع في خطّ متعرّج، ثمّ تصعد. ستجتاز العربة أورّي ثمّ لاشابيل. إلى اليسار طريق تجاور غابة «ألّات». من هناك اصطحبني ذات مساء شقيق سيلفيا في عربته إلى احتفال أُقيم في البلاد. كانت تلك على ما أذكر ليلة السان بارتيليمي. كان حصانه ينهب الغابات، ودروباً قلّما تكون مطروقة، وكأنّه ذاهب إلى محفل السبت. أدركنا الرصيف في مون ليفيك، وبعد بضع دقائق توقّفنا عند بيت الخفير، في دير شاليس القديم... شاليس هي أيضاً ذكرى!

لم يبقَ من هذه الخلوة القديمة للأباطرة ما يثير الإعجاب إلّا أنقاض ديرها ذي القناطر البيزنطيّة التي كان آخر صفّ فيها لا يزال يطلّ على البحيرات. تلك أطلال شبْه منسيّة من المؤسّسات الدينيّة التي كانت تضمّها هذه الأملاك الواسعة التي كانت تدعى فيما مضى «إكارات شارلمان». احتفظ الدين في هذه البلاد المنعزلة عن حركة الطرقات والمدن بطابعٍ خاصّ من جرّاء الإقامة الطويلة لكرادلة عائلة ديست[2] في عهد آل ميديتشي. لا تزال رموزه وشعائره تتّسم بأناقة وشاعريّة، ويتنسّم المرء عطر عصر النهضة تحت أقواس المصلّيات ذات التعاريق المرهفة، المزيّنة على يد فنّانين من إيطاليّا. تتوالى وجوه القدّيسين والملائكة باللّون الورديّ

(1) في الواقع «نشيد الأناشيد» المنسوب لسليمان الحكيم.

(2) عائلة ديست d'Este: سلالة أمراء أوروبيّة.

على القبب المطليّة بالأزرق الفاتح مستعيرة الرموز الوثنيّة التي تذكّر بحالات بترارك العاطفيّة وبالروحانيّة الخرافيّة لفرانشيسكو كولونّا[1].

كنّا أنا وشقيق سيلفيا دخيلَين على العيد الخاصّ الذي كان يُحتفل به في تلك الليلة. أحد الأشخاص من نسبٍ رفيع وكان يملك آنذاك تلك المقاطعة، هو من خطرت له الفكرة بدعوة بضع العائلات المحليّة إلى ما يشبه التمثيليّة الرمزيّة، وقد أُسنِدَت الأدوار فيها لبعض النزلاء في ديرٍ مجاور. لم يكن ذلك إحياء لمآسي سان سير[2]، بل كان يرقى إلى أولى المحاولات الغنائيّة المجلوبة إلى فرنسا في عهد أسرة فالوا. التمثيليّة التي شاهدتها كانت وكأنّها سرّ من الأزمنة القديمة. الأزياء المؤلّفة من أثوابٍ طويلة لم يكن يفرّق بينها إلّا الألوان: اللازورديّ، والياقوتيّ، أو الأصفر الذهبيّ. كان المشهد يدور بين الملائكة على أنقاض عالم مدمّر. وكان كلّ صوت يغنّي إحدى روائع هذا الكوكب المطفأ تلك، وكان ملاك الموت يوضّح أسباب دماره. ثمّ يصعد ملاك من الهاوية حاملاً في يده السيف المتوهّج ويدعو الآخرين للمجيء والسّجود لمجد المسيح المنتصر على الجحيم. هذا الملاك كان أدريانا التي جعلها زيّها متغيّرة تماماً كما غيّرها إيمانها. كانت الهالة التي تحيط برأسها الملائكيّ مصنوعة من الكرتون

(1) فرانشيسكو كولونّا Francesco Colonna (1433–1527) راهب دومينيكيّ ولد في البندقيّة وإليه تنسب الرّواية الغريبة المكتوبة باللّاتينيّة «حلم بوليفيل» *Hypnerotomachia Poliphili* (بالفرنسيّة: *Songe de Poliphile*). يتألّف الكتاب من 165 ألف كلمة، والحروف الأولى من عناوين الفصول تشكّل باجتماعها العبارة: «الرّاهب فرانشيسكو كولونّا يحبّ بوليا»، وعليها يستند ناسبو هذا العمل الذي نُشر للمرّة الأولى بتوقيع غفل.

(2) إشارة إلى المسرحيّات المأسويّة التي كان يقدّمها الأديب الفرنسيّ جان راسين في سان سير المنزل المخصّص لتربية الفتيات والذي أسّسته مدام دومانتون، زوجة الملك لويس الرابع عشر عام 1686.

المذهّب وتبدو لنا وكأنّها حلقة نور حقيقيّة. غدا صوتها أكثر قوّة وعلوّاً، وكانت النغمات المتصاعدة اللامتناهية للأغنية الإيطاليّة تنمّق بتغريداتها الجُمَل الصارمة للإلقاء الملحّن المفخّم.

أسرد هذه التفاصيل وأنا أتساءل إن كانت حقيقيّة أم أنّني حلمتها. كان شقيق سيلفيا ثملاً بعض الشيء في ذاك المساء. توقّفنا بضع لحظات في بيت الخفير، وهناك استرعى انتباهي بشكلٍ خاصّ منظر بجعة مبسوطة الجناحين على الباب، ثمّ، داخل الخزائن المصنوعة من خشب الجوز المنقوش، ساعة حائط كبيرة في علبتها، وأقواس تذكاريّة، وسهام تكريميّة فوق لوحة الرمي الحمراء والخضراء. ثمّ قزم غريب، يرتدي قلنسوة صينيّة، يمسك زجاجة بيدٍ، وباليد الأخرى خاتماً وكان يبدو وكأنّه يدعو الرّماة إلى التصويب بشكلٍ صحيح. كان هذا القزم، على ما أظنّ فعلاً، مصنوعاً من الصّفيح المجتزّ. لكنّ طيف أدريانا أتُراه كان حقيقيّاً مثل هذه التفاصيل ومثل دير شاليس الذي لا نزاع على وجوده؟ إلّا أنّ ابن الخفير هو الذي أدخلنا إلى القاعة حيث كانت تُعرض التمثيليّة. كنّا بالقرب من الباب، خلف مشاهدين جالسين يأخذهم انفعال وقور. كان ذاك يوم السان بارتيليمي المرتبط خصوصاً بذكرى آل ميديتشي الذين كانت شعارات نسَبهم المجاورة لتلك المتعلّقة بأسرة ديست تزيّن هذه الأسوار القديمة... ربّما كانت هذه الذكرى هاجساً! لحسن الحظّ ها هي العربة تتوقّف على طريق بليسيس. أفرّ من عالم الأحلام ولم يتبقّ أمامي إلّا ربع ساعة من المسير لبلوغ لوازي عبر طرقٍ قلّما تكون مطروقة.

8- حفلُ لوازي

دخلت إلى حفل لوازي في تلك الساعة الكئيبة العذبة حين الأنوار تشحب مرتعشةً عند اقتراب النّهار. كانت أشجار الزيزفون القائمة في الأسفل تتّخذ عند ذراها صبغة مزرقّة. لم يعد الناي يتنافس بهذه الحدّة مع تغاريد العندليب. كان الجميع شاحباً، وفي المجموعات التي تضاءلت، شقّ عليّ أن أصادف وجوهاً أعرفها. وأخيراً لمحت ليز الطويلة القامة، صديقة سيلفيا. قبّلتني قائلة: - مضى زمن طويل ولم نركَ أيّها الباريسيّ. - أجل صحيح، زمن طويل. - ووصلْتَ في هذه الساعة؟ - في عربة المسافرين.- ولم يكن مجيئك سريعاً كما ينبغي! - كنت أريد أن أرى سيلفيا، ألا تزال في الحفل؟ - لا ترحل إلّا عند الصباح. فهي تهوى الرقص.

وفي لحظةٍ، ألفيتُني قربها. كان وجهها متعباً. ومع ذلك كانت عيناها السوداوان تلتمعان دوماً بابتسامتها الإغريقيّة الرهيفة. كان شابّ يقف قربها. أشارت له أنّها لا تريد المشاركة في رقصة الكدريل[1] التالية. فانسحب مؤدّياً التحيّة.

كان النهار يبدأ في الطلوع. خرجنا من الحفل متماسكَين بالأيدي. كانت الأزهار تترنّح في شعر سيلفيا المفكوك، والباقة في صدارها تتناثر أوراقها على الدنتيلا المدعوكة التي من صنع يديها البارعتين. عرضت عليها أن أرافقها إلى منزلها. طلع النهار لكنّ الجوّ بدا مكفهرّاً. كان نهر التيف يدمدم إلى يسارنا تاركاً عند عقفتيه دوّامات مياه راكدة حيث نبتت أزهار النيلوفر الصفراء والبيضاء، وكانت التوشية المنمنمة لنجمات الماء[2]

(1) رقصة الكدريل: رقصة شعبيّة.

(2) صنف من الأزهار التي تنبت في الماء ولها شكل النجمة.

تلتمع مثل أزهار الربيع. كانت السّهول مكسوّة بِحُزَمِ الحصيد وعرمات الشعير التي صعدت رائحتها إلى رأسي دون أن تسكرني، كما كانت تفعل بي فيما مضى الرائحة الزكيّة للغابات وأسيجة الشوك المزهر.

لم يخطر لنا اجتيازها من جديد. قلت لها: - سيلفيا ما عدْتِ تحبّينني! تنهّدت وقالت لي: «يا صديقي، يجب التعقّل. لا تجري الأمور كما نشتهي في الحياة. حدّثتَني فيما مضى عن «إيلوييز الجديدة»، قرأتها وارتعدت لدى مطالعتي هذه الجملة: «كلّ صبيّة ستقرأ هذا الكتاب مآلها الهلاك[1]». ومع ذلك تغاضيت عن المسألة محتكمةً إلى عقلي. أتذكّر اليوم الذي ارتدينا فيه ثياب العرس التي كانت لعمّتي؟ كانت رسوم الكتاب تمثّل أيضاً العاشقَين مرتديين أزياء قديمة من الزمن المنصرم، ما جعلك تبدو بالنسبة لي سان برو، وجعلني أتماهى مع جولي[2]. آه، لو أنّك عدت يومئذٍ! لكنّك كنت، كما قيل لي، في إيطاليّا. ورأيت هناك فتيات أجمل منّي بكثير! - ولا واحدة يا سيلفيا كانت لها نظرتك وقسمات وجهك الصافية. أنت حوريّة قديمة لكنّك لا تنزلين نفسك منزلتها. على أيّة حال، فإنّ غابات هذه الناحية هي بجمال غابات الريف الرومانيّ. هنا كتل الصوّان لا تقلّ سموّاً، والشلّال يتساقط من أعلى الصخور كشلّال تيرني[3]. لم أر شيئاً هناك يمكن أن أتحسّر عليه هنا. - وفي باريس؟ قالت. - في باريس...

هزرت رأسي دون أن أجيب.

---

(1) القبسة الصحيحة هي: «ما من فتاة عفيفة قرأت روايات (...) وتلك التي، على الرغم من هذا العنوان، ستجرؤ على قراءة صفحة واحدة من هذه الرواية هي فتاة هالكة».

(2) سان برو Saint-Preux، وجولي ديتانج Julie d'Etange، بطلا رواية جان جاك روسو: «إيلوييز الجديدة» *La Nouvelle Héloïse*.

(3) تيرني Terni: مدينة في وسط إيطاليّا ضمن إقليم أومبريا.

وفجأة فكّرت بالصورة الباطلة التي ضلّلتني طويلاً طويلاً.

قلت:

- سيلفيا. لنتوقّف هنا لو سمحت؟

ارتميت عند قدميها واعترفت لها وأنا أذرف دموعاً حارقة بتردّدي ونزواتي. ذكرتُ الطّيف المشؤوم الذي كان يعترض حياتي.

وأضفتُ:

- أنقذيني! وأعود إليك إلى الأبد.

وجّهت نحوي نظراتها المتحنّنة.

وفي هذه اللّحظة قاطعت حديثنا قهقهات عالية. إنّه شقيق سيلفيا الذي جاء يوافينا بهذه البهجة الريفيّة المستحبّة، التي تختتم بالضّرورة ليلة العيد. تلك البهجة التي ضاعفت منها مشروبات منعشة فاقت حدّها. نادى على متأنّق الحفلة، التائه بعيداً في أجمات الشوك والذي لم يلبث أن وافانا. لم يكن هذا الفتى البتّة أكثر تماسكاً من رفيقه وبدا محرَجاً بسبب وجود باريسيّ أكثر ممّا بسبب وجود سيلفيا. كان وجهه البريء واحترامه المشوب بالحرَج يمنعاني من أن أحقد عليه لكونه الراقص الذي بقيت سيلفيا من أجله طويلاً في الحفل. رأيته قليل الخطورة.

قالت سيلفيا لشقيقها:

- يجب العودة إلى المنزل.

ثمّ قرّبت منّي خدّها قائلة: إلى القريب العاجل.

وما شعر العاشق بالإهانة.

9- أرمنونفيل

لم تكن لديّ رغبة في النوم، فذهبت إلى مونتانيي لأرى من جديدٍ منزل عمّي. لكنّ حزناً كبيراً داهمني ما إن رأيت الواجهة الصفراء والمصاريع الخضراء. كان كلّ شيء على سابق عهده، إلّا أنّني لزمني الذهاب عند مستأجر المزرعة لأجلب مفتاح الباب. ما كدت أفتح المصاريع حتّى نظرت بإشفاقٍ إلى الأثاث القديم الذي كان لا يزال على حاله، والذي كان يجري تنظيفه من وقتٍ لآخر: الخزانة العالية المصنوعة من خشب الجوز، واللّوحتان الفلمنديّتان اللتين كان يُقال إنّهما صنيع رسّام قديم، أحد أجدادنا، والصّور الكبيرة المطبوعة عن لوحات لبوشيه[1]، وسلسلة من الرسوم المؤطّرة المستوحاة من «إميل» و«إيلوييز الجديدة» نفّذها مورو. على الطاولة، كلب مصبّر عرفته عندما كان حيّاً، رفيقاً قديماً لنزهاتي في الغابات، إنّه الكرلان[2] الأخير ربّما الذي ينتمي إلى هذا العرق المفقود.

قال لي المزارع:

- أمّا الببغاء فهو لا يزال حيّاً، وهو عندي.

كانت الحديقة لوحة بديعة من الأعشاب البريّة. تعرّفت في زاوية منها على حديقة صمّمتها قديماً في صغري. دخلت وأنا أرتجف إلى الحجيرة المنفصلة حيث لا تزال تُرَى المكتبة الصغيرة المليئة بالكتب المختارة، الأصدقاء القدامى لذاك الذي لم يعد موجوداً. وعلى المكتب بعض من حطام قديم عثر عليه في حديقته: أوانٍ وميداليّات رومانيّة، وهي مجموعة

(1) فرنسوا بوشيه François Boucher (1703–1770) أستاذ الرسم الذي يتناول مواضيع غراميّة.
جان ميشال مورو Jean- Michel Moreau (1741–1814) رسّام ومصوّر، وواضع رسوم لكتب جان جاك روسو بينها الكتابان المذكوران في النصّ: «إميل» و«إيلوييز الجديدة».

(2) كرلان: كلب أفطس الأنف قصير الشّعر.

محليّة كانت تحمل السرور إلى قلبه.

قلت للمزارع:

- لنذهب لرؤية الببغاء.

كان الببغاء يطالب بإطعامه كما في أيّام العزّ، ويرمقني بطرف عينه المستديرة المحاطة بجلدٍ متغضّن بنظرة تشبه نظرة المسنّين المحنّكة.

ممتلئاً بالأفكار الحزينة التي أثارتها هذه العودة المتأخّرة إلى أمكنة غالية، شعرت بالحاجة لرؤية سيلفيا مجدّداً، الوجه الوحيد الحيّ والفتيّ الذي لا يزال يربطني بهذه البلاد. سلكت مجدّداً طريق لوازي. كان ذلك في منتصف النهار. كان الجميع يرقد تعباً من الحفل. خطرت لي الفكرة بأن أذهب في نزهةٍ لتزجية الوقت عبر أرمنونفيل التي تبعد فرسخاً بسلوك طريق الغابة. كان يوماً صيفيّاً جميلاً. استمتعت بنضارة هذا الطريق الذي بدا أشبه بممرٍّ في حديقة. لم يكن يقطع الاخضرار المتناغم للسنديانات الضخمة إلّا جذوع أشجار السندر البيضاء بأوراقها المرتعشة. كانت العصافير صامتة، ولم أكن أسمع إلّا صوت النقّار الأخضر وهو يحفر عشّه في الأشجار. لوهلةٍ كدت أضيع لأنّ الأوتاد التي كانت لافتاتها تشير إلى الطرق المختلفة امّحت حروفها في بعض الأمكنة. وأخيراً، تاركاً «الصحراء»[1] شمالاً، بلغت مستديرة الرقص حيث لا يزال مقعد المسنّين قائماً. وجميع الذكريات عن العصور الفلسفيّة القديمة التي أثارها مالك المقاطعة السابق[2] عادت إليّ غزيرة أمام هذا الإنجاز الأخّاذ لـ

(1) ويقصد تلك الفسحة من حديقة أرمنونفيل التي كانت تسمّى «الصحراء» ويوجد فيها الكوخ الذي سكنه جان جاك روسو في أيّامه الأخيرة قبل أشهر قليلة من وفاته.

(2) ويقصد بالطبع الماركيز رينيه دوجيراردان وكان قد استضاف روسو في أرمنونفيل. سبقت الإشارة إليه في «أنجيليكا».

«أناركارسيس» و«إميل»[1].

عندما رأيت مياه البحيرة تلتمع عبر أغصان الصفصاف والبندق، تعرّفت في الحال على مكان اصطحبني عمّي إليه مرّات كثيرة: «معبد الفلسفة» الذي لم يتسنّ لمؤسّسه أن يُنجزه. كان له شكل معبد العرّافة تيبورتينا[2]، ولا يزال منتصباً في كنف أشجار الصنوبر مستعرضاً كلّ هذه الأسماء الكبيرة للفكر بدءاً بمونتاني وديكارت وانتهاءً بروسو. لم يعد هذا المبنى غير الناجز إلّا أنقاضاً يوشّيها اللّبلاب بأناقة، وتجتاح الأشواك درجاته المتهدّمة. حين كنت لا أزال طفلاً، رأيت احتفالات كانت تأتي إليها صبايا مرتديات أثواباً بيضاء ويستلمن جوائز لحسن دراستهنّ وسلوكهنّ. أين هي أجمات الورود التي كانت تحيط بالتلّة؟ حجبت شجيرات النسرين والعلّيق الأغراس الأخيرة التي عادت إلى الحالة البريّة. أمّا أشجار الغار فهل قُطعَتْ كما تقول أغنية الصبايا اللواتي بتن يرفضن الذهاب إلى الغابة؟ لا، إنّ هذه الشجيرات المجلوبة من إيطاليّا العذبة قضت نحبها تحت سمائنا الضبابيّة. لحسن الحظّ فإنّ جنبات الرّباط[3] الغالية على قلب فيرجيل لا تزال تزهر وكأنّها تدعم قول المعلّم المدوّن فوق الباب: «طوبى لمن يستطيع أن يفقه علل الأشياء»[4]. أجل، إنّ

(1) «أناكارسيس» أو «رحلة الشاب أناكارسيس الشهيرة في اليونان» *Voyage du jeune Anacharsis en Grèce* نحو منتصف القرن الرابع ق.م، هذه الرحلة التي كتب عنها الأب بارتيلمي Barthélémy عام 1788 ساهمت في الترويج لعلم الآثار القديم. أمّا «إميل» فهو كتاب «إميل أو في التربية للفيلسوف جان جاك روسو، سبق ذكره.

(2) إحدى أشهر العرّافات في العصور الرومانيّة القديمة وكانت تقوم بعرافتها في غابة قريبة من تيبور (اليوم تيفولي) والمعبد الذي كرّسَ لها لا يزال قائماً حتّى اليوم.

(3) جنبة الرباط: جنس شجرة للتزيين.

(4) باللاتينيّة في النصّ: rerum cognoscere causas. والعبارة الأصليّة للشاعر الرومانيّ الشهير فيرجيل والذي ينعته نرفال بـ «المعلّم» هي: Félix qui potuit rerum cognoscere causas.

هذا المعبد انهار مثل معابد كثيرة. والناس الغافلون أو المتعبون يشيحون بوجوههم عن منافذه، والطبيعة اللّامبالية سوف تستعيد المكان الذي نافسها عليه الفنّ. لكنّ التعطّش للمعرفة سيظلّ أبديّاً وسيبقى محرّك كلّ قوّة وكلّ نشاط!

ها هي أشجار حَور الجزيرة، وها هوَ قبر روسو وقد خلا من رفاته[1]. أيّها الحكيم، منحْتَنا حليب الأقوياء لكنّنا كنّا أضعف من أن ينجع فينا. نسينا أمثولاتك التي كان يعرفها آباؤنا وفقدنا معنى كلامك، آخر أصداء الحِكَم القديمة. ومع ذلك لنقلع عن اليأس، وكما فعلت في لحظاتك الأخيرة، لنصوّب أعيننا نحو الشمس!

رأيت القصر من جديد، والمياه الوادعة التي تحيط به، والشلّال المنتحب بين الصخور، وهذه الطريق التي تصل قسمَي القرية، والحمائم الأربع المشيرة إلى زواياها، والمرج المُعشب الممتدّ في البعيد وكأنّه سهوب، تظلّله نجود قاتمة. عن بعدٍ، ينعكس برج غابرييل في مياه بحيرة اصطناعيّة منثورة بالأزهار السريعة الزوال. الزّبَد يغلي والحشرات تطنّ... يجب الهرب من الهواء الفاسد المنبعث منها بالغاً الصّخور الرمليّة المتفتّتة للصحراء والبراري التي يُبرز فيها الخلنج الورديّ خضرةَ السرخس. كم أنّ كلّ ذلك متوحّش وحزين! كانت النظرة الساحرة لسيلفيا، وتجوّلاتها المجنونة وصرخاتها البهجة تضفي قديماً الكثير من السّحر على الأمكنة التي جلتُها لتوّي! كانت لا تزال طفلة متوحّشة، حافية القدمين، وكانت بشرتها قد لوّحتها الشمس بالرغم من قبّعتها القشّ التي كان شريطها العريض يخفق مع جدائل شعرها الأسود. كنّا نذهب لنشرب الحليب من

(1) منذ نقلها إلى البانثيون، مدفن العظماء، في 1794.

المزرعة السويسريّة[1]. وكان يُقال لي: «كم هي جميلة حبيبتك أيّها الباريسيّ الصغير!» آه! لم يكن آنذاك لمُزارع أن يرقص معها! لم تكن ترقص إلّا برفقتي مرّة في السّنة، في عيد القوس.

10- الأجعد الجسيم

سلكت طريق لوازي من جديد. كان الجميع مستيقظين. تبرّجت سيلفيا وكأنّها آنسة من المدينة. أصعدتني إلى غرفتها بكلّ البراءة التي كانت تملكها سابقاً. كانت نظرتها البرّاقة دوماً تضيء ابتسامتها المليئة بالسّحر، لكنّ قوسَي حاجبيها البارزين كانا يُضفيان عليها أحياناً مظهراً جديّاً. كانت الغرفة مزيّنة ببساطة. ومع ذلك بدا الأثاث عصريّاً: مرآة بإطار ذهبيّ حلّت مكان مرآة الحائط حيث كان يُرى راعٍ في لوحةٍ رعويّة وهو يقدّم عشّاً لراعية ترتدي الأزرق والورديّ. السرير ذو الأعمدة المكسوّ بسجّادة فارسيّة قديمة موشّاة بأغصان وزهور استُبدل بمضجع من خشب الجوز مزدان بالستارة المعلّقة إلى قضيب حديديّ. عند النافذة، لم تعد طيور الدُّخلة[2] في القفص واستعيض عنها بطيور الكناريّ. كنت مستعجلاً للخروج من هذه الغرفة التي لم أجد فيها شيئاً من الماضي.

قلت لسيلفيا:

- ألن تخيطي الدنتيلا اليوم؟

---

(1) هذه المزرعة السويسريّة تؤلّف إطاراً ريفيّاً مثاليّاً للشاعر السويسريّ باللّغة الألمانية غيسنر Gessner غسنر (1730-1788) الذي أحيا صورة جديدة للحياة الريفيّة وقد تأثّر به روسو في روايته «إيلوييز الجديدة».

(2) طائر الدخلة Fauvette يُسمّى أيضاً بالفرنسيّة: Sylvia: هازجة الحدائق، جنس من الطيور ينتمي إلى الطيور الصادحة. ليس صدفة إذن أن يفضّلها نرفال على الكناريّ، فهي تذكّره ربّما باسم البطلة حتّى لو استخدم الاسم الآخر في النصّ).

- لم أعد أخيط الدنتيلا، فهي لم تعد مطلوبة في المنطقة. حتّى في شانتيي، أُغلق المعمل.

- ماذا تفعلين إذَن؟

وذهبت لتأتي من أحدى زوايا الغرفة بآلة حديديّة تشبه ملقطاً طويلاً.

- ما هذا؟

- هذا ما ندعوه «ميكانيك»، وهو يستخدم لتثبيت جلد القفّازات فنتمكّن من خياطتها.

- ماذا! أصبحت صانعة قفّازات يا سيلفيا؟

- نعم، نعمل هنا لدامارتان. فهذا يدرّ مالاً كثيراً في هذه الأيّام. لكنّي لا أقوم بأيّ عملٍ اليوم. لنذهب حيث تشاء.

أشرتُ لها باتّجاه طَريق أوتيس. فهزّت رأسها نفياً فأدركتُ أنّ العمّة العجوز قد فارقت هذه الدنيا. نادت سيلفيا على صبيّ صغير وأمَرَته بأن يسرج لها حماراً.

قالت:

- لا أزال متعبة إثر البارحة. لكنّ النزهة ستريحني. لنذهب إلى شاليس.

رحنا نجتاز الغابة والصبيّ الصغير يلحق بنا مسلّحاً بغصن شجرة. ثمّ ما لبثت سيلفيا أن أرادت التوقّف. عانقتها داعِياً إيّاها للجلوس. لم يعد بإمكان المحادثة بيننا أن تكون حميمة فعلاً. لزم عليّ أن أروي لها حياتي في باريس، ورحلاتي...

قالت:

- كيف بإمكاننا الذهاب إلى أمكنة بهذا البعد؟

- أُفاجأ من ذلك حين أعود لرؤيتك مجدّداً.

- آه! هذا مجرّد كلام!

- أقرّي بأنّك كنت أقلّ جمالاً فيما مضى.

- لا أعرف شيئاً.

- أتذكرين يوم كنّا طفلين وكنتِ أنتِ الأطول قامة؟

- وأنت الأكثر تعقّلاً!

- آه يا سيلفيا!

- كانوا يضعوننا على الحمار، كلّ واحدٍ منّا في جيبٍ من الخرج.

- وكنّا نتحدّث مع رفع الكلفة... أتذكرين كنت تعلّمينني كيف أصطاد سرطان النهر تحت جسرَي التيف والنونيت.

- وأنت أتذكُر أخاك في الرضاعة الذي انتشلك ذات يوم من الماء.

- «الأجعد الجسيم»! إنّه هو الذي قال لي إنّه بإمكاننا عبور الماء!

وسارعْتُ لتغيير الحديث. هذه الذكرى أرجعت لي بصدقٍ الزمن حين كنت آتي إلى البلاد مرتدياً زيّاً بسيطاً على الطريقة الإنكليزيّة، وكان هذا يُضحك المزارعين. وحدها سيلفيا كانت تراني أنيقاً. ولكنّي لم أكن أجرؤ على تذكيرها بهذا الموقف الذي ينتمي إلى زمنٍ غابر. لا أعرف لماذا اتّجه فكري إلى ملابس العرس التي ارتديناها عند العمّة العجوز في أوتيس. سألتها ماذا صار بها. قالت سيلفيا: «آه يا للعمّة الطيّبة، أعارتني فستانها لكي أذهب للرقص في مهرجان دامارتان. كان هذا منذ سنتين. في السنة اللاحقة، توفّيت، العمّة المسكينة!»

تنهّدت وطفقت تبكي ولم تطاوعني نفسي أن اسألها عن الظروف التي حدت بها للذهاب إلى حفل تنكّري. كنت أدرك تماماً أنّ سيلفيا، نظراً لمواهبها في العمل، لم تعد فلّاحة. وحدهم أهلها بقوا على حالهم. كانت

تعيش بينهم كمثل جنيّة حاذقة مشيعةً الرخاء من حولها.

11- عودة

كانت الرؤية تنقشع لدى الخروج من الغابة. وصلنا إلى ضفّة بحيرات شاليس. كانت أروقة الدير، والمصلّى بأقواسه القوطيّة الرشيقة، والبرج القروسطيّ، والقصر الصّغير الذي احتضن غراميّات هنري الرابع وغابرييل، مصطبغة بحمرة المساء الممتزجة بأخضر الغابة القاتم. قالت سيلفيا:

- إنّه أشبه بمشهد من روايات والتر سكوت، أليس كذلك؟

- ومن حدّثك عن والتر سكوت؟ قلت لها. قرأتِ إذَن الكثير في هذه السنوات الثلاث...

بل أحاول أن أنسى الكتب. الشيء الذي يفتنني هو أن أرى مجدّداً برفقتك هذا الدير القديم حيث كنّا نختبئ بين الأنقاض في صغرنا.

سيلفيا هل تذكرين الخوف الذي داهمك عندما كان الحارس يسرد علينا قصّة الرهبان الحمر[1]؟

آه! لا تحدّثني عن ذلك.

- غنّي لي إذَن أغنية الفتاة الجميلة التي اختُطفت في حديقة والدها تحت شجرة الورد البيضاء.

- لم نعد نغنّي مثل هذه الأغاني.

- وهل صرتِ مغنّية محترفة!

- قليلاً.

(1) بخصوص الرهبان الحمر، راجع أنجيليكا.

- سيلفيا، سيلفيا أنا متأكّد من أنّك تغنّين ألحاناً أوبّراليّة!
- ولِمَ تتحسّر؟
- لأنّني كنت أحبّ الألحان القديمة وما عدت تعرفين إنشادها!

أنشدت بضع نغمات من لحن أوبّرالي معاصر... كانت تغنّي بتكلّف[1].

جلنا المستنقعات المجاورة. ها هو المرج الـمُعشب المحاط بأشجار الزيزفون والدّردار حيث رقصنا غالباً. سعيت لإبراز معارفي فحدّثتها عن الجدران الكارولنجيّة القديمة وفككت رموز شعارات نسب عائلة ديست. حينئذٍ قالت لي سيلفيا: «عجيب أمرك! كم تفوّقت عليّ في القراءة! أأنت علّامة؟»

أشجتني في العمق نبرتها المعاتبة. كنت قد بحثت حتّى ذلك الوقت عن المكان الملائم لتجديد لحظة البوح الصباحيّ. ولكن ماذا بوسعي أن أقول لها برفقة حمار وفتىً صغير شديد الانتباه لا يني يقترب مغتبطاً بالاستماع إلى باريسيّ يتكلّم؟ عندئذٍ خطرت لي فكرة أن أروي لسيلفيا الرؤيا التي تجلّت لي في شاليس وما نسيتُها. اصطحبت سيلفيا إلى القاعة نفسها في القصر حيث سمعت أدريانا تغنّي. قلت لها:

- آه، لو أسمعك! لو أنّ صوتك الغالي يصدح تحت هذه القبب ويطرد منها الرّوح التي تعذّبني، إلهيّة كانت أو مشؤومة!

ردّدَتِ الكلمات والغناء من بعدي:

«أيّتها الملائكة انحدري بسرعة

---

(1) ههنا العلامة الواضحة على تدهور شخصيّة سيلفيا، فهي لم تعد من هذه البلاد التي كتب عنها نرفال في «أنجيليكا»: «في هذه النواحي، لم تفسد الموسيقى محاكاةُ أغاني الأوبرا الباريسيّة، أو أغاني الصالونات العاطفيّة، أو الألحان التي تعزفها الأراغن».

إلى عمق المطهر!...»

قالت لي:

- ولكنّها أغنية حزينة جدّاً!

- إنّها رائعة... أعتقد أنّها من تأليف بوربورا[1] أُضيفت إليها أشعار مترجمة في القرن السادس عشر.

- لا أعرف، أجابت سيلفيا.

عدنا عبر الوادي سالكين طريق شارلبون الذي يصرّ الفلّاحون على تسميته «شالبون»، لقلّة معرفتهم الفطريّة بأصل الكلمات. كانت سيلفيا، وقد تعبت من ركوب الحمار، تتّكئ على ذراعي. كانت الطريق مقفرة. حاولتُ البوح بمكنونات قلبي، ولكنّي لا أعرف لماذا لم أكن أجد إلّا تعابير سخيفة أو جُمَلاً مفخّمة مقتبسة من روايات يمكن أن تكون سيلفيا قد قرأتها. ثمّ كنت أتوقّف فجأةً عن الكلام دون سبب مقنع، وكانت تتعجّب أحياناً من هذه الاستفاضات المتقطّعة. وإذ وصلنا إلى جدران سان س...، كان علينا أن نحترس في سيرنا لأنّنا كنّا نجتاز مروجاً رطبة تتخلّلها جداول.

قلت فجأةً:

- ماذا صار بحال راهبتنا؟

- أفّ! أنت لا تُطاق أنت وراهبتك... وماذا بعدُ!... ماذا بعدُ! دارت الأمور بشكلٍ سيّئ.

لم تشأ سيلفيا أن تنبس بكلمة إضافيّة.

(1) بوربورا Porpora (1686–1767): مؤلّف موسيقيّ من نابولي جعلته جورج صاند شعبيّاً في روايتها «كونسويلو» Consuelo الصادرة عام 1843.

أَوَ تشعر النساء بأنّ بعض الكلمات تنطلق من الشّفتين لا من القلب؟ قد لا نصدّق هذا إذ نراهنّ مستغلّات بهذه السهولة، وإذ ندرك الخيارات التي يقمن بها غالباً دون أن ينتبهن إلى أنّ ثمّة رجالاً يصطنعون الحبّ بشكل مذهل! لم أستطع قطّ القيام بذلك مع أنّي أعرف أنّ بعضهنّ يرتضين الخداع عن معرفة. على أيّة حال إنّ حبّ الطفولة لَهُوَ شيء مقدّس... سيلفيا التي رأيتها تكبر كانت بالنسبة لي بمثابة أخت. لم يكن بمقدوري أن أغويها... لكنّ فكرة أخرى عبرت خاطري. قلت في نفسي: في مثل هذا الوقت أكون في المسرح... ترى أيّ دورٍ تؤدّي أوريلي (كان هذا اسم الممثّلة) هذا المساء؟ لا بدّ أنّه دور الأميرة في المسرحيّة الجديدة. آه! كم تبدو مؤثّرة في الفصل الثالث!... وفي مشهد الحبّ في الفصل الثاني! أمام هذا النّجم الأوّل الذي تغزو وجهه التجاعيد!...

قالت سيلفيا:

يبدو أنّك مستغرق في أفكارك.

ثمّ أخذت تغنّي:

«في دامارتان ثلاث فتيات جميلات

وبينهنّ واحدة أجمل من نور النّهار..».

فهتفتُ:

- يا لكِ من محتالة! ترين جيّداً أنّك لا تزالين تذكرين الأغاني القديمة.

قالت:

- إذا أتيتَ أكثر إلى هنا لاستعدتُ بعضها، ولكن يجب التفكير في الأهمّ. لديك شؤونك في باريس ولديّ عملي. ينبغي أن نحرص على عدم

التأخّر في العودة. عليّ النهوض باكراً في الغد.

12- الأب دودو

كنت سأجيبها، كنت سأرتمي عند قدميها. كنت سأهبها منزل عمّي الذي كان لا يزال بإمكاني شراؤه من جديد لأنّنا كنّا ورثة عديدين، وهذه المِلْكيّة الصغيرة بقيت غير مقسومة. ولكن في هذه اللحظة وصلنا إلى لوازي. كانوا في انتظارنا على العشاء. كانت رائحة حساء البصل الأزليّة تملأ المكان، ودُعيَ جيرانٌ غداة يوم العيد. تعرّفت في الحال إلى حطّاب قديم، الأب دودو، الذي كان يروي في ما مضى خلال السّهرات قصصاً تبعث على الضحك أو تلقي الرعب في النّفوس. كان الأب دودو بالتّناوب راعياً ورسولاً وخفير صيد وصيّاداً وحتّى حائش طرائد، كما أنّه كان يصنع في أوقات فراغه ساعات منبّهة وآلات شواء. لوقتٍ طويل عمل في تنزيه الإنكليز في أرمونفيل واصطحابهم إلى الأماكن التي كان روسو يتأمّل فيها، راوياً على مسامعهم لحظاته الأخيرة. كان هو الصبيّ الصّغير الذي استعان به الفيلسوف لتصنيف الأعشاب التي يجمعها، وإليه أعطى الأمر لقطف عشبة الشوكران التي وضع عصارتها في فنجان حليبه[1]. كان صاحب نزل «لا كروا دور»[2] يعترض على صحّة هذا الخبر. وهذا ما أدّى إلى أحقاد مستديمة بينهما. لوقتٍ طويل، أعابوا على الأب دودو امتلاك

(1) من المعروف أنّ عشبة الشوكران سامّة للغاية. في مقطع من «مهرّبو الملح» لم يستعده نرفال في «أنجيليكا» كان سيلفان يقرأ للرّاوي سيناريو مسرحيّة عن موت روسو مغالياً في وصف انتحاره المزعوم. على أيّة حال، وحتّى اليوم لا تزال هنالك افتراضات بأنّ روسو لم يمت ميتة طبيعيّة، بل ثمّة لغز يحيط بموته: مؤامرة، أو عمليّة انتحار، أو قتل.

(2) نُزل لاكروا دور *La Croix d'Or* («الصليب الذهبيّ») في أرمونفيل، وكان يؤمّه نرفال والكساندر دوما.

بعض الأسرار البريئة فعلاً كمثل شفاء الأبقار بآية تقال بالعكس، وإشارة الصليب المرسومة بالقدم اليُسرى، لكنّه تخلّى عن هذه الخرافات، وهذا بفضل ذكرى الحوارات مع جان جاك روسو، على حدّ قوله.

قال لي الأب دودو:

- ها أنت ذا أيّها الباريسيّ الصغير! أتيتَ لتفسد بناتنا؟

- أنا؟ ماذا تقول أيّها الأب دودو؟

- أتصطحبهنّ إلى الغابات فيها الذئب ليس هناك؟

- أيّها الأب دودو أنت الذئب.

- كنت كذلك حين كنت أصادف النعجات؛ أمّا الآن فلم أعد أصادف إلّا العنزات، وهنّ يعرفن كيف يدافعن عن أنفسهنّ! ولكن أنتم، أنتم ماكرون في باريس! كان جان جاك[1] على حقّ حين قال: «الإنسان يفسد في هواء المدن المسموم».

- ولكن أيّها الأب دودو، أنت تعرف حقّ المعرفة أنّ الإنسان يفسد في كلّ مكان.

بدأ الأب دودو بإنشاد أغنية تمجّد الشراب. أرادوا عبثاً أن يجعلوه يتوقّف عند مقطع داعر كان الجميع قد حفظه عن ظهر غيب. لم تشأ سيلفيا أن تغنّي على الرغم من توسّلاتنا قائلةً إنّه لم يعد شائعاً الغناء أثناء الطعام. كنت لاحظت للتوّ أنّ مغرمَ الأمس كان جالساً إلى اليسار. كان هنالك شيء ما في وجهه المستدير، وشعره الأجعد ليس بغريبٍ عنّي. نهض وأتى من خلف كرسيّ وهو يقول: «ألم تعرفني إذَن أيّها الباريسيّ؟» همست لي امرأة مسنّة عادت لتقدّم لنا التحلية: «ألم تتعرّف على أخيك في الرّضاع؟»

(1) ويقصد جان جاك روسو.

لولا هذا التنبيه لكنتُ مثيراً للسخرية. قلت: «آه! هذا أنت أيّها الأجعد الجسيم! أنت نفسك الذي انتشلني من الماء!» أخذت سيلفيا تضحك لهذا الموقف. ثمّ قال هذا الفتى وهو يقبّلني: «ولا ننسَ أنّه كان لديك ساعة جميلة من الفضّة، وأنّك بعد انتشالك من الماء كنتَ أكثر قلقاً على ساعتك منك على نفسك لأنّها توقّفت عن الدوران. كنت تقول: «غرقَت البهيمة، لم تعد تتكتك. ماذا سيقول عمّي[1]!»

- حيوان في ساعة! قال الأب دودو. هذا ما يزرعونه في فكر الأطفال في باريس!

كانت سيلفيا تشعر بالنعاس، وأدركتُ أنّها كانت منشغلة عنّي. صعدَتْ إلى غرفتها، وفيما كنت أقبّلها، قالت: «تعال لرؤيتنا غداً!».

بقي الأب دودو أمام الطاولة مع سيلفان وأخي في الرّضاع. تحدّثنا طويلاً حول زجاجة راتافيا[2] من لوفر. «الناس متساوون، قال الأب دودو بين مقطعين غنائيّين، أشرب مع حلوانيّ كما لو أنّني أفعل ذلك مع أمير.

قلت:

- ومن هو الحلوانيّ؟

- انظرْ قربك! شابّ لديه الطموح بأن يتزوّج!

بدا أخي في الرّضاع محرجاً. فهمت كلّ شيء. لقد شاء القدر أن يكون لي أخ في الرّضاع في بلاد شهرَها روسو-الذي أراد إلغاء المرضعات! أخبرني الأب دودو أنّ مسألة الزواج بين سيلفيا والأجعد الجسيم تسير

(1) هذا الفصل عن غرق الباريسيّ الصغير مذكور في «مهرّبو الملح» مع فارقٍ هو أنّ سيلفيا هي التي أنقذت الراوي في «مهرّبو الملح».

(2) راتافيا: شراب كحولي فيه رُبّ الفواكه.

في خطى حثيثة، وأنّ الأجعد يريد الذهاب إلى دامارتان ليؤسّس فيها محلّ حلويات. لم أنطق بأيّ كلمة. أعادتني العربة من «نانتوي لو هودوان»[1] إلى باريس غداة اليوم التالي.

13- أوريلي

إلى باريس إذَن!

كانت الرحلة تستغرق خمس ساعات، وانصبّ همّي على الوصول عند المساء. نحو الساعة الثامنة، كنت جالساً في مقعدي المعتاد، وكانت أوريلي تسبغ موهبتها وسحرها على أشعار هزيلة استوحاها أحدُ كتّاب تلك الحقبة[2] من شيلر. بدت أوريلي رائعة في مشهد الحديقة. انتظرت الفصل الرابع الذي لا تظهر فيه لأذهب وأشتري باقة أزهار من مدام بريفو[3] أرفقتها برسالة رقيقة للغاية ووقّعتها: «مجهول». قلت في نفسي: هذا موعدٌ مضروب للمستقبل. وفي اليوم التالي، انطلقْتُ إلى ألمانيا.

ماذا ذهبت أفعل هناك؟ ربّما كنت أسعى إلى أن أكون على بيّنة من مشاعري. لو كنت أكتب رواية لما أمكنني أن أدافع عن قصّة عاشقٍ مغرم بامرأتين في وقتٍ واحد. كانت سيلفيا تفلت منّي بسبب غلطتي. لكنّ مرآها ليوم واحد كان كافياً ليشدّد من عزيمتي. كنت أضعها منذ ذلك الحين تمثالاً باسِماً في معبد الحكمة. ردعتني نظرتها وأنا على شفا الهاوية. كنت أرفض بشكلٍ قاطعٍ فكرة الذهاب إلى أوريلي والتعريف

---

(1) نانتوي لو هودوان: Nanteuil-le-Haudouin إحدى بلدات فرنسا في إقليم الواز.

(2) مسرحيّة «ماري ستيوارت» *Marie Stuart* استوحاها الكاتب المسرحيّ الفرنسيّ بيار لوبران Pierre Le Brun من الشاعر الألمانيّ شيلر Schiller عام 1820.

(3) مدام بريفو: Mme Prévost بائعة أزهار بالقرب من مسرح «الكوميدي فرانسيز».

بنفسي ومواجهة عشّاقٍ تافهين كثرٍ يتألّقون آونةً قربها ثمّ لا يلبثون أن يسقطوا حطاماً. قلت في نفسي: سنرى ذات يوم ما إذا كان لدى هذه المرأة مشاعر.

ذات صباحٍ، قرأت في إحدى الصّحف أنّ أوريلي أصيبت بوعكةٍ صحيّة. كتبت لها من جبال سالزبورغ. كانت الرسالة مشبعة بروحانيّة جرمانيّة ولا يمكن بالتالي توقّع الشيء الكثير من إرسالها، ولكنّي لم أكن أطلب أيضاً جواباً. كنت أعوّل قليلاً على الصدفة وعلى «المجهول».

مرّت أشهر. قرّرت خلال جولاتي وفي أوقات فراغي أن أكتب مسرحيّة شعريّة عن غراميّات الرسّام كولونّا الذي أحبّ لورا الجميلة حتّى الموت وجعلها أهلها راهبة[1]. كان شيء ما في هذا الموضوع يوافق اهتماماتي الثابتة. بعد أن كتبتُ آخر بيت شعرٍ في المسرحيّة، لم أعد أفكّر إلّا بالعودة إلى فرنسا.

ولكنْ بمَ يختلف ما قد أقوله الآن بشيء عن قصص آخرين كثُرٍ؟ مررت بكلّ أطوار التجارب لتلك الأمكنة التي تُدعى «مسارح». «أكلت من الطبل وشربت من الصنج» كما تقول العبارة المجرّدة ظاهريّاً من المعنى والتي كان يتلوها مُساررو إيلوسيس[2]. وهي تعني ولا شكّ أنّه يجب عند

(1) هذا المشروع المسرحيّ الذي يشير إليه نرفال تحت عنوان «فرانشيسكو كولونّا» *Francesco Colonna* أخفق في الواقع. ينبغي التنويه أيضاً بالهفوة (اللاإراديّة؟) التي ارتكبها نرفال وجعلته يستبدل الراهبة بوليا التي أحبّها فرانشيسكو كولونّا بلورا ملهمة الشاعر الإيطاليّ بترارك.

(2) هذه العبارة تنتمي إلى طقوس فريجيا وليس إلى طقوس إيلوسيس أو إلفسينا، واستخدمها نرفال في رسالته الهاذية إلى جورج ساند في 22 نوفمبر 1853. وقد أوردها كليماندس الاسكندريّ (150؟–215) في «كتاب التحريض» *Protreptique*. لا بدّ أن يكون نرفال وجدها في كتاب «أصل كلّ العبادات، أو الدّيانة الكونيّة» *L'origine de tous les cultes, ou la religion universelle* (1795) للمؤلّف الفرنسيّ شارل فرنسوا دوبْوي Charles-François Dupuis، =

الحاجة تخطّي تخوم اللّامعنى والعبث. وكان الدافع بالنسبة لي أن أمتلك مثالي وأدرك كنهه.

كانت أوريلي قد وافقت على الدّور الرئيسيّ في المسرحيّة التي كتبتها في ألمانيا. لن أنسى أبداً اليوم الذي سمحت لي فيه بأن أقرأ لها المسرحيّة. كانت مشاهد الحبّ معدّة من أجلها. أظنّ أنّني تلوتها بشغفٍ، وبحماسٍ قلّ نظيره. في الحوار الذي أعقب ذلك، كشفت عن نفسي بصفتي «المجهول» الذي بعث الرسالتين. قالت لي: أنت فعلاً مجنون. ولكن عدْ لرؤيتي... لم أستطع أن أحظى فعلاً بأحدٍ عرف كيف يحبّني.

أيّتها المرأة! تبحثين عن الحبّ... وماذا عنّي إذَن؟

في الأيّام التالية كتبتُ الرسائل الأرقّ والأجمل التي سبق لها أن تلقّتها على الأرجح. استلمت منها رسائل مليئة بالتعقّل. لوَهلة تأثّرتْ بما قلته، واستدعتني ثمّ اعترفت لي أنّه كان يصعب عليها أن تتخلّى عن علاقة قديمة. قالت لي: «إذا كنت فعلاً تحبّني لذاتي، فسوف تفهم أنّني لا أستطيع أن أكون إلّا لواحدٍ فقط».

بعد شهرين استلمت رسالة منها تفيض عاطفة. هرعت إليها. أحدهم أسرّ لي في تلك الإثناء بخبرٍ مهمّ. الرجل الوسيم الذي صادفته ذات ليلة في النادي تطوع لتوّه في الصبايحيّة[1].

= حيث جاء: «يسأل الكاهن الأكبر العضو الجديد في الشعيرة، وكان لزاماً عليه أن يجيب بهذه الكلمات الغامضة: أكلت من الطبل وشربت من الصنج.»

(1) الصبايحيّة وتسمى في بعض أنحاء الجزائر السبايسيّة هي فرق شبه عسكريّة خيّالة أسّستها فرنسا في معسكراتها السّابقة وخصوصاً في شمال أفريقيا كوسيط بين الدولة الفرنسيّة والأهالي. اسم أعضائها بالفرنسيّة: Spahis، وهذه التسمية مستعارة من سپاهی، مفردة فارسيّة الأصل معناها «جنديّ»، كان العثمانيّون يطلقونها على الجند الذين ترسلهم القبائل الخاضعة لسيطرتهم لمساعدة جيش المماليك النظاميّ كلّما استدعت ذلك الأحداث.

في الصّيف التالي، جرت سباقات الأحصنة في شانتيي. كانت فرقة المسرح حيث تمثّل أوريلي تقدّم عرضاً هناك. ما إن أصبحت الفرقة في البلاد حتّى مكثت هناك لثلاثة أيّام تحت إمرة المخرج. كنت صادفت هذا الرجل البارع، وقد سبق له أن مثّل دور دورانت في مسرحيّات ماريفو[1] الكوميديّة. وقد كان لوقتٍ طويلٍ النّجم الأوّل على المسرح، وآخر الأدوار الناجحة له كان دوره كعاشقٍ في المسرحيّة المأخوذة عن شيلر حين أظهره لي منظاري المزدوج كثير التجاعيد. عن قرب، كان يبدو أكثر شباباً، وإذ بقي نحيلاً، كان مظهره يحدث تأثيراً مبهراً في الأرياف. كان فائق الشغف. كنت أرافق الفرقة بصفتي «السيّد الشّاعر»: أقنعت المخرج بالذهاب إلى سنليس ودامارتان وتقديم عروض فيهما. كان في البداية يميل للذهاب إلى كومبيَن، لكنّ أوريلي وافقتني الرأي. في اليوم التالي وفيما كنّا نذهب لتسوية الأمور مع السلطات وتجهيز القاعات مع أصحابها، استأجرت أحصنة وسلكنا طريق بحيرات كوميل للذهاب إلى قصر الملكة بلانش وتناول الغداء فيه. امتطت أوريلي الحصان كفارسة، ومثلَ ملكات العهود الخوالي كانت تجتاز الغابة بشعرها الأشقر المتموّج، وكان الفلّاحون يتوقّفون مبهورين لدى مرورها. مدام ف...[2] هي المرأة الوحيدة التي

(1) ماريفو Marivaux (1688–1763) كاتب فرنسيّ مسرحيّ شهير. يشير نرفال إلى دور صديقه في مسرحيّة: «لعبة الحبّ والصدفة» *Le Jeu de l'amour et du hasard*.

(2) أي البارونة دوفوشير، زوجة البارون أدريان دوفوشير Adrien de Feuchères المولودة صوفي داويس Sophie Dawes (1790–1840)، مغامرة إنكليزيّة، ومالكة مقاطعة مورتفونتان Mortefontaine، حيث أمضى نرفال طفولته. قادتها الظروف إلى أن تصبح عشيقة أمير كونديه الذي زوّجها لأدريان دوفوشير ليمنحها لقباً ومركزاً اجتماعيّاً. كان نرفال يراها في طفولته أمام قصرها فأعجب بها، ويبدو أنّها كانت أحد الوجوه التي نسج حولها ألغاز حياته العاطفيّة، فماثل بينها وبين أدريانا وأوريليا، لا بل قال لمكسيم دوكان حين أتى لزيارته في عيادة الدكتور بلانش: «عليّ الذهاب لأتزوّج من البارونة دوفوشير»، وفي أيّامه الأخيرة كان يهذي بها.

رأوها بهذه المهابة وهذا الظرف في إلقائها التحيّة. بعد الغداء، انحدرنا إلى القرى التي تذكّر بالقرى السويسريّة حيث مناشر الخشب تعمل على مياه النونيت. كانت هذه المناظر الغالية على ذكرياتي تثير اهتمامها دون أن تستوقفها. كنت صمّمت على اصطحاب أوريلي إلى القصر، بالقرب من أورّي، إلى الساحة المخضوضرة نفسها حيث رأيت أدريانا للمرّة الأولى. لم يبدُ عليها أيّ انفعال. عندئذٍ أخبرتها بكلّ شيء. قلت لها مصدر هذا الحبّ الذي استشففتُه في الليالي وحلمت به لاحقاً ثمّ تحقّق فيها. كانت تستمع إليّ بجديّة ثمّ قالت لي:

- أنت لا تحبّني! تنتظر أن أقول لك: الممثّلة هي نفسها الراهبة. تبحث عن مأساة، هذا كلّ شيء والنهاية تفلت منك. هيّا لم أعد أصدّقك.

كان لهذا الكلام وقع الصاعقة عليّ. وسورات الحماسة الغريبة هذه التي استشعرتها طويلاً طويلاً، وهذه الأحلام وهذه الدّموع وهذه الخيبات وهذه العواطف. كلّ هذا ألم يكن الحبّ؟ ولكن أين هو الحبّ إذَن؟

اعتلت أوريلي خشبة المسرح مساءً في سنليس. تراءى لي أنّها تميل للمخرج، النّجم الأوّل المجعّد الوجه. كان هذا الرجل ذا خلق ممتاز وقد قدّم لها خدمات.

ذات يوم قالت لي أوريلي: من يحبّني هو ذا!

14- الورقة الأخيرة

تلك هي الأوهام التي تسحر المرء وتضلّله في مقتبل العمر. حاولت تصويرها من غير ترتيب كبير، لكنّ قلوباً كثيرة ستفهمني. الأوهام تسقط تباعاً الواحد تلو الآخر كمثل قشور الثمرة، والثمرة هي التجربة. وطعمها

مرّ. ومع ذلك فهي تملك شيئاً حامزاً يشدّد العزيمة. سامحوني على هذا الأسلوب القديم. قال روسو إنّ مشهد الطبيعة مصدر كلّ تعزية. أحاول أحياناً أن أستعيد غابات كلارنس[1] الخاصّة بي، الضائعة في شمال باريس في الضّباب. كلّ ذلك تغيّر فعلاً!

أرمونفيل، أيّتها البلاد التي لا تزال تزهر فيها قصائد الغزل الريفيّة القديمة، كتللك التي دوّنها غيسنر وأعيدت ترجمتها! لقد فقدتِ نجمتك الوحيدة[2] التي كانت تلتمع لي بنورٍ مزدوج، تلوح زرقاء تارة ووردية تارة أخرى مثل كوكب الدّبران الكاذب[3]، تارة أدريانا، وسيلفيا طوراً، وجهَين لحبٍّ واحدٍ. الأولى كانت المثال الأسمى والثانية الواقع العذب. ماذا تعني لي الآن ظلالك وبحيراتك وحتّى صحراؤك؟ وأنت يا أوتيس، ويا مونتانيي، ويا لوازي، أيّتها الدساكر التعسة المجاورة، وأيضاً شاليس-المتواصل ترميمها- لَمَ تحتفظي بأيّ شيء من كلّ هذا الماضي! أحياناً أحتاج لرؤية أماكن العزلة والحلم هذه مجدّداً. أقتفي آثارها بحزن في داخلي، الآثار العابرة لمرحلة كان الطبيعيّ فيها مصطنعاً. أبتسم أحياناً حين أقرأ على جوانب أحجار الصوّان بعض الأشعار لروشيه[4] التي بدت لي رائعة، أو حِكَماً عن الإحسان فوق سبيل ماء أو مغارة مكرّسة

---

(1) هذا التلميح لغابات كلارنس Clarens حيث دارت غراميّات جولي Julie وسان برو -Saint Preux بطلَي رواية روسو العاطفيّة «إيلوييز الجديدة» يجعل من سيلفيا إيلوييز نرفال الجديدة.

(2) فقدان النجمة الوحيدة يربط سيلفيا برسالة نرفال «إلى ألكساندر دوما» وبقصيدة «المحروم» في مجموعته الشعريّة «الأوهام».

(3) هوغو في إحدى مسرحيّاته يقول: «بنات حواء يُغيّرن لونهنّ غالباً بأسرع من كوكب الدبران». وأيضاً هذه الملاحظة المخطوطة باليد: «الدبران، ذاك الكوكب الذي يغيّر لونه كلّ ثانية، فيصير مداورةً أزرق وأحمر وأخضر وأصفر، الكوكب الحرباء».

(4) مذكورة في أنجيليكا.

لبان[1]. البحيرات المحفورة بعناءٍ شديد تبسط عبثاً مياهها الراكدة التي يمقتها البجع. ولّى ذاك الزمان الذي كانت تقيم فيه عائلة كونديه حفلات الصيد وحين كانت تمرّ فارساتها الفخورات، وأصوات البوق تتجاوب من بعيد وتتصادى!...

أمّا للذّهاب إلى أرمونفيل فلم يعد هناك اليوم طريق مباشر. أحياناً أذهب عبر كراي وسنليس، وأحياناً أخرى عبر دامارتان.

إلى دامارتان لا نصل إلّا عند المساء. عندئذٍ سأذهب للنوم في نزل «إيماج سان جان». هناك يقدّمون لي غرفة نظيفة كما يجب، مفروشة بالسّجاجيد القديمة، وفيها مرآة حائط. هذه الغرفة هي آخر عودة لي إلى سقط المتاع ذاك الذي تخلّيت عنه منذ زمنٍ طويل. ننام هناك في الدفء تحت الغطاء الذي يستخدمونه في تلك البلاد. وفي الصباح عندما أفتح النافذة التي تحيط بها الكرمة والورود، أكتشف ببهجةٍ أفقاً أخضر يمتدّ على مسافة عشرة فراسخ حيث أشجار الحور تصطفّ مثل الجيوش. بعض القرى تلوذ هنا وهنالك بقبب أجراسها المسنّنة. نلمح بداية أوتيس ثمّ أيف ثمّ فير. قد نلمح أرمونفيل عبر الغابة لو أنّ لها قبّة جرس؛ ولكن، في هذا المكان الذي تهيمن عليه الفلسفة أُهملت فعلاً الكنيسة. وبعد أن أملأ رئتيّ بالهواء المفعم بالنقاء الذي نتنسّمه على هذه النجود، أنزل بغبطة وأذهب للقيام بجولة عند الحلوانيّ.

ها أنت ذا أيّها الأجعد الجسيم.

ها أنت ذا أيّها الباريسيّ الصّغير!

وتبادلنا المصافحات الوديّة للطفولة. ثمّ تسلّقت درجاً حيث راحت

---

(1) بان: إله المراعي والصيد البريّ والأحراش.

الصيحات المبتهجة للأطفال تستقبل قدومي. وابتسامة سيلفيا الإغريقيّة تضيء ملامحها المسحورة. قلت في نفسي: «ربّما هنا كانت السّعادة[1].... ولكن...».

أسمّيها أحياناً لولوت وتجد هي شبهاً قليلاً بيني وبين فيرتر[2] مع فارقٍ هو أنّ المسدّسات لم تعد رائجة. وفيما يهتمّ الأجعد الجسيم بتحضير الغداء نذهب لتنزيه الأطفال في ممرّات الزيزفون التي تحيط بأنقاض أبراج القصر القديمة القرميديّة. وفيما يقتدي هؤلاء الصغار بجمعيّة القوّاسين فيتمرّنون على رماية السّهام التي لآبائهم ويغرزونها في القشّ، نقرأ بعض الأشعار أو بعض الصفحات من هذه الكتب الوجيزة جدّاً التي لم تعد رائجة.

كدت أنسى أن أقول إنّني اصطحبت سيلفيا إلى العرض الذي قدّمته أوريلي مع الفرقة في دامارتان، ويومها سألتها عمّا إذا كانت الممثّلة تذكّرها بشخصٍ عرفته من قبل.

من تشبه يا ترى؟

- هل تذكرين أدريانا؟

فانطلقت بضحكة مجلجلة وهي تقول: «ماذا خطر لك؟!» ثمّ وكأنّها تلوم نفسها على الأمر، قالت وهي تتنهّد: «مسكينة أدريانا! توفّيت في دير سان س...، نحو 1832.

(1) راجع نهاية قصّة «أوكتافيا» في هذا الكتاب: «قلت في نفسي إنّني ربّما هنا تركت السّعادة».

(2) لولوت (شارلوت) وفيرتر، الشخصيّتان الرئيسيّتان في رواية غوته: «آلام الشابّ فيرتر»، وهي نموذج الحبّ المثاليّ الرومنطيقيّ المأساويّ بامتياز.

أغاني بلاد الفالوا وخرافاتها[1]

في كلّ مرّة[2] يلوذ فيها فكري بذكريات ذاك الرّيف الذي يدعى الفالوا، تعودني بغبطةٍ الأغاني والحكايا التي هدهدت طفولتي. كان منزل عمّي يصدح بالأصوات الرخيمة، وأصوات الخادمات اللّواتي لحقن بنا إلى باريس كانت تغرّد طيلة النهار بالأغاني الشعبيّة لشبابهنّ التي لا أستطيع لسوء الحظّ أن أذكر ألحانها. سبق لي أن ذكرت بعض المقاطع آنفاً. اليوم، لا أستطيع إكمالها، لأنّ كلّ ذلك نسيته تماماً وسرّها بقي في قبور الجدّات. هناك من يعمل اليوم على نشر الأغاني المحليّة الخاصّة بالبروتاني أو أكيتانيا[3]، علماً أنّ أيّة أغنية من الأقاليم القديمة التي تكلّم أهلها اللغة الفرنسيّة الأصيلة لم تُحفظ. والسبب أنّهم أبَوا أن يدرجوا في الكتب أبياتاً شعريّة لا تهتمّ بالقافية والوزن والتركيبة اللّغوية. لغة الراعي والبحّار والحوذيّ الذي يمرّ هي لغتنا فعلاً، وإن احتوت على بعض الإدغامات،

(1) نشر النصّ «أغاني الفالوا وخرافاتها» عام 1854 كملحق لقصّة «سيلفيا». لكنّ هذا الموضوع كان في طليعة اهتمامات نرفال، إذ إنّه منذ العام 1842 طفق يجمع الألحان الفرنسيّة القديمة والأغاني الشعبيّة، وفي هذا يلتقي والرومنطيقيّين الذين أظهروا اهتماماً شديداً بالتراث الفولكلوريّ، وإن بقي انشغال نرفال ملتصقاً بحنينه إلى طفولته وسعيه لدمج هذه الذاكرة الجماعيّة بذاكرة شخصيّة وفق طريقةٍ تكرّس العمق الخياليّ لجغرافية الفالوا السحريّة. يبدو نرفال في مسعاه حداثويّاً مناهضاً لنبذ الأدب الرسميّ والبرجوازيّ للتراث الغنائيّ الشعبيّ.

(2) ورد في مطلع المقال الذي كتبه نرفال للتعريف بقصصه عام 1842 ما يلي: «كلّ الشعوب قبل أن تعمد إلى الكتابة، غنّت، وكلّ الأشعار تستلهم هذه المنابع الساذجة. ثمّ إنّ بُلداناً مثل إسبانيا وألمانيا وإنكلترا تذكر كلّ واحدة منها بفخرٍ مجموعة أغانيها الشعبيّة والفولكلوريّة. فلمَ لا تملك فرنسا فولكلورها الخاصّ بها؟...»

(3) يضمّ الديوان «بارزاز بريز» *Barzaz-breiz* أغاني شعبيّة بروتانيّة (نسبة إلى منطقة البروتاني الفرنسيّة)، وقد جمعها لا فيلماركيه La Villemarqué في كتابٍ صدر عام 1839. وديوان «أغانٍ وألحان شعبيّة من بيارن» *Chansons et airs populaires du Béarn* لفريدريك ريفاريس Frédéric Rivarès صدر عام 1844.

والتراكيب الملتبسة، والعبارات الخاطئة، واللّواحق ووصلات اللّفظ المزاجيّة. إنّها تتّسم بجهلٍ يغيظ الرجل الراقي أكثر ممّا تغيظه اللّهجات المحليّة. إلّا أنّ لهذه اللّغة قواعدها أو على الأقلّ عاداتها المنتظمة، ومن البغيض أنّ تُلغى عديد الأغاني العاطفيّة الشهيرة كمثل: «لو كنت طائر سنونو» من الجدول الغنائيّ لنواطير البيوت والطاهيات، وذلك بسبب حرفَين صامتَين أو ثلاثة موضوعة بشكلٍ خاصّ.

ولكنْ، هل هناك أغنية أظرف منها وأكثر شاعريّة؟

«لو كنت طائر سنونو – لو كان بإمكاني أن أطير – لذهبتُ وجثمتُ– على نهدك، أيّتها الجميلة!»

أو أيضاً هذه الأغنية: «لديّ أخٌ محتال»[4] التي استُعمل فيها الحرف «ز»[5] لتلافي التعاقب المنفّر بين مصوّتَين، ولكن لماذا استبعدتْه اللغة وهو ملائم جدّاً لتسهيل الوصل اللفظيّ وفيه كلّ السّحر الذي كانت تملكه لهجة المهرّج القديم، والتي عبثاً حاول أولاد الذّوات في حكومة المديرين اعتمادها في لغة الصالونات؟

وأمّا بعد... فإنّ تصويبات بسيطة يمكنها أن تعيد لشعرنا الخفيف الممعن في فقره وضحالة إلهامه هذه الأعمال الساحرة والسّاذجة لشعراء متواضعين. لكنّ القافية، هذه القافية الفرنسيّة الصّارمة، كيف لها أن تقبل بالمقطع التالي:

(4) في الفرنسيّة: *J'ai z'un coquin de frère*.

(5) حرف z هنا زائد، أضيف لتطرية اللّفظ، كما هو شأن نون الوقاية في العربيّة. وفي فقرة سابقة تكلّم نرفال عن الازدراء، غير العادل في نظره، الذي تتلقّاه الأغاني الشعبيّة «بسبب حرفَين صامتَين أو ثلاثة موضوعة بشكلٍ خاصّ (المُراجِع).

«زهرة شجرة الزيتون - التي أحببتها - أيّتها الجميلة الساحرة! وعيناك الجميلتان السّاحرتان - اللتان يحبّهما قلبي حبّاً جمّاً - هل يجب هجرهما؟»

لاحظوا أنّ الموسيقى تطاوع برشاقة بالغة هذه الابتكارات العفويّة وتجد في التقفيات اللبقة الظريفة كلّ المصادر التي يفترض بالشعر أن يهبها إيّاها. يا لهما من أغنيتين ساحرتين فيهما عطر كأنّه من الكتاب المقدّس، ومعظم مقاطعهما مفقود لأنّ أحداً لم يبادر إلى كتابتهما أو طبعهما. سنقول شيئاً مماثلاً عن تلك التي يوجد فيها المقطع التالي:

«وأخيراً ها أنتِ ذي يا عروستي الجميلة - ها أنت ذي أخيراً، - يربطك بعريسك - خيطٌ من ذهبٍ طويل... - لا ينقطع إلّا عند الموت!»

هل هناك ما هو أكثر نقاء من هذا القول لغة وفكراً؟ لكنّ مؤلّف قصيدة العرس هذه لا يعرف الكتابة، فيما الطباعة تحتفظ لنا بحكايا كوليه وبيس وبانار الماجنة[1].

القريحة[2] الشعريّة لم يفتقر إليها البحّار قطّ، ولا الجنديّ الفرنسيّ،

(1) شارل كولّيه Charles Collé (1709–1783)، بيار أنطوان أوغوستان دوبيس Pierre Antoine Augustin de Piis (1755–1832) وشارل فرنسوا بانار Charles Fransois Panard (1694–1765) هم قوّالون دُوِّنَتْ أشعارهم كما يجب (مع الكثير من القوّالين الآخرين المعاصرين والمؤلّفين الهزليّين) في دواوين الأغاني الشعبيّة لدوميرسان Dumersan ونويل سيغور Noël Ségur: «أناشيد وأغانٍ شعبيّة فرنسيّة» *Chants et chansons populaires de la France,* *Delloye1843* و«أغانٍ وطنيّة وشعبيّة فرنسيّة» *Chansons nationales et populaires de la France*, 1847...

(2) هنا حذف نرفال أغنية بحريّة لأنّها لاعلاقة لها ببلاد الفالوا: «مرحى! الغرباء يعيبون على شعبنا أنّه يفتقر إلى حسّ الشعر واللّون المحليّ، ولكن أين بالإمكان العثور على قصيدة وخيال أكثر شرقيّة من هذه الأغنية لبحّارتنا؟:

«إنّهنّ فتيات لاروشيل/ جهّزن سفينة/ ليجلن بها بحار المشرق/ هيكلها من الخشب =

اللذَين لم يحلما في أغانيهما إلّا ببنات الملوك والسلطانات كما في هذه الأغنية الشعبيّة الشائعة:

«في مدينة بوردو – وصلت مراكب ثلاثة، إلخ».

لكنّ أين تراه سيتوقّف الطبّال في الحرس الفرنسيّ؟

«كان طبّال جميل ذاهباً إلى الحرب، إلخ».

كانت ابنة الملك عند نافذتها، فسألها الطبّال أن تتزوّجه: «– أيّها الطبّال الجميل، قال الملك، أنت لست ثريّاً كفاية!» فقال الطبّال دون حرج:

– لديّ ثلاثة مراكب فوق البحر الهادئ، – المركب الأوّل محمّل بالذّهب،
– والثاني باللآلئ الرهيفة، – والثالث لكي أجول بصديقتي!

– الزمْ حدودك أيّها الطبّال، قال الملك، لن تكون لك ابنتي! – بئس الأمر، قال الطبّال، سأجد فتيات ألطف منها».

بعد الكثير من الأغاني الرّائعة المنسوبة إلى القريحة الغاسكونيّة[1] نوعاً ما للجندي والبحّار، هل لنا أن نحسد الراعي البسيط على مصيره؟ ها هو يغنّي ويحلم:

= الأحمر/ المشغول بإتقانٍ رفيع/ الصواري من العاج/ البكرات من الألماس/ الأشرعة الكبيرة من الدنتيلا/ شراع المقدّمة من السّاتان الأبيض/ حبال السفينة/ من خيوط الذهب والفضّة/ وطاقم السفينة/ صبايا في الخامسة عشرة/ ونوتيّو المصطبة الكبيرة/ لم يتمّوا الثامنة عشرة!، إلخ.»

(1) نسبة إلى غاسكونيا Gascogne منطقة في جنوب غرب فرنسا.

«- في حديقة أبي - طِرْ يا قلبي طِرْ - هناك شجرة تفّاح عذبة - فائقة العذوبة!

وهناك ثلاث أميرات جميلات، - ألا فَطِرْ يا قلبي طِرْ- ثلاث أميرات جميلات - تحتَها اضطجعن، إلخ».

هل هوَ إذَن الشعر الحقيقيّ، هل هو التعطّش الكئيب للمثال ما يفتقر إليه هذا الشعب من أجل تأليف أغانٍ جديرة بأن تقارن بأغاني ألمانيا وأنكلترا؟ لا بالطبع، ولكن يصدف أنّه في فرنسا لم ينزل الأدب قطّ إلى مستوى الجماهير. وكما أنّ الشعراء الأكاديميّين في القرنَين السابع عشر والثامن عشر ما كانوا ليفهموا مثل هذه الإبتكارات، كذلك فإنّ الفلّاحين ما كانوا ليعجبوا بأشعارهم الغزليّة ورسائلهم الشعريّة وقصائدهم العابرة التي لا لون لها والممعنة في تكلّفها. ومع ذلك فلنقارن أيضاً الأغنية التي سأذكرها بكلّ هذه الباقات لكلوريس[1] التي كانت في ذلك الزمن محطّ إعجاب صفوة المجتمع.

«عندما عاد جان رينو من الحرب
عاد منها حزيناً كئيباً.
- صباح الخير يا أمّي!
- صباح الخير يا بنيّ! أنجبت زوجتك صبيّاً.
- هيّا يا أمّي هيّا اسبقيني،
وهيّئي لي سريراً أبيض جميلاً،

(1) كلوريس Chloris (وتقابلها فلورا Flora عند الرّومان) هي في الميثولوجيا الإغريقيّة حوريّة مرتبطة بالربيع والأزهار. و«الباقات المهداة إلى كلوريس» أشعار غزليّة كانت رائجة في القرنين السابع عشر والثامن عشر في فرنسا.

ولكن افعلي ذلك بدون ضجّة
حتّى لا تسمعك زوجتي!

«وحين حلّ منتصف الليل
لفظ جان رينو نفسه الأخير»[1].

هنا يتغيّر مشهد الأغنية الشعبيّة منتقلاً إلى غرفة الولّادة:

«- بالله عليك قولي لي يا أمّي ويا صديقتي،
ما هذا البكاء الذي أسمعه هناك؟
- يا ابنتي إنّهم الأولاد الذين يشتكون من ألم أسنانهم.
- آه قولي لي يا أمّي يا صديقتي،
ما الذي أسمعه يُسمِّر هناك؟
- يا ابنتي إنّه النجّار
يصلح الأرضيّة الخشبيّة.
آه قولي لي يا أمّي ويا صديقتي،
ما الأغنية التي أسمعها هناك؟
- يا ابنتي إنّه موكب الزيّاح[2]
يجول حول البيت!

---

(1) أشار بول بينيشو Paul Bénichou (أستاذ جامعي متخصّص في تاريخ الأدب) إلى أنّ نرفال هو أوّل من أعطى النصّ الكامل للملك رينو، وإلى أنّه أعاد اكتشاف «مناحة القديس نقولا».

(2) لفظة «زيّاح» مشتقّة من السّريانيّة وتعني «التحرّك والانتقال من مكان معيّن إلى مكان آخر مقصود». وهذا يعني في الطقوس لا حركة ماديّة بسيطة وحسب بل تحرّكًا جماعيّاً منظّماً في مسيرة دينيّة معيّنة. وعُرفت الزيّاحات أيضاً «بالتطوافات» أو «الدّورات» أو «المسيرات المنظّمة».

- ولكن قولي لي يا أمّي ويا صديقتي،
لماذا تبكين هكذا؟
- وا أسفاه! لا أستطيع إخفاء السبب:
جان رينو مات.
- يا أمّي قولي لحفّار القبور
بأن يحفر حفرة لاثنين،
وأن تكون المساحة كبيرة،
لتتّسع للطفل أيضاً!»

هذه الأغنية لا تختلف بشيءٍ عن أكثر الأغاني الألمانيّة تأثيراً في القلب. ربّما كان ينقصها إتقان معيّن في إبراز التفاصيل، ولكنّ هذا الإتقان كانت تفتقر إليه أيضاً خرافتا «ليونور» و«ملك العفاريت»، قبل أن يعيد كتابتهما غوته وبورغر[1].

ولكن ماذا سيفيد شاعر من مناحة القديس نقولا، التي سنذكر جزءاً منها:

«كان هنالك ثلاثة أطفالٍ صغار
ذهبوا يجمعون اللَقَطَ في الحقول
وفي المساء ذهبوا عند جزّار.
- أيّها الجزّار هلّا آويتنا؟

(1) «ليونور» «Lenore» قصيدة كتبها الأديب الألماني غوتفريد أوغست بورغر Gottefried August Bûrger عام 1733، وقصيدة «ملك العفاريت» «Der Erlkönig» للأديب الألمانيّ غوته كتبها عام 1782، وقد ترجمهما نرفال نثراً في مختاراته «قصائد ألمانيّة (1830)»، وقصيدة «لينور» أعيدت ترجمتها من جديد شعراً في العام نفسه.

- ادخلوا ادخلوا يا أولادي الصغار
هنالك مكان بالتأكيد.
وما كادوا يدخلون حتّى قتلهم الجزّار،
وقطّعهم إرباً،
ووضعهم في المملاح مثلَ خنازير.
وبعد سبع سنوات جاء القدّيس نقولا
جاء القديّس نقولا إلى هذا الحقل
وذهب عند الجزّار.
- أيّها الجزّار هلّا آويتني؟
- ادخلْ ادخلْ يا قدّيس نقولا
هناك مكان، على الرحب والسّعة.
وما كاد يدخل حتّى طلب العشاء.
- هل تريد قطعة لحم مقدّد؟
- لا أريد فهو ليس لذيذاً.
- هل تريد قطعة لحم عجل؟
- لا أريد فهو كريه.
- أريد لحماً مملّحاً
وضعْتَهُ من سبع سنوات في المملاح!
وحين سمع الجزّار ذلك
ولّى من الباب هارباً.
- يا جزّار يا جزّار لا تهرب
تبْ والله سيسامحك.

وضع القديس نقولا ثلاث أصابع
على حافّة هذا المملاح.
قالت الإصبع الأولى: نمْتُ جيّداً.
وقالت الثانية: وأنا أيضاً.
وأجابت الثالثة: خلّصْتني في الجنّة!»

ألا تشبه أغاني أوهلاند[1] ما خلا الأبيات الجميلة النظم؟ ولكنْ، يجب عدم الظنّ أنّ الإتقان ينقص دوماً هذه الأشعار الشعبيّة العفويّة.

الأغنية التي ذكرناها سابقاً[2]: «الملك لويس أمام باب قصره» وُضع لها أجمل الألحان الممكنة. إنّها أشبه بنشيدٍ كنسيّ مُطعّم بنشيد حربيّ. لم يجرِ الاحتفاظ بالقسم الثاني من الأغنية التي نعرف مع ذلك قصّتها بشكلٍ مبهم. لوتريك الجميل، عشيق الفتاة النبيلة، يعود من فلسطين في اللّحظة التي كان جثمانها يوارى فيها الثّرى. يلتقي الموكبَ الجنائزيّ على طريق سان ديني فيفرّ الكهنة والقوّاسين هرباً من غضبه ويبقى النعش ملْكه.

قال لحاشيته:

- أعطوني، أعطوني سكّيناً من الذهب الصافي لأشقّ هذا الغطاء من الكتّان!» وما إن أخرجها من كفنها حتّى عادت الحسناء إلى الحياة. فخطفها عشيقها واصطحبها إلى قصره المنعزل في أقصى الغابة. لا بدّ أنّكم تظنّون أنّهما عاشا بسعادة، وأنّ القصّة انتهت هنا. ولكن، ما إن استغرق لوتريك الجميل في هناءة الحياة الزوجيّة حتّى لم يعد

(1) لودفيغ أوهلاند Ludwig Uhland (1787–1862) شاعر رومنطيقيّ ألمانيّ، مؤلّف أغانٍ شعبيّة. ترجم نرفال اثنتين من قصائده «ظلّ كورنر «L'ombre de Körner»» و«السيرينادة «La Sérénade»».

(2) أي في قصّة «أنجيليكا».

إلّا ذاك السّخيف الذي يقضي وقته في الصّيد على ضفّة البحيرة إلى أن غافلته زوجته الشرسة ذات يومٍ وتعمّدت دفعه إلى المياه القاتمة وهيَ تقول له:

– اذهبْ أيّها السّافل، يا صيّاد الأسماك. عندما تصبح لذيذة، سوف نأكلها.

تلك أقوال غامضة جديرة بأركابون أو بميلوزين[1]. قبل أن يلفظ سيّد القصر التّعس أنفاسه، كان لا يزال لديه القوّة ليفكّ المفاتيح من حزامه ويرميها لابنة الملك وهو يقول لها إنّها باتت ربّة القصر وسيّدته وإنّه سعيد لموته وفقاً لرغبتها!...

ثمّة في هذه الخلاصة الغريبة ما يصدم الفكر عفواً، فيتساءل السامع ما إذا كان الشاعر قد أراد أن ينهي القصّة بملامح ساخرة، أو أن يصوّر الحسناء الميتة التي انتشلها لوتريك من الكفن بصفتها مصّاصة دماء كما تقدّمها لنا الخرافات غالباً.

وفي الواقع، كثيرة هي التنويعات والفقرات الجديدة المضافة في هذه الأغاني. فكلّ مقاطعة تملك نسخة مختلفة عن الأخرى. جئنا بحكاية من دوقيّة بوربون: «صبية لاغارد» التي تبدأ على هذا النحو:

«في قصر لاغارد،
ثلاث فتيات جميلات

(1) أشار بول بينيشو Paul Bénichou إلى أنّ أركابون Arcabonne هي الساحرة في رواية الفروسيّة «أماديس الغالّي» Amadis de Gaule وهي رواية إسبانيّة من روائع أدب القرون الوسطى. أمّا الجنيّة ميلوزين (التي تُعتبر مؤسّسة أسرة لوزينيان Lusignan (أسرة حاكمة نبيلة أصلها من ليموزان في فرنسا وتقول الخرافة إنّها متحدّرة من هذه الجنيّة) فقد أدرجها نرفال في العنوان البدئيّ لكتابه هذا: «ميلوزين أو بنيّات اللّهب» *Mélusine ou Les Filles du feu*.

هنالك واحدة أجمل من نور النهار
أسرع يا كابتن
لأنّ الدوق سيتزوّجها».

إنّها الأغنية نفسها التي ذكرناها في السّابق[1]:

«تحت شجرة الورد البيضاء
تتنزّه الحُلوة..».

ها هو المطلع البسيط السّاحر... أين مكان الحدث؟ لا أهميّة لذلك. بإمكان الحسناء، لو شئنا، أن تكون ابنة السلطان تستسلم لأحلامها في ظلّ غابات شيراز[2]. ثلاثة فرسان عبروا في ضوء القمر. قال الأشدّ فتوّة بينهم: «اصعدي على حصاني الجميل الرماديّ». ألا يذكّر هذا برحلة ليونور[3]، ألا يوجد جاذب محتّم لدى هؤلاء الفرسان المجهولين!

يصل الفرسان إلى المدينة ويتوقّفون في فندق مضاء وصاخب: ترتعد أوصال الفتاة المسكينة:

«ما إن تصل، تنظر إليها صاحبة النزل:
- هل أنت هنا عنوة؟ أم للَذّتك الشخصيّة؟
- من حديقة أبي، ثلاثة فرسان اختطفوني».

---

(1) في قصّة أنجيليكا.

(2) شيراز، المدينة الإيرانيّة الشهيرة بحدائقها والتي تغنّى بها حافظ وسعدي (والشاعر الألمانيّ هاين). «أغاني الفالوا وخرافاته» تذكّر على حدّ سواء بالأغاني الشعبيّة الجرمانيّة والقصائد الشرقيّة، وتنتمي إلى تراث شعبيّ عالميّ.

(3) قصيدة راعبة ترجمها نرفال للشاعر الألمانيّ غوتفريد برغر Gottfried Berger وفيها تسعى ليونور لتستعيد حبيبها الذي خطفه الموت.

وعلى هذا، يحضّر العشاء:

«تناولي عشاءك يا حسناء وكوني سعيدة.
ستمضين الليلة مع ثلاثة قادة».
ولكن، بعد العشاء،
سقطت الحُلوة صريعة،
سقطت ميتة!

هتف الأصغر سنّاً بين الفرسان: «ويحي! ماتت حبيبتي! ماذا سنفعل!...» واتّفقوا على إرجاعها إلى قصر والدها، تحت شجرة الورد البيضاء:

«وفي ظرف ثلاثة أيّام
عادت الحُلوة إلى الحياة
- افتح يا أبي، افتح يا أبي، افتح في الحال!
ثلاثة أيام وأنا أتظاهر بالموت
كيما أحتفظ بشرفي».

شكّلت عفّة بنات الشعب التي يتعرّض إليها أسياد مخادعون مواضيع كثيرة للأغاني العاطفيّة. هناك على سبيل المثال ابنة حلوانيّ أرسلها والدها لتوصل حلوى إلى سيّد قصرٍ داعرٍ فاحتبسها لديه حتّى هبوط الليل ولم يشأ أن يطلق سراحها. كان في عجلة من أمره ليثلبها شرفها، فتظاهرت بالاستسلام وطلبت من الكونت خنجره لتقطع مشبك صدارها فغرزت

الخنجر في صدرها، وخصّص الحلوانيّون عيداً لهذه الشهيدة الحانوتيّة.

وثمّة أغانٍ تتحدّث عن «قضايا شهيرة» وتتضمّن أهميّة أقلّ شاعريّة ولكنّها غالباً ما تكون مليئة بالرعب والتشويق. تخيّلوا رجلاً عائداً من الصّيد ويسأله أحدهم فيجيب قائلاً:

«- قتلْتُ العديد من الأرانب البيضاء الصغيرة - فتلطّخ حذائي كلّه بالدّم.

أيّها الكاذب الخائن المنافق - سأفضحك - أرى، من لونك الشاحب أرى - أنّك قتلت أختي للتوّ!»

أيّ شعرٍ مشؤومٍ هذا في أسطرٍ قليلة تكاد لا تشكّل أبياتاً شعريّة! وفي قصيدةٍ أخرى، صادف هاربٌ من الجنديّة رجال الشرطة الأشبه بنيميزيس[1] الرهيبة ذات القبعة المطرّزة بالفضّة:

«سألوه: أين هي مأذونيّتك؟

- المأذونيّة التي أخذتها؟ إنّها تحت حذائي».

وهناك دوماً عاشقة كئيبة مرتبطة بهذه الحكايا الحزينة:

«ذهبت الحُلوة لتعثر على قائدها - على عقيدها وأيضاً شاويشها..».

اللّازمة جملة رديئة[2] باللاتينيّة مردّدة على مقام من الموسيقى الدينيّة وتتنبّأ بمصير الجنديّ التعيس.

---

(1) نيميزيس Némésis: إلهة الانتقام الإغريقيّة.

(2) مذكورة أصلاً في «أنجيليكا»: Spiritus sanctus/ quoniam bonus أي: «الروح القدس رحيم عطوف».

وهل أجمل من أغنية بيرون[1] المأسوف عليه كثيراً في تلك الأصقاع:

«عندما أراد بيرون أن يرقص - عندما أراد بيرون أن يرقص - أَمَرَ بجلبِ حذائهِ - أَمَرَ بجلبِ حذائه - وقميصه من البندقيّة - وصداره المخرّم - وقبّعته المستديرة - سوف ترقص يا بيرون!»

كنّا ذكرنا سابقاً بيتَي شعرٍ من الأغنية التالية[2]:

«كانت الحسناء جالسة
قرب الجدول الجاري
وفي المياه المختلجة،
تغطّس قدميها البيضاوين الجميلتين:
- رويدك يا صديقتي، رويدك!»

إنّها صبيّة من الحقول يباغتها سيّد على الجدول كما يباغت برسيفال غريزليديس[3]. وسيكون طفلٌ ثمرة لقائهما. قال السيّد:

---

(1) شارل دوغونتو، دوق دوبيرون Charles de Gontaut, duc de Biron (1562–1602): ماريشال فرنسا، مرافق الملك هنري الرابع، الذي أُعدم لأنّه تآمرَ على ملكه. مدّته الأغنية التي تحمل اسمه بشعبيّة واسعة، وكذلك مسرحيّة شكسبير الكوميديّة «مجهودات الحبّ الضائعة» *Love's labour's lost* (عنوان فكّر فيه نرفال لبعض الوقت لكتاب قصصه، كما فكّر في عنوان آخر قريب منه: «الغراميّات الضائعة» *Les Amours perdues*)، حيث جعل اسم الدوق إنكليزيّاً: بيراوني Berowne. وقد ذكره نرفال في قصيدة «المحروم» في أشعاره المعنونة «الأوهام» (انظر في آخِر هذا الكتاب).

(2) إنّها الأغنية المفضّلة لسيلفيا.

(3) أظهر بول بينيشو أنّ طرفَي الثنائيّ غريزليديس–برسيفال Griselidis-Perceval بطلا مسرحيّة ألمانيّة عنوانها: «غريزليديس» (1835) للكاتب مونخ بلينغهاوزن Munch-Bellinghausen.

«- هل سنجعل منه كاهناً أم قاضي قضاة؟»

- لا، أجابت الحسناء، لن يكون إلّا فلّاحاً:

«سنضع له ظهريّة - فيها ثلاث بصلات - وسيذهب صارخاً: - مَن يشتري بصلاتي البيضاء؟ - رويدك يا حُلوتي، إلخ..».

وهاكم حكاية تُروى في الأمسيات، وأذكر أنّني سمعتها من صانعي السّلال:

ملكة الأسماك[1]

كان هنالك في ريف فالوا، وسط غابات «فييه كوتريه» صبيّ صغير وفتاة صغيرة يلتقيان بين الحين والآخر على ضفاف الأنهار الصّغيرة للبلاد. كان عمّ الصبيّ، وهو حطّاب يُدعى معذِّب السنديان، يجبره على الذّهاب لتجميع الحطّب اليابس. وكان أهل الفتاة يرسلونها لتلتقط أنقليسات صغيرة حين يسمح انخفاض منسوب المياه برؤيتها في الطين في بعض الفصول. كان يفترض بها أيضاً، في حال عدم توفّر الأفضل، أن تمسك بين الحجارة بالسّلطعونات، التي تكثر في بعض الأماكن.

(1) يستعيد نرفال هنا مع بعض الحذف والتنويعات الخفيفة القصّة الخرافيّة المنشورة في جريدة «لوناسيونال» *Le National* في 29 ديسمبر 1850. القصّة دون عنوانٍ ورَدَ تقديمها كما يلي: «زرنا لتوّنا بلاد حكايات تقع على مسافة بضع فراسخ فقط من أعلى باريس ولكنّها تنتمي إلى الأصقاع التي كان يعبرها التيّار القديم للهجمات الجرمانيّة والذي ترك فيها بعضاً من التقاليد البدائيّة للأعراق الغاليّة الرومانيّة. وهاكم إحدى تلك القصص التي أثّرت فينا كثيراً لطابعها الألمانيّ، والتي لا نذكرها إلّا لأنّ فيها بعض القرابة مع خرافة غريبوي Gribouille التي روتها جورج صاند بشكل رائع على لسان راعٍ تحدّث إلى الحاضرين الجالسين حول شباكٍ وسلالِ قشّ، عن صبيّ صغير وفتاة صغيرة...»

ولكنّ الفتاة الصغيرة المسكينة، المنحنية دوماً واضعة قدميها في الماء، كانت متعاطفة جدّاً مع آلام الحيوانات، حتّى أنّها في أغلب الأحيان إذ ترى تشنّجات الأسماك وهي تخرجها من البحيرة، كانت تعيدها إليها مجدّداً ولا تأخذ إلّا السّلطعونات التي كانت في أغلب الأحيان تطبق على أصابعها حتّى ينزف منها الدم، ما جعلها أقلّ تسامحاً حيالها.

أمّا الفتى الصغير، الذي كان يجمع إبالات الحطب اليابس، وباقات الخلنج، فقد كان يتعرّض مراراً لتأنيب عمّه معذّب السنديان، إمّا لأنّه لم يجلب أحطاباً بما فيه الكفاية، وإمّا لأنّه انشغل كثيراً بالحديث مع الصيّادة الصّغيرة.

كان هناك يوم في الأسبوع لا يلتقي فيه هذان الولدان... فما كان ذلك النهار؟ إنّه على الأرجح النهار نفسه الذي تتحوّل فيه الجنيّة ميلوزين إلى سمكة وأميرات إيدا إلى بجعات[1].

غداة يوم كمثل تلك الأيّام، قال الحطاب الصّغير للصيّادة:

- أتذكرين، رأيتك البارحة تمرّين هناك في مياه شالبون وبرفقتك جميع الأسماك التي كانت تواكبك... حتّى أسماك الشبّوط وأسماك

(1) هذا الجمع بين النساء البجعات وكتاب الإيدا (الكتاب المؤسّس للميثولوجيا الشماليّة) وميلوزين موجود في المقدّمة التي كتبها نرفال عن أشعار هاينه Heine في مجلة «لا ريفو دي موند» *La Revue des Mondes* في عدد 15 يوليو 1848: «كان يفهم بشكل لا لبس فيه خرافات البلطيق تلك، هذه الأبراج التي تحتبس فيها بنات الملوك، وهؤلاء النساء اللّواتي يكسوهنّ ريش البجع [...] انعكاس كتاب الإيدا يلوّن أغانيه مثل فجر شماليّ [...] ولكن ما يبرع فيه بشكل خاصّ هو هذا التصوير لكلّ الكائنات الساحرة والماكرة من جنيّات بحر وآلهة طبيعةٍ صغار وحوريّات ماء، وعذارى راقصات يتوفّين عشيّة زواجهنّ، وينطوي إغواؤهن على فخ. يجدر القول إنّ كلّ امرأة هي بالنسبة للشاعر هاينه مزيج من حوريّة ماء وجنيّة مقابر. وحين يهتف في أحد كتبه بخصوص لوزينيان، عشيق ميلوزين: طوبى للرجل الذي عشيقته ليست إلّا نصف أفعى، فهو هنا يفصح عن السرّ الحميم لنظرته عن الحبّ».

الزُّنجور. وكنت أنت نفسك سمكة جميلة حمراء وجوانبك تلتمع بحراشف من ذهب.

قالت الفتاة الصغيرة:

- أذكر ذلك جيّداً لأنّني رأيتك، أنت كنت على ضفّة الماء، وكنتَ تشبه سنديانة خضراء جميلة وأغصانها العليا كانت من ذهب... وجميع أشجار الغابة كانت تنحني حتّى الأرض لتحيّيك.

قال الصبيّ الصغير:

- هذا صحيح فقد حلمت به.

- وأنا أيضاً حلمت بما قلته لي. ولكنْ، هل التقينا في الحلم؟

وفي هذه اللّحظة قطع الحديث ظهور عمّه معذّب السّنديان الذي ضرب الصبيّ بهراوة ضخمة وهو يعاتبه لأنّه لم يحزم بعد إبّالة واحدة.

ثمّ أضاف:

- ألم آمرك بأن تكسر الأغصان التي تنثني بسهولة وتضيفها لحزمتك؟

قال الصبيّ:

- لكنّ الحارس سيضعني في السّجن إذا وجد في حزمتي حطباً أخضر. ثمّ حين حاولت أن أفعل ذلك كما قلت لي، كنت أسمع شكوى الشجرة.

قالت الفتاة الصغيرة:

- وأنا أيضاً حين آخذ الأسماك في سلّتي أسمعها تغنّي بحزنٍ شديدٍ ما يدفعني إلى رميها مجدّداً في الماء... وحينئذٍ يضربونني في البيت.

قال معذّب السّنديان الذي بدا أنّ الشراب جعل غضبه يحتدم:

- اسكتي يا وجه الشؤم، أنت تزعجين ابن أخي في عمله. أعرفك

جيّداً بأسنانك اللؤلؤيّة الحادّة. أنت ملكة الأسماك... ولكنّي
سأعرف كيف أمسك بك ذات يوم من الأسبوع وستموتين في سلّة
السّوحر... في سلّة السّوحر!

التهديد والوعيد اللذان تفوّه بهما العمّ في سُكره لم يلبثا أن تحقّقا. ألْفت الفتاة الصغيرة نفسها متّخذة شكل السمكة الحمراء التي كان القدر يرغمها على اتّخاذه في أيّام معيّنة. لحسن الحظّ، حين أراد معذّب السنديان، بمعاونة ابن أخيه، أن ينتشل من الماء قفّة السوحر، عرف هذا الأخير السمكة الجميلة الحمراء ذات الحراشف الذهبيّة التي رآها في الحلم بوصفها التحوّل المؤقّت للصيّادة الصغيرة.

فما كان منه إلّا أن تجرّأ للدّفاع عنها في مواجهة عمّه، ضارباً إيّاه بجرموقه[1]. فغضب معذّب السنديان غضباً مسعوراً وأمسكه من شعره محاولاً قلبه أرْضاً. لكنّه فوجِئ بمقاومة شديدة منه. ذلك أنّ الصبيّ كان يغرز قدميه في الأرض بقوّة جعلت عمّه عاجزاً عن أن يتغلّب عليه أو يقلبه أو يحمله. عبثاً حاول زحزحته في جميع الاتّجاهات.

وفي اللّحظة التي أوشكت فيها مقاومة الصبيّ على التلاشي، أصدرت أشجار الغابة صوتاً بهيّاً وأخذت الأغصان الهائجة تصفر بالرياح، ودحرت العاصفة عمّه الحطّاب فانكفأ إلى كوخه متقهقراً.

وما لبث أن خرج مهدّداً متوعّداً، رهيباً ومتبدّلاً وكأنّه ابن أودين، وفي يده كانت تلتمع تلك الفأس السكندينافيّة التي ترعب الأشجار وكأنّها مطرقة تور وهو يحطّم الصّخور[2].

(1) الجُرموق: حذاء قصير يلبس فوق الحذاء وقاية له من الماء أو غيره.
(2) أودين (أو ووتان) إله الحرب وابنه تور Thor (أو دونر Donner) إله الرعد المسلّح بمطرقته التي تُسمّى «ميولنير» Mjöllnir رمز قوّته وسلاحه الذي يستخدمه ليقتل العمالقة. تور هو أيضاً رمز الصاعقة، وبالتالي إله النار في الميثولوجيا الإسكندنافيّة.

كان ملك الغابات الفتيّ، ضحيّة معذّب السنديان -عمّه الغاصب- يعرف مكانته الرفيعة التي كانوا يريدون حجبها عنه. كانت الأشجار تحميه ولكن فقط بحجمها ومقاومتها السلبيّة...

عبثاً كانت الأجمات والفسائل تشتبك من كلّ صوب لتوقف تقدّم العمّ. نادى هذا الأخير على حطّابيه وشقّ طريقاً وسط هذه الحواجز. وهكذا سقطت عدّة أشجار كانت مقدّسة في أزمنة الدرويديّين[1] القدامى، تحت ضربات الفؤوس والبلطات.

لحسن الحظّ، لم تضيّع ملكة الأسماك الوقت سدىً. ذهبت ترتمي عند أقدام المارن والواز والأين[2]، الأنهر الثلاثة الكبيرة المجاورة وقالت لها إنّه إذا لم تُوقف مساعي معذّب السنديان ومناصريه فإنّ الغابات المقطوعة لن يعود بمقدورها أن توقف الأبخرة التي تنتج المطر وتغذّي الجداول والأنهر والبحيرات بالمياه. وكذلك فإنّ الينابيع نفسها ستجفّ ولن تفجّر مجدّداً المياه الضروريّة لتغذية الأنهر. هذا بالإضافة إلى أنّ كلّ الأسماك ستنفق في وقت قليل، وكذلك الحيوانات البريّة والعصافير.

عندئذٍ اتّخذت الأنهر الثلاثة الكبيرة التدابير الضروريّة بهذا الشأن فجعلت الأرض حيث كان العمّ الحطّاب يعمل على تدمير الأشجار مع معاونيه المرعبين، دون أن يقدروا مع ذلك على بلوغ أمير الغابات الشابّ، جعلتها تغرق في طوفان عظيم لم ينحسر إلّا بعدما أُبيد المعتدون عن بكرة أبيهم.

---

(1) هم كهنة السّلتيّين، وصار اسمهم يُستخدم على سبيل التوسّع للدلالة على السلتيّين بعامّة.

(2) في جريدة *Le National*، حيث لم يُقدّم نرفال القصّة الخرافيّة على أنّها من الفالوا، كانت الأنهر المذكورة: المارن la Marne والموز La Meuse والموزيل La Moselle. أما هنا فنرفال يعيد الهويّة الفالوازيّة للقصّة منذ البداية.

وعندئذٍ استطاع ملك الغابات وملكة الأسماك أن يستعيدا من جديدٍ أحاديثهما البريئة.

ولم يعودا بعد ذلك الحطاب الصغير والصيّادة الصغيرة بل صارا سيلفا وأوندين واتّحدا بعد ذلك بطريقة شرعيّة[1].

نتوقّف ههنا عند هذه الشواهد غير المكتملة، والتي يصعب فهمها من دون الموسيقى، وشاعريّة الأمكنة والمصادفات، التي تجعل هذه الأغنية أو تلك من الأغاني الشعبيّة محفورة بطريقة لا تُمحى في الذاكرة. هنا رفاق يعبرون حاملين عُصيّهم المزيّنة بشرائط، وهناك بحّارة يعبرون النهر نزولاً، وسكارى من الأزمنة الخوالي (لأنّ سكارى اليوم لم يعودوا يغنّون البتّة)، وغاسلات، وناشرات الدّريس، يرمون في الريح نُتَفاً من أغاني الجدّات. لسوء الحظّ، نسمعهم يردّدون في أغلب الأحيان الأغاني العاطفيّة الرائجة، التافهة، أو التي لا لون لها صراحة، وتتناول ثلاثة أو أربعة موضوعاتٍ مكرورة. من المستحسن إذَن أن يفيد شعراء بارعون معاصرون من الإلهام الساذج لآبائنا ويعيدوا لنا، كما فعل شعراء البلدان

(1) في جريدة *Le National*، أتبع نرفال القصّة بمقطع تحليليّ: «لا يتبادرنّ إلى ذهن أحدٍ أنّ في هذه الخرافة تلميحاً ما لواحد من تلك الاغتصابات المتكرّرة جدّاً في القرون الوسطى للسلطة حيث كان العمّ يزيح ابن أخيه عن العرش مستنداً إلى القوى الماديّة لإخضاع البلاد. بل إنّ معناها يشير بالأحرى إلى هذه المقاومة القديمة المتحدّرة من الموروث الوثنيّ لتدمير الأشجار والحيوانات. هنا، كما في الخرافات التي نمت على ضفاف نهر الراين، الشجرة مسكونة بروح، والحيوان يحتفظ بنفْسٍ حبيسة. بذلت غابات غاليا آخرَ جهودها لمواجهة هذا الدمار الذي أنضب القوى الحيّة والخِصبة للأرض، والذي، كما في الجنوب، أحدث صحارى من الرمل حيثما كانت توجد منابع المستقبل». في مواجهة الرمزيّة السياسيّة يؤْثر نرفال المعنى الدينيّ للقصّة.

الأخرى، جملة روائع تضيع يوماً بعد يوم ومعها ذاكرة الناس الطيّبين للزّمن الغابر وحياتهم[1].

(1) هذه الرغبة في إعادة الصلة مع التراث الشعبيّ، التي وسمت الرومنطقيّة سبق أن ألهمت نرفال في مقدّمتيه لمنتخباته من «القصائد الألمانيّة»، و« مختارات من قصائد رونسار» عام 1830.

جيمي

(إضاءة: القصّة الثالثة من قصص نرفال هذه، التي يتبعها بالتنويه التالي: «نقلاً عن الألمانيّة»، نُشرت في مجلّة «لا سيلفيد» La Sylphide في عددَي 19 و26 مارس 1843 تحت عنوان «جيمي أودوغرتي» Jemmy O' Dougherty، دون إشارة إلى المصدر الأصليّ. ثمّ أعيد نشرها في 9 مايو 1847. على الرغم من الاعتراف (المتأخّر) لنرفال فيما يخصّ مصدر القصّة، لزم الانتظار حتّى 1930 لكي يحدّد نيكولا بوبا المصدر، فهي مأخوذة عن قصّة للكاتب النمساويّ الأصل والأميركيّ المنشأ كارل بوستل Karl Postl *(1793–1864)، المعروف باسمه المستعار تشارلز سيلسفيلد* Charles Sealsfield. *تجدر الإشارة إلى أنّ اسم جيميما* Jemima *الذي يستخدمه سيلسفيلد في القصّة استعاض عنه نرفال باسم جيمي في معظم الأحيان، والأرجح آثر اسم جيمي ربّما لأنّه يذكّره بجيني كولون* Jenny Colon *(أوريليا في نصوصه) الممثّلة والمغنّية التي عشقَها، وتوفّيت في يونيو 1842. على أيّة حال، نرفال يبسّط الأسماء في القصّة التي اقتبسها، ويشدّد على الشخصيّة النسائيّة، ويحذف استطرادات النصّ الأصليّ، ويضخّ فيها دماً جديداً.*[1]*)*

(1) المترجمة، تلخيصاً عن شروح نشرة «فوليو كلاسيك» لهذا الكتاب، وضعها برتران مارشال.

1- كيف انتزع جاك توفيل وجيمي أودوغرتي عرناسَي ذرة حمراء في نفس الوقت.

على مسافة أقلّ من مائة ميل من ملتقى نهرَي أليغاني ومونونغيهالا[1] يقع وادٍ ظريف، أو ما ندعوه في لغة البلاد «الأبطح[2]»، وهو جنّة حقيقيّة تحدّها الجبال من جميع الجهات ومجرى مياه نهر أوهايو الذي أطلق عليه الفرنسيّون تسمية «النهر الجميل». تمتدّ السفوح والقمم في الأعالي متدرّجة بعذوبة إلى الأفق وتكسوها أشجار كثيفة ومتنوّعة كالجمّيز المعمّر والنغث والطّلح، وكلّها متدثّرة بالعرائش البريّة، وتحت ظلّها ينعم المرء بانتعاشٍ عذبٍ. في الأسفل، النهران اللّذان يلتقيان عند أوهايو وتتزاوج مياههما يكشفان في غير مكانٍ عن قاربٍ ينزلق على مياههما الساكنة، أو أحياناً عن مركب بخاريّ ينطلق بسرعة السّهم، فتنبجس فجأةً من تحت الجمّيز والصفصاف الباكي أسراب البطّ والإوزّ البريّ جفلة. ثمّة درب واحد يقود إلى القسم الأعلى من الكانتون، أو ما يسمّى البلد العالي حيث منذ ستّين عاماً استقرّ إنكليز وإيرلنديّون وألمان وأعراق أوروبيّة أخرى، وتصاهروا، وانصهروا معاً بشكلٍ تامّ. ومع ذلك فإنّ هذا لا يعني أنّ هذه العائلة الجمهوريّة الكبيرة محت كلّ مظهرٍ لاختلاف أصولها. لا يزال المتحدّر من ألمانيا، مثلاً، متشبّثاً بالشُّكروت بقوّة[3]. وهو يفضّل منزله الخشبيّ الريفيّ البسيط، الذي يشبهه، على منزل جيرانه الحجريّ.

---

(1) الأصح هو مونونغاهيلا Monongahela والخطأ عائد إلى الأصل الألمانيّ. وملتقى هذين النهرين يشكّل الأوهايو في بيتسبورغ.

(2) Bottom في النصّ: أرض مُنبسطة فسيحة الأرجاء، يسيل فيها الماء تاركًا فيها الرّملَ وصغارَ الحَصَى.

(3) الشُّكروت choucroute: كرنب مملّح ومخلّل.

ولا يزال الأزرق هو اللّون المفضّل لثيابه الفضفاضة على الدّوام، ويختار جواربه من اللّون نفسه. أمّا حذاؤه الضخم المستدير فيزدان أيّام الآحاد بحلقاتٍ فضيّة كبيرة. كما يهوى، على غرار أجداده، السّراويل الجلديّة المعقودة تحت الركبتين بأربطة.

الموضة الطاغية، التي ندعوها هناك «الفاشِن»[1]، لم تجد إلّا مناسبات قليلة بعد لكي توسّع نفوذها. ذلك أنّ قبّعة في غاية البساطة من القشّ والحرير، وفستان أبسط مصنوع من قماشٍ محليّ هما كلّ الزينة التي تسمح بها العائلات لأوانسهنّ إن أردن إبراز مفاتنهنّ.

وبالرّغم من هذا العناد الفظّ الذي يميّز الألمان، فإنّ مختلف المحموعات تعيش في اتّحاد كامل. أو على الأرجح تساهم هذه الفوارق في إدخال السّرور على اجتماعاتهم واحتفالاتهم الكثيرة، المعروفة عامّة باسم «Fröhlich»[2]. هكذا تُسمّى في الواقع التجمّعات التي تُقام عند هذا الجار أو ذاك وُيفتَصّ خلالها الحَبّ من عرانيس الذرة. ما أظرف رؤية الأزواج السّعداء وهم يهرعون في أمسيات الخريف الجميلة من مختلف النواحي، مجتازين الأسيجة، شاقّين طريقاً وسط الأجمات، ليخرجوا أخيراً من الغابات بخدود حمراء بلون القرمز، متصافحين بحرارة تشعر معها أنّ عظام أيديهم ستنكسر. ثمّ يتحلّقون على شكل نصف دائرة أمام البيت حيث الملتقى، وأمامهم جبل من سيقان الذرة، وخلفهم بامبو العجوز، المتأهّب لتتويج الاحتفال بموهبته الموسيقيّة، لكنّه اضطجع على المقعد أمام الموقد مستسلماً إلى رقدة وهو يشخر قليلاً.

قبل أربعين عاماً أُقيم أحد هذه الاحتفالات في المستوطنة، عند جاك

(1) بالإنكليزيّة في النصّ:.fashion وتعني الموضة.

(2) Fröhlich بالألمانيّة أي: فَرِح.

بلوكسبرغر[1]. بين الشبّان الذين هرعوا إلى مزرعته من أمكنة بعيدة جدّاً، كان هناك اثنان بادر الجميع إلى إلقاء التحيّة عليهما بحماسٍ لافتٍ: أوّلهما آنسة إيرلنديّة نضرة، تحمل اسماً رنّاناً: جيمي أودوغرتي؛ صبيّة ممتلئة مشرقة، ذات وجه فيه مكر وظرف، وخدّين ورديَّين، وجيدٍ طويل. كانت عيناها الزرقاوان اللّتان تميلان إلى الرماديّ ترسلان أحياناً نظرات جارحة، أمّا أنفها الصغير الأقنى قليلاً فكان يوحي بأنّ لدى مالكته قدراً من الذكاء والثقة والصلابة الإيرلنديّة، ويُفترَض بزوجها المقبل أن يستشرف فيه خيراً أو شرّاً. ولكنّها إذا لم تكن تبدو صبورة مثل أيّوب فهي على الأقلّ بنفس الفقر، إلّا أنّ هذا لم يكن يمنعها من معرفة تدبير الأمور بطريقة تبدو معها جميلة المظهر وفي هندام لا مأخذ عليه بالنسبة إلى تلك البلاد.

أمّا الشخصيّة الثانية محور حديثنا فهو السيّد كريستفوروس أو كما كان يُدعى عادةً، توفِل الغنيّ[2]، وهو فتىً يبلغ طول قامته ستّ أقدام وستّة بوصات أميركيّة. يبدو في الظاهر بليداً قليلاً ولكنّه عصبيّ المزاج، وذو بنيَة قويّة. بمعزلٍ عن هذه الصفات التي لا يُستهان بها، كان كريستفوروس يملك أيضاً إكارة تبلغ مساحتها ثلاثمائة أكر[3]، أي كلّ وادي أوهايو الذي سبق لنا أن وصفناه، وهرْياً حجريّاً، ومنزلاً مزيّناً بمشربيّات مطليّة بالأخضر، وله سقف من قِدَدٍ مطليّة بالأحمر، وأيضاً، حسبما يُقال، جوربَين من الصّوف الأزرق تركهما له والده مليئين تماماً بالدولارات الإسبانيّة[4].

(1) في النصّ الألمانيّ الأصليّ جوكل بلوكسبرغر Jockel Blocksberger.

(2) توفِل اختصار لكريستوف بالألمانيّة.

(3) أكر: مقياس للمساحة يساوي نحو أربعة آلاف متر مربّع.

(4) قبل حرب الاستقلال، كانت المستعمرات الأميركيّة تعتمد عملات مختلفة جدّاً كالدولار الإسبانيّ واللويس الفرنسيّ.

وهكذا عندما كان توفِل يمرّ أمام إحدى المزارع على حصانه الأشيب وهو يدندن بلحنٍ ألمانيّ، كان قلب أكثر من شقراء يبدأ بالخفقان بجنون.

حدث أن كانت جيمي جالسة بالقرب من توفِل. كيف حصل ذلك؟ ليست الحوليّات واضحة في هذا الشأن، ولكنّ الواضح هو أنّ توفِل لا دخل له بهذه الصدفة لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ. كان توفِل، كما قلنا، شاباً طويل القامة عريض المنكبين. وربّما كانت مقاعد المكان غير مريحة إطلاقاً ما حدا به للجلوس على جذع قاريّة[1]. واختارت جيمي مكانها قربه لتبتعد ربّما عن جمهرة من الشبّان أكثر صخباً وجسارة من بطلنا. وفي الواقع كان توفِل ذاك يجلس دون أيّ نيّة سيّئة، هادئاً كما يُفترَض بمواطن من الولايات المتّحدة أن يكون، مفتصّاً عرانيس الذرة، مفكّراً بحصانه الضخم، وماشيته، وجوربَيه الأزرقين، وألف شيء آخر، ما عدا جارته اللطيفة. لا نقصد القول إنّ جارته كانت تفكّر فيه. فقط وبكلّ الكياسة التي تتمتّع بها نفس مسيحيّة بارّة، كانت تجمّع بيدٍ رشيقةٍ أعداداً كثيرة من سيقان الذرة وتضعها أمام جارها، الذي لم يكن عليه، نظراً لطول قامته وبلادته، إلّا أن يمدّ ذراعه لكي يفتصّها. لكنّ توفِل لم يكن يبدي أيّ اهتمام بهذه اليد الصديقة، متابعاً افتصاص الحبوب حتّى تضاءلت الكومة، ووجب عليه أن ينحني ويجذب جسمه إلى الأمام ما سبّب له انزعاجاً كبيراً. ولكن عندئذٍ كانت هي أيضاً التي تنحني برشاقة وتجمع بضع دزينات من العرانيس في وزرتها لكي تضعها في كومة صغيرة أمامه، وكلّ ذلك بلطفٍ ساحرٍ تكاد تستحيل مقاومته. ولكن كونوا متأكّدين من أنّ كلّ هذا الاهتمام ما كان ليلفت نظر فتانا الألمانيّ ذي الرأس الكبير لو

(1) قاريّة: شجر من فصيلة الجوز.

لم تلتقِ نظرات جيمي، لحظةَ دارَت حوله بطريقة ساحرة، صدفةً نظراته. وهذه النظرة، حسبما تقول بعض ألسنة السوء، اتّسمت بفتنة لا تقاوَم حتّى أنّ توفِل فتح عينيه مشدوهاً للمرّة الأولى.

وعلى هذا استأنف انتزاع حبوب الذّرة محتسياً من وقتٍ لآخر جرعة ويسكي دون أيّ يوجّه كلمة شكر واحدة إلى جارته اللّطيفة المهذّبة. فهل يجب أن نُفاجأ بانزعاج جيمي من المساهمة في ازدياد كسل ذاك الأبله العديم الإحساس؟ وهكذا عند الانتهاء من الكومة الثالثة، لم تعد جيمي تأبه لأمر توفِل. أيّاً يكن، فإنّه بدأ يشعر بالارتياح ويحتسي غالباً جرعته من الويسكي حتّى أنذره القدر الغيور بحرمانه من هذه المواساة.

بضع ساعات مضت والمجموعة منصرفة إلى العمل، إلى أن شاءت الصدفة أن ينتزع توفِل وجيمي كلّ من جهته وفي نفس الوقت عرناسَين من الذرة الحمراء. ولكنْ تجدر الإشارة إلى عادة محترمة مرعيّة في الولايات المتّحدة: حين ينتزع شخصان جديران بالاحترام كجيمي أودوغرتي وجاك توفِل عرناسَي ذرة أحمرَين ويفتصّانها في الوقت نفسه، فهذا يمنح الأقوى بينهما الحقّ في أن يمنح قبلة للآخر، وحتّى، عند لزوم الحال، أن ينتزعها منه[1].

كان توفِل إذَن يمتلك حقّاً مشروعاً كأيّ حقٍّ آخر، ولكنّه كاد يفقده لتهاونه في استخدامه. وفي الواقع كان قد أسقط ساق الذّرة من يده حين هتفت جيمي، الفتاة البارعة، بعد أن تنبّهت إلى أنّه يثير إعجابها، قائلةً بجهلٍ ساذجٍ لما تفعله: عرناسا ذرة أحمران! أحمران! وفي الحال هتفت

---

(1) مشهد العرانيس الحمراء هذا المترافق مع الرهان على القبلة يذكّر بالرقصة مع أدريانا في قصة «سيلفيا».

خمسون حنجرة: عرناسا ذرة أحمرانْ. وانتصب الجميع واقفين وكأنّ صاعقة ضربتهم. وهنا بات مستحيلاً على صاحبنا توفِل ألّا يدرك سبب هذا الانفعال العامّ، وبدا أخيراً متمسّكاً بالحقّ الذي منحته إيّاه الصدفة. ولكنّه كان يتوجّب عليه أيضاً التصدّي لجيش النسوة اللّواتي شكّلن حول جيمي حصاراً من شأنه أن يردع فصيلة من متبجحّي المدينة. ومع ذلك لم يكن توفِل من الرجال الذين تردعهم مناورات تافهة. تقدّم باتّجاه المتآمرات وأمسك بسهولة بكلّ غريماته الواحدة تلو الأخرى رامياً نصف دزينة منهنّ على كومة السنابل إلى يمينه، ونصف دزينة أخرى على الكومة إلى يساره، وشقّ على هذا النّحو الطريق إلى جيمي التي، ويجب التصريح بذلك، قاومته بشجاعة، ولكنّ القلعة الأشدّ منعةً يؤول بها الأمر للاستسلام. وهكذا أذعنت فتاتنا الإيرلنديّة في نهاية المطاف، وتركت توفِل يطبع بهدوءٍ قبلة من شفتيه الغليظتين على شفتيها، علماً أنّه كان باستطاعتها، حسب ما ادّعت بعض المرافقات الغيورات، أن تتحاشى جزئيّاً هذا الاتّصال الرهيب.

بعد ذلك بوقتٍ قصير، ذات مساء من ديسمبر، حدث أن سرج توفِل جواده الرماديّ، وصعد خبباً الطريق المتعرّجة التي ما برحت تقود من توفلسفيل إلى البلد العالي عبر جبال أوهايو.

إنّه لأمرٌ مبهج رؤية المزارع الجميلة التي اجتازها أثناء تجواله على جواده. كانت أكثر الفتيات اللواتي يعشنَ في هذه المساكن غير المتقنة في الظاهر، نضرات ولطيفات وتملك كلّ منهنّ مهراً جيّداً. أكثر من ثغر جميل قال لتوفِل: -توفِل! عجباً ألا تزال تعدو على حصانك إلى هذا الوقت المتأخر؟ ألا تريد الدخول؟ لكنّ توفل لم يبالِ بهنّ إطلاقاً وطفق يتابع

طريقه. كانت هيئة المَزارع تزداد بشاعة باطّراد. وصل توفِل أخيراً إلى قطعة أرض مزروعة بأشجار الكستناء وهناك بدا عليه أنّ صبره أوشك أن ينفد، فهو لم يكن يستطيع البتّة أن يرى هذا النوع من الأشجار دون أن يشعر بانزعاج لأنّه كان يعتبرها بحقّ وكأنّها العلامة الأكثر تأكيداً على جدب الأرض. -ومع ذلك ها أنت تتابع يا توفِل العَدْوَ، ألا تأبه لراحتك؟ لمَ تستسلم لسِحر عينَي تلك العفريتة اللّطيفة ذات الشعر الذهبيّ التي لا يستطيع حتّى الشيطان نفسه أن يسيطر عليها. إنّها تشبه القطّة التي تتقن الخدش والمداعبة، والضحك والبكاء، في آنٍ معاً وبلا هوادة؟ فكّر يا توفِل العزيز بالأمر، وعدْ أدراجك! هل بإمكان الماء والنار، أو الويسكي والشاي، أن يجتمعا؟ وماذا لو أضيفت إلى ذلك حلوى الذرة أيضاً؟... ولكنْ ها إنّ توفِل في آخر حقل الكستناء، لا بل قلْ إنّه أمام منزلٍ... كيف بإمكاننا وصفه؟ يمكن القول إنّه من تلك المنازل التي تبدو وكأنّها ترقى إلى حروب الهنود الحُمر. هزّ توفِل رأسه بحزنٍ. إنّه المنزل البائس للعجوز دايفي أودوغرتي. أمّا هُريُه؟ فغير موجود. وأسيجته؟ يخجل الناظر لرؤيتها. أجل، إنّ مزرعته لوحة حزينة للفنّ الإيرلنديّ. لا حصان فيها ولا محراث. وكلّ ثروة دايفي الزراعيّة تقتصر على قطع أرضٍ صغيرة مزروعة بالذرة والبطاطا.

تريّث توفل طويلاً قبل متابعة سيره، وقد أخذته الحيرة. لكنّ العجوز دايفي كان جالساً بالضبط أمام بابه وقربه زوجته المحترمة بشعرها الأحمر، ونصف دزينة من المسوخ الصغيرة الحمراء الشّعر. وجيمي الوحيدة... سيكون من غير اللائق ألّا نقول عنها إنّها شقراء تماماً، وإنّها كانت زينة هذا الكوخ الحزين وبهجته. كانت تحضّر الشاي وتضع على الطاولة

حلوى الذرة. ذهب توفل ليجلس أمام المدفأة دون أن يفتح فمه أو يحرّك ساكناً، لولا أنّه كألمانيّ انزعج من رائحة الفحم الحجريّ. نهض فجأةً لكي يبحث عن جوّ أنقى، فيما كانت جيمي، بعدما رأته نصف أعمى، تهرب إلى المطبخ مطلقةً ضحكة ساخرة. تردّد توفل لوَهلَة بين البابَين، لكنّه ألفى نفسه اضطراراً أمام النار في المطبخ وكانت من الحطب فراقت له أكثر من النار الأخرى، وما لبثت جيمي أن جلست قربه.

مرّت ربع ساعة، ولم تخطر أيّة فكرة بذيئة أو سواها على بال فارسنا. كلّ ما فعله اقتصر على نقل قبّعته من ركبةٍ لأخرى. وأخيراً حزم أمره ممعناً النظر إلى المرأة الجالسة بجواره، وسألها بالإنكليزيّة عمّا إذا كانت تقبل به زوجاً لها.

- وماذا تريدني أن أفعل بألمانيّ؟ هكذا جاء جواب الإيرلنديّة الماكرة قاسياً قليلاً وهي، بسعيها لتخفيض قيمة السلعة التي تبتغيها، لا تطمح إلّا للفوز بها بسعرٍ رخيص. لكم أن تمعنوا التفكير في الجواب الذي وجّهته مخلوقة صغيرة مثل جيمي إلى رجل مثل توفل يبلغ طوله ستّ أقدام، ويملك ثلاثمائة فدّان من الأرض وجوربَين أزرقين مليئين بالقطع النقديّة.

شعر توفِل بفخرٍ بالغٍ لكنّه نهض مرتبكاً تماماً، أخذ قبّعته متأهّباً للخروج من المطبخ وهو يتنهّد، وحينئذٍ انسلّت الصبيّة الماكرة بينه وبين الباب وأمسكت بيده قائلة:

- وإذا اتّخذتك زوجاً فهل تعدني بأن تكون طيّب الخلق؟

ومنذ ذلك الحين اتّخذ الحوار منحىً أكثر وضوحاً فصافح توفِل يد زوجته المقبلة بقوّة، ثمّ ذهب ليوافي حصانه الرماديّ.

بعد بضعة أيّام، كان الوزير البروتستانيّ غاسبار لدرمول، وهو خيّاط سابق، يبارك زواج جاك توفِل من جيمي أودغرتي. قد يظنّ القارئ أنّ قصّتنا تنتهي عند هذا الحدّ لو أنّنا كنّا نريد أن نترك البطلين بخفّة، ولو أنّنا لم نكن نعرف من جهة أخرى أنّ الزيجات تضاهي بأحداثها قصص الغرام الأشدّ تعقيداً.

2- كيف أخطأت جيمي أودوغرتي بذهابها إلى حفلٍ على ظهر حصانٍ عملاق؟

لم يتمّ جاك توفل عامه الحادي والعشرين حين كان يمضي شهر العسل. وهنا يجدر بنا القول في معرض مدحه إنّه عرف كيف يتمتّع بسعادته باعتداله المعهود. لم نقل إنّه كان مسرفاً. وبالتأكيد، لم تخطر له أيّ فكرة بإدخال زوجته إلى المجتمع الراقي لساراغوتا[1] لأنّ ذلك سيتسبّب بإفراغ الجوربَين الأزرقَين من المال. أمّا السيّدة توفل فلم تكن بالطبع فتاة لئيمة. لكنّها كانت تتميّز بهذا الميل الإيرلنديّ للمشاكسة الذي لم يكن يسمح لها بالارتياح طالما أنّ زوجها لم ينفّذ رغبتها. وباختصارٍ، كانت هي الآمرة في هذه الأسرة، حسب التعبير الإنكليزيّ المهذّب. على أيّة حال كان الزوجان يعيشان سعيدَين. وتوفِل الصغير لم يلبث أن ظهر إلى الوجود، وحينها لم يعد المزارع المحظوظ نادماً على إمساكه بالعرناس الأحمر.

إلّا أنّ أحد الإرساليّين قدمَ آنذاك إلى المستوطنة مدّعياً أنّه يريد إرشاد الناس البسطاء إلى طريق أقصر لبلوغ أبواب السماء. أراد أن يعطي مشروعه الدفع الضروريّ، فتأكّد بادئ ذي بدء من موافقة السّيدات، ثمّ أعلن عن إقامة احتفالٍ. قرّرت السيّدة توفِل، التي ناشدها القسّ المحترم

(1) والأصحّ ساراتوغا Saratoga.

رعاية الحفل، واستجابةً منها لهذا التقدير الذي يرضي غرورها، أن يُعمَّدَ ابنها في هذه المناسبة وأن يحمله والده بنفسه إلى الحفل.

كان كلّ شيء لِحينِه على ما يُرام، ولم يكن توفِل يجد مطعناً في ذلك. إلّا أنّه، وهو يسرج حصانيه، أحسّ بشيء من الانزعاج، واستشعر سوءاً لدى اعتنائه بحصانه الرماديّ الضخم. كانت السيّدة توفِل قد بدأت تظهر حيال هذا الحيوان إيثاراً كبيراً، ما جعلها تعلن أنّها لن تركب مطيّة أخرى سواه. وفي الواقع، تبدو الأحصنة الأخرى لدى مقارنتها بجواد توفِل الضّخم الفحل مجرّد قطط. لكنّ جيمي لم تكن عملاقة، والأحصنة الصغيرة تلائمها أكثر ممّا تلائم زوجها. وكان زوجها، منذ بعض الوقت قد ازداد طموحاً وأخذ يتوق إلى الوظائف العامّة. وها إنّه يتوجّب عليه الذهاب إلى الحفل ممتطياً بذلٍّ إحدى فرَسَيه البليدتَين ومعرّضاً نفسه هكذا لسخرية الناس وتخميناتهم! لدى إخراجه الأحصنة من الإسطبل، رأى زوجته عند عتبة المنزل، وعلى سيمائها هذا القرار الذي لا يلين ولم يعتد الرجل المسكين على مجابهته البتّة. فتركها تصعد على جذع شجرة ليسهل عليها اعتلاء الجواد الرماديّ الأرقط، ثمّ أمسكت لجامه برشاقة وحزم.

ها هي على ظهر ذاك الحيوان الهائل، شبيهة بصبيّ شغِبٍ يتأهّب لامتحانٍ وداعةِ جَمَلٍ صبور. كان توفِل يرنو إليها فاغراً فاه ثابت النظرات.

قال لها بعد صراعٍ طويلٍ مع نفسه:

- عزيزتي! أتوسّل إليك، خذي الحصان الصغير ودَعي لي الحصان الأكبر.

فهتفت هذه التي كانت نصفه الآخر قائلةً:

- توفِل، من المؤكّد أنّك لست من الجنون بحيث تفكّر في هذا الأمر في

هذه اللّحظة تحديداً.

- بلى، بلى أنا من الجنون بما يكفي لأفكّر في ذلك، وإذا أخذت هذا العجْل الإيرلنديّ فسأبدو في الوقت نفسه راكباً ومترجّلاً.

فاجأت كلماته ونظراته السيّدة المحترمة لأنّها كانت تؤكّد نوعاً من التمرّد على سلطتها. وأحسّت أنّ نفوذها كلّه كان منوطاً بالقرار الذي تتّخذه في هذه اللحظة الحاسمة. وعلى هذا، وجّهت إلى حصانها ضربة سوط فقفز بها بوثبتين خارج الباحة.

لم يملكِ توفِل من أمره إلّا الركوب على فرَسه البليدة، متنهّداً ومتمتماً بعضاً من العبارات في لغته التي لا تُفهم: «عليك اللّعنة! خسئت!» وشتائم ألمانيّة أخرى يقدر عند الحاجة على إخفاء معناها. وفجأةً، قطعت عليه مناجاته صرخة منطلقة من أعلى الجبل. ألقى توفل نظرة من حوله، ثمّ نظر إلى الأعالي لكنه لم يلمح شيئاً، ولم يسمع شيئاً، ومع ذلك فإنّ الصوت الذي اخترق أذنيه كان صوت زوجته الحادّ الرنّان. ذاك أمر أكيد. كانت قد سبقته في العدو بضع مئاتٍ من الخطوات ثمّ حجبتها عن نظره تعرّجات الطريق عبر الجبال. لا شكّ أنّ الحصان الرماديّ رماها على الأرض، فكّر الفتى المخلص. وما كادت هذه الفكرة تعبر خاطره حتّى رأى حصانه الأثير ينحدر من الجبل واثباً بأقصى سرعته. فتولّى توفِل الرّعب، وترجّل للحال من فرسه البليدة ليركض باتّجاه الجواد الجامح الذي ما إن تعرّف على سيّده حتّى أبطأ سيره لينزع عنه صاحبُه سرج جيمي. اعتلى توفِل وابنه ظهر الجواد وهرَع مرخياً العنان له نحو أعلى الجبل لنجدة زوجته التي لم يكن رجال آخرون سواه ليهتموا لأمرِها بعد الطريقة التي تصرّفت بها. لكنّ توفل كان ألمانيّاً شريفاً. سارع بكلّ ما أوتي من قوّة للوصول إلى

المكان المشؤوم الذي يُفترض أنّها سقطت فيه. مرّة أخرى سمع صراخاً، لكن لم يكن ذلك صوتها المعهود، بل كان بالأحرى صرخة استغاثة. تجدّدت هذه الصرخة. تصبّب من توفِل العرَق البارد، وجعل جواده يعدو بأقصى سرعته صوب الناحية التي بدا له أنّ صوت زوجته آتٍ منها، لكنّه لم يجد أثراً لها: نظر يمْنَة ويَسرة ثمّ أرضاً فلاحظ أخيراً والأسى يعتصر قلبه آثار أقدام رجال وإلى جانبها أثر قدَمَي زوجته. أتى رجال إلى هنا، هذا بديهيّ. ولكنّ التكهّن عن مصير زوجته في منتهى الصّعوبة. راحت الآثار تضمحلّ شَيئاً فَشَيئاً في الغابة. تفحّصها من جديد، وتعرّف باندهال على الآثار العريضة لموكاسّانات[1] الهنود الحمر. حين نظر من جديد إلى الغابة لمح شيئاً رماديّاً داكناً: كانت تلك ريشة نسر. لم يعد هناك من شكّ، جيمي التعيسة باغتها الهنود الحمر وخطفوها.

كان توفِل يحبّ زوجته بصدق. ومع ذلك فإنّه لم يغب عن الوعي ولم تستطع كلّ قوّة حبّه أن تنتزع منه دمعة واحدة. وبدل أن يضيّع وقته في انتحابٍ عقيم، أخذ يعدو بأقصى سرعته لِيُوافي الحفل، وأبلغ جيرانه أنّ الهنود الحمر باغتوا زوجته وخطفوها فيما كانت متّجهة إلى الحفل، مضيفاً أنّه يجب أن يستعيدها مهما يكن الثمن، وأنّهم إذا كانوا فعلاً جيراناً صالحين، وإذا أرادوا أن يكونوا رجالاً أحراراً، فعليهم أن يُسارعوا فوراً مقتفين بمعيّته آثار الهنود الحمر، ويستردّوا جيمي. كان هؤلاء الذين يتحدّث إليهم من أهل المروءة، وهكذا ما انقضت ساعات قليلة حتّى ألفى توفِل نفسه على رأس خمسين شابّاً ممسكين بنادقهم بيَدٍ وبألجمة أحصنتهم بيَدٍ أخرى، متوعّدين بالانتقام الرهيب لاختطاف هيلينا الجديدة[2].

(1) موكاسان: حذاء هنود أميركا الشماليّة الحُمر، حذاء واطئ بلا سيور.

(2) تلميح لاختطاف هيلينا (هيلانة) التي تسبّبت بِحَرب طروادة في «إلياذة» هوميروس.

لم يكن نادراً في مثل تلك الأيّام أن يضطرّ مستوطنو الولايات المتّحدة لمطاردة الهنود الحمر لسببٍ مماثل. ولكنْ، فيما توفِل ومرافقوه الشجعان منهمكون بتتبّع آثار الهنود الحمر الذين اختطفوا جيمي بارنهنتر، لنذهب امتثالاً منّا للعادات الفروسيّة الحقّة للقاء سيّدتنا مقدّمين لها المساعدة والعون.

وهكذا فإنّ جيمي، جيمي العنيدة، أرادت، وحيدة، أن تتقدّم زوجها بضع مئات الخطوات كما سبق لنا أن قلنا. لقد فعلت ما لا يجدر بامرأة متعقّلة أن تفعله إطلاقاً. كان يجب عليها أن تبقى بجانب زوجها، ذاك الزوج الطيّب الذي كانَه توفِل بِلا منازع، وخصوصاً في أزمنة خطيرة كهذه حين كان المتوحّشون يجولون بصفتهم محاربين متطوّعين في أرجاء دولة أوهايو متقدّمين إلى عمق بيتسبُرغ، علماً أنّه، في ذلك العهد تحديداً، كانت الولايات المتّحدة تخوض ضدّهم حرباً دامِية. لا شكّ أنّ صراخ جيمي بلغ عنان السماء، ولكن بعد فوات الأوان. ثمّ إنّ الهنود الحمر قد رأوا من الدنيا العجب، ولن تثنيهم مثل هذه الصرخات عن ترك فريسة بهذه الأهميّة. صعد أحدهم على الحصان الرماديّ وأنزل الجميلة ثمّ أردفها خلفه، فيما أرغمها آخر على إحاطة الفارس بذراعيها، وانتشل ثالث، وقد رأى استعدادها للمقاومة، سكّيناً كبيرة من حزامه، وسلّطها على عنقها الطويل، فامتثلت المخلوقة المسكينة لمصيرها ولم تعد تفكّر إلّا بمحاذرة السقوط عن الحصان خلال الرحلة الطويلة التي أعقبت ذلك.

إلّا أنّها لم تستطع الامتناع عن الهتاف أحياناً: «الحصان الكبير! الحصان الكبير!» لكنّ مظهرها المتواضع والحازم معاً كان يوحي لخاطفيها ببعض

الاحترام وخصوصاً لتوماهاوك، رئيسهم الذي، بوصوله إلى ميامي[1]، وهي المقرّ العامّ للهنود الحمر، وضعها تحت رعاية والدته مانحاً إيّاها لقب سيّدة الشرف. لا شكّ أنّ هذا المنصب لم يكن ليُزدرى لو أنّ ابن الأميرة الأمّ كان يملك شيئاً يستحقّ العناء. لكنّ ملك الشّاوني[2]، الأخ الأكبر لتوماهاوك، لم يبسط ملكه إلّا على بضع مئات آلاف الأمتار المربّعة من الحقول المزروعة. وكان رعاياه متوحّشين لم تصلهم الحضارة بعد، ولم تكن لديهم أيّة فكرة، لقلّة ذكائهم، عن الحقّ المقدّس لحاكمهم، أي أنّهم كانوا يرفضون العمل من أجله، قائلين إنّ الروح العظيمة وهبته، أسوةً بهم، ذراعين تسمحان له بالعمل.

سيتفهّم أحبّتنا القرّاء أنّه وسط حشدٍ من الناس لا يتحلّون بأيّ شيء من التعقّل لم يكن بإمكان السيّدة توفِل أن تستبشر خيراً، على الرغم من المكانة المشرّفة التي كانت تحتلّها. في الواقع، أدركت فعلاً أنّ البكاء والنحيب لا يمكنهما إلّا أن يزيدا وضعها سوءاً، وأنّه من الأفضل لها تقبّل الأمر بشجاعة، والسّعي لأن تكون مفيدة. وهكذا، ففي صباح اليوم التالي أمسكت بالقِدْر التي وُضعَتْ فيها الطريدة وراحت تحضّر بنفسها طعام الهنود الحمر، وعلى وجهها لمحة سخرية بادية للعيان. وما لبث هؤلاء الهنود الحمر أن جلسوا من حولها شابكين سيقانهم. هتف الحاكم: «أوه! ما هذه الأكلة؟» لم يتناول في حياته مثل هذا الإفطار الدّسم اللّذيذ. ابتسمت الأميرة الأمّ بظرف وأشارت بيدها إلى سيّدة الشرف التي مُنحت، على سبيل المكافأة، ضلعاً. كانت جيمي تجلس بوقارٍ وإباء

---

(1) ميامي: مدينة في أوهايو.

(2) قبيلة هنديّة في أميركا الشماليّة.

كما لو أنّها كانت تعتلي الحصان الكبير. بعد فترة قصيرة، قام المتوحّشون برحلة جديدة عادوا منها بعد خمسة عشر يوماً محمّلين بالغنائم من كلّ نوع: فساتين نساء، وسترات قصيرة، وقبّعات، ومشدّات، إلخ... خزانة كاملة كانت من نصيب توماهاوك. في اليوم التالي كان يرتدي فستاناً من الكتان والصوف أحمر اللّون، ويعتمر قبّعة من الحرير الأخضر، واستحسن أن يضع فوقها قلنسوة امرأة ولود. والزعيم نفسه ظهر في ثوب قصير طفوليّ مع سترة قصيرة حمراء فاقعة، ومبذل من زمن لويس الخامس عشر. ما كادت جيمي ترمق أسيادها بهيئاتهم الغريبة حتّى أشارت إلى زوجات الهنود الحمر لكي يلحقنها إلى الغابة التي كانت مليئة بنباتات الكتّان البريّ. أمرتهنّ بأن يقطفن منها كميّة ويحملنها إلى المخيّم. وبعدئذٍ أرغمتهنّ على تحضير الكتّان للنسيج وعلّمتهنّ الطريقة. وبظرف أسابيع قليلة استبدلت فساتين النساء على أجساد الخاطفين بملابس صيدٍ مزيّنة بأشرطة من الحرير والكليكوت[1]. وبعد خمسة عشر يوماً، قام الرجال بحملة جديدة قُتل خلالها الزعيم وجُرِحَ شقيقه توماهاوك. وعلى غرار الرعايا الآخرين الأوفياء، التزمت جيمي بالحداد، وبَلسَمَت جراح الناجي من الموت. وحين استعاد الزعيم الشابّ عافيته، قدّمت له لباساً جديداً خاطته له أثناء مرضه. كانت تفنّنت في صنعه، بحسب رأي الهنديّ الأحمر، بحيث إنّه بدءاً من تلك اللحظة، أصبح معجباً بها وغدا فارسها الوفيّ. وحين، في اليوم التالي، ارتدى لباسَه الجديد، ألفى نفسه مندهشاً ومنشرحاً لدرجة أنّه للمرّة الأولى وضع جانباً عادات الاحترام تلك التي التزم بها حيال السيّدة

(1) كليكوت: قماش قطني خشن.

توفل، والتي منَعَته لغاية ذلك اليومِ من التصريح علانيّة بالعاطفة التي كان يشعر بها حيالها، وتوجّه للقيام بزيارة لها. حينئذٍ كان المخيّم كلّه في هيجان. أُصيبت الهنديّات الحمراوات بالقنوط. أدركنَ أنّ الحاكم الجديد لم يرتدِ على شرفهنّ هذا اللباس البرّاق، وأنّ اهتمامه يذهب إلى الأميركيّة الفخور التي، حسب رأيهنّ، لم تكن تستطيع أن تقاوم سحر هذا اللّباس الباذخ. وبالفعل، لا لندن ولا باريس ولا نيويورك تستطيع أن تدّعي أنّها رأت على أحد سكّانها فيضاً من اللّواحق المترفة كتلك التي راق لتوماهاوك في ذلك النهار أن يتزيّا بها كرمى لعيني إحدى نساء رعيّته الوفيّات. والحال أنّه بقي هوَ نفسه ثلاث ساعات شابكاً ساقيه، ناظراً والمرآة في يده، بإعجاب وبعينين تبرقان فرحاً، إلى مفاتنه التي لا تقاوم. كانت شذرات فضيّة عريضة تزيّن أنفه بإتقان وتدلّى منه أيضاً دولار إسبانيّ، ودولاران آخران من كلّ من أذنيه. وقد جاء الهنديَّ الأحمرَ إلهام خلّاق، فعلّق أيضاً إلى شفته السفلى قطعة نقديّة سادسة. كان شعره مشبوكاً بإبَرِ قنافذ كثيرة، ومن أعلى رأسه تدلّت بمهابة ثلاثة أذناب جواميس. أمّا عنقه فزيّنه بعقدٍ يحوي ما لا يقلّ عن خمسين سنّ تمساح وحوله التفّ عقد أصغر من لآلئ بلّوْريّة كبيرة، وتلك غنيمة كسبها خلال معركة مع التشيكاساو[1]. ولم يهمل أيضاً اعتناءه بلباس الأقسام السفليّة من جسده: كانت ساقاه حتّى العرقوبين محاطتين بدوائر صغيرة من النحاس والصفيح التي تخشخش بصخب عند كلّ خطوة يقوم بها. وتكلّلت أناقته بقبّعة إنكليزيّة مثلّثة الزوايا. واثقاً من اكتمال هندامه اقترب من مسكن السيّدة الأمّ، ثمّ رفع ساقيه عالياً ودار حول

(1) تشيكاساو: قبيلة هنديّة في أمريكا الشماليّة من سلالة موسكوغي.

البيت مرّتين وهو يرقص مستمتعاً بالموسيقى التي كان يُحدثها بزينته. وحين وصل أمام الباب، ألقى نظرة أخيرة على مرآته الصغيرة ناظراً إلى نفسه من أعلى الرأس حتّى أخمص القدمين، ثمّ دخل...

لسوء الحظّ ليس لدينا معلومات إطلاقاً عمّا آلت إليه كلّ هذه الجهود والزينات المختارة بذوقٍ رفيع. كلّ ما عُلم هو أنّ طالب يد المرأة الرّفيع الشأن كان أقلّ رضىً لدى مغادرته مسكن والدته ممّا كان لدى دخوله. تضيف الحوليّات أنّه ابتداءً من تلك اللحظة، أصبح لجيمي على الحاكم الهنديّ الأحمر سطوَة لا حدود لها كتلك التي كانت قد مارستها من قبل على توفِل. ويبدو أنّها لم تتوانَ عن استخدامها، وذلك عبر أساليب بارعة ولا سيّما أنّه توجّب عليها الصمود أمام إغواءات جديّة، ولكنّ وثيقتنا تقول أيضاً إنّها قاوَمَت ببطولة. كيف كان بإمكانها في الواقع أن تتصرّف بطريقة أخرى، هي التي كان تفكيرها مشدوداً إلى هدفٍ آخر؟ نعم كان نظرها محدّقاً باستمرار إلى الشمس الغاربة، إلى هذا الجزء من العالم حيث كان يعيش زوجها العزيز توفِل. طيلة خمس سنوات كاملة، تحمّلت أسرها بشجاعة وحزم بطوليّين، إيرلنديّين حقّاً. ولكنّ شعورها بمرارة وضعها كان يزداد في كلّ يوم. خلال السنة الأولى، كانت حياتها الجديدة تبقيها في حيويّة وتأهّب. كما أنّ غريزة البقاء شكّلت حافزاً لها. خلال السنوات التالية، شعرت بأنّ اهتمام عاشقها الهنديّ الأحمر المتيّم بها يرضي غرورها. ولكنّ السعي إلى إغواء متوحّش لم يكن، بعد كلّ أمر، إلّا تبديداً حزيناً للوقت، ولا يمكنه أن يدوم إلى الأبد. وهكذا فإنّ الرغبة الجارفة في أن ترى مجدّداً موطن ذكرياتها كانت تتنامى على مرّ الوقت. خلال السنة الأولى كان التفكير في الهرب يعدّ تصرّفاً جنونيّاً، إذ راقبوها في الصيف

بتيقّظ شديد وكأنّ لهم أعين أرغوس[1]. كانت براعتها في كلّ شيء تجعلها شخصاً لا يستغنى عنه في نظر المتوحّشين. كذلك فكرة الهرب خلال الشتاء لم تكن قابلة للتنفيذ. فأين بإمكانها أن تجد طعاماً تقتاته ومكاناً ترتاح فيه؟ لقد استغرقت رحلتها حتّى مخيّم المتوحّشين خمسة وعشرين يوماً: لا بدّ أنّها إذَن على مسافة هائلة البعد من منزلها، وإذا ساء حظّها واكتُشف أمرها فإنّ مصيرها سيَكون مرعباً.

3- كيف عادت جيمي إلى منزل جاك توفِل؟

وأخيراً، عند انتهاء الصيف الخامس بعد اختطافها، أتت الفرصة الملائمة التي كانت جيمي تنتظرها بحرارة. ذهب الرجال للصّيد في الخريف برفقة النساء. ولم يتبقّ في المخيم إلّا الأطفال والعجائز. طيلة خمس سنوات تظاهرت جيمي بارتضاء وضعها، واستطاعت بذلك كسب ثقة الهنود الحمر فانحسر تنبهُّهم. وعلمت أنّه، بسبب من تزايد السكان، بسطت المستوطنة حدودها، ما جعلها على مسافةٍ أقرب من مخيّم المتوحّشين. كانت جيمي تأمل إذَن أن تلتقي بأبناء بلدها إن لم يكن في نهاية الأسبوع الأوّل فعلى الأقل في نهاية الأسبوع الثاني. قرّرت الهرب وبادرت على الفور إلى تنفيذ خطّتها. ملأت كيساً بالطعام وكان هذا كلّ ما أخذته معها. كان يتوجّب عليها اجتياز أربعمائة ميل من ميامي الكبرى حتّى منطقة أوهايو العليا. لكنّ شجاعتها كانت على قدر صعوبة خطّتها. كانت تحبّ توفِل، وصارت تحبّه أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ذاك الفتى الذي كان في منتهى الطيبة، والصبر، والحكمة. وقد امتُحنت شجاعتها فعلاً في

(1) أرغوس: عملاق ميثولوجيّ بمائة عيْن.

مستنقعات فرانكلين، وتعرّضت لخطر الغرق في نهر سيوتو. وتسكّعت لعدّة أيّام في الخلوات التي تفصل كولومبوس، عاصمة دولة أوهايو، عن نيولانكاستر، وهناك جازفت بأن تلتهمها الدّببة والفهود، لكنّها خرجت سليمة من المستنقعات، والأنهار، والأمكنة المقفرة. خلال الأيّام الخمسة الأولى، اقتاتت من مؤونتها من لحم الطريدة المدخّن، ثمّ أكلت البابايا، والكستناء، والعنب البريّ. وبعد عشرة أيّام من المشقّات والجهود المضنية، وجدت للمرّة الأولى ملجأ آمناً في بيتٍ خشبيّ. آنذاك لم تفارقها أيضاً روحها الإيرلنديّة الجامحة، وقاربت سكّان تخوم الغابات بهيئة واثقة مشرقة كما لو أنّها كانت تتقدّم قبيلة الشاوني، وسألتهم طعاماً فنظروا إليها مندهشين، كما يمكن أن نتوقّع، لكنّهم أعطوها ما كان متوافراً. ومنذ ذلك الحين لم يعد أمام جيمي الطيّبة إلّا أن تسير بمحاذاة ضفاف أوهايو. ولم تلبث أن رأت المرتفعات الساحرة التي كانت تحجب بيتها تنبثق من الأبخرة الزرقاء التي كانت تغمرها. وأسرعت الخطى، ها قد وصلت عند النجود المتقدّمة. لِلْمَرَّةِ الأُولى أخذ قلبها يخفق بسرعة أكبر. للحظةٍ استوقفتها ذكرى الحصان الضخم لكنّها استأنفت سيرها الحثيث واندفعت تسير في تعرّجات النجد المليئة بالأشجار. ها إنّ نهر أوهايو الرائع أمامها يتبع مجراه في تفرّعين كبيرين، ثمّ مياه الأليغاني الصافية مثل نبع ينبجس من صخرة. ثمّ أخيراً، وقريباً منها مياه مونونغهالا العكرة والمزبدة، أشبه بزوج متذمّر قُيّدَت إليه زوجة مندفعة وطيّعة في آنٍ معاً. ها قد وصلت إلى التلّة الأخيرة ومن هناك تستطيع أن تتأمّل كلّ أمكنتها: ها هو الوادي الرائع، الأكثر خصوبة في البطاح، المطوّق بنتوءات الجبال. ها هو الهُري الحجريّ، والسطح والشبابيك الملتمعة بطلاءٍ حديث العهد.

وهناك يساراً، البستان القديم، ثمّ يميناً البستان الحديث العهد الذي ساهمت في زرعه والذي كانت أشجاره تنوء تحت ثقل ثمارها. كانت تنظر وكأنّها لا تصدّق ما تراه، فراحت تمعن النظر أيضاً وأيضاً... لا لم يكن هذا وهْماً، رأت توفِل العزيز يخرج لتوّه من المنزل، وخلفه صبيّ صغير أشقر يتشبّث بذيل ثوبه بكلّ قوّته. نعم كان هذا فعلاً توفِل في سرواله الجلديّ وجوربيه الأزرقين المزيّنين بحواشٍ حمراء، وحذائه ذي الحلقات الضخمة. لم تستطع الصمود أكثر فانحدرت بخطوات واثقة من النجد، وبعد أن اجتازت المَبْقلة بسرعة، أصبحت فجأة أمام توفِل.

- لتمجّدِ الأرواحُ الصالحة كلّها الربّ!

قال زوجها هاتفاً، من جرّاء القلق الذي تملّكه، بالعبارة التي درج الألمان الشرفاء على استخدامها منذ العهود الغابرة لتعزيم الأشباح والساحرات والأرواح الشريرة.

وفي الواقع لن يحقّ لنا كثيراً أن نلوم توفِل إذا خيّل إليه في مثل هذه اللحظة أنّه في «بلوكسبرغ»[1]. بعد خمس سنوات من الغياب والعيش بين المتوحّشين الساكنين على ضفاف نهر الميامي الكبير، أضف إلى ذلك الرحلة المرعبة التي قامت بها لتوّها، كلّ ذلك لم يُعنْ جيمي كثيراً في إبراز مفاتنها ولا في جعل هندامها من الأناقة التي تضفي سحراً ما. حتّى توفل، وهو من بين الرجال جميعهم الأقلّ اهتماماً بالموضة، لم يكد يصدّق أنّ ما يراه أمامه هو جيمي، التي كانت ملكة الذوق في كلّ شيء. كان ظهورها غير المتوقّع يشيع على شخصها، الهزيل قليلاً، شيئاً ما خرافيّاً. لذا نعيد القول

(1) بلوكسبرغ Blocksberg: جبل يجتمع فيه السّحرة في بعض ليالي السبت من أجل ممارسة شعائر وطقوس تكرّس لتبجيل الشيطان وخدمته.

إنّنا لسنا مندهشين إطلاقاً من اضطراب ذهن توفِل المفاجئ ومن تذكّره «بلوكسبورغ» الذي روى له والده المرحوم عنه أشياء كثيرة. وجيمي، على ما يبدو، لم تكن راضية كثيراً عن دهشته وتعجّبه، ولا عن ارتعاده وقالت له باللّهجة الأعذبِ التي تسنّى لها أن تتحدّث بها:

- عجباً! ماذا دهاك يا توفِل، هل فقدت عقلك؟ ألم تعد تعرفني؟ أنا عزيزتك جيمي!

جحظ توفِل إليها بصره، وشيئاً فشيئاً تعرّف إلى الأنف الأقنى، والنظرة البرّاقة التي كانت تقذف، كعادتها، الشرارات الملتمعة جرأةً، ولم يستطع، إزاء هذه العلامات، أن يشكّ بما يراه: فهتف بلهجته الألمانيّة الأعذب:

- يا إلهي! يا غاليتي!

وانحدرت من مقلتيه دمعتان على طول خدّيه، ثمّ قبّل جيمي بِلهفة.

كانت السّعادة تغمر جيمي فعلاً لرؤيتها توفِل بهذا المزاج الرائق. ولكنّ الزائد أخو الناقص، كما يقول المثل. بدا لجيمي أنّ توفل كان يبالغ في أمارات الحنوّ، فبدأت تفقد صبرها وتتمنّى رؤية ابنها، وأيضاً معرفة كيف تسير أمور المنزل. صرّحت بهذه الرغبة المزدوجة، ثمّ تملّصت من ذراعي زوجها واتّجهت نحو الباب، فأمسكها توفِل من ثوبها وانتصب أمامها مانِعاً إيّاها من الدخول.

قال لها:

- يا حبيبتي، تريّثي قليلاً حتّى أخبرك...

- تخبرني بماذا؟ قالت بنَفادِ صبر. ماذا يمكن أن يكون لديك لتقوله. أرغب في رؤية ابني وكيف تسير شؤون المنزل. آمل أن يكون كلّ شيء منظّماً...

حدجت توفِل المسكين بنظرات متحرّية إذ لم يكن يبدو إطلاقاً أنّه على ما يرام.

استأنف قائلاً:

- يا حبيبتي، يا زوجتي! اصبري قليلاً فقط!

فأجابت:

- لا أريد أن أصبر. لماذا لا تريدني أن أدخل إلى المنزل؟ وإذ قالت هذه الكلمات، اقتربت من الباب. كان توفِل محرجاً إلى أقصى حدّ، فقطع عليها الطريق مجدّداً ممسكاً بيديها الاثنتين.

فهتفت وقد فوجئت بهذا التصرّف الذي بدا لها في منتهى الغرابة:

- توقّف! بالله عليك، وبحقّ كلّ سلطة! أميل للاعتقاد بأنّه لا شيء منتظم هنا وأنّك لست مرتاحاً لرؤيتي. فأجاب الفتى الطيّب:

- لست مرتاحاً لرؤيتك! ماذا تقولين! يا حبيبة قلبي! أجل، أجل ستكونين زوجتي مجدّداً.

فكرّرت قائلة:

- سأكون زوجتك مجدّداً! ماذا تقول! وتصاعد الشّرر من عينيها، والتوى أنفها الصغير غضباً. ثمّ أعادت القول بصوتٍ خفيض: أن أكون زوجته مجدّداً! وتملّصت من يديه بقوّة، ثمّ صعدت الدرج بلمحة برق مندفعة نحو الباب ثمّ فتحت المزلاج فرأت ماري لينتال، أجمل شقراء في المستوطنة كلّها وغريمتها فيما مضى، تتأرجح بخفّة في الكنبة. رأت أمامها الغاصبة السعيدة لحقوقها الزوجيّة.

4- ماذا جرى لجاك توفِل وزوجتيه؟

يجب امتلاك ريشة قادرة على النفاذ إلى عمق المشاعر لوصف عوارض الأهواء المختلفة التي كانت ترتسم بحدّة على وجه بطلتنا: كان الازدراء والغضب المسعور والرغبة في الانتقام أقلّ ما يمكن التحدّث عنه. كانت عيناها تقدحان بالشّرر بحيث أضاء شرار غضبها المتوهّج أرجاء الغرفة، إذا أردنا ان نستعين بجملة يستخدمها اليانكيز(1). شدّت على قبضتيها بطريقة متشنّجة، وصرّت على أسنانها مستعدّة للانقضاض على عدوّتها أشبه بالهرّة التي ترى مملكتها محتلّة من قبَل العدوّ الألدّ لعرقها. وكان الأمر سيصبح أكثر ضرراً لملامح ماري لينتال الجميلة لا سيّما وأنّ السيّدة توفِل لم تقصّ أظافرها منذ شهرٍ كامل.

وإذ رأى توفِل هذه الاستعدادات المرعبة لحقَ بجيمي مرتاعاً وارتمى بطوله بين القوّتين المتحاربتين لكنّه لم يكن واثقاً بعدُ من أنّ وساطته ستكون فعّالة كما كان يرتجي. وعندئذٍ فُتح الباب فجأةً ودخل توفِل الصغير مصحوباً بعصابة من ثمرة زواجٍ آخر. خمس سنوات مرّت وجيمي لم تحمل ابنها الصّغير بين ذراعيها. نسيت عدوّتها وارتمت على ابنها تقبّله. ارتعب الصبيّ الصّغير وأخذ يصرخ بصوتٍ عالٍ، وهرَعَ إلى خالته. مكثت جيمي التعسة جامدة في مكانها. فارقها الغضب المسعور، وأيضاً الرغبة في الانتقام، واخترق قلبَها ألم لا يوصف. اتّجهت نحو الباب ثمّ أمسكت المزلاج وهي ترتجف حتّى كادت تقع أرضاً. كانت المرأة التعسة تكابد عذاباً مبرّحاً في تلك اللحظة. باتت غريبة عن ابنها، وغريبة عن بيتها، وغريبة عن العالم أجمع. ومع ذلك عادت وتماسكت من جديد،

(1) اليانكيز Yankees سكّان الولايات المتّحدة.

لأنّ أنفساً مثلها لا تُهزم بسهولة.

سألت باختصار:

- كيف حال والدي؟

- توفّي، أجاب توفِل.

- ووالدتي؟

وكان الجواب أيضاً:

- توفّيت.

- وإخوتي وأخواتي؟

- تشتّتوا في هذا العالم.

قالت مغمغمة:

- وهكذا فقدتهم كلّهم!

فقال توفِل بصوته الأرقّ:

- انتظرتُ، انتظرتُ سنة كاملة عودتك وأنا أسأل عن أخبارك في الصحف كلّها، الألمانيّة منها والإنكليزيّة. ثمّ أضاف متردّداً: «وبما أنّك لم تعودي، وإذ ظننتك متِّ، فقد تزوّجت ماري».

- إذَن احتفظ بها.

أجابت جيمي بنبرة حازمة مرافقةً هذه الكلمات بنظرة ترتسم فيها الكراهية الأشدّ. ثمّ اندفعت مرّة أخرى نحو ابنها. أمسكته وقبّلته بحرارة، ثمّ فتحت الباب...

وهتف توفِل بصوتٍ كان يشي بما عانى وقاسى:

- توقّفي! توقّفي! حبّاً بالله!

صحيحٌ القول إنّه كان يحبّها بصدق وإنّه لم يألُ جهداً للعثور عليها.

كانوا قد جالوا البلاد على مسافة عشرين فرسخاً. والإعلانات في الجرائد كلّفته أيضاً الكثير من الدولارات. لسوء الحظّ جابوا على وجهٍ أخصّ القسم الشرقيّ من البلاد، فيما كانت جيمي تقوم بدور سيّدة الشرف في الجزء الغربيّ منها. ولِسوء الحظّ أيضاً، بعد سنة من غيابها، ألقى القسّ المحترم غاسبار عظة تناول فيها ذلك النصّ الرائع حيث ورد: «إن التزوّج خيرٌ من التحرّق[1]». وقد قالها أيضاً بفصاحة عالية في لغة توفِل الألمانيّة. لذا ظنّ توفِل أنّه يتصرّف كبروتستانتيّ صالح حين اتّخذ له زوجة طيّبة وجميلة وإن كانت تنقصها روح المعاكسة تلك والتيه والظرف والأقوال اللاذعة التي كانت تشحذ فيما مضى طبعه المتهاون في الوقت المناسب.

هكذا كان وضع توفِل العزيز: زوج لديه امرأتان ويبدو أنّه يتأرجح بينهما بقوّة. أيحتفظ بهما كليهما كما فعل أبونا لامك[2]، وأيّ مظهر سيكون عليه؟ وأخيراً هتف قائلاً:

- لنذهب إلى مالك الأرض والدكتور غاسبار[3]. لنذهب ونسمع ماذا تقول شريعة البشر وشريعة الله.

وإذ قال توفِل ذلك، تصرّف بصفَته ألمانيّاً طيّباً ومتفانياً يؤثر عدم اتّخاذ موقف من تلقاء نفسه، ويلقي كلّ مسؤوليّة وضعه على السلطة الدينيّة والبشريّة.

ارتعشت جيمي. كانت كلمة «شريعة» وما يتبعها من «محاكمة» يتردّد

(1) من رسالة القدّيس بولس الأولى إلى أهل كورنتس وقد جاء فيها: «أقول للمتزوّجين والأرامل أنّه حسن لهم أن يبقوا على هذه الحال كما أنا. فإن لم يتعفّفوا فليتزوّجوا فإنّ التزوّج خير من التحرّق».

(2) لامك في سفر التكوين: «متوشائيل ولَدَ لامك واتّخذ لامك له امرأتين اسم إحداهما عادة والأخرى صلة».

(3) في النصّ الألمانيّ الأصليّ: القسّ غاسبار.

صداها في رأسها بشكلٍ مزعج، وكانت في حيرةٍ من أمرها عندما ظهرت من جديد غريمتها بعدما انسحبت إلى الغرفة المجاورة، ثمّ عادت وهي تحمل في ذراعيها الجوربَين الثقيلَين المليئين بدولارات العائلة.

قالت لجيمي بصوتٍ عذبٍ:

- خذيها، خذيها. جيريمياس هارتورن لا يزال صغيراً. اسعدي بحياتك يا جيمي الطيّبة.

كان هنالك في نبرة صوتها وعرضها الصادق شيء مؤثّر. وكان أيّ قلبٍ آخر غير قلب المرأة الإيرلنديّة سيَلين. لكنّ منظر المرأة السعيدة بدا وكأنّه يُؤجّج من جديدٍ غضب جيمي. رمَقَت ماري بنظرةٍ تشي بأشدّ أمارات الاحتقار. اقتربت من توفِل وصافحته على سبيل الوداع ثمّ خرجت بسرعة من الغرفة.

هتفت ماري:

- اركض يا توفِل العزيز، اركض بكلّ ما أوتيت من قوّة. اركض حبّاً بالله! بإمكانها أن تؤذي نفسها!

مكث توفِل جامداً، مجرّداً من الشعور إن أمكن القول. لكأنّ كلّ شيءٍ كان يبدو له حلماً. أعاده صوت زوجته إلى الواقع مجدّداً. وأخذ يركض بكلّ قواه خلف الهاربة التعسة، لكنّها كانت قد تخطّته بأشواط، فضاعف من سرعة خطواته الكبيرة، وأوشك على اللّحاق بها. عندئذٍ التفتت وأمرَته بأن يعود إلى منزله من جديد. تفوّهت بهذا الأمر بنبرةٍ شديدة الحزم حتّى أنّ توفِل، الذي درج على الانصياع لرغباتها امتثل لها سالكاً من جديدٍ طريق منزله رويداً. وبعد أن قام ببضع خطوات توقّف مع ذلك وشيّع بنظراتٍ شاخصةٍ المشية السريعة لجيمي إلى أن اختفت متوغّلة في أعماق

النجد. عندئذٍ هزّ رأسه وفكّر... بماذا؟ هذا ما لا نقدر على التكهّن به.

كانت جيمي تتابع رحلتها إلى أعلى الجبل أشبه بغزالةٍ جفلة. ها قد وصلت مجدّداً إلى هذه الربوة المشؤومة حيث تلقّت سعادتها على هذه الأرض، بسبب من خطئها بالذات، يجدر بنا القول، طعنة في الصميم. هناك كان بيتها الذي كان يحتضن توفِل الأب وتوفِل الابن. هناك كانت ترعى بقراتها وعجلاتها ونصف دزينة من أضخم الأحصنة التي تسنّى لها رؤيتها. أفَيُعقل أن تتخلّى آنئذٍ عن كلّ ما لها! أبكتها هذه الفكرة بكاءً مرّاً. لم يعد لديها لا عائلة وربّما لا أصدقاء. ماذا سيقولون عن جيمي التي فُقِدت منذ وقتٍ طويلٍ جدّاً، جيمي الهنديّة الحمراء السّكواو[1]؟ وشيئاً فشيئاً هدأ روعها، وبدا أنّ فكرة جديدة أخذت تعتمل في رأسها، وأنّ هذا القرار كان يترسّخ مع مرور كلّ ثانية. وأخيراً، وكأنّها تريد أن تستبعد أيّ تغيير محتمل لرأيها، انتصبت فجأةً بحزمٍ ثمّ أطلقت ساقيها للرّيح باتّجاه الغابة متوغّلة فيها قدُماً.

5- حيث يتمّ التثبّت من أنّ عرناسَي الذرة الأحمرين كانا مع ذلك فألاً سيّئاً

نحو العام 1826 بدأت جيمي رحلتها الطويلة من جديد لكي تعود إلى هؤلاء الذين سبق لها أن هربت منهم. استعادت الشجاعة نفسها التي لا تُقهر لكي تقارب المستوطنين المستقرّين في القسم الشماليّ الغربي المتقدّم من الولايات المتّحدة (دولة أوهايو الحاليّة). سألتهم أن يستضيفوها دون أن تستجدي عطفاً زائداً. عندما تجاوزت المساكن الأخيرة، لجأت إلى ثمار البابايا والعنب والكستناء البريّ، وأنهت على هذا النّحو رحلتها البالغة

(1) هنا خطأ من نرفال لأنّه يجعل من «السّكواو» squaw التي تعني زوجة الهنديّ الأحمر اسم قبيلة.

أربعمائة ميل حتّى منابع نهر ميامي الكبير حيث، بعد شهرين من هربها، ظهرت في المخيّم بقليل من الاضطراب والخشية كما لو أنّها كانت عائدة من زيارة صباحيّة.

لم يسبق للمقرّ العامّ للسّكواو[1] أن دوّى بصرخات الحبور العالية هذه إلّا حين دخلت جيمي إلى كوخ والدة توماهاوك. كان كلّ سكّان أكواخ الهنود الحمر في هيجانٍ واضطراب. لم يعد بإمكان الفرحة أن تتّسع لتوماهاوك. كان معجبها الوفيّ لمدّة خمس سنوات كاملة، وهذا لم يكن بالشيء القليل بالنسبة لمتوحّش، وخلال كلّ هذا الوقت، لم يبدر منه أدنى تصرّف جسورٍ معها. لم يكن تأثيرها على هذا الشّعب الصغير يُستهان به. كانت معلّمة النساء، وخيّاطة الرجال وطبّاختهم، والقيّمة على الجميع، وإذا لم يعد الرجال يشبهون السعالي[2]، فهذا بفضل جهدها. كان توماهاوك يقفز ويرقص فرحاً ويهتف قائلاً: «الرجال البيض، ليسوا جيّدين! الرّجال الحمر جيّدون». ووالدته وجميع الرجال انضمّوا إلى فورات الفرح هذه.

ومع ذلك، وبالرّغم من القرار الحازم الذي اتّخذته جيمي، لم يكن حذرها يسمح لها بأن تمكّن المتوحّشَ العاشقَ من نفسها. لا بل إنّها فكّرت طويلاً قبل أن تسمح له بأن يعلّل النفس بأدنى أملٍ. طيلة عشرين يوماً، بقيت منزوية بالقرب من والدة توماهاوك. وخلال هذا الوقت لم يستطع رؤيتها إلّا مرّتين. وأخيراً وعند صبيحة اليوم الحادي والعشرين، استُدعي لدى مالكة قلبه. ذهب إليها مرتدياً زيّاً أغرَب ممّا ارتداه عند الزيارة الأولى، وعبّر لها من جديد عن أمنياته متلعثماً. استمعت إليه جيمي بجديّة قاضي

---

(1) يرتكب نرفال الهفوة نفسها والقبيلة هي الشّاوني shawnee في النصّ الأصليّ.

(2) مفردها سِعلى وسِعْلاة: قرد الأوران أوتان الذي يُسمّى أيضاً إنسان الغاب لأنّ وجهه تبدو عليه بعض التعابير الخاصّة بالإنسان.

استدعاء. وحين أنهى كلامه، دلّته بصَمتٍ على الطاولة حيث بسطت بذلة أميركيّة كاملة. عاد توماهاوك إلى كوخه وهو يطلق صيحات الابتهاج، وبعد نصف ساعة ظهر أمام معشوقته فبدا رجلاً آخر. وفي الحقيقة لم يكن مظهره بهذا السوء. كان فتىً حسن التكوين ممشوق القوام -لم يكن توفِل شيئاً بالمقارنة معه- أضف إلى ذلك أنّه كان زعيم عدّة مئات من العائلات، ولم يكن بالإمكان أن ترى فيه عريساً غير لائق. عندئذٍ رغبت فعلاً في أن تمدّ يد العون له: لأنّ الأمر كان متعلّقاً بتجربةٍ أخرى. جيء بحصانين وفقَ أوامر السيّدة الأمّ ووُضعا أمام الباب. أمرَت جيمي توماهاوك بسرجهما فانصاع للحال بصمت. امتطت أحدهما وهيَ تشير له بأن يفعل بالمثل، وأن يتبعها. كان الزعيم المتوحّش قد فوجئ وراح ينظر إليها شاخصاً لكنّه تبع مع ذلك معشوقته التي كانت تغادر أكواخ الهنود الحمر وتتّجه في مسيرها إلى الجنوب. لعدّة مرّات جازف بأن يسألها عن وجهتهما. لكنّها أجابته بإشارة من يدها تدلّه إلى البعيد. فكان يتبعها صامتاً. كان السلام قد حلّ من جديد بين الهنود الحمر والمستوطنين خلال فترة أسر جيمي، والرحلة الأخيرة التي قامت بها جيمي كانت مفيدة لها من ناحية ما. لقد علمت أنّ مستوطنة أميركيّة أُنشئت باتّجاه الجنوب على بعد أربعين ميلاً تقريباً من منابع ميامي وإلى هذه المستوطنة كانت تتّجه في تلك اللّحظة.

ما إن وصلت حتّى استعلمت عن قاضي الصلح. لم يُفاجأ مالك الأرض كثيراً حين رأى فجأةً امرأة شابّة جميلة تدخل إلى منزله (كانت جيمي قد استعادت إشراقتها خلال فترة الراحة التي خلدت إليها والتي استغرقت عشرين يوماً) برفقة شابّ جميل متوحّش في زيّ رجلٍ محترم. وفي الواقع، لم تسمح له جيمي البتّة بالاستسلام لدهشته، لكنّها التفتت

إلى مرافقها وقالت له بصراحة:

- توماهاوك! خلال السنوات الخمس لتعارفنا، رأيتك تقدّم دلائل كثيرة على حسّك السليم، ما يحدوني عن حقّ لأجعل منك زوجاً وقد صمّمت على الاقتران بك.

لم يكن توماهاوك يعرف ما إذا كان في يقظة أو في حلم، وكذلك كان مالك الأرض، ولكنّ الطلب القاطع الذي وجّهته إليه جيمي بأن يزوّجها هي جيمي أودوغرتي لتوماهاوك، زعيم شعب السّكواو، مقروناً بالدولارات العشرة الملتمعة، بدّد جميع شكوك قاضي الصلح، فجمع أيديهما متفوّها أمامهما بالعبارة المتعلّقة بالزواج. أُنجزت المهمّة، ولم يكن المتوحّش المسكين يفهم شيئاً عن معنى هذا الاحتفال، ولكن حين أمسكت جيمي بيده وأعلمته أنّها باتت زوجته وبات هو زوجها، أخذته الدهشة.

وفي اليوم التالي، عاد توماهاوك وزوجته إلى ديارهما ومع عودتهما بدأ شهر العسل للعريسَين الجديدَين. بيدَ أنّ السيّدة توماهاوك ما كادت تستقرّ في مسكنها الجديد حتّى تبيّن لها أنّ هذا الكوخ البائس كان ضيّقاً جدّاً عليهما هما الاثنين، وقذراً علاوَة على ذلك. وفي الواقع كان هذا الكوخ أقرب إلى وجار دبّ منه إلى مسكنٍ بشريّ. كان لدى توماهاوك وأتباعه أشجار يجب قطعها، وهذا العمل لم يكن أبناء عشيرة توماهاوك ينصاعون إليه إلّا لقاءَ بدلِ أتعابٍ متمثّلٍ في زجاجات ويسكي. كانت جيمي قد اشترتها من مركز المستوطنة. من جهة أخرى، كانت قد استدعت بعضاً من مواطنيها، ليعاونوها في بناء منزلها الجديد. في الواقع، كان توماهاوك يقفز حين توجّب عليه لمدّة خمسة عشر يوماً استعمالِ الفأس. لم يكن يقفز فرَحاً بل غضباً ولكن لا القفز ولا الغضب استطاعا أن يفيداه بشيء:

وجبَ عليه تنفيذ الأوامر. وفي ظرف أربعة أسابيع ألفى نفسه ينام في مسكنٍ مريح كمسكن توفِل. وعندئذٍ استراح توماهاوك لمدّة أربعة أسابيع كاملة. لكنّ الرّبيع كان يعلن بشائره، والحقل المخصّص لزراعة القمح كان بالطّبع صغيراً جدّاً ومجرّداً من السّياج فوق ذلك. وكانت الأحصنة، وكذلك الخنازير، تأتي إليه لتلتهم الأماليد الفتيّة قبل نضوج السنابل بوقتٍ طويل. لا يمكن للأشياء أن تبقى على هذه الحال، وتوجّب إذَن على النّصف الآخر المتوحّش للسيّدة توماهاوك أن يقطع أيضاً بضعة آلافٍ من الأشجار ويصنع منها سياجاً لتسوير نصف دزينة منَ الحقول. بعد أن أُنجز هذا العمل، حصل توماهاوك أيضاً على بضعة أسابيع من الرّاحة. يبقى أنّ الهنود الحمر، ومنذ العصور الغابرة، برعوا في سلخ جلود الثعالب والأيول والقنادس والدّببة. كان توماهاوك صيّاداً ماهراً ذائع الصّيت، لكنّه كان يقايض عائد بضعة أسابيع من الصّيد ببضعة غالونات من الويسكي. وعلى غرار الكثيرين من أبناء جلدته، كانت نقطة ضعفه اللذّة التي يوفّرها له احتساء جرعة لا بل جرعات كثيرة من الويسكي حين تتسنّى له الفرصة. ولكنّه كان يهاب زوجته ما دفعه إلى إخفاء زجاجات الكحول ببراعة في جوف الأشجار. لكنّ السيّدة توماهاوك ما لبثت أن اكتشفت الحيلة، ولكي تضع توماهاوك بمنأى عن الغواية قرّرت أن تجلب لاحقاً كلّ الجلود إلى المخيّم وتضعها تحت تصرّفها. ومنذ ذلك الحين أخذت تُعنى بتجارة الجلود. وبعد وقتٍ قصير، كانت بضع بقراتٍ ترعى على ضفاف نهر ميامي، وتذوّق توماهاوك للمرّة الأولى القهوة والحلوى المصنوعة من طحين الذرة. لكنّ الأمور كانت تسير من سيّئ إلى أسوأ. عندما أبصَرَ ولدهما النور، جاءت الهنديّات الحمراوات العجوزات لزيارة

جيمي، وأيديهنّ مليئة بالسّماد وبشحم الدببة، وذلك للاحتفال بانتساب زعيم العشيرة الجديد إلى الجماعة الدينيّة والسياسيّة. لكنّ جيمي قطّبت جبينها لدى مرآهنّ وحين أدركت أنّ هذا غير كافٍ، أمسكت صولجانها بحزم، أي مكنسة كبيرة، فلاذ الشبّان والعجائز بأذيال الفرار وقد ظنّوا أنّ روحاً شرّيرة تطاردهم. وعندما استعادت عافيتها بعد الولادة، أمرَت توماهاوك أيضاً بتجهيز حصانين.

هذه المرّة أيضاً كانت وجهة رحلتهم إلى المستوطنة، لكنّهم لم يقتربوا من بيت قاضي الصلح بل من بيت الكاهن. دخل توماهاوك إلى البيت بكلّ هدوء. ولكنّه حين رأى الكاهن يسكب الماء على ابنه نفد صبره، وتولّاه غضب شديد ووصف السيّدة توماهاوك بأنّها جنيّة وروح شرّيرة، و«طبيبة» (وهذه كلمة خطيرة في قاموس الهنود الحمر). ودون أن تنبس بكلمة، قطّبت جيمي حاجبيها وشمخت بأنفها، وجرى تعميد توماهاوك الصغير أسوَة بالأولاد المسيحيّين.

إن الرحّالة الذي تقوده طريقه ناحية الشمال، عبر الأرض البراح الواقعة بين كولومبوس ودايتون سوف يلاحظ في أسفل منابع ميامي ولصقها مسكناً كبيراً مبنيّاً من الروافد، تحيط به الأهراءات والحظائر، وقربه حقول رائعة من الذرة ومروج ترعى فيها بقرات بديعات وأحصنة وأمهار، هذا بالإضافة إلى بساتين مليئة بالأشجار المثمرة. حول المنزل، ترَون نصف دزينة من الفتيان والفتيات بسحناتهم الحمراء يمرحون ويرتدون ثياباً وكأنّهم خارجون من مخازن «ستابس» في فيلادلفيا. يوم الأحد، يقرأون الكتاب المقدّس أو يسرجون أحصنتهم ليذهبوا برفقة السيّدة توماهاوك إلى الكنيسة. يقرأون الصّحف ويشرحونها لزعيم القبيلة الذي اندمج تماماً

مع عيشته الجديدة متسائلاً بفخرٍ ما إذا كان سيجعل أولاده البكر أطباء أو محامين. مرّتين في السّنة تذهب السيّدة توماهاوك إلى سينسيناتي على عربة من ستة أحصنة، محمّلة بالزبدة وسكر القيقب والطحين والثمار مشكّلة موكباً فخماً أشبه بموكب حاكم. اثنان من أولادها على الأحصنة هما دائماً بمثابة منذرَين. وهي قد أصبحت مصدر هلعٍ لكلّ مفتّشي الأسواق وصارت مثال الحكمة والمرأة الأثيرة لدى كلّ النّساء... والرّجال أيضاً.

(مقتبسة عن الألمانيّة.)

أوكتافيا

(إضاءة: نُشرت قصّة «أوكتافيا» لأوّل مرّة في 17 ديسمبر 1853 في مجلّة» Le Mousquetaire التي كان يرأس تحريرها الكاتب ألكساندر دوما بعد أسبوعٍ من مقالته التي كتبها عن جنون نرفال. كانت القصّة قد كُتبت في 22 أكتوبر السّابق. أوكتافيا هي أكثر قصص نرفال تشابهاً في ثيماتها مع مجموعته الشعريّة «الأوهام» وخصوصاً مع قصائده «المحروم» و«ميرتو» و«دلفيكا»، و«أرتميس». لا شكّ أنّ قصّة «أوكتافيا» تتمحور حول رسالة الحبّ واليأس هذه التي تذكر ليلة أُمضيت في نابولي مع امرأة تشبه المرأة المخاطبة في الرسالة، فكأنّها قرينها الخياليّ، ومحاولة انتحار من أعالي تلّة البوزيلّيبو. في هذه القصّة أعاد نرفال كما في «سيلفيا» تركيب ذكريات رحلتَيه إلى نابولي، ليس في ربيع 1835 ولا في العام 1832 بل في خريف 1834 وفي نوفمبر 1843، ووظّف النواة البيوغرافية لثنائيّ الفتاة الإنكليزيّة والأب المعاق، ولكنّ السائحَين الإنكليزيَّين يتّخذان في هذه القصّة بعداً آخر مختلفاً. الصبيّة الإنكليزيّة التي تذكّر بحكايته «ملكة الأسماك» -تجدها في هذا الكتاب- بصيدها العجائبيّ تصبح «فتاة المياه» ثمّ إحدى بتّيات اللّهب حين تنصاع للعبة الراوي الذي جعلها تؤدّي دور الإلهة إيزيس، وذلك عبر خدعة تستبق المحاولة الاستعاديّة لطقوس إيزيس في القصّة التالية. إنّ سيناريو «أوكتافيا» لا يسعه إلّا أن يذكّر بسيناريو «سيلفيا»، ففي الحالتين يكون الراوي في مركز مثلّث نسائيّ: الممثّلة التي يهرب من حبّها

المشؤوم، والفتاة الشابّة التي تمثّل فرصة حبّ حقيقيّة (سيلفيا- أوكتافيا) وأيقونة حبّ مثاليّ لا يُطال (أدريانا- إيزيس). وفي كلّ مرّة يجانب الراوي السّعادة عندما يريد أن يوائم الواقع بالمثال، عندما يجعل سيلفيا تلعب دور أدريانا، وأوكتافيا دور إيزيس، فيفقد المثال والواقع معاً. وهكذا فإنّ أوكتافيا تضاف إلى لائحة الصّبوات الضائعة.[1]

كان ذلك في ربيع العام 1835[2]، حين تملّكتني رغبة عارمة في زيارة إيطاليّا. كلّ يوم، لدى نهوضي كنت أستنشق مسبقاً الرائحة القويّة لأشجار كستناء الألب. عند المساء، كان شلّال تيرني، والمنبع المزبد لنهر تيفيرون[3] يتدفّقان من أجلي وحدي بين قائمتين متداعيتين لكواليس مسرح صغير... تناهى إلى أذنيّ صوت بعذوبة أصوات النّداهات، هامساً وكأنّ قصب ترازيمينو قد اتّخذ فجأة صوتاً... توجّب عليّ الرحيل تاركاً في باريس حبّاً جريحاً كنت أرغب في الهرب منه عبر تزجية الوقت. بداية توقّفت في مرسيليا. كلّ صباح كنت أذهب للاستحمام في البحر في شاتوفير[4]،

---

(1) المترجمة، تلخيصاً عن شروح نشرة «فوليو كلاسيك» لهذا الكتاب، وضعها برتران مارشال.

(2) في مجلّة *Le Mousquetaire*، كانت القصّة تبدأ على هذا النّحو: «كان ذلك في العام 1832، حين تملّكتني رغبة عارمة...». المنطق شبه الأوتوبيوغرافيّ (السّيريّ الذاتيّ) لنرفال يعدّل في هذه القصّة أيضاً ذكريات عن إيطاليّا ويعيد تركيبها، وهي لا ترقى لا إلى 1832 ولا إلى ربيع 1835 بل إلى سبتمبر 1834، لا بل تتشابك أيضاً مع ذكريات الزيارة الثانية إليها (نوفمبر 1834).

(3) شلّال تيرني Terni، الذي ذُكر سابقاً في «سيلفيا» (الفصل الثامن)، والمياه المزبدة للتيفيرون Tévérone، رافد من نهر التيبر، وكذلك قصب بحيرة ترازيمينو Trasimeno، كلّ هذا يهيّئ لانبثاق أوكتافيا «ابنة المياه». بعد نداء الفالوا، هو ذا نداء إيطاليّا الذي يأتي ليختطف الراوي من عالم المسرح وأوهام الحبّ.

(4) شاتوفير Château-Vert: بلدة فرنسيّة تقع في منطقة البروفانس الخضراء La Provence verte في محافظة فار Var في منطقة بروفانس آلب كوت دازور Provence–Alpes Côte d'Azur.

وكنت ألمح في البعيد، أثناء السباحة، جزر الخليج الزاهية. وكلّ يوم أيضاً كنت ألتقي في الجون اللازوردي بفتاة إنكليزيّة شابّة تشقّ بجسدها الهزيل المياه المخضوضرة قربي. فتاة الماء هذه كانت تُدعى أوكتافيا وقد جاءت ذات يوم إليّ تتباهى بصيدٍ غريبٍ قامت به. أعطتني سمكة كانت تمسكها في يديها البيضاوين[1].

لم أستطع الامتناع عن الابتسام لمثل هذه الهديّة. ومع ذلك فإنّ الكوليرا كانت منتشرة عندئذٍ في المدينة، ولكي أتجنّب المحاجر الصحيّة قرّرت أن أسلك طريق البرّ. زرت نيس وجنوى، وفلورنسا. وأعجبت بالقبّة[2]، وبيت العماد، وتحف ميكال أنجلو الفنيّة، والبرج المائل والكامبو سانتو في بيزا[3]. ثمّ سالكاً طريق سبوليتو[4]، توقّفت لعشرة أيّام في روما. بدت لي قبّة كنيسة القديس بطرس والفاتيكان والكوليزيه أشبه بحُلم. سارعتُ لاستقلال عربة إلى تشيفيتافيكيا[5] حيث كان عليّ الإبحار من هناك. لمدّة ثلاثة أيّام، أعاق البحر الهائج وصول المركب البخاريّ. على هذا الشاطئ الموحش كنت أتنزّه شارد الذهن، وأوشكت ذات يوم أن تلتهمني الكلاب. عشيّة رحيلي، كان يُعرَض في المسرح فودفيل فرنسيّ. استرعت انتباهي امرأة شقراء مفعمة بالحيويّة[6]. هي نفسها الشابّة الإنكليزيّة التي

(1) ابنة المياه هذه، «حوريّة» جديدة تعيد إحياء «ملكة الأسماك» (في قصّة «سيلفيا»).

(2) القبّة ويقصد قبة كاتدرائيّة فلورنسا (Duomo)، وبيت العماد في فلورنسا.

(3) الكامبو سانتو Campo Santo: المقبرة الشهيرة في بيزا التي جُلب ترابها من الجلجلة في ضواحي القدس.

(4) سبوليتو Spoleto: مدينة عريقة في شرقي إقليم أومبريا الإيطاليّ ضمن مقاطعة بيروجا Perugia.

(5) تشيفيتافيكيا Civita-Vecchia: مدينة إيطاليّة في مقاطعة روما ضمن إقليم لاتسيو، سبق ذكرها.

(6) المشهد يذكّر بقصيدة «دلفيكا» «Delfica» في مجموعة نرفال الشعريّة «الأوهام».

كانت تجلس في مقصورة أماميّة بصحبة والدها الذي بدا معاقاً، وقد أوصاه الأطبّاء بمناخ نابولي.

في صباح اليوم التالي، كنت أستلم فرحاً بطاقة العبور. وكانت الصبيّة الإنكليزيّة تعبر الجسر بخطواتٍ كبيرة. وإذ نفد صبرها من بطء السفينة راحت تغرز أسنانها العاجيّة في قشرة ليمونة حامضة. قلت لها: - أيّتها الفتاة المسكينة، لا بدّ أنّك تعانين من مرضٍ في الصّدر، أنا أكيد، ولا يجدر بك أن تفعلي هذا. حدجتني بنظرات ثابتة وقالت لي:

- مَن أعلمك أنت بذلك؟

قلت لها دون ارتباك: عرّافة تيبور[1] قالت لي: كيف؟ لا أصدّق كلمة واحدة ممّا تقوله.

قالت لي ذلك وهي تنظر إليّ بحنان، ولم أستطع الامتناع عن تقبيل يدها. قالت: «لو كنتُ أكثر قوّة لعلّمتك مغبّة الكذب!»... وراحت تضحك وهي تهدّدني بخيزرانة ذات مقبضٍ ذهبيّ كانت تمسكها بيدها.

بلغ مركبنا مرفأ نابولي، وعبرنا الخليج بين إيسكيا ونيسيدا المغمورتين بأنوار الشرق الساطعة[2]. استأنفت قائلة: إذا كنت تحبّني فاذهب لانتظاري غداً في بورتيشي[3]. لا أضرب لأيٍّ كان مثل هذه المواعيد.

---

(1) عرّافة تيبور Tibur (الاسم القديم لتيفولي Tivoli) هي إحدى العرّافات الإيطاليّات إلى جانب عرّافة كوما Cuma (مستوطنة إغريقيّة قديمة تقع إلى الشمال الغربيّ من مدينة نابولي الإيطاليّة ومقر العرّافة الكومانيّة) والعرّافات الإغريقيّات والشرقيّات.

(2) هذا مستعاد أيضاً من قصيدة «ميرتو» «Myrto» في مجموعة «الأوهام» لنرفال. إيسكيا Ischia ونيسيدا Nisida: جزيرتان في خليج نابولي.

(3) بورتيشي Portici: مدينة في جنوبيّ شرقيّ نابولي وبجانبها يوجد موقع هيركولانيوم الذي خلّدته أوبرا المؤلّف الموسيقي أوبير Auber: «خرساء بورتيشي 1828» *La Muette de Portici*.

ونزلَتْ في ساحة موليه[1] ورافقَتْ والدها إلى فندق روما[2] المبنيّ حديثاً على الرّصيف. أمّا أنا فذهبت لأقيم خلف مسرح فيورنتيني[3]. قضيت نهاري وأنا أجول في شارع طليطلة، وساحة موليه، ومتحف الدّراسات[4]. ثمّ ذهبت مساء لأشاهد الباليه في سان كارلو. وهناك التقيت غارغالّو[5] الذي تعرّفت إليه في باريس واصطحبني بعد العرض لأحتسي الشاي عند أخواته.

أبداً لن أنسى السّهرة اللّذيذة التي أعقبت ذلك اللقاء. كانت المركيزة تستقبل حسب الأصول في صالون واسع مليء بالأجانب. كان الحوار أقرب قليلاً إلى حوار «المتحذلقات»[6]. خلتني في الغرفة الزرقاء لفندق

(1) ساحة موليه Môle المطلّة على المرفأ، والأكثر انبساطاً من الساحة الحاليّة piazza del Muncipio كانت مقرّاً لأكثريّة المسارح النابّوليّة (إيل فوندو Il Fondo، لا فينيشه La Fenice، إلخ.) كانت ساحة موليه في نابولي تمثّل ما كانته جادّة تانمبل Temple فيما مضى في باريس: «أذكر أنّني منذ عشر سنوات وجدت ساحة موليه في نابولي شبيهة تماماً بجادّتنا تانمبل ما عدا الطابع الخاصّ للبلاد. كانت تحوي أيضاً عدداً من المسارح بالإضافة إلى المقاهي والكاباريهات».

(2) فندق روما كان في الرقم 5 من شارع سانت لويس الذي كان يحاذي عندئذٍ شاطئ البحر بين المرفأ وقصر دلوفو، أقدم قصور نابولي Castel dell'Ovo قبل أن تقذفه أعمال الردم إلى عمق الأراضي.

(3) مسرح فيورنتيني Il Teatro dei Fiorentini: أقدم مسارح نابولي.

(4) متحف الدراسات: حالياً المتحف الأركيولوجيّ الوطنيّ لنابولي، الذي غذّته أعمال التنقيب في هيركولانيوم وبومبيي. قبل أن يتحوّل إلى متحفٍ عام 1777، كان هذا القصر قد احتضن جامعة وهذا أصل اسمه. شارع طليطلة Via Toledo، وهو شارع رئيسيّ تجاريّ كبير يجتاز المدينة من الشمال إلى الجنوب ويصل متحف الدراسات بسان كارلو San Carlo، مسرح نابولي الغنائيّ الكبير.

(5) أثبتت الناقدة ماريليا ماركيتّي Marilia Marchetti في كتابها «المتخيّل النرفاليّ» *L'Imaginaire nervalien* أنّ الأمر يتعلّق بفرانشيسكو غارغالّو Francesco Gargallo وليس بوالده توماز و غارغالّو Tommaso Cargallo.

(6) «المتحذلقات» Les Précieuses تسيمة كانت تُطلق على مجموعة من أديبات صالونات =

رامبوييه. كانت أخوات المركيزة، الجميلات مثل إلهات الحسن، يعدن إليّ صورة اليونان القديمة[1]. دار النقاش طويلاً حول شكل صخرة إيلوسيس[2]، وتطرّقت الأسئلة إلى شكلها، ما إذا كان مثلّثاً أو مربّعاً. كان بإمكان الماركيزة أن تبتّ في الأمر بكلّ ثقة لأنّها كانت جميلة ومزهوّة مثل فيستا[3]. خرجت من القصر ورأسي مترنّح من جرّاء هذا النقاش الفلسفيّ. لم أستطع الاهتداء إلى مسكني. ولفرط ما تسكّعت في المدينة، كان لا بدّ أن أكون أخيراً بطل مغامرة ما. اللّقاء الذي قمت به في تلك الليلة كان محور الرسالة التالية التي وجّهتها لاحقاً إلى تلك التي ظننت أنّني ابتعدت عن باريس هرباً من حبّها المحتوم:

= القرن السّابع عشر، التي كانت تنعقد خصوصاً في فندق رامبوييه **L'hôtel de Rambouillet** (ومن هنا ذكر نرفال للفندق وغرفته الزرقاء الشهيرة). لم تكن الصفة قدحيّة في البداية، بل تشير إلى أناقة لغة هؤلاء الأديبات وإلى ظرفهنّ، ثمّ صارت محمّلة بدلالة سلبيّة بالمقارنة مع بساطة الأدب الشعبيّ ومعالجته مشاكل أكثر واقعيّة. ومع أنّ موليير سخر من هذه الصّالونات في مسرحيّته «المتحذلقات المضحكات» *Les Précieuses ridicules* فلا يمكن نكران دورها في نشأة الرواية الفرنسيّة.

(1) راجع الرسالة إلى أبيه في ديسمبر 1843: «العائلة غارغالّو استقبلتني بطريقة وديّة للغاية. وجدت هناك علماء لا بل وعالمات لأنّ الأخوات الثلاث يعرفن اللاتينيّة. كان صالوناً يذكّر بصالونات لويس الثالث عشر حيث على الأقلّ بإمكاننا تجنّب تفاهات الأحاديث في أيّامنا هذه».

(2) إلفسينا Elefsina أو إيلوسيس Élusis مدينة يونانيّة تقع في جنوب وسط البلاد ضمن منطقة أتيكا الإداريّة. نمت في المدينة قديماً طقوس عبادة ديميتير (إلهة الطبيعة والنبات عند الإغريق، وأخت هاديس ملك العالم السفليّ) وطقوس إيلوسيس السريّة التي ارتبطت بأسطورة ديميتير وابنتها برسيفون، وتمثّل فكرة الموت والانبعاث. ومن ضمن طقوس إيلوسيس، الصخرة التي سمّيت «الصخرة الحزينة»، وهي تلك التي استلقت عليها ديميتير بعد اختطاف ابنتها برسيفون على يد هاديس.

(3) فيستا Vesta: إلهة النار الرومانيّة وكانت كلّ من كاهناتها العذارى تُسمّى Vestale (فيستاليّة). وفي رسالة بعثها نرفال في 24 أكتوبر 1854 إلى أنطوني ديشان Anthony des Champs، طالب لنفسه بلقب «Vestal» (فستاليّ).

«أنا في قلقٍ شديدٍ. منذ أربعة أيّام لم أركِ، أو أنّني لا أراك إلّا برفقة الجميع. أستشعر شؤماً. أظنّ أنّك كنت صادقة معي، أمّا أن تكوني قد تغيّرت منذ بضعة أيّام فهذا ما أجهله وما أخشاه. يا إلهي! رأفة بشكوكي، وإلّا لَجلبتِ لنا الشقاء. أتعرفين، ربّما كنت أنا المخطىء على الدوام. كنت خجولاً ومتفانياً أكثر ممّا يفترض برجلٍ أن يكونه. وأحطت حبّي بالكثير من التحفّظ. وحاذرت كثيراً أن أؤذيك، أنت التي سبق أن أنزلتِ بي ذات مرّة عقاباً شديداً بحيث بتّ أغالي في رهافتي، وربّما خيّل إليك إذذاك أن حبّي اعتراه البرود. حسناً، احترمت يوماً مهمّاً بالنسبة لك، وتداركت انفعالات تدمّر النفس، ولبست قناعاً متبسماً أنا الذي كان قلبي لاهثاً مضطرماً. لم يكن لدى الآخرين مثل هذه المراعاة ولكنّ أحداً ربّما لم يبرهن مثلي عن هذه العاطفة الصادقة، ولم يقدّر فعلاً كلّ ما تساوينه.

«لنتحدّث بصراحة: أعرف أنّ هناك روابط لا تستطيع امرأة فصم عراها إلّا بمشقّة، وأنّ هناك علاقات مربكة لا يمكن قطعها إلّا تدريجاً. أتراني سألتك تضحياتٍ غالية لهذا الحدّ؟ أخبريني عن شجونك وسأتفهّمها. وعن مخاوفك ونزواتك، ومقتضيات مهنتك. لا شيء من هذا يمكنه أن يبدّد العاطفة الهائلة التي أكنّها لك، ولا أن يعكّر صفو حبّي. لكنّنا سوف نرى معاً ما يمكن القبول به أو التصدّي له، وإذا كان هناك عُقَد يجب قطعها قطعاً وليس فكّها، فاعتمدي عليّ في هذا الأمر. الافتقار إلى الصراحة في هذه اللحظة سيكون مهلكاً. لأنّني، سبق أن قلت لك إنّ حياتي ليست منوطَة إلّا برغبتك، وأنت تعرفين جيّداً أنّ رغبتي الكبرى لا يمكن أن تكون إلّا الموت من أجلك!

«الموت، يا إلهي! لماذا هذه الفكرة تعود إليّ في كلّ مناسبة وكأنّ لا شيء

إلّا موتي يمكنه أن يكون معادلاً للسعادة التي تعدينني بها؟ الموت! هذه الكلمة لا تشيع مع ذلك أيّ شيء قاتم في فكري. تبدو لي متوّجة بأزهارٍ شاحبة، كما عند انتهاء مأدبة. حلمت أحياناً أنّ المنيّة كانت تنتظرني متبسّمة قرب سرير امرأةٍ معبودة، بعد النشوة، والانخطاف، وأنّها كانت تقول لي:

- هيّا أيّها الشاب! نلت حصّتك من السعادة في هذا العالم. والآن تعالَ نمْ، تعال استرح بين ذراعيّ. لست جميلة، أنا، ولكنّي طيّبة ومنقذة، لا أمنح اللذّة بل السكينة الأبديّة.

«ولكن أين تراءت لي مثل هذه الصورة؟ آه! سبق وقلت لك، كان هذا في نابولي منذ ثلاث سنوات. كنت التقيت، ليلاً، قرب فيلا ريالي[1]، بامرأة شابّة تشبهك. كانت دمثة الطبع رضيّة، وكانت تصنع مطرّزات ذهبيّة لتزيين الكنائس. بدت تائهة الفكر، فاصطحبتها إلى منزلها مع أنّها حدّثتني عن عشيق لها في الحرس السويسريّ[2]، وكانت ترتجف خوفاً من مجيئه. ومع ذلك لم يصعب عليها الاعتراف بأنّني كنت أعجبها أكثر... ماذا بإمكاني أن أقول لك؟ راقني أن أتناسى كلّ شي لمساءٍ كاملٍ وأن أتخيّل أنّ هذه المرأة، التي كنت أفهم لغتها بمشقّة، هي أنت، وقد انحدرتْ إليّ بفعل سحرٍ ما. ولماذا قد أخفي عنك كلّ هذه المغامرة والوهم الغريب الذي ارتضته نفسي دون عناء، خاصّةً بعد بضع كؤوس من «دموع المسيح»[3] الفوّارة التي سُكبت لي خلال العشاء؟ كانت الغرفة حيث دخلت

(1) فيلّا ريالي Villa-Reale التي نجدها في قصّة «كوريّا» هي الحديقة العامّة الكبيرة في نابولي على شاطئ البحر بين مرفأ سانتا لوتشيا وتلّة البوزيلّيبو.

(2) الحرس السويسريّ (فرّق بينه وبين الجيش النظاميّ السويسريّ) كان يضمّ جنوداً مرتزقة يعيرون خدماتهم لبلاطات ملكية أوروبيّة عديدة. وآخر فرقة منهم هي هذه التي تعمل في حراسة الفاتيكان وأمن البابا. هم شبيهون بالإنكشاريّة في العهد العثمانيّ.

(3) «دموع المسيح»: Lacrima–Cristi، خمرة شهيرة بيضاء من منحدرات فيزوف بإيطاليّا.

موسومة بطابع روحانيّ. ربّما كان هذا صدفة أو بفضل الاختيار الخاصّ لمحتوياتها. على صوانٍ بالقرب من سرير مزيّن بستائر من السّيرج[1] الأخضر كان هناك عذراء سوداء مكسوّة بزينة بهرجيّة قديمة، وكانت صاحبة النزل مكلّفة بتجديدها. على مسافة أبعد بدت صورة للقدّيسة روزالي ورأسها مكلّل بالورود البنفسجية[2]، حارسة لمهد طفل نائم. كانت الجدران المطليّة بالكلس مزيّنة بلوحات قديمة للعناصر الأربعة تمثّل آلهة ميثولوجيّة. إلى ذلك تضاف فوضى محبّبة من الأقمشة اللامعة والأزهار الاصطناعيّة والأواني الأترورية[3]، والمرايا المحاطة بزخارف برّاقة تعكس بحيويّةٍ شرارة المصباح النحاسيّ الوحيد، وعلى الطاولة بحثٌ في العِرافة والأحلام أوحى لي بأنّ مرافقتي ربّما كانت ساحرة أو على الأقلّ غجريّة.

«كان هناك سيّدة عجوز ذات ملامح مهيبة تروح وتجيء وتخدمنا. أعتقد أنّها كانت أمّها! وأنا كنت مستغرقاً في أفكاري لا أنبس بكلمة، ولم أتوقّف عن النظر إلى تلك التي كانت تذكّرني بك كثيراً.

«كانت تلك المرأة تردّد طيلة الوقت: هل أنت حزين؟ وأقول لها: - لا تتكلّمي، فأنا لا أكاد أستطيع أن أفهمك. فاللّغة الإيطاليّة يرهقني الاستماع إليها والنطق بها. - آه قالت لي أعرف أن أتحدّث بلغةٍ أخرى». وتكلّمت فجأةً بلغةٍ لم أسمعها من قبل. كانت مزيجاً من ألفاظٍ رنّانة، حلْقيّة، وتغريدات مفعمة سحراً، لغة بدائيّة ولا شكّ، عبريّة أو سريانيّة،

---

(1) السّيرج: نسيج صوفيّ متين.

(2) تذكّر القدّيسة روزالي بقصيدة «أرتميس» « Artémis» في مجموعة «الأوهام» لنرفال: «أيّتها القدّيسة من نابولي بيديك المملوءتين ناراً/ أيّتها الوردة يا من قلبها بلون البنفسج...»

(3) الأتروريّون Etruscus: شعب عاش في أترووريا، في وسط شبه الجزيرة الإيطاليّة، من نهاية عصر البرونز إلى نهاية عصر الحديد، ورث عنه الرّومان القسم الأعظم من ثقافتهم.

لا أعرف. ابتسمت لدَهشتي، وذهبت لتجلب من على منضدتها حليّاً: أحجاراً مزيّفة وعقوداً وأساور وتاجاً. وإذ تزيّنت بها عادت إلى الطاولة ثمّ بقيت ساهمة لوقتٍ طويل. لـمّا رأتها المرأة العجوز لدى عودتها إلى الغرفة قهقهت وقالت لي، على ما أظنّ، إنّها هكذا تتزيّن في الأعياد. عندئذٍ، استيقظ الطفل وأخذ يصرخ. هرعت المرأتان إلى مهده ومن ثمّ عادت الصبيّة قربي وهي تمسك «البامبينو»[1] بفخرٍ بين ذراعيها فهدأ روعه في الحال. كانت تتحدّث إليه بهذه اللغة التي راقت لي، وتلهيه بمداعبات مليئة ظرفاً، وأنا قلّما كنت معتاداً على الأثر الذي تتركه الخمور الحارقة لفيزوف فأخذت أشعر بالأشياء تدور أمامي. هذه المرأة ذات العادات الغريبة، المزيّنة كملكة، الفخور والنزقة، كانت تبدو لي كإحدى ساحرات تساليا[2] التي قد نمنح لها أنفسنا لقاءَ حلم. آه! من أين أتتني الجرأة لأروي لك هذه القصّة؟ ذلك أنّك تعرفين جيّداً أنّه لم يكن ذاك إلّا حلماً كنتِ فيه وحدك الملكة!

«تحرّرتُ من هذا الشبح الذي كان يسحرني ويرعبني في الوقت نفسه، ورحت أتسكّع في المدينة الموحشة حتّى صدحت أولى الأجراس. ثمّ إذ تنشّقتُ عبير الصباح، سلكت الشوارع الصغيرة خلف كيايا[3] واستطعت أن أتسلّق تلّة بوسيلّيبو فوق المغارة[4]. وحين وصلت إلى الأعلى، كنت

(1) بامبينو Bambino: طفل بالإيطاليّة.

(2) تساليا اليونانيّة تعتبر أرض السّحر. وفي «الحمار الذهبيّ» لأبوليوس في تساليا يلتقي لوكيوس بالسّاحرة بامفيل ويبدأ تحوّلاته.

(3) كيايا Chiaia: حيّ شعبي في نابولي عند أسفل تلّة البوزيلّيبو.

(4) تلّة البوزيلّيبو الشهيرة في نابولي التي تخترقها منذ العصور القديمة مغارة نابولي، ويقال إنّ الشاعر فيرجيل دُفن عند مدخلها. كلّ هذه الأمكنة ذات الرمزيّة العالية نجدها أيضاً في قصائد «المحروم» و«ميرتو» و«دلفيكا» في مجموعة «الأوهام» لنرفال.

أتنزّه وأنا أنظر إلى البحر الذي غدا أزرق، وإلى المدينة حيث لم تكن تسمع إلّا ضوضاء الصباح، وجزر الجون حيث الشمس بدأت تذهّب أعالي الدّارات. لم أكن حزيناً إطلاقاً وكنت أمشي مهرولاً بخطى سريعة نازلاً المنحدرات متدحرجاً على العشب الرّطب، ولكنّ فكرة الموت كانت تعتمل في قلبي.

«أيّتها الآلهة! لا أعرف أيّ حزن عميق كان يجتاحني، لكنّه لم يكن إلّا الوجه الآخر للفكرة المؤلمة، فكرة أنّني لم أكن محبوباً. رأيت ما يشبه طيف السعادة وتمتّعت بكلّ نِعَم الله، وكنت تحت أجمل سماء في العالم، وبحضور الطبيعة الأكمل والمشهد الأجمل الذي أمكن للبشر أن يروه، ولكنّي كنت على بعد أربعمائة فرسخ من المرأة الوحيدة الموجودة بالنسبة إليّ والتي تجهل حتّى وجودي. وفكّرت أنّني غير محبوب وأنّني لن أحظى بأمل أن أكون كذلك يوماً! عندئذٍ خطر لي أن أذهب وأسأل الله عن مسوّغات حياتي الفريدة. لم تكن هناك إلّا خطوة واحدة لأقوم بها في المكان الذي كنت فيه. كان الجبل منحوتاً وكأنّه جرف، والبحر يهدر في الأسفل، أزرق صافياً. توجّب عليّ أن أقاسي لحظة عذاب واحدة. آهٍ! بدا لي تجنّب هذه الفكرة رهيباً. لمرّتين اندفعت إلى الأمام لكن لا أعرف أيّ قدرة كانت تردّني من جديد وبقوّة على الأرض التي قبّلتها. لا يا إلهي! أنت لم تخلقني لهذا العذاب الأبديّ. لا أريد أن أصدمك بموتي ولكن أعطني القوّة، أعطني القدرة، أعطني الشجاعة التي تجعل البعض يصل إلى العرش، والبعض الآخر إلى المجد، أو إلى الحبّ!».

خلال تلك الليلة الغريبة، تحقّقت ظاهرة نادرة. نحو نهاية الليل، كانت كلّ منافذ المنزل الذي أنا فيه قد أضيئت، وكان غبار حارّ وكبريتيّ يمنعني

من التنفّس. تركتُ المرأة التي حظيت بها بسهولة نائمة على الشرفة، ثمّ توغّلتُ في الأزقّة التي تُفضي بي إلى حصن سانتلمو[1]. كنت أتسلّق الجبل وهواء الصباح النقيّ يملأ رئتيّ باطّراد. استرحت بلذّة تحت عرائش الدّارات وأنا أتأمّل دون رعبٍ فيزوفَ الذي لا كان لا يزال مكسوّاً بقبّة من الدّخان.

في هذه اللّحظة بالذات تولّاني الدوار الذي تحدّثت عنه. وإذ فكّرت بالموعد الذي ضربته لي الصبيّة الإنكيزية انقشعتِ الأفكار المشؤومة التي خطرت لي. وبعد أن رطّبتُ فمي بأحدِ عناقيد العنب الهائلة التي تبيعها النساء في السوق، اتّجهت إلى بورتيشي وذهبت لأزور آثار هيركولانيوم. كانت الشوارع مكسوّة كلّها برَمادٍ معدنيّ. وإذ وصلت بالقرب من الآثار، انحدرت إلى المدينة السّفليّة وتنزّهت طويلاً متنقلاً من مبنى إلى مبنى سائلاً هذه الصروح سرّ ماضيها. كان معبد فينوس، وأيضاً مركور[2] يتحدّثان عبثاً إلى خيالي. كان ينبغي أن يكون هذا المكان مأهولاً بالوجوه الحيّة. وعاودت الصعود إلى بورتيشي وتوقّفت ساهم الفكر تحت عريشة منتظراً امرأتي المجهولة.

لم تتأخّر في الظهور، مرافقةً والدها في سيره المتثاقل. صافحتني بحرارة وهي تقول لي: «حسنٌ أنّك أتيت!». اخترنا عربة صغيرة وذهبنا لزيارة بومبيي. وبأيّة سعادة قدتها في الشوارع الصامتة للمستوطنة الرومانيّة القديمة! كنت مسبقاً قد درست المعابر الأكثر سريّة. وحين وصلنا إلى معبد إيزيس الصغير، طاب لي أن أشرح لها بوفاءٍ كلٍّ التفاصيل المتعلّقة

---

(1) حصن سانت ألمو Sant Elmo المطلّ على دير سان مارتينو الواقع على تلّة فونيرو القريبة من تلّة البوزيلّيبو.

(2) هذان المعبدان هما في بومبيي وليس في هيركولانيوم.

بعبادة الإلهة والطقوس التي قرأتها في كتاب أبوليوس[1]. أرادت أن تؤدّي هي نفسها شخصيّة الإلهة ورأيتني أضطلع بدَور أوزيريس الذي شرحتُ أسراره المقدّسة. ولدى العودة، متأثّراً بعظمة الأفكار التي أثرناها للتوّ، لم أجرؤ على أن أحدّثها عن الحبّ... رأتني في غاية البرودة ولامتني على ذلك. عندئذٍ أسررتُ لها أنّني لم أكن أشعر بنفسي جديراً بها. ورويت لها سرّ هذا اللّقاء الذي أيقظ حبّاً قديماً في قلبي، وكلّ الحزن الذي أعقب هذه اللّيلة المشؤومة حيث طيف السّعادة لم يكن إلّا عتاباً على نكثِ عَهْد.

يا للأسف! كم أنّ كلّ ذلك بعيد عنّا الآن! منذ عشر سنوات مررت من جديد بنابولي آتياً من الشرق[2]. ذهبت للنزول في فندق روما والتقيت هناك بالشابّة الإنكليزيّة. كانت قد تزوّجت من رسّام شهير، أصيب بعد فترة قصيرة من زواجهما بشللٍ كليّ. كان راقداً على سرير صغير، لا شيء يتحرّك في وجهه إلّا عينانِ كبيرتان سوداوان. كان لا يزال في مقتبل العمر، ولم يكن بإمكانه أن يأمل بالشفاء تحت مناخات أخرى. كانت الفتاة المسكينة تنذر نفسها لتعيش بحزنٍ بين زوجها ووالدها. لم تكن عذوبتها وبراءتها العذريّة قادرتين على تهدئة الغيرة الفظيعة المعتملة في نفس زوجها. لا شيء كان قادراً على إقناعه بإطلاق حريّة زوجته في نزهاتها، وكان يذكّرني بهذا العملاق الأسود الذي يسهر أبداً في كهف الجنّ والذي كانت زوجته مرغمة على ضربه لئلا يستسلم للنوم. أيّ لغز هي تلك النفس البشريّة! هل يجب أن نرى في مثل هذا المشهد العلامات التي تشي بانتقام الآلهة المتوحّش!

---

(1) في الكتاب الحادي عشر من «الحمار الذهبيّ».

(2) المرور الثاني بنابولي لدى العودة من الرحلة إلى الشرق حصل في نوفمبر عام 1843. يبدو واضحاً أنّ نرفال في «أوكتافيا» يعيد تركيب ذكرياته في الرحلتين.

لم أستطع إلّا أن أمنح نهاراً واحداً لمشهد الألم هذا. حمل المركب الذي يعيدني إلى مرسيليا ذكرى هذه الرؤية الحبيبة مثل حلم. وقلت في نفسي إنّني ربّما هنا تركت سعادتي، وإنّ أوكتافيا احتفظت قربها بالسرّ[1].

(1) إنّها تقريباً العبارة الختاميّة لقصّة «سيلفيا»: «هنا ربّما كانت السّعادة».

إيزيس

(إضاءة: «إيزيس» في «بنيات اللّهب» هي الاستعادة المختصرة لمقالة نُشرت للمرّة الأولى في مجلّة «لا فالانج» La phalange، مجلّة علوم اجتماعيّة، عام 1845 تحت عنوان «معبد إيزيس، ذكرى من بومبيي» Iseum. Souvenir de Pompéi.

«إيزيس» ذكرى رحلة قام بها نرفال إلى بومبيي وفيها يصادف إقامة احتفال تنكريّ يعيد بعث الحياة التي كانت سائدة في المدينة الرومانيّة التي دمّرها بركان فيزوف. إلى هذه الاستعادة التنكريّة يقترح استعادة أركيولوجيّة لطقوس إيزيس ووصفاً لمعبدها، وتأمّلاً حول الآثار وتاريخ الديانات. يشير نيكولا بوبا Nicolas Popa *إلى أنّ إعادة البناء الأركيولوجيّة لطقوس إيزيس هي ترجمة شبه حرفية لمقال ألمانيّ كتبه كارل أوغست بوتيغر* Carl August Böttiger *(1760-1835). هذه القصّة هي إحدى أقصر قصص المجموعة. ووصف معبد إيزيس في بومبيي ليس من وحي الذاكرة أو الملاحظات المأخوذة مباشرةً ولكن، كما اكتشف هيزاشي ميزونو* Hisashi Mizuno*، وفقاً للترجمة الفرنسيّة لـ «دليل بومبيي الصغير» الصّادر عام 1829. وبعض المقاطع في القسم الرابع مأخوذة بشكل شبه حرفيّ من ترجمة صفحة من «الحمار الذهبيّ» لأبوليوس. هل هذا يعني أنّه ليس هناك شيء من صنع نرفال في قصّة «إيزيس»؟ بالطبع لا، لأنّ نرفال حتّى في اقتباساته يُضفي عليها طابعاً نرفاليّاً عبر الانتقاء الذي يخضع النصوص له و«انزلاقاته» على صعيد المعاني. كما أنّه يضفي طابعاً مسيحيّاً على إيزيس ويجعل اللّيتورجيا أو شعائر العبادة الخاصّة بها أليفة للقارئ المسيحيّ.*[1]

(1) المترجمة، تلخيصاً عن شروح نشرة «فوليو كلاسيك» لهذا الكتاب، وضعها برتران مارشال.

الفصل الأوّل

قبل إنشاء سكّة الحديد التي تصل نابولي بريزينا، كانت الرحلة إلى بومبيي سفراً حقيقياً[1]. وكانت زيارة هيركولانيوم وفيزوف وأيضاً بومبيي الواقعة على مسافة فرسخين تستغرق نهاراً. وغالباً ما كان الزائر يبقى في المكان حتّى صباح الغد، لكي يجول بومبيي خلال الليل، على ضوء القمر فترتسم معالم المشهد الخياليّ بشكلها الأبهى. كان لكلّ زائرٍ أن يفترض أنّه، إذا عاد إلى العصور الغابرة، فسوف يرى نفسه فجأةً جديراً بأن يجول شوارع المدينة النائمة وساحاتها. كان القمر الوادع يلائم ربّما أكثر من نور الشمس هذه الآثار التي لا تثير بادئ الأمر لا الإعجاب ولا الدهشة، وحيث العصور القديمة تظهر في ما يشبه حلّة متواضعة.

أقام أحد السّفراء الساكنين في نابولي، منذ بضع سنوات، احتفالاً يتّسم بالابتكار. مزوّداً بكلّ التراخيص الضروريّة، أمر بإلباس عدد كبير من الأشخاص وفق الزيّ القديم. وامتثل المدعوّون لهذا الإجراء، وخلال نهار وليلة كاملين، قُدِّمت عروضٌ لمختلف العادات التي كانت سائدة في الجالية الرومانيّة القديمة. يُفهم من ذلك أنّ العِلم بالتاريخ وجّه غالبيّة تفاصيل الاحتفال. كانت عربات تجوب الشوارع، وكان باعة يملأون المحلّات، وجموع المدعوّين على اختلافها تتلاقى في أوقات معيّنة لتناوُل

(1) في رسالته إلى والده في ديسمبر عام 1843 يقول نرفال: «استطعت [...] القيام برحلة إلى بومبيي وإلى هيركولانيوم في نهاراتٍ بديعة [...]. كانت هذه الرحلة مُكلفة لدى مروري الأوّل بنابولي. ولكن حاليّاً هناك سكّة حديد تقود إلى تورّي أنونتسياتا Torre Annunziata حيث يمكن الوصول بنصف ساعة». هذه السكّة الحديديّة، التي أنشئت بين زيارتَي نرفال ربطت في بادئ الأمر عام 1839 نابولي بريزينا Resina وأفضت بدورها إلى هيركولانيوم ثمّ مُدّدت الشبكة عام 1841 حتّى تورّي أنونتسياتا التي توصل إلى موقع بومبيي.

وجبات في الدارات الرئيسيّة. هنا كان القاضي بانسا، وهناك سالوست، وهنالك جوليا فيليكس ابنة سكاوروس المكتنزة، يستقبلون المدعوّين في منازلهم[1]. كان منزل الكاهنات (الفستاليّات) مخصّصاً لساكناته المحجّبات، ومنزل الراقصات لم يكن يتنكّر لعهود طقوسه الظريفة. كان المسرحان يقدّمان عروضاً كوميديّة ومأساويّة، وتحت الباحات المعمّدة للمنتدى، كان المواطنون المتبطّلون يتبادلون الأخبار الراهنة، فيما كانت أصوات المحامين الجهوريّة أو عظات المرافقين تدوّي في البازيليكا[2] المفتوحة على الساحة. وكانت نجود وستائر تكمل، في جميع الأمكنة التي تُقدّم فيها هذه المشاهد، مؤثّرات الديكور الذي كان نقص الأسقُف سيعيقه. ولكنّنا نعلم أنّه بغضّ النظر عن هذا التفصيل، كانت غالبيّة الصروح محتفظة بمعالمها وبالتالي لا ترتدي هذه المحاولة التي تعيد الحياة إلى المكان[3] أهمّيّة كبيرة. أحد العروض الأكثر غرابة كان الاحتفال الذي أقيم عند غروب الشمس في هذا المعبد الصغير الرائع، المخصّص لإيزيس، والذي، بفضل احتفاظ معالمه التامّ بمظهرها الأصليّ، بدا الأكثر أهمّيّة بين

(1) كانت مساكن بانسا Pansa وسالوسته Salluste (في الواقع كوسيوس ليبانوس Cossius Libanus الذي يُقال إنّه من أصل مشرقيّ) وجوليا فيليكس Julia Felix، هي بين مساكن بومبيي الأشهر. أشار بريكس Brix إلى أنّ جوليا فيليكس كانت ابنة سبوريوس Spurius وليس سكاوروس. في الواقع اختلط الأمر على نرفال فيما يتعلّق بمدونتّين مأخوذتين من «رحلة إلى بومبيي» لدومينيكو رومانيلّي Domenico Romanilli: ملصق جوليا فيليكس ابنة سبوريوس، ونقش الضريح التذكاريّ لأولوس أومبريسيوس سكاوروس Aulus Umbricius Scaurus، ابن سكاوروس.

(2) البازيليكا مبنىً يتكوّن من بهو مستطيل الشكل تتخلّله أعمدة، استخدمه الرّومان لدور القضاء وسواها، ثمّ استوحته الكنائس المسيحيّة في بعض مبانيها.

(3) هذه المحاولة الاستعاديّة تشكّل امتداداً للعرض الوجيز لطقوس إيزيس الذي قام به الراوي في قصّة «أوكتافيا» مع أوكتافيا مرافقته.

كلّ هذه الآثار.

هذا الاحتفال أفسح المجال للأبحاث التالية[1] في مقاربتها تلك المظاهر التي اتّخذتها العبادة المصريّة عندما توجّب عليها أن تتصدّى مباشرة لدين المسيح الناشئ.

مهما يكن قويّاً[2] وساحراً هذا التعبّد المتجدّد لإيزيس بالنسبة للرجال المتشنّجين لذاك الزمن، فإنّه كان يمارس فعله بشكلٍ رئيسيّ على النساء. كلّ ما قدّمت الطّقوس الغريبة وطقوس «الكابير»[3] وآلهة إيلوسيس واليونان، كلٌّ على حدة، بالإضافة إلى باخوسيّات ليبير باتر وهيبون في كامبانيا للشغف بالعجائبيّ والعقائديّ، اجتمع، بفعل فنّ دينيّ، في التعبّد السريّ للإلهة المصريّة كما تصبّ في قناة جوفية مياهُ روافد كثيرة.

بالإضافة[4] إلى الأعياد الشهريّة ومراسم التكريم كان يُقام مرّتين في اليوم احتشاد وصلاة جماعيّة للمؤمنين من الجنسين. منذ الساعات الأولى للنهار كانت الإلهة إيزيس متأهّبة، ومن كان يرغب في أن يستحقّ نعمها الخاصّة كان عليه أن يحضر لدى نهوضه من أجل صلاة الصباح. كان المعبد مفتوحاً بأبّهةٍ كبيرة، والكاهن الأكبر يخرج من المحراب برفقة خدّامه، والبخور الزكيّ يحرَق على المذبح. وكانت أنغام المزمار العذبة تُسمَع.

(1) في الفقرة التالية تبدأ في الواقع ترجمة نرفال لمقالة بوتيغر Bottiger التي ستستمر حتّى الفصل الثاني. وقد مهّد لها في النصّ بعبارة: «هذا الاحتفال أفسح المجال للأبحاث التالية...»

(2) هنا ألغى نرفال مقطعاً طويلاً من نسخته ما قبل النهائيّة، نثبّته للفائدة في ملحق يتلو هذا النصّ، متبوعاً بمقاطع محذوفة أخرى، نوردها مرقّمة.

(3) الكابير Cabires، آلهة قدماء، عفاريت النار، الذي قيل إنّهم أبناء هيفايستوس Héphaistos، كانوا محور تعبّد تحيط به الأسرار. أما ليبير باتر Liber Pater وهيبون Hébon فهما إلهان قديمان لاتينيّان متماهيان مع باخوس.

(4) هنا مقطع ثانٍ حذَفه نرفال. تجده في ملحق يعقب هذا النصّ.

عندئذٍ كانت جموع المؤمنين تنقسم إلى قسمين في الأروقة، وحتّى أوّل درجة في المعبد. كان صوت الكاهن يدعو للصّلاة وكان نوعٌ من ابتهالٍ يُتلى. ثمّ تصدح رنّات مزهر[1] إيزيس مدوّية بين أيدي بعض العبّاد. وفي أغلب الأحيان، كان جزء من قصّة الإلهة يمثَّل بواسطة حركات إيمائيّة ورقصات رمزيّة. وكانت شعائر عبادتها تُمارس مرفقة بتضرّعات الشعب الراكع الذي يغنّي أو يهمس بالابتهالات على أنواعها.

ولكن، إذا كان قد احتُفي، عند شروق الشمس، بصلوات الصباح للإلهة[2]، فيجب ألّا يغفل المؤمنون أيضاً أن يقدّموا تحيّات المساء لها، ويتمنّوا لها ليلة سعيدة، وتلك عبارة خاصّة تمثّل أحد الأقسام المهمّة في ذلك الطقس الدينيّ، إذ أعلنوا للإلهة نفسها «صلاة المساء».

صحيح أنّ القدامى لم يكونوا يملكون ساعة الحائط المنبّهة، ولا الساعة الصامتة، ولكنّهم كانوا يستعيضون، قدر ما أمكنهم، عن آلاتنا الفولاذيّة والنحاسيّة بآلات حيّة، بعبيدٍ توكل إليهم مهمّة أن يهتفوا بالساعة وفق الساعة الرمليّة والمزوَلة. لا بل كان هناك رجال، لا لشيء إلّا قياساً لِطول خيالاتهم، يستطيعون أن يقدّروا بدقّةٍ السّاعة سواء في النهار أو في المساء. كانت هذه العادة التي تقضي بأن يُهتَف بالساعة عالياً متّبعة في المعابد. كان هناك أناس أتقياء في روما يمارسون لدى جوبيتر الكابيتولينيّ هذه الخدمة الفريدة بأن يقولوا الساعات له. لكنّ هذه العادة كانت متّبعة خصوصاً في الصباحات والمساءات لدى إيزيس العظيمة، وبهذا كانت تناط مراسيم الليتورجيا اليوميّة.

---

(1) مِزهَر أو جُنْك: آلة موسيقيّة مقدّسة في مصر القديمة.

(2) هنا مقطع ثالث حذَفه نرفال. تجده في ملحق يعقب هذا النصّ.

الفصل الثاني

أمّا لحظة الإقفال المهيب للمعبد فكانت تتمّ[1] بعد الظهر، نحو الساعة الرابعة وفقاً للتقويم العصريّ للوقت، أو بعد الساعة الثامنة من النهار وفقاً للتقويم القديم، وهذا ما كان يُدعى تحديداً «الرقاد القصير» للإلهة. في كلّ الأزمنة، كان لا بدّ للآلهة أن يمتثلوا لتقاليد البشر وأعرافهم. على جبل الأولمب، كان زيوس في إلياذة هوميروس يعيش حياته العائليّة مع زوجاته وأبنائه وبناته، ويعيش تماماً مثل بريام وأرسينووس[2] في بلاد طروادة وفياسيا. وكذلك توجّب على الإلهين الكبيرين للنِّيل، إيزيس وسيرابيس، من اللحظة التي استقرّا فيها في روما، وعلى ضفاف إيطاليّا، أن يتكيّفا وطريقةَ عيش الرومان. حتّى في زمن أواخر الأباطرة، كان الرومان يستيقظون باكراً في روما، وكان كلّ شيء يضجّ بالحياة في الساحات والمحاكم والأسواق عند الساعة الأولى أو الثانية من النهار. ولكن فيما بعد، نحو الساعة الثامنة من النهار أو الرابعة من بعد الظهر، كانت كلّ حركة تتوقّف. ثمّ بعدئذٍ، تُعظَّم إيزيس أيضاً في قدّاس مسائيّ مهيب.

أمّا الأجزاء[3] الأخرى من الليتورجيا فكانت في معظمها تلك التي تؤدّى في الصباحات مع هذا الفارق بأنّ الابتهالات والأناشيد كانت تُتلى وتُغنّى على وقع المزاهر والمزامير والأبواق من قبَل منشدٍ أو مرتّل،

(1) هنا مقطع رابع حذَفه نرفال. تجده في ملحق يعقب هذا النصّ.

(2) بريام ملك طروادة الخرافيّ وأرسينووس (والأصح ألكينوس Alcinoos) ملك الفياسيّين الذي ساعد أوليس Ulysse، البطل الشهير في ملحمة «الأوديسّة» لهوميروس، في العودة إلى إيثاكا بعد أن تاه عشر سنوات في البحر.

(3) هنا مقطع خامس حذَفه نرفال. تجده في ملحق يعقب هذا النصّ.

يقوم ضمن نظام الكهنة بتأدية مهامّ الـمُنشد. وفي اللحظة الأكثر مهابة يقف كبير الكهنة على آخر درجة أمام قدس الأقداس، محاطاً بشمّاس على يمينه وآخر على يساره أو «باستوفور»، ويرفع المياه المقدّسة، وهي العنصر الأساسيّ للعبادة ورمز النيل المخصِب، ويعرضها أمام المؤمنين ليحثّهم على التعبّد الخاشع. وكان الاحتفال ينتهي بعبارة الانصراف المعهودة.

كانت الشعائر المرتبطة بأيّام معيّنة، والوضوء والصيام والتكفير عن الخطايا وإماتة الجسد وتعذيبه، مقدّمة لتكريس ألف ميزة وفضيلة لأقدس الإلهات، وكان الرجال والنساء يرتقون إليها بعد تجارب وتضحيات جمّة عبر ثلاث مراحل. إلّا أنّ إدخال هذه الطقوس شرّع الباب أمام بعض الانحرافات. وعن طريق التحضيرات والتجارب التي، في معظم الأحيان، كانت تدوم أيّاماً عدّة، والتي لم يكن أيّ زوج ليجرؤ على منعها عن زوجته، ولا أيّ عشيق عن عشيقته. وخوفاً من سوط أوزيريس أو أفاعي إيزيس، كانت تضرب في المحاريب مواعيد مشبوهة، مكتنفة بالأحجبة التي لا تُخرق للمُسارِرة - ولكنّ تلك تجاوزات مشتركة بين كافّة الاديان في مراحل انحطاطها. الاتّهامات نفسها وُجّهت لممارسات المسيحيّين الأوائل الغامضة وولائم المحبّة التي كانوا يقيمونها. إنّ فكرة «الأرض المقدّسة» حيث تتوحّد ذكرى التقاليد الأولى لكلّ الشعوب وذاك النوع من التعبّد البنويّ- وكذلك فكرة المياه المقدّسة الخاصّة بالمسوح وتطهير المؤمنين- تنطوي على صلات أكثر سموّاً بين هاتين العبادتين وتتوجّب دراستها لا سيّما وأنّ الأولى، إذا جاز القول، كانت بمثابة تمهيد للثانية.

كلّ ماء كان مباركاً للمصريّين لا سيّما ذاك الذي غُرِفَ من النهر، حيث بُعث أوزيريس. ففي العيد السنويّ لأوزيريس المستعاد، وبعد النحيب

والبكاء الطويلَين يهتف الجميع: «لقد وجدناه وسُررنا جميعاً!»، ثمّ يرتمون أرضاً أمام الجرّة المملوءة من ماء النيل حديثاً والتي يحملها كبير الكهنة. بعدئذٍ كانوا يرفعون أيديهم نحو السماء ممجّدين معجزة الرحمة الإلهيّة.

كانت مياه النيل المباركة المحفوظة في الجرّة المقدّسة تمثّل أيضاً في عيد إيزيس الرمز الحيّ لأبي الأحياء والأموات. لم يكن بالإمكان تكريم إيزيس دون أوزيريس. لا بل إنّ المؤمنين كانوا يعتقدون بالحضور الحقيقيّ نفسه لأوزيريس في مياه النيل. وعند كلّ بركة مساءً وصباحاً، كان كبير الكهنة يُظهر للشعب الجرّة المقدّسة وينذرها لعبادته. كان الكاهن يهتمّ بكلّ ما من شأنه أن يجعل هذا التحوّل الجوهريّ المقدّس ينفذ إلى روح الحضور. والنبيّ نفسه مهما تكن قداسته عظيمة، لم يكن يستطيع أن يمسك بيديه العاريتين الإناء الذي كان يتحقّق فيه السرّ الإلهيّ. كان يرتدي فوق بطَرشيله[1] المصنوع من نسيج في غاية النعومة، نوعاً من غفّارة من الكتّان أو من الموسلين تغطّي كتفيه وذراعيه. كان يقف ممسكاً بالإناء المقدّس ثمّ يحمله، حسب ما كتب القدّيس كليمانس الاسكندريّ، لصق صدره[2]... على أيّة حال[3]، هل من فضيلة لم يكن النيل يمتلكها في نظر المصريينّ الأتقياء؟ كانوا يتحدّثون عن النيل في كلّ مكان وكأنّه مصدر الشفاءات والمعجزات. كان هنالك أوانٍ يُحفظ فيها ماؤه لسنواتٍ عدّة. «الديّ في قبوي ماء من النيل منذ أربع سنوات»، هكذا كان البائع المصريّ يقول متفاخراً أمام ابن بيزنطية أو ابن نابولي حين كانا يمتدحان أمامه نبيذهما

(1) قطعة من القماش منقوشة ومقصّبة يضعها الكاهن على صدره خلال الخدمة الدينيّة.

(2) في كتاباته التقريظيّة يشير القديس أكلمندس الاسكندريّ (150–215) إلى الطقوس القديمة، وإلى الإناء المقدّس لصق صدر النبيّ.

(3) هنا مقطع سادس حذفه نرفال. تجده في ملحق يعقب هذا النصّ.

المعتّق المجلوب من فاليرنا[1] أو خيوس[2]. وحتّى بعد الموت وتحت اللفائف التي تحيط بموميائه، كان المصريّ يأمل أن يسمح له أوزيريس بأن يروي عطشه بماء النيل المقدّس. كانت شواهد القبور تقول: أوزيريس سيمنحك الماء الـمُحيي. من أجل هذا كانت المومياءات تحمل فوق صدرها كأساً مزدانة بالرسوم.

الفصل الثالث

ربّما كان يجب الخشية[3] من أن تشوّه القراءات الجاهزة الانطباع الأوّليّ الذي يتولّد لدينا عند القيام بزيارة الأماكن الشهيرة. كنتُ قد زرت الشرق مستعيناً بالذكريات وحدها التي تكوّنت لديّ في إطار تربيتي الكلاسيكيّة، والغموض يشوبها. ولدى عودتي من مصر، كانت نابولي بالنسبة لي مكاناً للراحة والدراسة، وكانت المستودعات الثمينة لمكتباتها ومتاحفها تساعدني على تبرير الفرضيّات أو محاربتها، تلك التي كان ذهني قد صاغها لدى رؤية الكثير من الآثار التي لم تفسَّر من قبل أو بقيت محتفظاً بسرّها. ربّما كان الانطباع شبه الدينيّ الذي أثاره فيّ مرّة أخرى منظر معبد إيزيس في بومبيي يرقى إلى ذكرى الاسكندريّة الباهرة وطيبة والأهرامات. كنت قد تركت رفاق السفر يتأمّلون منزل ديوميد[4] بكلّ تفاصيله. مستغلّاً غفلة الحرّاس، اندفعت بلا تبصّر في شوارع المدينة

(1) فاليرنا Falerna: منطقة في كامبانيا Campania مشهورة بنبيذها الذي اتّخذ اسمها.

(2) خيوس Khios: جزيرة يونانيّة في بحر إيجه.

(3) هنا يتموقع مقطع سابع حذَفه نرفال. تجده في ملحق يعقب هذا النصّ.

(4) منزل ديوميد Villa Diomeda: منزل منعزل على تخوم «جادّة المقابر» Viale *dei Cementieri* الذي يصل «دارة الأسرار» *La Villa dei Misteri* بموقع بومبيي.

القديمة متجنّباً في غير مكانٍ إنساناً نكرةً يسألني من بعيد عن وجهتي. قلّما كنت مهتمّاً بمعرفة الاسم الذي أوجده العلم لهذا المبنى أو ذاك، أو لهذا المعبد، أو ذاك المنزل أو الدكّان. ألم يكن كافياً أنّ التراجمة والعرب أفسدوا عليّ زيارة الأهرامات، هل عليّ أن أخضع أيضاً لاستبداد مُرشدي السوّاح في نابولي؟ دخلت إلى شارع المقابر. كان واضحاً أنّه بسلوكي هذه الطريق المرصوفة بالحَمَم، حيث ترتسم الأخاديد العميقة للعجلات القديمة، سأتمكّن من العثور على معبد الإلهة المصريّة، الواقع عند أطراف المدينة، بالقرب من المسرح التراجيديّ. عثرت على الباحة الضيّقة التي كانت مقفلة قديماً ببوّابة[1]، وعلى الأعمدة التي لا تزال منتصبة، والمذبحين إلى اليمين وإلى اليسار، وكان ثانيهما لا يزال محفوظاً تماماً، وفي أقصى الباحةِ المزار القديم الذي يعلو سبع درجات كانت مكسوّة فيما مضى برخام باروس[2].

ثمانية أعمدة دوريّة[3]، دون قاعدة، تسند الزوايا، وعشرة أخرى الواجهة. الحرم مكشوف وفقاً لنوع الهندسة المعماريّة المسمّاة hypaethron[4]، لكنّ باحة معمّدة مسقوفة تحيط بالمكان. للمحراب شكل معبدٍ صغير مربّع مزدانٍ بقناطر ومسقوف بالقرميد ويحتوي ثلاث مشاكٍ معدّة لصور الثالوث المصريّ. ثمّة مذبحان موضوعان في عمق المحراب تستند إليهما اللّوحات الإيزيسيّة التي لا زالت إحداها محفوظة، وعلى قاعدة التمثال الرئيسيّ لإيزيس، الموضوع في منتصف الصحن الداخليّ، يمكن قراءة أنّ

(1) هنا مقطع مقطع ثامن وأخير حذَفه نرفال. تجده في ملحق يعقب هذا النصّ.

(2) باروس Paros: جزيرة في اليونان.

(3) أي تتبع المعمار الدّوري، نسبة إلى الدوريّين، من شعوب اليونان القديمة،

(4) Hypaethron كلمة إغريقيّة في الأصل وتعني البناء المكشوف.

المدعوّ ل. ك. فيبوس[1] قد شيّده في هذا المكان بمرسوم من قادة العشرة.

بالقرب من المذبح على اليسار في الباحة، كان هناك مقصورة صغيرة معدّة للتطهيرات، تزيّن جدرانَها بعض النقوش. كان إناءان يحويان المياه المطهّرة موضوعين بجانبي الباب الداخليّ كما توضع أجران الماء المقدّس عندنا. وكانت رسوم من الجصّ تزيّن المعبد من الداخل وتمثّل لوحات من الريف، ونباتات وحيوانات مصر، مصر الأرض المقدّسة.

أعجبتني في المتحف الكنوز التي أُخِذت من المعبد: الفوانيس، والكؤوس، والمباخر، والقوارير، ومرشّات الماء المقدّس، والتيجان، وعصيّ الكهنة البرّاقة، والمزاهر، والأبواق، والصّنوج، وتمثال مذهّب لفينوس، وتماثيل لباخوس وهرمس، ومقاعد من فضّة وعاج، وأوثان من البازلت[2]، وقطع من الفسيفساء المزيّنة بالكتابات والرموز. ومعظم هذه الأشياء، التي تشير مادّتها وصناعتها المتقنة إلى ثراء المعبد، اكتُشِفَتْ في المكان المقدّس الأكثر توارياً، الموجود خلف المحراب ويمكن بلوغه بعد اجتياز خمس قناطر حيث هناك باحة صغيرة مستطيلة تفضي إلى غرفة كانت تحوي مقدّسات. كان مسكن خدّام إيزيس، الموجود إلى يسار المعبد، يتألّف من ثلاث غرف، وقد وُجد في الحرم العديد من جثث أولئك الكهنة الذين يبدو أنّ ديانتهم كانت تُوجب عليهم ألّا يتركوا المحراب.

هذا المعبد هو من بين أكثر معابد بومبيي احتفاظاً بكمال معالمه لأنّه كان الأكثر جدّة حين دُفنت المدينة تحت الرّماد، فالمعبد القديم كان دمّره منذ

(1) لا بدّ أنّ هذا التوقيع L. C. Phoebus جعل نرفال يحلم. فمن المعروف أنّ فيبوس (وهو في الوقت نفسه لقب أبولون واسم دوق آكيتينا، أحد أقاليم فرنسا السبعة والعشرين) هو إحدى الهويّات الأسطوريّة لنرفال، في قصيدته «المحروم» في مجموعته الشعريّة «الأوهام».

(2) البازلت: صخور ناريّة بركانيّة صلبة سوداء.

بضع سنوات زلزال أرضيّ. أجهل ما إذا كان أحد تماثيل إيزيس الثلاثة في متحف نابولي قد وُجد في هذا المكان نفسه، لكنّي كنتُ تأمّلتها في اللّيلة السّابقة ولا شيء كان يمنعني، وأنا أستحضر ذكرى اللوحتين[1]، أن أستعيد في ذهني المشهد كلّه لاحتفال المساء.

في ذلك الوقت بالضبط أخذت الشمس تميل ناحية كابري، فيما كان القمر يصعد ببطء من جهة فيزوف مغموراً بقبّة من الدّخان الخفيف. جلست على حجر ورحت أتأمّل هذين الكوكبين اللذين عُبدا لوقتٍ طويل في هذا المعبد تحت اسمَي أوزيريس وإيزيس، ووفق مزايا روحانيّة تشير إلى مراحلهما المختلفة، فتولّاني انفعالٌ شديد. كنت ابن عصر شكّاك أكثر منه جاحداً، وألفيتُني مذبذباً بين تربيتين متناقضتين، تربية الثورة التي كانت تنكر كلّ شيء، وتربية الارتداد الاجتماعيّ على الثورة التي تريد استعادة جميع المعتقدات المسيحيّة، أفتراني سأنجذب إلى الإيمان بكلّ شيء على نقيض أجدادنا الفلاسفة الذين كانوا ينكرون كلّ شيء؟ خطرت لي مقدّمة فولني البديعة لكتابه «الأطلال»[2] التي استحضرت أمام آثار تدمر جنّيّ الأزمنة الغابرة، ولم تقرّ لتجلّيات الفكر السامية إلّا بقدرتها على تدمير

---

(1) اللّوحتان القديمتان في متحف نابولي اللّتان تمثّلان الخدمة المقدّسة للصباح وخدمة المساء، والمذكورتان في بداية النصّ في مجلّة *La phalange*.

(2) «الأطلال، أو تأمّلات في تحوّل الإمبراطوريّات» *Les Ruines, ou Méditation sur les révolutions des empires*، كتاب للمؤرّخ الشهير فولني Volney (1757–1820) وقد صدر عام 1791. بعد استذكار الأطلال الذي يفتتح الكتاب، يذكر فولني وصوله ذات مساء إلى قلعة تدمر بسورية قائلاً: «جلستُ على قاعدة عمود. وهناك، أسندت مرفقي إلى ركبتي ورأسي إلى يدي، ناظراً تارةً إلى الصحراء، ومحدّقاً طوراً في الآثار، ثمّ استسلمت لحلم عميق». ومن ثمّ يتبع تأمّله ذاك في اضمحلال الإمبراطوريّات، حتّى ظهور جنيّ القبور، الشبح الذي يكشف أنّ كوارث التاريخ ليست قدراً بل سببها «يكمن في الإنسان نفسه». الإنسان الدينيّ لم ينفكّ يشوّه في الديانات المتعاقبة الألوهة الوحيدة الحقيقيّة، ألوهة الطبيعة.

مجموع التقاليد الدينيّة التي راكمها البشر، إرباً إرباً. وهكذا قُضيَ بتأثيرٍ من اجتهاد العقل البشريّ على المسيح نفسه، النبيّ الذي، باسم عَقلٍ أسمى، كان قد أفرغ فيها مضى السموات. يا أيّتها الطبيعة! أيّتها الأمّ الأبديّة! هل كان هذا حقّاً المصير المكتوب لابنك السّماويّ؟ هل استطاع الفانون تبديد كلّ رجاء وكلّ أبّهة؟ وهل أكثر أتباعك جسارةً، يا إلهة سايس[1]، ألفى نفسه، حين رفع حجابك المقدّس، مواجهةً مع صورة الموت؟

إذا كان السقوط المتعاقب للمعتقدات يُفضي إلى هذه النتيحة، أفلن يكون أكثر تعزية للنفس السقوط في الشطط النقيض والسعي لاستعادة أوهام الماضي؟[2]

---

(1) مدينة سايس Saïs (بتسميتها الإغريقيّة) هي «صا الحجر» أو «صاو الحجر». كانت هذه المدينة المصريّة عاصمة فرعونيّة فيما مضى، وكان فيها معبودة تسمى «بنت صاو» بمعنى «سيّدة سايس» أو إلهة سايس، وكانت تلك المعبودة تمثّل أحياناً في صورة نيث الإلهة المصريّة القديمة. لكنّ «إلهة سايس» تورية شائعة في القرن التاسع عشر، وقد استخدمتها الرومنطيقيّة الألمانيّة خصوصاً للإشارة إلى إيزيس أو ألوهة الطبيعة. إيزيس الإلهة التي يجب رفع أحجبتها لاكتناه الأسرار أو لبلوغ المعرفة. يشير فولني إلى إلهة سايس في كتابه «الأطلال» باعتبارها روح العالم. كانت سايس تُعبد تحت رمز إيزيس المحجّبة وقد ذُكرت في التدوينات العبارة التالية: «أنا كلّ ما كان، وما هو موجود، وما سيكون، وما استطاع أحد أن يرفع لي حجابي». كان فيثاغوروس يعبدها تحت اسم فيستا، وكانت الفلسفة الرواقيّة تحدّدها بدقّة فتدعوها «مبدأ النار».

(2) تجدر الإشارة إلى أنّ خيالات الماضي هذه، كان فولني يدعوها «أوهاماً»: «كلّ هذه الآراء اللاهوتيّة [...] ليست إلّا أوهاماً. كلّ هذه القصص عن طبيعة الآلهة وأعمالهم وحياتهم ليست إلّا مرموزات وشعائر ميثولوجيّة تحتجب خلفها أفكار مبتكرة عن الأخلاق ومعرفة أعمال الطبيعة في لعبة العناصر وسير الكوكب. الحقيقة هي أنّ كلّ شيء مآله العدم، وكلّ شيء وهْمٌ وطيفُ خيالٍ وأضغاث أحلام [...]» ويستنتج في الصفحة الأخيرة من «الأطلال» قائلاً: «دلّونا على الخطّ الذي يفصل عالم الأوهام عن عالم الحقائق، وعلّمونا، بعد هذا العدد الجمّ من الديانات المرتكزة إلى الأوهام والأخطاء، دينَ البداهة والحقيقة [...].»

من البديهيّ أنّه في الأزمنة الأخيرة، عادت الوثنيّة لتغرف من جديدٍ من معينها المصريّ وأخذت تنحو أكثر فأكثر إلى دمج مختلف المفاهيم الميثولوجيّة في مبدأ الوحدة. هذه الطبيعة الأبديّة التي كان لوكريس الماديّ النّزوع نفسه يستحضرها تحت اسم فينوس السماويّة، فضّل يوليانوس تسميتها كيبيليه[1]، أمّا أفلوطين وبروكلوس وبورفيريوس فأعطوها اسمَي أورانيا أو سيريس[2]. وأبوليوس، وقد منحها هذه الأسماء جميعها، آثر مناداتها إيزيس. إنّه الاسم الذي، بالنسبة له، يختصر الأسماء جميعاً. إنّه الهويّة البدائيّة لملكة السماء هذه، ذات المزايا المختلفة، والقناع المتغيّر! وهكذا تراءت له في زيّها المصريّ لكنْ متحرّرة من التعابير الجامدة، والعُصَيبات، والمظاهر الساذجة للأزمنة الأولى.

شعرها الكثيف الطويل[3] ينتهي بخصلات مفتولة تغمر كتفيها الرائعتين. ثمّة تاج متعدّد الأشكال والأزهار يزيّن رأسها، والقمر الفضيّ يلمع على جبينها، ومن الجهتين تتلوّى أفاعٍ وسط سنابل ذهبيّة، وثوبها ذو الانعكاسات الحائرة يتغيّر، وفق حركة ثنياته، مكتسياً بالبياض الأنقى ثمّ

---

(1) لوكريس: (99–55 ق.م.) فيلسوف وشاعر رومانيّ. له القصيدة الملحميّة الفلسفيّة *De rerum natura* («في طبيعة الأشياء»). ويوليانس الجاحد Julien l'Apostat (331–363 م) امبراطور رومانيّ حاول أن يعيد إحياء الوثنيّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة، وأعطى الطبيعة اسم كيبيليه (بالفرنسيّة:Cybèle)، إلهة الجبال والطبيعة والخصوبة لدى شعوب آسيا الصغرى.

(2) أفلوطين (نحو 205–270) وبروكلوس (412–485) وبورفيريوس (234–305): فلاسفة ينتمون إلى الأفلاطونيّة الجديدة. أورانيا هي إحدى إلهات الإلهام التسع بحسب الميثولوجيا الإغريقيّة وقد عنيت بالعلوم الفلكيّة. سيريس: إلهة رومانيّة، إلهة الزراعة والأرض.

(3) المقاطع الثلاثة التي تبدأ هنا هي شبه مقتبسة عن أبوليوس في الفصل الحادي عشر من «الحمار الذهبيّ».

بأصفر الزعفران، أو يبدو وكأنّه يستعير وهجه من النار. معطفها بسواده القاتم مزيّن بالنجوم ومطرّز بحاشية برّاقة. بيدها اليمنى تمسك المزهر الذي يرسل نغمة صافية، وبيدها اليسرى إناء ذهبيّاً على شكل جندول.

وهكذا، ظهرت للوكيوس، وعطور اليمن السعيد الأعذب تفوح منها، وقالت له: «صلواتك أثّرت فيّ. أنا أمُّ الطبيعة، وربّة العناصر، ومنبع العصور الأوّل، وأعظم الآلهة، وملكة أرواح الموتى. أنا التي أجمع في داخلي الآلهة والإلهات، أنا التي تعبّد العالم في ألف شكل لألوهيّتي الوحيدة الفائقة الجبروت. في فريجيا، يدعونني كيبيليه، وفي أثينا مينرفا، وفي قبرص فينوس البافيّة، وفي كريت ديانا ديكتينا، وفي صقلية بروسبيرين الستيجيّة، وفي إيلوسيس سيريس القديمة، وفي أمكنة أخرى: جونون وبلّونا وهيكاته أو نيميسيس، فيما المصريّ الذي سبق الشعوب الأخرى في العلوم يكرّمني تحت اسمي الحقيقيّ: الإلهة إيزيس.

توجّهتْ إلى لوكيوس، بعدما دلّته على الوسائل ليتحرّر من السحر الذي وقع فريسته، بالقول: «تذكّر أنّه يجب عليك أن تكرّس لي بقيّة حياتك، وعندما تكون اجتزت الضفّة المظلمة لن تكفّ أيضاً عن عبادتي، سواء في غياهب الأكيرون أو في إليشيون[1]. وإذا كنت جديراً حقّاً بي مواظباً على عبادتي، ومحتفظاً بعفّتك فستدرك أنّني أستطيع وحدي أن أطيل أمد حياتك الروحيّة في ما يتعدّى الحدود المعروفة». وبعد أن تفوّهت بهذه الكلمات الرائعة، اختفت الإلهة التي لا تُقهر وغارت في عمق رحابتها بالذات.

---

(1) إليشيون (إليسيوم Elysium باللاتينيّة، Champs-Elysées بالفرنسيّة) هي في الميثولوجيا الإغريقيّة جزيرة الخالدين التي تقع في الغرب الأقصى من قرص الأرض، وإليها يُرسل الأبطال أو من يُمنحون الخلود ليعيشوا إلى الأبد.

بالطبع، إذا كانت الوثنيّة قد كشفت على الدوام عن مفهوم للألوهة بهذا النقاء، فإنّ المبادئ الدينيّة المتحدّرة من أرض مصر القديمة قد تهيمن أيضاً وفق هذا الشكل على الحضارة الحديثة. ولكن ألا يجدر التنويه بأنّه من مصر وفدت إلينا الأسس الأولى للإيمان المسيحيّ؟ جلّ ما فعله أورفيوس وموسى، اللّذان تلقّنا هما أيضاً الأسرار في طقوس إيزيس[1]، أنّهما أعلنا لأعراقٍ مختلفةٍ حقائق ساميَة - حقائق بدّلت فيها فوارق العادات واللغات والأزمنة تدريجيّاً أو حوّلتها تماماً. اليوم، يبدو أنّ الكاثوليكيّة نفسها قد شهدت، وفقاً للبلدان، ردّة فعلٍ مشابهةٍ لتلك التي حصلت في السنوات الأخيرة من مذهب تعدّد الأديان. في إيطاليّا، وفي بولونيا، واليونان، وفي إسبانيا، ولدى كافّة الشعوب الأكثر ارتباطاً بالكنيسة الرومانيّة، ألم يصبح التعبّد للعذراء نوعاً من عبادة حصريّة؟ أليست الأمّ المقدّسة الحاملة بين ذراعيها الطفل المخلّص هي التي تهيمن دوماً على العقول، والتي لا يزال ظهورها يهدي الضالّين كما حصل لبطل

(1) عن هذا التقليد الراسخ فعلاً في القرن التاسع عشر الذي يجعل من أورفيوس وموسى ملقّنَين كبيرين، راجع «رحلة إلى الشرق» لنرفال («نساء القاهرة»)، الجزء الثالث، الفصل الأوّل: «[...] على أيّة حال ألم تكن مصر دوماً هي الأرض القديمة، الأرض الأمّ التي تشعر قارّتنا أوروبا بأنّ أصولها ترقى إليها عبر العالم الإغريقيّ والرومانيّ؟ الدين والأخلاق والفنّ، كلّ شيء انطلق من هذا المحور الغامض والسّهل المنال في آن، حيث عباقرة الأزمنة الأولى غرفت من أجلنا الحكمة. كانوا يدخلون برعبٍ إلى هذه المعابد الغريبة حيث كان يتشكّل مستقبل البشر، ثمّ يخرجون منها وجباههم مطوّقة بالأنوار الإلهيّة، ويكشفون لشعوبهم تقاليد سابقة على الطوفان ترقى إلى باكورة الأزمنة. وهكذا فإنّ أورفيوس وموسى، وكذلك المشرّع الذي قلّما نعرفه والذي يدعوه الهنود راما، كانوا يحملون المخزون نفسه من التعاليم والمعتقدات [...]». يبدو أنّ نرفال استوحى قوله من الجزء الأوّل من كتاب فابر دوليفيه Fabre d'Olivet: «التاريخ الفلسفيّ للجنس البشريّ» *L'Histoire philosophique du genre humain* (1824).

أبوليوس؟ لا تحمل إيزيس فقط في ذراعيها الطفل أو الصليب في يدها كالعذراء. لا بل إنّ الرمز الفلكي نفسه كُرّس لهما: القمر تحت أقدامهما. والهالة نفسها تلمع حول رأسيهما. لقد ذكرنا أعلاه ألف تفصيل مشابه في الاحتفالات. الشعور نفسه بالعفّة في العبادة الإيزيسيّة، على مدى ما بقيت العقيدة نقيّة، وكذلك تشابه الجمعيّات والأخويّات. وبالطبع سأتحفّظ في أن أستخلص من كلّ هذه المقاربات الأفكار نفسها التي خلص إليها فولني ودوبْوي[1]. بالمقابل، أفلا يرى الفيلسوف أو بالأحرى اللاهوتيّ أنّ جميع الديانات السامية انطوت على قبس ما من الوحي الإلهيّ؟ المسيحيّة البدائيّة التمست كلام العرّافات[2]، ولم تستبعد قطّ شهادة آخر وسطاء الوحي في دلفي. ربّما كان بإمكان تطوّر جديد للعقائد أن يوفّق في بعض النقاط الشهادات الدينيّة لمختلف الأزمنة. وسيكون رائعاً أن يُنصَفَ أبطال العصور القديمة وحكماؤها وتسقط عنهم اللعنات الأبديّة!

بالطبع، ما أبعدها عنّي الفكرة القائلة إنّي جمعت التفاصيل السابقة لا لشيءٍ إلّا لأثبت أنّ الدّين المسيحيّ قد قام باقتباسات عديدة من تعاليم الوثنيّة الأخيرة. فهذا الجانب لا أحد ينكره، وكلّ دينٍ يعقب ديناً آخر يحترم لوقتٍ طويل بعضاً من شعائره وأصول عبادته، ويسعى لجعله منسجماً مع

(1) شارل فرنسوا دوبْوي Charles François Dupuis (1742–1809) أصدر كتاباً عرف نجاحاً لافتاً تشهد عليه الطبعات العديدة وتعميمه وتبسيطه: «أصل العبادات كلّها أو الديانة الكونيّة» *Origine de tous les cultes, ou La religion universelle* (1795) حيث انكبّ، بصفته ملحداً مناضلاً، على تفكيك الديانات، بدءاً بالمسيحيّة. اسمه تحت ريشة نرفال مقترن بطبيعة الحال باسم فولني. فإذا كان كتاب فولني «الأطلال» سابقاً على «أصل الديانات» فإنّه يدين بالكثير لأبحاث دوبْوي.

(2) كما يشهد على ذلك Dies irae («يوم الغضب»): «يوم الغضب هو ذلك اليوم الذي سيحيل العالم رماداً بحسب نبوءات داوود والعرّافة)، وسقف كنيسة السّيكستين يمزج بين أنبياء العهد القديم والعرّافات القديمات.

عقائده بالذّات. وهكذا فإنّ أصل الآلهة المصريّين والبيلاجيّين[1] قد تعدّل فقط وتُرجم لدى الإغريق مزداناً بأسماء وصفاتٍ جديدة. وفيما بعد أيضاً، في المرحلة الدينيّة التي وصفناها للتوّ، اتّخذ جوبيتر صفات سيرابيس الذي كان في الاصل انبثاقاً عن أوزيريس. وإيزيس التي لم يكن عليها لدخول الأسطورة الإغريقيّة إلّا أنّ تستعيد اسم إيو، ابنة إيناخوس[2] مؤسّس طقوس إيلوسيس، وتخلع منذ ذلك الوقت القناع البهيميّ، وهو رمز حقبة من الصراع والاستعباد. ولكن لكم أن تلقوا نظرة على التماثلات الكثيرة السّهلة التي ستجدها المسيحيّة في هذه التحوّلات السّريعة للعقائد الأكثر اختلافاً. لنضع جانباً صليب سيرابيس[3] وإقامة هذا الإله الديّان في مملكة الأموات. المخلّص الذي وعدت الأرض به والذي استبق مجيئه الشعراءُ والعرّافون، أتراه يكون الابن حورس الذي ترضعه الأمّ الإلهيّة، والذي سيكون الكلمة (اللّوغوس) للأزمنة المقبلة؟ أهوَ إياكوس ييسوس[4] الخارج من طقوس إيلوسيس، وقد كبر، مندفعاً من ذراعي ديميتير الإلهة القدّوسة؟ أو بالأحرى أليس صحيحاً أنّه يجدر جمع كلّ هذه التجليّات المختلفة للفكرة نفسها، تلك الفكرة الإلهيّة الرائعة التي تقضي بأن يعبد البشر أمّاً إلهيّة تلد ابناً يكون رجاء العالم؟

---

(1) البيلاجيّون: سكّان اليونان القدامى قبل مجيء الهيلينيّين.

(2) إيناخوس Inachus: ملك أرغوس الخرافيّ. اختلط الأمر على نرفال فخلط بينه وبين إياخوس Iacchus، وجعله مؤسّس طقوس إيلوسيس التلقينيّة.

(3) سيرابيس: إله اخترعه الكهنة في عهد بطليموس الأوّل مؤسّس الدولة البطلميّة في مصر القديمة للتوفيق والتآخي بين المصريّين والإغريق عن طريق الدّين. تزوج سيرابيس من الالهة إيزيس وله ابن يدعى هاربوكراتس، وكان يتمثّل للمصريّين على شكل العجْل المقدس آبيس. وللإغريق على شكل الإله زيوس.

(4) ييسوس Iesus اسم يسوع في اللاتينيّة.

والآن لماذا صيحات الابتهاج والفرح هذه، لماذا هذه الأغاني المنحدرة من السماء، وهذه السّعفات التي نلوّح بها، وهذه الحلويّات المقدّسة التي نتقاسمها في بعض أيّام السّنة؟ ذلك أنّ الابن المخلص وُلِدَ قديماً في الوقت نفسه. ولماذا تلك الأيّام الأخرى المنذورة للبكاء والأغاني الحزينة حيث نبحث عن جسد إله معذّب مُدَمّى -وحيث النّحيب يُدوّي من ضفاف النيل إلى شواطئ فينيقيا، ومن أعالي لبنان إلى سهول طروادة؟ لماذا ذاك الذي نبحث عنه ونبكيه يدعى هنا أوزيريس، وهناك أدونيس، وفي مكانٍ أبعد آتيس[1]؟ ولماذا صيحة أخرى آتية من أعماق آسيا تبحث أيضاً في المغاور الغامضة عن رفات إلهٍ مقتول؟ ثمّة امرأة مؤلّهة، أمّ، زوجة أو عشيقة تغمر بدموعها هذا الجسد النازف والمشوّه ضحيّةَ مبدأ شرّير ينتصر بموته، ولكنّه سيُهزَم بدوره لاحقاً![2] الضحيّة السماويّة يتأنّس جسدها الدامي وجراحها النازفة في الرخام أو الشمع ويأتي المؤمنون ليلمسوها ويقبّلوها بورَعٍ. ولكن في اليوم الثالث كلّ شيءٍ يتغيّر: يكون قد اختفى

(1) آتيس Attis: إله فريجيّ (فريجيا إقليم قديم في الوسط الغربيّ من الأناضول) كان يتشابه مع الإله أدون بصورته الكنعانيّة، أو أدونيس بصورته الإغريقيّة، حتّى أنّ القدماء كانوا يطلقون عليهما الاسمين تبادليّاً. وقد لقي آتيس مصرعه هو أيضاً على يد خنزير بريّ. تقول الأسطورة إنّ آتيس كان راعياً شابّاً غضّاً، وكان حبيب الأمّ الكبرى كيبيليه أحياناً، وابناً لها أحياناً أخرى... ويحكى عن مولده أنّ أمّه نانا قد حملت به وهي عذراء وذلك عن طريق احتضان غصن من شجرة اللّوز أو الرمّان، ولكنّ عنزة أرضعته حتّى شبّ وكبر. ومن هنا جاء الاسم «آتيس» أي التيس... وجاءت وفاته كضحيّة لغدر خنزيرٍ بريّ تماماً كأدونيس.

(2) هذا يذكّر بقصيدة نرفال «المسيح في بستان الزيتون» في مجموعته «الأوهام»، تجدها في آخِر هذا الكتاب، جاء فيها:

«حين الربّ، في ظلّ الأشجار المقدّسة،
رفع ذراعيه الهزيلتين نحو السّماء، أسوةً بالشعراء،
تاه طويلاً إذ ذاك في آلامه الصامتة
وقد أحسّ أنّ أصدقاء جاحدين تنكّروا له.»

الجثمان وتجلّي من لا يناله الفساد. يعقب الفرح البكاء ويبعث الرجاء على الأرض. إنّه العيد المتجدّد للشباب والرّبيع[1].

تلك هي العبادة المشرقيّة التي سبقت خرافات اليونان وأعقبتها في آنٍ معاً، وآل بها الأمر لاجتياح ميدان آلهة هوميروس وتمثّلهم تدريجاً. كانت سماء الآلهة تشعّ ببريق لا مثيل لنقائه. كانت ذات جمالٍ ساطع وكانت تتنسّم السعادة والخير والصفاء. كانت بإيجازٍ متصوَّرة بأبهى حلّة من وجهة نظر السّعداء والأغنياء والظافرين، وبالتّالي كانت أوهى من أن تفرض نفسها طويلاً على العالم المضطرب والمعذّب. أدامَ الإغريق مجدها من خلال الظفر في هذا الصراع شبه الكوسموغونيّ[2] الذي تغنّى به هوميروس، لتتجسّد من ثمّ قوّة الآلهة وعظمتها في مصائر روما. لكنّ الألم وروح الانتقام كانا يمارسان سطوتهما على سائر النفوس التي لم تعد تريد الاستسلام إلّا لديانات اليأس. من ناحية أخرى كانت الفلسفة تنجز مهمّتها الاحتوائيّة ساعيةً إلى إيجاد وحدة معنويّة. وكذلك فإنّ الشيء المرتجى في العقول تحقّق في نسق الأفعال. هذه الأمّ الإلهيّة، وهذا المخلّص اللذان بشّرَ بهما نوع من سراب تنبؤيّ في كلّ مكان في العالم من أقصاه إلى أقصاه، ظهرا أخيراً كالنهار الساطع الذي يعقب أنوار الفجر الغامضة.

(1) كلّ هذا التوفيق الطبيعيّ بين الأديان يستلهم دوبْوي وفولني لكي يحوّل تفكيكهما لكلّ العبادات إلى دفاع عن ديانة كونيّة: الأمّ وابنها.

(2) أي الصّراع الذي رافق نشأة الكون (كوسموغونيا).

ملحق: المقاطع المحذوفة

المقطع الأوّل

«لم يكن صعباً استعادة الأزياء الضروريّة لعبادة الإلهة الطيّبة والغامضة، وهذا بفضل اللّوحات القديمة المعروضة في متحف نابولي التي تصوّر خدمة الصباح المقدّسة وخدمة المساء. لكنّ البحث الذي توجّب القيام به عن المشاهد الرئيسة وتفسيرها أفسح المجال أمام عملٍ كثير الأهمّيّة أُوكلَ إلى عالم ألمانيّ. أراد الماركيز غارغالّو، مدير المكتبة، أن يسمح لي باستخراج التفاصيل التالية من المخطوطة الضخمة التي كانت تروي مجريات تأسيس عبادة إيزيس في بومبيي وطقوسها. بعد وفاة الإسكندر الكبير، شكّلت الديانتان الرئيستان اللّتان انبثقت منهما الديانات الأخرى، عبادة الكواكب وعبادة النار التي كان أسمى تعبير عنها في عقيدة زرادشت، اندماجاً غريباً. إنّ الأنظمة الدينيّة للشرق والغرب التقت في أفسس وأنطاكية والاسكندريّة وروما. انتشرت الخرافة المصريّة الجديدة في كلّ مكانٍ بسرعة فائقة. منذ وقتٍ طويل والأفكار والأساطير عن نشأة الآلهة القديمة لم تعد بمستوى العالم الإغريقيّ والرومانيّ. جوبيتر وجونون وأبولون وديانا، وكلّ ساكني الأولمب الآخرين كان بالإمكان أيضاً التضرّع إليهم، ولم يكونوا قد فقدوا مصداقيّتهم في الاعتقاد الشعبيّ. كان الدخان لا يزال يتصاعد من مذابحهم في أيّام احتفاليّة معيّنة من السنة. وكانت صورهم لا تزال تُحمَلُ بأبّهة كبيرة في الطّرقات، وكان المعبد والمسرحِ يمتلئان في أيّام الأعياد بأعدادٍ غفيرة من المشاهدين. لكنّ هؤلاء المشاهدين باتوا غرباء عن أيّ نوع من التعبّد. لم يعد الفنّ نفسه، الذي

كان يؤدّي عروضاً مثاليّة عن الآلهة، إلّا جاذباً مرهفاً للحواسّ. وهكذا فإنّ العدد الصغير الذي كان لا يزال موجوداً من المؤمنين كان مقتنعاً بأنّ الألوهة تسكن فقط في الصور القديمة، بهيئتها الجامدة والجافّة، العائدة إلى الآلهة البدائيّين. عبثاً تصدّت هذه الاعتقادات الشعبيّة لجهود الفلاسفة والمشكّكين الساخرين. إنّ الشرائع الإلهيّة والإنسانيّة وما كان الأتقياء والأجداد البسطاء يعتبرونه مثال القداسة هزئ به وديسَ تحت الأقدام. ولكن في هذه الحالة من التفكّك العامّ، لم تشعر النفس البشريّة إلّا بحضور أكبر للفراغ الهائل الذي أحدثته، وبرغبةٍ سريّة في استعادة شيء ما إلهيّ يفوق الوصف. هذه الرغبة شعرت بها آلاف الأرواح الخائبة معاً. وفي هذا القول القديم: «حيث يسود الشكّ، يشرّع الباب أمام العقيدة»، بُثّتْ نفحة جديدة. بدَت اليهوديّة لكثير من الأشخاص قادرة على ملء هذا الفراغ الأليم. ونعرف بأيّ سرعة استمال التعبّد الموسويّ آنذاك متشيّعين ليس فقط في مجمل الإمبراطوريّة الرومانيّة ولكن فيما يتعدّى حدودها. ومع ذلك فإنّ عقيدة يهوة لم تكن تتقبّل الصور، وكان التعبّد الماديّ لتلك الحقبة يحتاج إلى أشكال ملموسة ناطقة. عندئذٍ استجابت مصر، وهي الأمّ والحافظة لكلّ التخيّلات وضروب التطرّف الدينيّ، لحاجات النفس والحواسّ. وقدّم سيرابيس وإيزيس يد العون، سيرابيس يعين الأجساد المتألّمة، وإيزيس الأنفسَ السّقيمة. وجوبيتر سيرابيس، مع سلّة الفواكه على رأسه المهيب والمشرق لم يلبث أن أنزل جوبيتر الأولمبيّ والكابيتوليّ[1] المسلّح بصاعقة عن عرشه في روما وفي اليونان. لم يكن جوبيتر صالحاً إلّا

(1) الكابيتول (باللاتينيّة: Capitolinus Mons): أحد تلال روما السّبعة، وهو المركز الدينيّ للمدينة في العصر القديم، وفيه ضريح الآلهة الأسطوريّ الثلاثة: جوبيتر وجونون ومينرفا.

للرّعد، وكانت نيران صواعقه تصيب في معظم الأحيان معابده والشجرة التي كُرّست له. الإله المصريّ، وارث الأسرار والتقاليد البدائيّة للتعبّد القديم لآبيس وأوزيريس، ولكلّ أبّهة الأولمب الإغريقيّ، لم يكن يحمل عبثاً في يده مفتاح النيل ومملكة الظلال. كان بإمكانه أن يشفي الفانين من كلّ الشّرور التي ينوؤون تحتها. وعلى نحوٍ واسع كان هذا المنقذ الاسكندريّ الجديد يحقّق هذه الإبراءات العجيبة التي كان يقوم بها فيما مضى إسكولابيوس، مروّض الألم، في إبيدور. كان لكلّ مرفأ كبيرٍ من مرافئ بحر إيطاليّا سيرابيوم: هكذا كانت تُسمّى معابد الإله الشافي ومستشفياته المزوّدة بالأروقة والباحات المعمّدة والغرف الكثيرة وقاعات الاستحمام المعدّة للمرضى. هذه السيرابيومات كانت محاجر العالم القديم الصحيّة ومصحّاته. لا شكّ أنّه كان هناك علاجات طبيعيّة، وقبل كلّ شيء تلك المتعلّقة بالحمّامات والتدليك المقرونة بالتنويم المغناطيسيّ والسّرنمة والممارسات الأخرى التي كان يتقنها الكهنة ويتناقلون سرّها. ولكنّ هذه الممارسات كانت تستند إلى معرفة عميقة بالبشر آنذاك، ونشأ عن هذه الحسيّة طبّ فيزيائيّ عظيم. إنّ الجبروت العجيب للإله تشهد عليه أنقاض معبده في بوتسولي على بعد ثلاثة فراسخ من نابولي على شاطئ كامبانيا. الآن أيضاً لا تزال هنالك أعمدة ثلاثة هائلة، تنهشها النباتات المعرّشة، منتصبة بين الأنقاض تؤكّد الشهرة القديمة للإله الذي كان يقدّم، في هذا المرفأ المكتظّ، تحت اسم سيرابيس دوسار، الملجأ والشفاء. ثمّة باحة معمّدة بديعة وقد صارت تابعة في العصور الحديثة لقصر كازيرتيه، تحيط بالقاعات والأروقة. كان يوجد فيها عدد كبير من غرف المرضى والحمّامات بين مساكن الكهنة والحرّاس. وعلى طول شاطئ كامبانيا، من

خليج نتونو النزق وحتّى دياميس تريبرغولا، عدد من الأمكنة التي يُلجَأ إليها وتشفي برعاية الأب الكونيّ سيرابيس».

المقطع الثاني

«كان مستحبّاً في روما أن تزور سيّدة، مرّتين في السّنة على الأقلّ وبكلّ الأناقة التي تتحلّى بها تائبة جادّة، قاعات معبد الإلهة إيزيس أو ما يُسمّى «Iseum»، في حقل مارس (كان مركز عبادة مارس، إله الحرب، موجوداً في الأساس خارج الحدود المقدّسة لروما) في الحيّ الجديد للمدينة. ذلك أنّ التعبّد للإلهة المحسنة، بالرغم من مراسيم شرطة الإمبراطور أغسطس، الذي أبعد المعبد المصريّ أقلّه ألف خطوة عن ضواحي المدينة، وبالرغم من التهديد المرعب الذي نشره تيبيريوس ضدّ كهنة إيزيس ومعبودتهم، استعيد من جديد تحت كنف خلَفه المباشر، وأقيم لإيزيس معبد واسع مع الردهة وكلّ مستلزماتها..».

المقطع الثالث

«كانت إحدى التائبات تأتي للاعتراف، بحضور شخص مميّز من أحد الجنسين، لدى الكاهن الأكبر وتوجّه له طلباً خاصّاً. ثمّ تخرج لتحتفي بالصّلاة وهي تضرب المزهر. وعندئذٍ ينضمّ الشعب إليها في صلاةٍ خاشعة للإلهة العظيمة لكي تواسي المفجوعين. عندئذٍ تنتهي الرتبة وتُصرَفُ جماعة المؤمنين بواسطة عبارة خاصّة. ومن يتلقّ هذه المباركة تحلّ عليه النّعَم الخيّرة للإلهة ويستشعر بنتائج رأفتها في كلّ ما يفعله خلال النهار. وهكذا كان ينتهي هذا السّلام وهذه الصلاة للإلهة المثلّثة العظمة، واللّذين من

خلالها يمكن أن ينعم المؤمن ليومٍ واحدٍ باستجابة طلباته وتحقيق أمنياته».

المقطع الرّابع

«كان كهنة معبد إيزيس وخدّامهم يمارسون نوعين من المهامّ المنفصلة ويشار إليهم بالاسمَين الخاصّين: التنجيم وتحديد الساعة. لا شكّ أنّ أحد خدّام المعبد كان يعلن للإلهة نفسها الوقت، وفي الحال تبدأ التراتيل على إيقاع المزهر. وكان المؤمنون ينقسمون إلى قسمين وتُسمع عبارة ترافق الموسيقى ويهتف بها الجمهور بصوتٍ واحد».

المقطع الخامس

«من الحياة العامّة والهواء الطلق، كان يتمّ الانتقال إلى الراحة المنزليّة، إلى الحمّامات والمآدب. لأنّ الساعة الثامنة كانت في ذلك الزمان، كما نعرف، وقت العشاء ليس فقط في روما بل في العالم القديم كلّه. لذا كانت كلّ المعابد في ذلك الوقت مقفلة وكانت الأمّ إيزيس، خلال قدّاس مسائيّ مهيب، تُمجّد مرّة أخيرة وتُعبَد وتكرّم على الأنغام المكرّرة للمزهر الذهبيّ».

المقطع السّادس

«يمكن لنظريّة الكهنة المصريّين التي تقدّم الماء على أنّه مبدأ كلّ الكائنات ومنه انبثقت اليابسة والهواء والنار أن تبدو ضحلة وتافهة، إزاء هيدروجين لافوازييه وأوكسيجينه. لكنّها ربّما كانت أكثر نظريّة متعقّلة استطاعت أن تنجبها نظريّتان ذرّيتان في نشأة الكون ونشأة الأرض».

المقطع السّابع

«على يمين العرّاف الذي كان يحمل الإبريق كانت تقف امرأة تمثّل من خلال صفاتها ولباسها الإلهة إيزيس نفسها. وفي الواقع كان يتوجّب على إيزيس دوماً أن تشارك في التكريم المقدّم لأوزيريس. لم يكن شعر المرأة حليقاً كما لدى باقي الإكليروس، بل على العكس كان طويلاً ومجعّداً. وكانت خصلات الإلهة الجعداء تلعب دوراً هامّاً في تقاليد الكهنة المصريّين. في ممفيس، كانوا يظهرون خصلة من شعرها وكأنّها أثمن ذخيرة، وكانت عدّة تماثيل قديمة تظهرها بشعرٍ مجعّد. ثمّة أمر آخر يتّسم بعظيم الأهميّة في استحضار إيزيس وهو ما تحمله الكاهنة في يديها. كانت تمسك في يدها اليمنى هذه الآلة الشهيرة التي كان الإغريق يدعونها «سيسترون»، والمصريّون «كمكم». كان الحزن عقب موت أوزيريس، ثمّ الفرح لدى العثور عليه الركيزتين الأساسيّتين في الديانة المصريّة إبّان الفترة التي أعقبت الغزو الفارسيّ. وفي كلّ أدعية الحزن والفرح التي كانت تغنّى في الاحتفالات الكبيرة، كان مزهر إيزيس يحدّد الإيقاع. إنّ مزهراً مصنوعاً بشكلٍ جيّد يجب أن يضمّ أربعة أعواد صغيرة من أجل ذكرى العناصر الأربعة. بإمكاننا الاعتقاد أنّ المزهر لم يكن أبداً ليهتزّ من دون الاحتفاء بذكرى موت أوزيريس وانبعاثه. كانت الكاهنة تمسك بيدها اليسرى مرشّة كان يُراد من خلالها الإشارة إلى الخصوبة التي كان يمنحها النيل للأرض. كانت إيزيس تغرف منه الماء لمقتضيات العبادة، وأيضاً لإخصاب التربة. لأنّه إذا كان أوزيريس يمثّل قوّة المياه فإنّ إيزيس ترمز إلى قوّة الأرض وتُعتبر مبدأ الخصوبة. وإلى جانب إيزيس، على يسار النبيّ، كان يقف خادم عاديّ (يدعى «لاستوفوروس»)

وبالإمكان بسهولة التعرّف إليه بفضل إزاره، وهو العلامة الفارقة لكهنَة الطبقة الدنيا. كانت خدمته تقوم على الإشارة للجماعة، بواسطة المزهر، إلى اللحظات التي، مثل رفع الإبريق، تتطلّب مضاعفة الانتباه الورع. الأشخاص الذين درسوا آثار المعابد المصريّة والرسوم المتعلّقة بها يعرفون حقّ المعرفة أنّه، عندما كان يُراد عرض مشهد أكثر مهابة، يُستبدل الخادم الذي يمسك المزهر بأنوبيس الكلب المقدّس مرافق الإلهين الأعظمين الدائم وخادمهما، وكان عضو نافذ في الإكليروس يؤدّي دوره بارتدائه قناع كلب. كان الكاهن الذي يغنّي الأناشيد والصلوات، أو المنشد، يتمتّع بتقدير خاصّ؛ يقف على الدرجة السفلى من المعبد وسط صفَّي الشعب، ويقود الجموع بواسطة عصا على شكل صولجان. كان اليونان يسمّون هذا المسؤول عن الطقوس أو سيّد معبد إيزيس بـالمنشد أو مغنّي الأناشيد («أودوس»، «إيمنودوس»). كان يذكّر بالرواة الذين كانوا يغنّون القصائد الملحميّة حاملين قضيباً من الغار في يدهم. يتحدّث أبوليوس في غير مكان عن المزامير والأبواق الصغيرة التي كانت خلال احتفالات إيزيس وأوزيريس تضع الحاضرين في تأهّب روحيّ ملائم. كانت هذه الموسيقى تصدر عن مزمارٍ يُنسب اختراعه لأوزيريس. كان شخص آخر يختتم صفّ المؤمنين من الجهة الأخرى، وكان زيّه يتلاءم تماماً مع زيّ كهنة إيزيس من الطبقة الدنيا: رأسه حليق ويرتدي مئزراً حول حقويه. لكنّه كان يمسك في يده أحد الرموز المصريّة الأكثر غموضاً، وهو العنخ (مفتاح الحياة على شكل صليب)، الذي اكتشف العالم دينو[1] ركيزة

(1) والأصحّ دينون: دومينيك فيفان دينون Dominique Vivant Denon (1747 – 1825): هو نحات ورسّام وكاتب ودبلوماسيّ وعالم آثار فرنسيّ، عُيّن من قبل نابليون بونابرت مديراً لمتحف اللّوفر في الفترة ما بين 1802 و1815 في أعقاب الحملة الفرنسيّة على مصر.

مزخرفة برسمه المتكرّر في معبد فيلة، واعتبر أنّه يُستخدم لفتح قنوات سدّ النيل لحظة الطوفان، وتلاقى بذلك، دون أن يدري، مع العالم زويغا[1] الذي رأى فيه أيضاً مفتاحاً للنيل وعلامة الجبروت. لكنّ لأثريٍّ من زماننا وهو إينيو فيسكونتي[2] رأياً يقول إنّ العنخ هو رمز القوّة الخلّاقة والمبدعة وفيه يجتمع على غرار المذاهب الدينيّة في الهند «لينغام» (العضو الذكر)، و«يوني» (المهبل المقدّس). ويجدر القول ههنا إنّ أيّ أضحية دامية لم تقدّم على مذبح إيزيس، وإنّ النار لم تلتهم قطّ أجساداً حيّة. كانت إيزيس، مبدأ الحياة وأمّ كلّ الكائنات الحيّة، تأنف من الأضاحي الدامية. فقط ماء من النهر المقدّس أو حليب كانا يُهرَقان من أجلها، ومن أجلها أيضاً كان يُحرق البخور وعطور أخرى. في المعبد، كلّ شيء كان مميّزاً وذا مغزى: العدد المفرد للدّرجات التي بُني عليها المصلّى كان متّسماً بمعنى روحانيّ. وبشكلٍ عامّ، كان الكاهن المصريّ يسعى لأن يُحاط بتذكارات أرض النيل المقدّسة، وأن ينقل، بواسطة نباتات مصر وحيواناتها، أتباع هذا الدين الجديد إلى البلاد التي نشأ منها. ليس من قبيل الصدفة أن تُزرع نخلتان على جانبَي الغابة الصغيرة العطرة التي كانت تحيط بالمصلّى، فالنخيل الذي يُنبتُ كلّ شهرٍ أغصاناً جديدة كان رمز قوّة الآلهة العظام. من هنا كان حملة أغصان النخيل يظهرون في المواكب وقد نُوِّه بهم في النقوش الشهيرة لحجر رشيد. ثمّة أمر آخر يستحقّ اهتمامنا وهو حضور طيور الإيبيس

(1) جورج زويغا Georg Zoëga (1755–1809): عالم آثار دانمركيّ عمل طيلة حياته تقريباً في روما مولياً اهتمامه خصوصاً للكتابات الهيروغليفيّة على المسلّات.

(2) إينّيو فيسكونتي Ennio Visconti (1751–1818) عالم آثار إيطاليّ خلفَ فنكلمان Winckelmann في إدارة العاديّات ومتاحف روما، قبل أن يوكل إليه نابوليون عاديّات اللّوفر.

الأربعة خدّام الإلهة الكبيرة المقدّسين الذين نراهم موضوعين في غير مكان على السبيل المقدّس أو على أبي هول المعبد. في القصص الطبيعيّة القديمة والخرافيّة كان هناك حكم مسبق يصوّر هذا الطير المقدّس وكأنّه يستحيل عليه العيش خارج مصر. كما حصل فيما مضى، عقب التعبّد لجونون[1]، جاء الطواويس من آسيا، كذلك لحقت طيور الإيبيس الوفيّة بالإلهة المصريّة إلى ما وراء البحار، وطَردت إيزيس السيّدة جونون من معظم معابدها ومذابحها. حيثما توطّدت عبادة إيزيس، أتى طائر الإيبيس ليستقرّ. نادراً ما يظهر الطّير في الأنصاب القديمة بهذا الوضوح وبهذه العلامات المتميّزة كما ظهر على رسمَي إيزيس المحفوظين في نابولي. وفي نهاية الاحتفال، وفقاً لمقطع عند أبوليوس، كان أحد الكهنة يتلفّظ بالعبارة التقليديّة: اذهب أيّها الشعب! التي أصبحت العبارة المسيحيّة Ite, missa est، وعليها كان الشعب يردّ بعبارة وداعٍ معهودة للإلهة: هل أحوالك جيّدة أو هل تصونين صحّتك؟»

المقطع الثّامن والأخير

«إلّا أنّ معابد مكرّسة للآلهة الإغريق والرومان كانت تسترعي انتباهي بحجمها المهيب وأعمدتها الكثيرة، وبدا الإيسيوم (معبد إيزيس) ضائعاً بين المنازل الخاصّة. وأخيراً وبعد أن توغّلت هنا وهنالك في المباني، دخلت إلى حرم عبر باب منخفض وهناك، وعادت إليّ ذكرى اللّوحتين القديمتين اللّتين رأيتهما في متحف الدراسات واللّتين تمثّلان الاحتفالات

(1) Junon شقيقة جوبيتر كبير الآلهة في الأساطير الرومانيّة وزوجته. وكانت هي أيضاً كبيرة الإلهات وأكثرهنّ نفوذاً.

الموصوفة أعلاه في عبادة إيزيس وكانتا تتوافقان دون أدنى شكّ مع هندسة الصرح الذي كان أمام عينيّ. كانت فعلاً الباحة القديمة المغلقة فيما مضى[...]».

كوريّا

(إضاءة: في رسالة لاحقة على نشر «بنيات اللّهب» إلى ممثّل المسرحيّات الهزليّة ميشيل كاريه Michel Carré، كان نرفال يروي له أصل قصّة «كوريّا»: «كنتُ قد اخترتُ بطلةً لها الآنسة كولومب Melle Colombe، المغنّية الشهيرة للأوبرا الهزليّة القديمة، ولحبكتها نادرةً أخبرني إيّاها ميرل Merle. كان لكولومب شقيقة تقوم بالعروض على الجادّات. وكانتا قد جُلبَتا إلى باريس عن طريق شخصٍ من نابولي كان يعمل في مسرح الدّمى. توفّي هذا الرجل أو طردته الشرطة: والتقط كولومبَ أو خطفها رجل إنكليزيّ وجعلها تتلقّى دروساً في الموسيقى وأدخلها إلى الجوقات الموسيقيّة، أو بالأحرى إلى الباليه حيث اكتسبت شهرتها الواسعة بفضل عملها... خطرت لي في البداية فكرة أن أعثر على شقيقتها وكنت بحاجة إلى ممثّلتين متشابهتين، ثمّ هجرتُ فكرة الصّنوتين هذه». وهذه القصّة تجسّد الطابع المسرحيّ لبنيات اللّهب. وكوريّا تلعب دور ممثّلة الحبّ في المسرح كما في الحياة ممتحنة عشّاقها.[1])

الشخصيّات: فابيو، مارتشيلّي، ماتسيتو موظّف مسرح، وكوريّا المغنيّة الأولى في الأوبرا.

جادة سانتا لوتشيا[2] في نابولي بالقرب من الأوبرا.

فابيو، ماتسيتو.

---

(1) المترجمة، تلخيصاً عن شروح نشرة «فوليو كلاسيك» لهذا الكتاب، وضعها برتران مارشال.

(2) كانت جادّة سانتا لوتشيا آنذاك على شاطئ البحر قبل أعمال الرّدم التي جعلتها داخل الأراضي، وكانت الممرّ الإلزاميّ بين مسرح سان كارلو وحدائق فيلّا ريالي.

- فابيو: إذا كنت تخدعني يا ماتسيتو، فهذا عمل مشين...
- ماتسيتو: ليس عملي بأفضل... لكنّي أخدمك بتَفانٍ. ستأتي هذا المساء كما أقول لك. لقد استلمَتْ رسائلك وباقات أزهارك.
- فابيو: والسّلسلة الذهبيّة، والمشْبك المصنوع من أحجار كريمة؟
- ماتسيتو: عليك ألّا تشكّ في أنّها استلمتْها هي أيضاً. ستراها موضوعة في عنقها وحزامها. إلّا أنّ طراز هذه الجواهر عصريّ جدّاً ولم تجد لغاية الآن دوراً يوافق أن ترتديها وتبدو منسجمة مع زيّها.
- فابيو: ولكن ما قولك، هل انتبهت إلى وجودي؟ هل لاحظت المكان الذي أجلس فيه كلّ ليلة لأسعد بمرآها وأصفّق لها، وهل لي أن أحلم بأنّ هداياي ليست السبب الوحيد لموافقتها على رؤيتي؟
- ماتسيتو: أفٍّ منك يا سيّدي! ما أعطيتني إيّاه ليس بشيء لشخصٍ من طبقتها. ما إن تتعرّفان على بعضكما بشكل أفضل حتّى تُبادر إلى إهدائك رسماً شخصيّاً لك مزيّناً باللآلئ يساوي ضعف ما أرسلته لها. وكذلك الأمر بالنسبة للعشرة قروش التي سبق لك أن أعطيتني إيّاها، وللعشرين قرشاً الأخرى التي وعدتني بها ما إن تتأكّد من أوّل موعد تضربه لك. ليس هذا إلّا بمالٍ مُعار، كما أقول لك، وسيعود إليك مع فوائد كبيرة.
- فابيو: دعك من هذا، لا أريد شيئاً بالمقابل.
- ماتسيتو: لا يا سيّدي، يجب أن تعرف مع أيّ صنفٍ من الناس تتعامل، وبعيداً عن إفلاسك، أنت هنا على طريق الثروة الصحيح. هلّا تفضّلت وأعطيتني المبلغ الذي اتّفقنا عليه لأنّني مضطرّ للعودة إلى المسرح لأقوم بالمهامّ المتوجّبة عليّ كلّ مساء.

فابيو: ولكن لماذا لم تجبني، لماذا لم تحدّد لي موعداً؟

- ماتسيتو: لأنّها لم ترَكَ لحدّ الآن إلّا من بعيد أي من المسرح إلى المقصورة حيث تجلس، ولم ترَها أنت نفسك إلّا من المقصورة إلى المسرح. تريد أن تعرف قبل كلّ شيء كيف تبدو وتتصرّف. هل تفهمني؟ تريد أن تعرف نبرة صوتك، وما أدراني ماذا أيضاً! هل تريد أن تقبل المغنّية الأوّلى في سان كارلو بأوّل معجب يغازلها دون استعلام إضافيّ عنه؟

- فابيو: ولَكن هل سأجرؤ على الاقتراب منها؟ وهل يجب أن أعرّض نفسي، استناداً إلى كلامك، إلى عار صدّها لي أو أن أبدو في نظرها ذاك المتأنّق المبتذل؟

- ماتسيتو: أعود وأقول لك إنّ كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تتنزّه على طول هذا الرّصيف شبه المقفر في هذه السّاعة. وستمرّ مخفيةً وجهها تحت حاشية معطفها. ستوجّه إليك الكلام بنفسها وتحدّد لك موعداً لهذا المساء لأنّ المكان قلّما يصلح للاسترسال في الحديث. هل أنت راضٍ؟

- فابيو: آه يا ماتسيتو! إذا كنت تصدق القول فسوف تنقذ حياتي!

- ماتسيتو: وامتناناً لي ستعطيني العشرين لويسيّة التي اتّفقنا عليها.

- فابيو: ستأخذها بعد أن أتحدّث إليها.

- ماتسيتو: أنت كثير الارتياب. لكنّ حبّك يهمّني، وكنت لأخدمه بدافع الصداقة الخالصة لو لم يكن لديّ عائلة يجب إطعامها. قف هناك وكأنّك تحلم في دخيلائك أو كأنّك تؤلّف سونيتة ما. وأنا سأجول في الجوار استدراكاً لكلّ مفاجأة.

(يخرج.)

فابيو، وحده.

- فابيو: سأراها! سأراها للمرّة الأولى في وضح النهار، وسأسمع للمرّة الأولى كلمات فكّرت بها! إنّ كلمة واحدة منها لَكفيلة بأن تجعل حلمي يتحقّق أو يتلاشى إلى الأبد! آه! أخشى أن أضيّع الفرصة ههنا بدلاً من أن أفوز بها. كان شغفي عظيماً وصافياً يجتاح العالم دون أن يلمسه. لم يكن يسكن إلّا قصوراً منيرة وضفافاً مسحورة. ها هو ينحدر من عليائه إلى الأرض ويرغمني على سلوك دروبها أسوةً بكلّ هوى. وكمثل بيجماليون[1]، كنت أعبد الشكل الخارجيّ لامرأة. إلّا أنّ التمثال كان يتحرّك كلّ مساء تحت نظري برشاقة بديعة، ومن فمها لم يكن يتساقط إلّا لآلىء الأنغام. والآن ها إنّها تنزل إليّ. لكنّ الحبّ الذي صنع هذه المعجزة هو مجرّد خادم هزيل في ملهاة، والشعاع الذي يُحيي من أجلي هذا الوثن المعبود هو من تلك الأنوار التي سكبها جوبيتر في أحشاء دانايي[2]. ها قد وصلت! إنّها هي فعلاً؛ آه، تخونني الشجاعة وأرغب في الهرب لو أنّها لم ترني!

فابيو، وسيّدة ترتدي معطفاً.

---

(1) كتب نرفال في مكانٍ آخر يقول: «لا أخطر على الناس ذوي الطبع الحالم من أن يُخلصوا الحبّ لمن يتعاطى فنّ المسرح. هنا يغدو الحبّ كذبة متواصلة، حلمَ مريضٍ، توهُّمَ مجنونٍ. وحينئذٍ تتشبّث الحياة بكليّتها بوهْم لا يتحقّق، وكان من الأفضل للعاشق الاحتفاظ به في حالة الرغبة والشوق، لأنّه يتلاشى ما إنْ يرغب في لمس المعبود» («المتنوّرون،» المجلّد الأوّل، ص 120»).

(2) أخصبَ جوبيتر (زيوس عند اليونان) دانايي وقد جاءها على هيئة مطر من الذهب.

- السيّدة، وهي تمرّ بالقرب منه: أيّها الفارس النبيل، أعطني ذراعك أرجوك، أخشى أن يرونا، ولنمشِ بشكلٍ طبيعيّ. أرسلتَ لي رسالة تقول فيها...

- فابيو: ولم أتلقّ منكِ أيّ جواب...

- السيّدة: أوَ تكون متمسّكاً بكتابتي أكثر منك بكلماتي؟

- فابيو: سيحقد عليّ لسانك أو يدك إن كان عليّ أن أختار.

- السيّدة: لِتَكن اليد مصداقاً للّسان. رسائلك أثّرَت فيّ ووافقتُ على المقابلة التي طلبتها منّي. هل تعرف لماذا لا أستطيع أن أستقبلك في بيتي؟

- فابيو: قيل لي عن السّبب.

- السيّدة: أنا امرأة يتهافت عليها الرجال ويحاصرونها في كلّ مساعيها. هذا المساء، عند الساعة الخامسة مساءً، انتظرني على مستديرة فيلا ريالي. سآتي متنكّرة ويمكننا أن نتحادث لبضع لحظات.

- فابيو: سأكون هناك.

- السيّدة: والآن اترك ذراعي ولا تتبعني. أنا ذاهبة إلى المسرح. لا تظهر في القاعة هذا المساء... كن متحفّظاً وثقْ بي.

(تخرج)

فابيو (وحده): كانت هيَ فعلاً!... كشفت عن نفسها كلّها بِحَرَكة، كفينوس فرجيل[1]. لم أكد أرى وجهها، ومع ذلك فإنّ برق عينيها اخترق قلبي تماماً كما في المسرح، حين يلاقي نظرها نظري وسط الحشد. لم يفقد صوتها من سحره وهي تلفظ كلمات عاديّة. ومع ذلك كنت أظنّ حتّى

(1) «.... والإلهة الحقيقيّة أبانت عن نفسها في مشيتها» (فيرجيل، «الإنياذة»).

الآن أنّ صوتها خلق فقط للغناء كما لدى العصافير! لكنّ ما قالته يُساوي كلّ أبيات ميتاستاز[1]. وهذه النبرة الفائقة الصفاء وهذه اللّكنة الفائقة العذوبة ليست بحاجة لألحان بيزييلّو وسيماروزا[2] لكي تمارسا سحرهما. آه! إنّ كلّ هؤلاء البطلات اللواتي عبدتهنّ من خلالها: سوفونيسب[3]، وألسيم، وهرمينيا، وحتّى تلك الشقراء موليناارا اللواتي تؤدّي أدوارهنّ بروعةٍ بملابس أقلّ جمالاً، كنت أراهُنّ جميعهنّ محتبساتٍ في آنٍ معاً تحت هذا المعطف الأنيق وهذه القبّعة الساتان... ولكن ها هوَ ماتسيتو!

فابيو، ماتسيتو

- ماتسيتو: كيف سار الأمر يا سيّدي؟ هل أنا مخادع؟ هل أنا رجل ينكث بوعده، رجل لا شرف له؟
- فابيو: أنت الأكثر فضيلة بين الفانين! ولكن خذ صرّة النقود هذه ودعني بسلام.
- ماتسيتو: تبدو مستاء.
- فابيو: ذلك أنّ السعادة تجعلني حزيناً وترغمني على التفكير في الشّقاء الذي يتعقّبها عن كثبٍ دوماً.

(1) بييترو تراباسي Pietro Trapassi، الملقّب بميتاستازيو Metastasio (1698–1782) شاعر إيطاليّ ومؤلّف عدّة مسرحيّات موسيقيّة.

(2) جوفاني بيزييلّو Giovanni Paisiello (1740–1816) ودومينيكو سيماروزا Domenico Cimarosa (1794–1801) مؤلّفان موسيقيّان من نابولي مُحتفىً بهما في جميع أنحاء أوروبا.

(3) سوفونيسب Sophonisbe بطلة أوبرا لغلوك Gluck حملت اسمها عنواناً (1744)، وألسين Alcine (وليس Alcime) بطلة أوبرا «ألسينا» *Alcina* لهاندل (Haendel 1735)، وهرمينيا بطلة أوبرا «هرمينيا في نهر الأردنّ» *Erminia sul Giordano* (1633) لميكلانجلو روسي Michelangelo Rossi، وموليناارا Molinara بطلة أوبرا «موليناارا أو الحبّ المعرقَل» *La molinara ossia L'amor contrastato* (1788) لبيزييلّو Paisiello.

- ماتسيتو: ربّما كنت بحاجة إلى مالِك لكي تلعب اللّنسكيّة[1] هذه الليلة؟ أستطيع أن أعيده لك لا بل أن أديّنك غيره.

- فابيو: ليس هذا ضروريّاً البتّة. وداعاً.

- ماتسيتو: احترس من العين السيّئة، يا سيّد فابيو!

(يخرج)

فابيو وحده

- فابيو: أنا تعب من رؤية هذا النذل الذي ينغّص عليّ حبّي. ولكن الحمد لله لن أعود بحاجةٍ لهذا الرّسول. على أيّة حال ماذا فعل سوى أنّه سلّم بلباقة رسائلي وأزهاري التي رفضتْها وقتاً طويلاً؟ هيّا هيّا إنّ القضيّة عولجت ببراعة وفطنة، وأوشكت على النهاية...

ولكن لِمَ أنا تعس جدّاً هذا المساء، أنا الذي يفترض بي أن أطير من الفرح وأقرع الأرض بقدمٍ ظافرةٍ؟ ألم تستسلم أسرع قليلاً ممّا توقّعت وخصوصاً بعد إرسال الهدايا؟... حسناً ربّما كنت أرى الأشياء بسوداويّة كبيرة فيما يفترض بي الاهتمام فقط بتهيئة بلاغتي العشقيّة. من الواضح أنّنا لن نكتفي بالتحدّث بحنان وحبّ تحت الأشجار، وأنّني سأتمكّن فعلاً من اصطحابها لتناول العشاء في نزلٍ ما في كيايا[2]. ولكن عليّ أن أكون لامعاً، عاشقاً مولّهاً، وأن أنطق حديثي بنبرة أسلوبي، وأحقّق المثال الذي صوّرتْه رسائلي وأشعاري... وهذا ما لا أشعر تجاهه بأيّ دفءٍ ولا أيّ طاقة... أرغب أن أذهب لأنعش خيالي ببعض كؤوس من نبيذ إسبانيا.

---

(1) اللّنسكيّة: نوع من لعب الورق كان قديماً منتشراً بين الجنود الألمان المرتزقين.

(2) كيايا Chiaia: أحد أكثر شوارع نابولي في إيطاليّا أناقة.

فابيو، مارتشيلي

- مارتشيلّي: النبيذ وسيلة بائسة يا سيّد فابيو. إنّه أخوَن رفيق. ينتشلك من قصرٍ ويرميك في ساقية.

- فابيو: عجباً! هذا أنت يا سيّد مارتشيلّي. هل كنت تسمعني؟

- مارتشيلّي: لا، ولكن كنت أصغي إليك.

فابيو: هل قلت شيئاً لم يعجبك؟

- مارتشيلّي: على العكس. كنت تقول إنّك حزين وإنّك تريد أن تشرب. هذا كلّ ما استطعت سماعه من مناجاتك. أنا أكثر فرحاً ممّا يمكن للمرء أن يتصوّر. أتنقّل بخفّةٍ على امتداد هذا الرصيف مثل عصفور. أفكّر في أشياء مجنونة، ولا يمكنني البقاء في مكاني. وأخاف أن أتعب. لنترافق لبعض الوقت. لكأنّي مزهوّ لا من خمر بل لأنّي ممتلئ فرَحاً. وأحتاج لأن أتدفّق مثل زجاجة سيليري[1]، وأريد أن أهمس في أذنك بسرّ مدوّخ.

- فابيو: أشفق عليّ واختر أحداً ما مؤتمناً على أسرارك أقلّ انشغالاً بأموره الخاصّة. أنا قلق يا عزيزي. لا أفيدك بشيء هذا المساء، وحتّى لو أسررتَ لي أنّ الملك ميداس[2] نبتت له أذنا حمار أقسم لك أنّني سأكون غير قادرٍ على تذكّر ذلك غداً لأردّده.

- مارتشيلّي: وهذا ما أريده بحقّ الله! أريد مؤتمناً على السرّ أبكم مثل قبر.

(1) سيلّيري Sillery: شمبانيا تحمل اسم مدينة قريبة من رانس.

(2) ميداس: ملك في الميثولوجيا الإغريقيّة وضع حكماً في مباراة موسيقيّة بين أبولو والسّاتير مارسياس لكنّه فضّل مارسياس فعاقبه أبولو بأن جعل له أذني حمار وأخفاهما تحت قبّعته. لكن حلّاقه اكتشف السرّ، ولم يقدر على أن يحتفظ به فحفر حفرة في الأرض وهمس فيها: «ميداس له أذنا حمار»... لكنّ القصب الذي نما على الحفرة نشر السرّ في المكان.

- فابيو: حسناً وما أدراني بطرقك!... تريد أن تعلن حسن طالعك في الحبّ وقد اخترتني بشير مجدك.
- مارتشيلّي: على العكس، أريد أن أستبق إفشاء سرّ بأن أبوح لك مجّاناً ببعض الأمور التي لم يفتك أن ترتاب بأمرها.
فابيو: لا أعرف عمّ تتحدّث.
- مارتشيلّي: لا نحتفظ بسرّ مباح فيما الاعتراف يلزم.
- فابيو: لكنّي لا أرتاب بأيّ شيء يمكنه أن يخصّك.
- مارتشيلّي: يليق بي والحالة هذه أن أقول لك كلّ شيء.
- فابيو: ألن تذهب إذَن إلى المسرح؟
- مارتشيلّي: لا، ليس هذا المساء؛ وأنت؟
- فابيو: انا لديّ ما يشغلني. أحتاج للتنزّه وحيداً.
- مارتشيلّي: أراهن على أنّك تؤلّف أوبرا؟
- فابيو: حزرت.
- مارتشيلّي: ومن سيخطئ في ذلك؟ أنت لا تفوّت عرضاً واحداً من عروض سان كارلو. تصل عند افتتاح الأبواب، وهذا ما لا يفعله أيّ شخص من الطبقة الراقية. ولا تنسحب في منتصف الفصل الأخير، وتبقى وحيداً في الصالة. من الواضح أنّك تدرس فنّك بعناية ودأب. لكنّ أمراً وحيداً يقلقني: هل أنت شاعر أم موسيقيّ؟
- فابيو: شاعر وموسيقيّ.
- مارتشيلّي: أمّا أنا فلَست غيرَ هاوٍ ومؤلّف أغانٍ خفيفة. أنت تعرف تماماً أنّ تردّدي على هذه القاعة التي نتلاقى فيها باستمرار منذ بضعة أسابيع لا يمكن أن يكون إلّا سعياً في إثر مغامرة عاطفيّة...

- فابيو: وليست لديّ أيّ رغبة في الاستعلام عنها...
- مارتشيلّي: لا تسعَ للتهرّب منّي. فقط حين ستعرف كلّ شيء، سأتيقّن من اللّغز الذي يحتاجه حبّي.
- فابيو: الأمر متعلّق إذَن بإحدى الممثّلات... لا بورسيلا، أليس كذلك؟
- مارتشيلّي: لا، بل بالمغنّية الإسبانيّة الجديدة، كوريّا الإلهيّة!... بحقّ باخوس! لاحظتَ فعلاً الغمزات التي نتبادلها؟
- فابيو: (بانزعاج): أبداً!
- مارتشيلّي: ألم تلاحظ الإشارات التي نتبادلها حين يكون انتباه الجمهور موجّهاً إلى مكانٍ آخر؟
- فابيو: لم أرَ شيئاً مماثلاً!
- مارتشيلّي: عجباً! هل أنت شارد إلى هذا الحدّ؟ لقد أخطأتُ حين تبادر لي أنّك عالم ببعضٍ من سرّي. لكن، بما أنّ الاعتراف بدأ...
- فابيو (بحيويّة): نعم، بالتأكيد! تراني الآن متشوّقاً لمعرفة النهاية.
- مارتشيلّي: ربّما لم تنتبه قطّ كما يجب للسينيورة كوريّا؟ أنت مهتمّ بصوتها أكثر ممّا بوجهها أليس كذلك؟ حسناً انظر إليها، إنّها ساحرة!
- فابيو: أوافقك الرأي.
- مارتشيلّي: إنّ شقراء من إيطاليّا أو إسبانيا تتميّز دوماً بجمال خاصّ ونفيس بسبب من ندرته.
- فابيو: هذا هو رأيي أيضاً.

- مارتشيلّي: ألا تجد أنّها تشبه «جوديت» كارافاجّو[1] الموجودة في المتحف الملكيّ!

- أف! خلّصنا. أجب باختصار: أنت عشيقها أليس كذلك؟

- مارتشيلّي: عفواً... لست لحدّ الآن إلّا عاشقها.

- فابيو: تفاجئني.

- مارتشيلّي: عليّ أن أقول لك إنّها صارمة جدّاً.

- فابيو: هكذا يقولون.

- مارتشيلّي: إنّها نِمْرةٌ، إنّها برادامانته[2].

- فابيو: لا بل إنّها ألسيمادور[3].

- مارتشيلّي: بما أنّ بابها يبقى مقفلاً في وجه باقات الازهار التي أرسلها، ونافذتها موصدة في وجه أغاني السيريناد التي أؤلّفها، فكّرت والحالة هذه أنّ لديها أسبابها لكي تكون عديمة الإحساس... وأنّ تعفّفها يفترض أن يكون أقلّ صرامة على خشبة مسرح أوبرا. استكشفت الميدان وعلمت أنّ فتىً يدعى ماتسيتو بوسعه الوصول إليها نظراً للخدمات التي يقدّمها لها في المسرح...

- فابيو: وهل عهدت بأزهارك ورسائلك إلى ذاك السافل؟

(1) هذه اللوحة الشهيرة المنسوبة آنذاك إلى كارافاجّو Caravaggio هي في الواقع للرسّامة الإيطاليّة أرتيميزيا جنتيليسكي Artemisia Gentileschi (1593–1652).

(2) برادامانته Bradamante: المرأة المحاربة في «أورلاندو الغاضب» *Orlando furioso* وهي قصيدة ملحميّة إيطاليّة كتبها الشاعر لودوفيكو أريوستو (سبق ذكره) وكان لها تأثير واسع على الثقافة لاحقاً.

(3) ألسيمادور Alcimadure: شخصيّة المرأة القاسية في «دافنيس وألسيمادور» *Daphnis et Alcimadure*، الخرافة التي كتبها الشاعر الفرنسيّ لافونتين La Fontaine، حيث جمال المرأة مقرون بالقسوة والتوحّش.

- مارتشيلّي: كنت تعرف ذلك إذن؟
- فابيو: وأيضاً بعض الهدايا التي نصحك بتقديمها لها.
- مارتشيلّي: أما قلت لك أنّك كنت عارفاً بكلّ شيء؟
- فابيو: ألم تستلم رسالة منها؟
- مارتشيلّي: إطلاقاً.
- فابيو: سيكون أمراً غريباً جدّاً أن تكون السيّدة نفسها، لدى مرورها قربك في الشارع، حدّدت لك بصوتٍ خفيضٍ موعداً...
- مارتشيلّي: أنت الشيطان نفسه، أو أنّك نفسي!
- فابيو: وهل الموعد غداً؟
- مارتشيلّي: لا الموعد اليوم.
- فابيو: عند الساعة الخامسة مساء؟
- مارتشيلّي: عند الساعة الخامسة.
- فابيو: عند مستديرة فيلا ريالي؟
- مارتشيلّي: لا، أمام حمّامات نبتون[1].
- فابيو: لم أعد أفهم شيئاً البتّة.
- مارتشيلّي: ما بالك! هل تريد أن تحزر كلّ شيء وأن تعرف أفضل منّي كلّ شيء، هذا أمر خاصّ. الآن وقد قلتُ كلّ شيء، فإنّه أشرف لك أن تكون متحفّظاً.
- فابيو: حسناً اسمعني يا صديقي... لقد خُدعنا أنا وأنت.
- مارتشيلّي: ماذا تقول؟

(1) حمّامات نبتون: لا شكّ أنّها نافورة نبتون وهي اليوم في وسط ساحة بوفيو، ولكنّها كانت موجودة آنذاك في آخر شارع المدينة في ساحة موليه.

- فابيو: إمّا أحدنا أو الآخر، إذا شئت. لدينا موعد مع الشخص نفسه وفي الساعة نفسها، أنت أمام حمّامات نبتون وأنا في فيلا ريالي!
- مارتشيلّي: ليس لديّ الوقت لأسترسل في ذهولي. ولكنّي أسألك ما يكون سبب هذه المزحة الثقيلة.
- فابيو: إذا كان السّبب هو ما ينقصك فلن أتعهّد بأن أعطيك إيّاه. وإذا كانت ضربة سيف مبتغاك فاسحب سيفك من غمده.
- مارتشيلّي: أفكّر. لديك كلّ أفضليّةٍ عليّ في هذه اللحظة.
- فابيو: أنت موافق؟
- مارتشيلّي: بالله عليك! أنت عاشق تعيس، هذا واضح. كنت ستذهب لترمي بنفسك من أعلى هذا الحاجز أو تشنق نفسك بأغصان أشجار الزيزفون تلك لو أنّني لم ألتقِ بك. أنا، على العكس، أنا مرحّب بي، وأثير لديها، وعلى وشك النجاح في مسعاي. أتناول العشاء هذا المساء مع قبلة أمانيّ. سأقدّم لك خدمة لو قتلتك، ولكن إذا قتلتني فسترى أنّه سيكون مؤسفاً لو حصل ذلك قبل اللّقاء لا بعده. الأمور ليست متساوية. لنؤجّل المبارزة إلى الغد.
- فابيو: خطرت لي الفكرة نفسها. وأستطيع أن أردّد كلامك بالذات. وهكذا فإنّي أوافق على عدم معاقبتك إلّا غداً على ادّعائك المجنون. لم أكن أظنّك إلّا قليل التكتّم.
- مارتشيلّي: حسناً! لنفترق دون زيادة كلمة واحدة. لا أريد البتّة أن أرغمك على اعترافات مُذلّة، ولا أن أحرج سيّدة لم تُظهر لي إلّا كلّ ما هوَ حسن. أعتمد على تحفّظك وسأزوّدك غداً صباحاً بأخبار عن سهرتي.

- فابيو: وأنا أعدك بالمثل. ولكن لاحقاً ستتبارز بالسيف بطيبة خاطر. إلى الغد إذَن.

- مارتشيلّي: إلى الغد يا سيّد فابيو.

فابيو وحده.

- فابيو: لا أعرف أيّ هاجس تملّكني ودفعني إلى اللّحاق به عن بعد، بدل الذهاب في وجهتي. لنعد أدراجنا! (يقوم ببضع خطوات). يستحيل أن تصل الجسارة إلى هذا الحدّ. ولكنّه والحالة هذه لن يستطيع العودة عن ادّعائه والاعتراف لي بكذبته. هكذا هم شبّان هذا العصر المجانين. لا شيء يقف في وجههم. هم الظافرون والمفضّلون لدى جميع النساء، ولائحة الدّون جوان لن تكلّفهم إلّا مشقّة كتابتها. ولكن، إذا كان هذا الجمال يخدعنا كلينا فلن يكون ذلك في السّاعة نفسها. هيّا، أظنّ أنّ اللحظة تقترب وأنّني أُحسن صنيعاً بالتوجّه نحو فيلا ريالي التي لا بدّ أنّها خلت من المتنزّهين، واستعادت هدوءها. ولكن، بالله عليكم، ألا أرى هناك مارتشيلّي يتأبّط ذراع امرأة؟... أنا مجنون حقّاً. إذا كان هو فلن تكون هي... ما العمل؟ إذا ذهبت باتّجاهها، فسأفوّت عليّ موعدي... وإذا لم أبدّد الشكّ الذي يساورني فإنّي أوشك، بذهابي إلى هناك، على أن أبدو كالأبله. إنّها لحيرة فتّاكة. الوقت يمضي، وأنا أذهب وأجيء وحالي من أغرب ما يكون. لمَ قادني القدر لأن ألتقي بهذا الطائش الذي قد يكون مخادعاً؟ ربّما عرف بحبّي للمرأة عبر ماتسيتو وكلّ ما أتى ليخبرني به مكر غامض وسأعرف كيف أكشفه. حزمت أمري

وسأهرع إلى فيلا ريالي (يعود أدراجه). أقسم بوفائي الأبديّ... إنّهما يقتربان. إنّه المعطف نفسه المزيّن بالدنتيلا الطويلة. إنّه فستان الحرير الرماديّ نفسه... خطوتان ويصيران لصقي. يا ويلي! إذا كانت هي، إذا كنت مخدوعاً.... فلن أنتظر إلى الغد لكي أنتقم منهما هما الاثنين!... ماذا سأفعل. إنها لفضيحة سخيفة... لنختبئ خلف هذه التعريشة فأتأكّد بشكلٍ أفضل من أنّهما هما حقّاً.

فابيو مختبئاً؛ مارتشيلّي؛ السينيورة كوريّا تتأبّط ذراعه.

- مارتشيلّي: أجل أيّتها السيّدة الجميلة، ترين إلى أيّ حدّ يذهب ادّعاء بعض الناس. هناك في المدينة فارس يتباهى بأنّه هو أيضاً حظيَ بمقابلة معك هذا المساء. وإذا لم أكن متأكّداً من أنّك تتأبّطين ذراعي الآن، ووفيت بوعدٍ رقيقٍ كنتِ أرجأتِه مراراً...
- كوريّا: كفاك مزاحاً يا سيّد مارتشيلّي. وهذا الفارس العنجهيّ المتعجرف... هل تعرفه؟
- مارتشيلّي: لقد باح لي أنا بالذات بأسراره...

يطلّ فابيو من خلف التعريشة:

- فابيو: أنت تكذب يا سيّدي، أنت من ائتمنتني على أسرارك... سيّدتي من غير المجدي التمادي أكثر. قرّرت أن أتّقي كيد النساء. بإمكان السيّد مارتشيلّي أن يصطحبك إلى بيتك لأنّك تتأبّطين ذراعه. ولكن فليتذكّر جيّداً بعد ذلك أنّني في انتظاره.
- مارتشيلّي: اسمع يا عزيزي حاول في هذه المسألة ألّا تكون سخيفاً.
- فابيو: قلت إنّني سخيف؟

- مارتشيلّي: اسمعني، إذا كان يحلو لك أن تثير فضيحة فانتظر حتّى يطلع النهار. لا أبارز تحت الفوانيس ولا أهتمّ البتّة بأن يوقفني حرّاس الليل.

- كوريّا: هذا الرجل مجنون. ألا ترى ذلك؟ لنبتعد!

- فابيو: آه يا سيّدتي! يكفي... لا تحطّمي تماماً هذه الصورة الجميلة التي أحتفظ بها عنكِ في عمق قلبي صافيَةً مقدّسة. للأسف! كنت سعيداً بأن أحبّكِ عن بعد، وأن أكتب لكِ... كان لديّ القليل من الرجاء وكنت أطلب أقلّ ممّا وعدتني به!

- كوريّا: كتبتَ لي؟ لي أنا!

- مارتشيلّي: أفّ! ما همّ؟ ليس المكان مناسباً لهذه الإيضاحات...

- كوريّا: وبمَ وعدتك يا سيّد؟... لا أعرفك ولم يسبق لي أن كلّمتك.

- مارتشيلّي: هذا يكفي! ما همّ حتّى لو قلت له كلمات خرقاء! يا للخطيئة العظيمة! هل تظنّين أنّ حبّي يهتمّ لتلك السخافات؟

- كوريّا: ولكن ماذا دهاك أنت أيضاً يا سيّد؟ والآن... بما أنّ الأمور ذهبت إلى هذا الحدّ، أريد أن توضّح كلّ الأمور في هذه اللّحظة. يظنّ هذا الفارس أنّه لديه الحقّ في أن يلومني على تصرّف صدر عنّي: فليتكلّم وليعرّف بنفسه قبل كلّ شيء لأنّني أجهل مَن يكون وماذا يريد.

- فابيو: اطمئنّي سيّدتي! يخجلني أنّني أثرت هذا اللّغط واستسلمت لأوّل ردّ فعل بسبب ارتباكي. تتّهمينني بالزيف، وفمكِ الجميل لا يمكنه أن يكذب. كما قلتِ، أنا مجنون؛ كنت أحلم هنا بالذات، منذ ساعة، بطيفٍ عبرَ وكأنّه طيفك وبادرني بكلماتٍ عذبة، ووعدني

بالرّجوع... لا شكّ أنّ في الأمر سحراً ما، ومع ذلك فإنّ كلّ التفاصيل ماثلة في ذهني. كنتُ هنا. ورأيت لِتوّي الشمس تغيب وراء تلّة البوزيلّيبو وتزيّن جزيرة إيسكيا بحاشية معطفها المتوهّج. كان البحر يقتم في الخليج، والأشرعة البيضاء تسرع بالعودة إلى اليابسة وكأنّها حمائم متأخّرة... كما رأيت، أنا حزين حالم. لا بدّ أنّ رسائلي أعلمتك بذلك لكنّك لن تري وجهي بعد اليوم أقسم لكِ. وداعاً.

- كوريّا: رسائلك... تمهّل، كلّ ما تقوله أشبه بملهاة معقّدة. اسمح لي ألّا أتوقّف عندها أكثر. سيّد مارتشيلّي هل لك أن تتأبّط ذراعي من جديد وتصطحبني إلى بيتي بأقصى سرعة.

(فابيو يحيّي ويبتعد).

- مارتشيلّي: إلى بيتكِ يا سيّدتي؟
- كوريّا: نعم، هذا المشهد يجعلني أضطرب!... هل رأيت شيئاً أغرَب من هذا؟ إذا لم تكن ساحة القصر قد أقفرت بعد فسنجد عربة تقلّنا... ها هم خدّام المسرح يخرجون. نادِ على أحدهم...
- مارتشيلّي: مهلاً، ليأتِ أحدكم إلى هنا... ماذا هل تشعرين فعلاً بأنّك مريضة؟
- كوريّا: لدرجة أنّني لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة بعد...

فابيو، ماتسيتو، مارتشيلّي، كوريّا.

- فابيو (مجتذباً ماتسيتو): انظروا من هنا! إنّه الخائن الذي تلاعبَ بي، وقد أرسلته لنا السماء.

- مارتشيلّي: هاكم ماتسيتو! أكبر مخادع في مملكة الصقليتَين. عجباً! هل هوَ أيضاً رسولك؟

- ماتسيتو: اذهبا إلى الجحيم! أنتما تخنقانني.

- فابيو: ندين لك بإيضاح...

- ماتسيتو: ماذا تفعل هنا يا سيّد؟ كنت أظنّك حسن الطالع؟

- فابيو: وأنت سيّئه. ستموت إن لم تعترف بكذبك كلّه.

- مارتشيلّي: انتظر يا سيّد فابيو. لديّ أنا أيضاً حقوق عليه. تعال، حسابك عندي.

- ماتسيتو: يا سيّديَّ إذا كنتما تريدان أن أفهم ما يحصل فلا تضربا كلاكما في الوقت نفسه. ما الأمر تحديداً؟

- فابيو: تسأل عمّا يحصل أيّها البائس؟ رسائلي ماذا فعلت بها؟

- مارتشيلّي: وبأيّ طريقةٍ لوّثت شرف «السينيورة» كوريّا؟

- ماتسيتو: يا سيّدي هل بإمكاننا أن نتفاهم؟

- مارتشيلّي: لا يوجد هنا إلّا السينيورة كوريّا نفسها ونحن الاثنين. أي أنّ هناك رجلين سيتبارزان غداً بسببها أو بسببك.

- ماتسيتو: تمهّلا، لقد أصبح الأمر خطيراً وطيبة قلبي تمنعني من أن أخفي أكثر...

- فابيو: تكلّم.

- ماتسيتو: على الأقلّ أعيدا سيفَكما إلى غمدَيهما.

- فابيو: إذَن نستبدلها بالعصيّ.

- مارتشيلّي: لا، بإمكاننا إعفاؤه إذا قال الحقيقة كاملة، لكن بهذا الشّرط فقط.

- كوريّا: إنّ وقاحَته تستفزّني إلى أقصى حدّ.
- مارتشيلّي: وهل أقتله قبل أن يتكلّم؟
- كوريّا: لا. أريد أن أعرف كلّ شيء وأريد ألّا يكتنف أيّ شكّ صدقي في هذه المغامرة المشبوهة.
- ماتسيتو: اعترافي هو مدح لك يا سيّدتي. إنّ كلّ نابولي تعرف حياتك المتقشّفة. إلّا أنّ السيّد مارتشيلّي الذي ترينه أمامك كان متيّماً بك. وقد عقد النيّة على الاقتران بك إن أنتِ تخلّيت عن المسرح. ولكنْ، كان حريّاً به على الأقل أن يضع عند قدميكِ ولاء قلبه، لا أقول ثروته، ولكنّك حصلت على الاثنين وهو يعرف ذلك...
- مارتشيلّي: سافل!
- فابيو: دعه يُكمل...
- ماتسيتو: رهافة الدافع جعلتني أنحاز إليه. وكان سهلاً عليّ بصفتي خادماً في المسرح أن أضع رسائله أمام مرآتكِ. الرسائل الأولى أُحرقت وتلك التي تُركت مفتوحة لاقت استقبالاً أفضل. وآخر رسالة دفعتكِ لإعطاء موعد للسيّد مارتشيلّي الذي جازاني إحساناً بمثله!...
- مارتشيلّي: ولكن من طلب منك سرد كلّ هذه القصّة؟
- فابيو: وأنا أيّها الخائن! أيّها المرائي! كيف خدمتني؟ رسائلي هل سلّمتها؟ ومَن هيَ المرأة المحجّبة التي أرسلتها لي منذ قليل وقلت لي إنّها «السينيورة» كوريّا نفسها؟
- ماتسيتو: آه يا سيديّ ماذا كنتما ستقولان عنّي وأيّ فكرة كانت ستخطر لسيّدتي لو سلّمتها رسائل مكتوبة بخطّين مختلفَين وباقات

من عاشقَين؟ يجب أن يكون هناك نظام في كلّ شيء، وأنا أحترم سيّدتي كثيراً ولا يمكنني أن أتصوّر أنّ لديها الرغبة في أن تواجه حبَّين في وقتٍ واحد. ولكنّ يأس السيّد فابيو، عندما امتنعت في المرّة الأولى عن خدمته، أثّر فيَّ بشكلٍ خاص. تركته بدايةً يعبّر عن قريحته في الرسائل والأشعار وتظاهرت بتسليمها للسيّدة مفترضاً أنّ هذا الحبّ يمكنه أن يكون فعلاً من تلك الغراميّات التي تأتي مراراً لتحرق أجنحتها بنيران المسرح، كغراميّات تلامذة المدارس والشعراء التي نرى منها الكثير... ولكنّ الأمر كان جديّاً أكثر لأنّ صرّة نقود السيّد فابيو نفدت كأنّها لتثنيني عن قراري الفضيل.

- مارتشيلّي: كفى! السّينيورة لا شأن لنا بهذه الاستطرادات، أليس كذلك؟

- كوريّا: دعه يتكلّم. ليس ما يدعو إلى التعجيل يا سيّدي.

- ماتسيتو: وأخيراً، فكّرت أنّ السيّد فابيو مأخوذ فقط بالنظر إلى السيّدة كوريّا لأنّه لم يستطع قطّ الاقتراب منها ولم يسمع قطّ صوتها إلّا حين تغنّي، فافترضت أنّه يرضى بمجرّد الحديث إلى مخلوقة تملك قامة وإطلالة مشابهتين للسّينيورة كوريّا... عليّ القول إنّه سبق أن لاحظت فتاة تبيع الأزهار على امتداد شارع طليطلة أو أمام المقاهي في ساحة موليه. أحياناً كانت تتوقّف لحظة وتغنّي أغاني إسبانيّة خفيفة بصوتٍ قويّ النبرة.

- مارتشيلّي: بائعة أزهار تشبه السينيورة؟ كفاك هزلاً! أيعقل ألّا ألاحظ وجودها أنا أيضاً؟

- ماتسيتو: يا سيّدي، وصلتْ حديثاً في سفينة شراعيّة قادمة من

صقلية ولا تزال ترتدي زيّ بلادها.

- كوريّا: ليس هذا بالأمر الممكن بطبيعة الحال.

- ماتسيتو: اسألا السيّد فابيو، ألم يظنّ لدى مرورها أنّها، بسبب الزيّ الذي ترتديه، كانت السيّدة كوريّا نفسها؟

فابيو: حسناً إنّ هذه المرأة...

- ماتسيتو: هذه المرأة يا سيّد هي تلك التي تنتظرك عند فيلا ريالي أو بالأحرى هي التي لم تعد تنتظرك بما إنّ الوقت تأخّر كثيراً.

- فابيو: هل بالإمكان تخيّل مؤامرة أكثر تعقيداً ودناءة؟

- مارتشيلّي: أنت مخطئ. إنّها مغامرة ممتعة، وكما رأيت، السينيورة نفسها لا تستطيع الامتناع عن الضحك... هيا أيّها الفارس الجميل، لنفترق دون حقد وعاقب هذا الحقير كما يستحقّ... أو بالأحرى هل تعرف، استفدْ من فكرته: الغيمة التي كان إيكسيون[1] يقبّلها كانت تساوي في نظره الإلهة التي كانت صورةً عنها وأعتقد أنّك أشعرُ من أن تهتمّ كثيراً للوقائع. عمت مساءً يا سيّد فابيو!

فابيو، ماتسيتو.

- فابيو (لنفسه): كانت هنا! ولم تصدر عنها كلمة إشفاقٍ واحدة أو أيّ علامة اهتمام! كانت تتفرّج على هذا السّجال الذي كان يلحق بي العار، وهي باردة متجهّمة. ثمّ رحلت بازدراء دون أن تقول كلمة واحدة، هازئة ربّما من عدم لَباقَتي وسذاجتي!... آه! بإمكانك

(1) شُغف إيكسيون بجونون، أخت الإله جوبيتر وزوجته، فخدعه جوبيتر بغيمة كان لها شبَه كبير بجونون. ومن هذا الوصال الوهميّ ولدت القنطورسات (كائنات خرافيّة نصف جسم الواحد منها رجل ونصفه الآخر حصان).

الانصراف أيّها الصعلوك المحتال، لم أعد ألعن سوء طالعي، وسأذهب للسّير على طول الشاطئ حالماً بحظّي العاثر. ما عدت قادراً على الغضب.

– ماتسيتو: يا سيّدي، ستحسن صنيعاً بذهابك لتحلم قرب فيلا ريالي. ربّما كانت بائعة الأزهار تنتظرك...

فابيو وحده.

في الحقيقة، ربّما كان فضولي يدفعني لملاقاة هذه المخلوقة ومعاملتها كما تستحقّ. تُرى مَن تكون هذه المرأة التي قد تشارك في مثل هذه المؤامرة؟ أهيَ طفلة ساذجة لُقِّنت الدرس أم أنّها مجرّد فتاة وقِحَة تقوم بمهمّة أُوكلت إليها طمعاً بالمال؟ ولكن لا بدّ أنّ ذاك الخادم ذو عقل تافه فيظنّني أهلاً للوقوع في هذا الفخّ لحظةً واحدة. ومع ذلك فهي تشبه تلك التي أحبّها... وأنا نفسي، عندما صادفتها محجّبة، ظننتُني تعرّفت على مشيتها وعلى النبرة الفائقة الصفاء لصوتها... هيا عمّا قريب ستكون الساعة السادسة مساءً وها إنّ آخر المتنزّهين يبتعدون صوب سانتا لوتشيا وصوب كيايا، وشرفات المنازل تمتلئ بالناس... وفي هذه الساعة يتعشّى مارتشيلّي مبتهجاً مع فريسته السّهلة. لا تهوى النساء إلّا هؤلاء الفاسقين عديمي الإحساس.

فابيو، بائعة أزهار.

– فابيو: ماذا تريدين منّي يا صغيرة؟

– بائعة الزّهر: يا سيّدي أبيع وروداً، أبيع أزهار الرّبيع. هلّا اشتريت منّي كلّ الأزهار المتبقّية لتزيّن بها غرفة عشيقتك؟ سوف تُقفَل

الحديقة عمّا قريب ولا أستطيع أن أعيدها معي إلى المنزل وإلّا فإنّ أبي سيضربني. خذها كلّها مقابل ثلاثة كرلينات[1].

- فابيو: أوَ تظنّين أنّ أحداً ينتظرني هذا المساء. وهل تجدين على سيمائي ما يدلّ على أنّني عاشق محظوظ؟

- البائعة: اقتربْ هنا من الضوء. تبدو لي فارساً جميلاً. وإذا لم يكن أحدٌ ينتظرك فهذا لأنّك تنتظر... آه! يا إلهي!

- فابيو: ما بكِ يا صغيرتي؟ ولكنّ هذا الوجه.... آه! فهمت كلّ شيءٍ الآن: أنت كوريّا المزيّفة! في مثل سنّك يا صغيرتي، وتشرعين في هذه المهنة القذرة!

- البائعة: في الواقع يا سيّدي أنا فتاة نزيهة وستحكم عليّ بشكلٍ أفضل فيما بعد. لقد جعلوني أتنكّر في ثوب سيّدة كبيرة ولقّنوني كلماتٍ غبياً. ولكنْ، عندما رأيت أنّ هذه مهزلة لخداع رجل مستقيم لذت بالفرار وارتديت من جديدٍ ثياب الفتاة الفقيرة التي هي أنا، وذهبت، كما في كلّ مساء، لأبيع أزهاري في ساحة موليه وفي ممرّات الحديقة الملكيّة.

- فابيو: وهل ما تقولينه صحيح فعلاً؟

- البائعة: بالتأكيد، لذا أقول لك وداعاً يا سيّدي. وبما أنّك لا تريد أزهاري فسأرميها لدى عودتي في البحر، وغداً تكون قد ذبلتْ.

- فابيو: أيّتها الفتاة المسكينة، هذا الثوب يليق بك أكثر من الآخر. وأنصحكِ بألّا تفارقيه أبداً. أنت زهرة الحقول البريّة، ولكن من بإمكانه أن يخطئ بينكما أنتما الاثنتين؟ ربّما كنتِ تذكّرينني ببعضِ

---

(1) كرلينات: مفردها كرلان Carlino، باسم كارلو الأوّل Carlo I، وهي نقد إيطاليّ قديم.

من ملامحها ولعلّ قلبك أثمن من قلبها. ولكن من يستطيع أن ينوب في نفس عاشقٍ عن الصورة الجميلة التي يطيب له كلّ يوم أن يزيّنها بحظوةٍ جديدة؟ تلك المرأة لم تعد موجودة حقّاً على الأرض. إنّها محفورة فقط في صميم القلب المخلص. ولا يوجد رسم بإمكانه أن يصوّر جمالها الذي لا يذبل.

- البائعة: ومع ذلك قيل لي إنّني كنت أضاهيها فعلاً لولا غنجها، أظنّ أنّني لو تزيّنت مثل السينيورة كوريّا، وظهرت على المسرح في كنف الشموع المضيئة والموسيقى لأمكنني إثارة إعجابك مثلها، وهذا دون حاجتي إلى بياض اللؤلؤ والأصباغ.

- فابيو: إذا كان ما قلته يجرح كبرياءك أيّتها الفتاة الصغيرة فستحرمينني حتّى اللذّة التي أجدها في النظر إليك قليلاً. ولكنّك نسيتِ حقّاً أنّها لؤلؤة إسبانيا وإيطاليّا، وأنّ قدميها هما الأرهف ويديها الأكثر روعة في العالم. أيّتها الطفلة المسكينة! ليس البؤس هو الثقافة المطلوبة لدى هؤلاء الحسان المكتملات اللّواتي تناوب على رعايتهنّ الترف والفنّ.

- البائعة: انظر إلى قدمي على مقعد الرخام هذا. هي أيضاً تبدو جميلة في الحذاء البنيّ. ويدي هل لمستَها فقط؟

- فابيو: صحيح أنّ قدميك ساحرتان ويديك أيضاً... يا إلهي كم هما ناعمتان... ولكن اسمعي. لا أريد أن أخدعك يا طفلتي! هي وحدها التي أحبّ، والسّحر الذي أغواني لم يولد في سهرة. منذ ثلاثة أشهر وأنا في نابولي. لم أفوّت مشاهدة الأوبرا التي تمثّل فيها يوماً واحداً. أنا فقير جدّاً ولا يمكنني أن ألمع قربها كجميع الفرسان

الوسيمين الذين يحيطون بها في النزهات. ثمّ إنّني لا أملك عبقريّة الموسيقيّن ولا شهرة الشعراء الذين يلهمونها ويرعون موهبتها. كنت أذهب دون رجاء لأسكَرَ من مرآها وأغانيها، وآخذ حصّتي من هذه اللذّة الممنوحة للجميع، التي كانت بالنسبة لي وحدي هي السّعادة والحياة. آه! ربّما كنتِ تساوينها فعلاً، في الواقع... ولكن هل تملكين هذا الظّرف الرائع الذي يتجلّى في أشكالٍ كثيرة؟ هل تملكين هذه الدموع وهذه الابتسامة؟ هل لديك هذا الغناء الإلهيّ الذي من دونه ليست الألوهة إلّا وثناً جميلاً؟ ولكن عندئذٍ ستكونين حيث هي، ولن تبيعي الأزهار للمتنزّهين في فيلا ريالي...

- البائعة: لماذا الطبيعة إذ حبتْ عليّ بهيئتها نسيتْ أن تسبغ عليَّ جمال الصوت؟ أغنّي بطريقة جيّدة للغاية، أقسم لك. لكنّ المخرجين المسرحيّين في دون كارلو لن تخطر لهم الفكرة في أن يعثروا على السيّدة الأولى في الساحة العامّة... اسمع أبيات الأوبرا هذه التي حفظتها ما إن سمعتها في مسرح «لا فينيتشه» الصغير.

(تغنّي لحناً إيطاليّاً):

«ما أعذب الاحتفاظ بسلام القلب وهدأة الفكر

من الحكمة أن نحبّ في ربيع العمر، وأكثر حكمة ألّا نحبّ.

- فابيو (مرتمياً عند قدمَيها): آه أيّتها السيّدة من ذا الذي سيجهلك الآن؟ ولكن ليس هذا ممكناً... أنت إلهة حقيقيّة وستحلّقين عالياً! يا إلهي! كيف أشكرك على هذه النِّعَم الكثيرة؟ أنا غير جدير بأن أحبّك لأنّي لم أتعرّف عليك فوراً!

- كوريّا: ألم أعد بائعة الزهر؟... حسناً أشكرك. لقد تمرّنت هذا المساء على دورٍ جديدٍ وكنتَ متجاوباً بشكل رائع.
- فابيو: ومارتشيلّي؟
- كوريّا: انظر، أليس هو مَن أراه يتسكّع بحزن على طول هذه الضفاف كما كنت تفعل منذ قليل؟
- فابيو: لنتجنّبه، لنتوغّل في ممرّ.
- كوريّا: لقد رآنا إنّه آتٍ نحوَنا.

فابيو، كوريّا، مارتشيلّي.
- مارتشيلّي: مرحى! يا سيّد فابيو هل عثرت إذَن على بائعة الأزهار؟ بشرفي حسناً فعلتَ وأنت أسعد منّي هذا المساء.
- فابيو: ماذا تقول! ماذا فعلتَ بالسينيورة كوريّا؟ كنتما ذاهبين لتناول العشاء وبدوتما مبتهجين.
- مارتشيلّي: بشرفي، ليس بالإمكان فهم شيء من نزوات النساء. ادّعت أنّها مريضة، ولم أستطع إلّا اصطحابها إلى منزلها. ولكن غداً...
- فابيو: غداً لن يساوي هذا المساء يا سيّد مارتشيلّي.
- مارتشيلّي: لنر إذَن هذا التشابه بين المرأتين الذي أُطريَ عليه كثيراً... هي ليست بسيّئة والله! ولكن ما أبعدها عن التميّز والظرف. هيّا، استرسل في الوهم كما تشاء... أنا سأفكّر في السيّدة الأولى لِسان كارلو، التي سأتزوّجها في غضون ثمانية أيّام.
- كوريّا (مستعيدة نبرتها الطبيعيّة): يجدر بك أن تمعن التفكير في هذا الشأن يا سيّد مارتشيلّي. أنا أتردّد كثيراً في الزّواج. لديّ ثروة وأريد

أن أختار. سامحني على أنّي كنت ممثّلة في الحبّ كما في المسرح وأنّني امتحنتكما أنتما الاثنين. الآن سأكلّمكما بصراحة، لا أعرف كثيراً أيّاً منكما يحبّني، وأحتاج إلى أن أعرفكما أكثر. السيّد فابيو لا يعبد فيّ إلّا الممثّلة ربّما، وحبّه يحتاج إلى المسافة والمسرح المضاء. وأنت يا سيّد مارتشيلّي يبدو لي أنّك تحبّ نفسك قبل الجميع وأنّك تنفعل بصعوبة عند الحاجة. أنت رجل صالونات وهو شاعر حالم. والآن تفضّلا كلاكما ورافقاني. كلّ منكما راهنَ على أنّه سيتعشّى معي وقد وعدت كلّاً منكما، سنتعشّى سويّة وماتسيتو سيخدمنا.

- ماتسيتو (يظهر على المسرح ويتوجّه إلى الجمهور) وعلى هذا يا سادتي تروْنَ أنّ هذه المغامرة الملتوية ستنتهي بالطريقة الأكثر أخلاقيّة. اعذروا أخطاء الكاتب.

إميليا

(إضاءة: قدّم جيرار دونرفال هذه القصّة في البداية على أنّها «ذكرى من الثّورة الفرنسيّة». وهي تستند إلى واقعة تاريخيّة: المقاومة الظافرة لحامية حصن بيش ضدّ الهجوم الذي قام به البروسيّون ليل 17 نوفمبر 1793. تتمحور القصّة حول هذه الواقعة العسكريّة التي تنتمي إلى المأساة، وتدور في مكان ملتبس (منطقة حدوديّة بين فرنسا وبروسيا) وفي زمن ملتبس أيضاً (زمن الحرب الثوريّة)، لا بل هو أكثر التباساً، لأنّه يغيّر الحدود: بيش Bitche *(إحدى بلدات محافظة لا موزيل* La Moselle *الفرنسيّة، قريبة من الحدود الألمانيّة) وهاغنو* Hagueneau*، اللّتان يفترض بهما أن تغيّرا حدودهما مع الثورة، بينما في الواقع التاريخيّ هاتان المدينتان فرنسيّتان منذ 1648، هما المكان الرمزيّ لهذه القصّة التي تدور بين عالمين يتداخلان ويتسبّب تداخلهما في خلق إخوة أعداء. ولكنْ، في «إميليا»، كما في مجمل العالم النرفاليّ، ليست الثنائيّة جغرافيّة فقط بل ترتدي أشكالاً متعدّدة: ثنائيّة ثقافيّة، بين فرنسا الأنوار وألمانيا الرومنطيقيّة؛ وثنائيّة رمزيّة، خصوصاً بين العالم النهاريّ والعالم الليليّ، بين عالم الأحياء وعالم الموتى، بين العالم الأرضيّ والعالم الدياميسيّ (النفق حيث يلقى الرقيب البروسيّ مصرعه، وحيث الابن يسعى إلى الانتقام لأبيه). هذه الحدود هي أيضاً متنقّلة. قبل قصّة «أوريليا» وما كتبه نرفال عن «انذياح الحلم في العالم الواقعيّ» بوقتٍ طويل، تحدّثُنا قصّة «إميليا» عن عالم تنتقل فيه جميع الحدود وتنتج أوعيَة*

متّصلة. وهذه العوالم الليليّة أو الديماسيّة تملك معادلها في النفس العميقة كما يشهد على ذلك الحلم التنبؤيّ لبطل القصّة الضابط ديروش الذي يجعل منه نرفال أورفيوس جديداً: «ألفى نفسه في أسفل ممرّ تحت الأرض وخلفه كان طيف أبيض يمشي وثوبه يلامس كاحلَيه....». إنّ «إميليا» هي رحلة إلى الجحيم، وفي نهايتها كما في نهاية أسطورة أورفيوس يفقد ديروش حبيبته أوريديس، أي إميليا، تلك التي لم تكن زوجته إلّا مدنيّاً. يختار «هذا المسيحيّ شبه الشكّاك» الموت بمباركة ارتجاعيّة من لدن الكاهن كما لو أنّ الزّواج الدّينيّ لا يمكنه أن يتحقّق إلّا بالموت. في هذه النقطة يتحقّق الانتقال الأقصى للحدود المعلن في بداية القصّة على لسان آرتور: «في تلك اللّحظة [لحظة موته] كلّ غريزةٍ متعلّقةٍ بالانتماء القوميّ تمّحي، وأشكّ في أن يفكّر المرء في بلدٍ آخر غير العالم الآخر، وبإمبراطورٍ آخر غير الله»[1].

... لا أحد عرف بالضبط قصّة الضابط ديروش الذي لقي مصرعه السنة الفائتة في هامبرغن[2]، بعد شهرين من زواجه. إذا كان ما حدث يعدّ انتحاراً حقيقيّاً فليسامحه الله! ولكنّ من مات دفاعاً عن وطنه لا يستحقّ أن تدعى فعلته انتحاراً، أياً يكن ما فكّر فيه على أيّة حال.

قال الدكتور: «ها قد عدنا من جديد إلى موضوع القتل المتعمّد للنفس. كان ديروش فيلسوفاً[3] وعقد العزم على مفارقة الحياة. لم يشأ أن يكون موته لا طائل منه. ارتمى بشجاعة في المعركة وقتل أكبر عددٍ ممكنٍ من الألمان وهو يقول: «لا يمكنني أن أفعل ما هوَ أفضل في الوقت الحاضر.

(1) المترجمة، تلخيصاً عن شروح نشرة «فوليو كلاسيك» لهذا الكتاب، وضعها برتران مارشال.

(2) تقع هامبرغن أو هاوسبرغن Hausebergen بالقرب من ستراسبورغ، المكان حيث جرت المعركة بين جيوش نابوليون والنمساويّين عام 1815.

(3) ويقصد من ذلك أنّه كان حرّ التفكير ومشبّعاً بأفكار فلسفة الأنوار.

أموت سعيداً». ثمّ هتف: «يعيش الإمبراطور!» وهو يتلقّى ضربة السيف التي صرعته. عشرة جنود من فرقته يمكن أن يشهدوا على ذلك.

فأجاب آرتور: «ومع ذلك وبالرغم من كلّ شجاعته فإنّ ما فعله كان انتحاراً. إلّا أنّني أعتقد أنّه كان من الخطأ ألّا يُصلّى على نفسه في الكنيسة».

- على هذا المنوال ستستخفّ بتفاني كورتيوس[1]. ربّما كان ذاك الفارس الرومانيّ الشابّ مفلساً بسبب القمار، أو تعيساً في غراميّاته، وتعباً من الحياة، مَن يدري؟ ولكنّه لأمرٌ جميل بالتأكيد أن يفارق المرء الحياة وهو يجعل موته مفيداً للآخرين. ولذا لا يمكن أن يُسمّى ذلك انتحاراً، لأنّ الانتحار إنْ هوَ إلّا الفعل الذي تتجلّى فيه أقصى درجات الأنانيّة، وهذا فقط ما صيّره مستهجناً بين النّاس... في ماذا تفكّر يا آرتور؟

- أفكّر في ما كنت تقوله منذ قليل، من أنّ ديروش، قبل أن يموت، قتلَ أكبر عددٍ ممكنٍ من الألمان...

- وبالتّالي؟

- وبالتّالي... هؤلاء الجنود الشجعان ذهبوا ليُدلوا أمام الله بشهادة محزنة عن ميتة الضابط الجميلة. اسمحْ لي بالقول إنّ هذا الانتحار هو جريمة مزدوجة إذ قتل نفسه ومعها الجنود.

- ماذا! من سيفكّر في هذا؟ لا تنسَ أنّ الألمان أعداء.

- ولكن هل هناك أعداء بالنسبة للإنسان المصمّم على الموت؟ في تلك اللحظة، كلّ غريزةٍ متعلّقةٍ بالانتماء القوميّ تمّحي، وأشكّ في أن

(1) كورتيوس Curtius: شابّ رومانيّ اندفع هو وحصانه في الهاوية التي شقّها زلزال لكي يُهدّئ من غضب الآلهة.

يفكّر المرء في بلدٍ آخر غير العالم الآخر، وفي إمبراطورٍ آخر غير الله. لكنّ الكاهن يسمعنا دون أن يقول شيئاً، ومع ذلك آمل أن يكون حديثي في هذا الموضوع موافقاً لأفكاره. هيّا يا أبتي قل لنا رأيك وحاول أن توفّق بيننا. هنا يكمن منجم هائل من الجدل، وقصّة ديروش، أو بالأحرى ما نظنّ أنّنا نعرفه عنها، أنا والدكتور، لا تبدو أقلّ غموضاً من الحجج العميقة التي أثرناها فيما بيننا.

قال الدكتور:

- نعم، كان ديروش حسب ما يزعمون مكتئباً من جرّاء جرحه الأخير، هذا الجرح الذي شوّهه إلى حدٍّ كبير. وربّما آلمته تكشيرة أو سخرية من زوجته الجديدة. الفلاسفة سريعو الاستفزاز. على أيّة حال، لقد مات، وطوْعاً.

- لنسلّم بذلك بما أنّك تصرّ. ولكن لا تُسمِّ انتحاراً ذاك الموت الذي يوافينا أثناء المعركة. سوف تضيف معنىً مغلوطاً على الكلمة التي تصوغها ربّما في فكرك. يقضي المرء نحْبه في معركة لأنّه يصادف فيها شيئاً ما يقتله. لا يموت المرء بإرادته.

- حسناً! هل تريد أن تسمّي ذلك القدر؟

عندئذٍ قاطع الكاهن، الذي كان شارد الذهن خلال هذا النقاش، كلامهما قائلاً:

- ربّما سيبدو لكما غريباً أن أتصدّى بدوري للمفارقات التي تطرحانها أو لاقتراحاتكما...

- لا عليك، تكلّم، تكلّم. لا شكّ أنّك تعرف عن الموضوع أكثر منّا.

أنت تسكن بيش[1] منذ زمنٍ طويل. يقال إنّ ديروش كان يعرفك وربّما اعترف لك...

- في هذه الحال عليّ أن ألزم الصمت. ولكنّه لم يفعل ذلك لسوء الحظّ. على أيّة حال، إنّ وفاة ديروش كانت وفق الدّين المسيحيّ، صدّقاني. وسأخبركما أسبابها وظروفها لكي تقتنعا بأنّه كان أيضاً رجلاً نزيهاً وجنديّاً صالحاً، وقد مات في الوقت المناسب من أجل البشريّة، من أجل نفسه، ووفق نوايا الله.

كان ديروش قد التحق بالجنديّة في الرابعة عشرة من عمره، في تلك الفترة حين كان معظم الرجال يُقتلون على الحدود، وانضمّ جنود من الأطفال إلى جيشنا الجمهوريّ. كان ديروش شاحب الوجه نحيلاً، وضامر الجسم مثل فتاةٍ صغيرة، وكان رفاقه يتعذّبون لرؤيته يحمل بندقيّة أثقل منه. لا بدّ أنّكما سمعتما ما قيل عن سعيه لنيل الإذن من الكابتن لكي يجتزّ له من البندقيّة مقدار ستّ بوصات. وهكذا، فعل الصبيّ المعجزات في حروب فلاندر بالسلاح الذي فُصّل على قياسه. وفيما بعد نُقِلَ ديروش إلى هاغنو[2]، في تلك البلاد حيث كنّا نحارب، أي حيث كنتم تحاربون منذ زمنٍ طويل.

في تلك الحقبة التي سأحدّثكما عنها، كان ديروش في محتدّ العُمر، وكان مفخرة الفيلق كمقاتل أكثر من رقم الفيلق وعلَمه، لأنّه تقريباً الوحيد الذي نجا من تغييرين لحقا بفيلقه، وكان قد عُيّن لتوّه ضابطاً، ولدى

---

(1) بيش Bitche: مدينة في موزيل قريبة من الحدود الألمانيّة. بنى فيها المهندس العسكريّ الفرنسيّ الشهير فوبان Vaubin (1633–1707) في القرن السابع عشر الحصن الذي أعطى اسمه للصّيغة ما قبل النهائيّة لقصّة نرفال «إميليا».

(2) هاغنو Haguenеau: مدينة في إقليم الراين الأسفل من منطقة الألزاس شمال شرقيّ فرنسا.

قيادته منذ سبعة عشر شهراً هجوماً بالحراب في برغهايم[1]، تلقّى ضربة سيفٍ من أحد البروسيّين في عرض وجهه. كان الجرح مرعباً. وعندما عاينه الجرّاحون المتجوّلون، الذين كانوا مازحوه غالباً، هو الذي لم يُصَب بخدشٍ واحدٍ بعد خوض ثلاثين معركة، قالوا مقطّبي الجبهات: حتّى لو شُفيَ فإنّ التعيس الحظّ هذا سيصبح أبله أو مجنوناً.

أرسِل الضابط إلى ميتز ليعالج. كانت النقّالة قد اجتازت عدّة فراسخ دون أن ينتبه هو لذلك. ثمّ بعد أن وُضِعَ في سرير مريح وأُحيط بالعناية والاهتمام لزِمته خمسة أشهر أو ستّة ليتمكّن من الجلوس، وكذلك مائة يوم لكي يفتح عينيه ويميّز الأشياء. ألزمه الأطبّاء لاحقاً بالمقوّيات والشمس ثمّ بالحركة والنزهات أخيراً. وذات صباحٍ اتّكأ إلى رفيقَين له، وسار مترنّحاً ودائخاً، إلى رصيف سان فنسان الذي يحاذي المستشفى العسكريّ أو يكاد، وهناك أُجلِسَ في شمس الظهيرة تحت أشجار الزيزفون في الحديقة العامّة: ظنّ الجريح التعس أنّه يرى النور لأوّل مرّة. ولِفَرط ما تردّد إلى هناك، استطاع خلال وقتٍ قصيرٍ أن يمشي وحده ويذهب كلّ صباح للجلوس، في المكان نفسه على مقعد في السّاحة، ورأسه مغطّى بلفافات كثيرة من التفتا السوداء التي لا يكاد يُلمح خلفها طرفٌ من وجهٍ بشريّ. وأثناء سيره، لدى التقائه بالمتنزّهين، كان الرجال يحيّونه بحرارة، والنساء بإيماءةٍ تنمّ عن إشفاقٍ عميق، ما يحمل قليلاً من التعزية إلى نفسه.

ولكنْ، ما إن كان يجلس في مكانه حتّى ينسى حظّه السيّئ ولا يعود يفكّر إلّا في لذّة العيش بعد هذه المحنة، وفي متعة أن يرى مكان إقامته. أمامه تمتدّ الأسوار المتداعية للقلعة القديمة التي دُمّرت في عهد لويس

(1) ربّما كانت برغهايم Bergheim في منطقة الراين العليا بين سيليستا Selestat وكولمار Colmar.

السادس عشر. فوق رأسه كانت أشجار الزيزفزن المزهرة ترسل ظلّها الكثيف، وعند قدميه، في الوادي الذي يمتدّ أسفل الساحة، المروج التي يرويها نهر الموزيل حين يفيض فيغرقها بمائه وتخضوضر بين فرعَيه؛ ثمّ الجزيرة الصّغيرة، والواحة حيث مصنع البارود، وجزيرة سولسي تلك، المنثورة بالظّلال والأكواخ، وأخيراً مساقط مياه نهر الموزيل وزبَده الأبيض وتعرّجاته المتلألئة في الشمس، ثمّ، عند أبعد ما تراه العين سلسلة جبال فوج، الزّرقاء كأنّها أثيريّة في النّهار السّاطع. هذا هو المنظر الذي كان يزداد إعجاباً به في كلّ يوم، وهو يفكّر أنّ بلاده كانت هناك، لا الأرض المحتلّة، بل الرّيف الفرنسيّ فعلاً، فيما كانت تلك الأقاليم الجديدة الثريّة، حيث كان قد خاض الحرب، لا تعْرض سوى مفاتن عابرة وحائرة كمفاتن المرأة التي ظفرنا بها بالأمس وفقدناها في اليوم التّالي.

في أوّل أيّام شهر يونيو، كان الحرّ شديداً ومقعد ديروش الأثير مكتنفاً بالظلّ، إذ جاءت امرأتان لتجلسا بالقرب من الجريح. حيّاهما بهدوء وتابع تأمّل الأفق، لكنّ مظهره كان مثيراً للاهتمام فلم تستطع المرأتان أن تمتنعا عن التحرّي عن وضعه والإشفاق على حاله.

كانت إحداهما، وهي مسنّة جدّاً، عمّة الأخرى التي تُدعى إميليا. وكانت تعمل في توشية الحرير أو المخمل بزخارف ذهبيّة. وبدوره طرح ديروش أسئلة على العمّة التي أعلمته أنّ الفتاة الشابّة تركت هاغنو لكي ترافقها، وأنّها كانت تصنع مطرّزات للكنائس وأنّها فقدت منذ وقتٍ طويل جميع أفراد عائلتها.

في اليوم التالي، جلس الثلاثة على المقعد كما في الأمس. وخلال أسبوع عُقدت معاهدة تحالف بين المالكين الثلاثة لهذا المقعد الأثير، وديروش،

على الرغم من وهنه، ومن إذلاله عبر الاهتمام الذي أبدَته له الصبيّة وكأنّها تبديه لأكثر العجائز مسالمة، شعر بنفسه خفيفاً، وأقرب للتمتّع بهذه الصدفة السعيدة غير المتوقّعة منه للإكتئاب.

عندئذٍ، ولَدى عودته إلى المستشفى، تذكّر جرحه المرعب، هذه الفزّاعة التي أبكته غالباً في داخله، والتي جعلته العادة والنقاهة أكثر تقبّلاً لها منذ وقتٍ طويل.

من المؤكّد أنّ ديروش لم يستطع بعد لا أن يرفع الضمادة غير المجدية لجرحه، ولا أن ينظر إلى نفسه في المرآة. ومنذ ذلك اليوم جعلته هذه الفكرة يرتجف أكثر من أيّ وقتٍ مضى. ومع ذلك جازف بأن يزيح جزءاً من التفتا التي تحمي وجهه ووجد تحتها جرحاً متوهّجاً قليلاً ولكن لم يكن منفّراً كثيراً. واصل مراقبة وجهه، وأيقن أنّ مختلف أقسامه التأمت بصورة حسنة، وأنّ عينه ظلّت سليمة معافاة تماماً. كان ينقص الحاجبين بعض شعيرات، ولكن ليس هذا بالأمر المهمّ! وهذا الخطّ الجانبيّ النازل من الجبين إلى الأذن مخترقاً الخدّ؟ ليس سوى ضربة سيف تلقّاها خلال الهجوم على خطوط برغهايم! شيء لا أجمل منه في الحياة... لقد استفاضت الأغاني في وصف ذلك.

وهكذا تعجّب ديروش من أن يرى نفسه بهذه اللّياقة بعد الغياب الطويل عن نفسه. أرجع بلباقة شعره الذي عراه الشيب من الجهة المجروحة وأخفاه خلف الشعر الأسود الكثيف من الجهة اليُسرى، ومدّ شاربه على خطّ الجرح قدر الإمكان، وفي اليوم التالي ارتدى بذلة جديدة ثمّ ذهب إلى الساحة بهيئة ظافرة.

وفي الواقع، سار بقامةٍ منتصبةٍ مشيقةٍ مرتدياً قلنسوة الجنديّ بطريقة

عسكريّة مائلة إلى الأمام، وكان سيفه يرطم فخذه برشاقة. إنّ أحداً لم يتعرّف عليه أثناء سيره من المستشفى إلى الحديقة. كان أوّل الواصلين إلى المقعد تحت أشجار الزيزفون وجلس كالعادة في الظاهر لكنّه في الواقع كان أكثر اضطراباً وشحوباً بالرّغم من استحسانه مظهره في المرآة.

لم تلبث المرأتان أن وصلتا ولكنّهما ابتعدتا فجأةً عندما لمحتا ضابطاً جميلاً يجلس في مكانهما المعتاد. كان ديروش في غاية الاضطراب.

فهتف بهما قائلاً:

- ما بالكما؟ ألم تتعرّفا إليّ؟

لا تحسبوا أنّ هذه التمهيدات تقودنا إلى إحدى هذه القصص حيث الشّفقة تتحوّل إلى حبّ كما في مسرحيّات الأوبرا في خاليات العهود. كان لدى الضابط منذ ذلك الحين أفكار جادّة. سُرّ لأنّ صحبته كانت لا تزال تبدو مقبولة في أعين الآخرين، ثمّ سارع لطمأنة السيّدتين اللّتين بدوتا مستعدّتين، بعد تغيّر هيئته، لأن تصرفا النّظر عن الصداقة التي بدأت بينهم هم الثلاثة. لم يستطع تحفّظهما الصمود أمام آرائه الصريحة. على أيّة حال كان الزواج قراراً مناسباً على كافّة الصُّعُد: كان لدى ديروش ملكيّة عائليّة صغيرة بالقرب من إيبينال[1]، وكانت إميليا من جهتها قد أورثها والداها بيتاً صغيراً في هاغنو استأجره مقهى المدينة، وكان إيراده من خمسمائة إلى ستمائة فرنك. لكنّ نصفها كان يعود لأخيها فيلهيلم، وهو الكاتب العدل الرئيسيّ في شينبرغ[2].

وعند انتهاء التحضيرات، قرّرا الذهاب إلى هذه المدينة الصغيرة للزواج

(1) إيبينال Epinal: مدينة فرنسيّة تقع شرق فرنسا على نهر الموزيل جنوبّي مدينة نانسي في اللّورين.

(2) هي في الحقيقة شونبورغ Schoenbourg (الراين الأسفل)، أكثر قرباً من بيش وهاغنو.

لأنّها موطن الصبيّة الفعليّ، التي لم تسكن ميتز إلّا منذ بعض الوقت لكي تلازم عمّتها. إلّا أنّهما اتّفقا على أن يعودا إلى ميتز بعد الزواج. كانت إميليا مبتهجة لرؤية أخيها من جديد. أعرب ديروش تكراراً عن دهشته من أنّ هذا الشابّ لم يلتحق بالجيش شأنه شأن سائر الشبّان. فقيل له إنّه كان معفيّاً لأسباب صحيّة. رثى ديروش لحاله بأسفٍ شديد.

ها هما الخطيبان والعمّة في طريقهم إلى هاغنو. اتّخذوا أمكنتهم في العربة العامّة التي تبدّل أحصنتها في بيش، وكانت عربة رديئة مصنوعة من الجلد والسّوحر. الطريق جميلة كما تعرفون. وديروش الذي لم يسبق له أن اجتازها إلّا بالبزّة العسكريّة والسيف في يده وبرفقة ثلاثة آلاف رجل أو أكثر. راح يتأمّل بإعجابِ الخلوات، والصخور الغريبة، والآفاق التي تحدّها هذه القمم المسنّنة المخضوضرة القاتمة، والتي تقطعها فقط من وقتٍ لآخر أودية مترامية. النّجود الخصبة في سانت أفولد، ومصانع سرغُمين[1]، والأشجار الصغيرة المقصوصة المتراصّة في ليمبلاني[2] حيث تتداخل أشجار الزان والحور والتّنوب الكثيفة بأخضرها الداكن المائل أحياناً إلى الرماديّ. تعرفون كم أنّ كلّ ذلك المنظر جميل وبديع!

ما إن وصل المسافرون إلى بيش حتّى نزلوا في فندق دراغون[3] الصغير. أرسل ديروش في طلبي لكي آتي إلى الحصن. وصلتُ بسرعة ورأيتُ عائلته الجديدة. أطريتُ على الآنسة الشابّة التي كانت تتميّز بجمال نادر،

(1) سَرْغُمين (بالفرنسيّة: Sarreguemines): مدينة تقع شمال شرقيّ فرنسا في منطقة الموزيل في اللّورين.

(2) قد تكون لامبرغ Lemberg مدينة في منطقة الموزيل.

(3) «دراغون» Dragon يعني التنين وهذا الاسم معبّر لكونه من المفترض به أن يؤوي بنيّات اللّهب.

وبإطلالة رقيقة، وبدت مأخوذة بزوجها المقبل. تناول ثلاثتهم الغداء برفقتي، في المكان حيث نجلس في هذه اللّحظة. عدّة ضباط، وهم رفاقٌ لديروش، وقد اجتذبهم خبر وصوله، أتوا ليبحثوا عنه في النّزل وأبقوه للعشاء لدى فندقَي المعقل حيث كان مقرّ مجلس القيادة. وتمّ الاتّفاق على أن تنصرف السيّدتان في ساعة مبكّرة، وأن يمضي الضابط آخر سهرة من حياة العزوبة مع رفاقه.

ساد المأدبة جوّ من المرح، وكان كلّ واحدٍ ينعم بنصيبه من السعادة والبهجة التي أشاعها حضور ديروش. أخذوا يحدّثونه عن مصر وإيطاليّا بنشوة وهم يتحسّرون بمرارة، ويشكون حظّهم السيّئ الذي جاء بهم، وهم الجنود الشجعان، إلى قلاع حدوديّة.

همس بعض الضباط: «أجل، نشعر بالاختناق هنا. الحياة متعبة ورتيبة. خيرٌ لنا أن نكون على مركب بدل العيش هكذا ونحن نراوح مكاننا دون معارك أو تسليات أو أيّة ترقية. الحصن منيع، كما قال بونابرت حين مرّ من هنا لموافاة جيشه في ألمانيا. ليس لدينا إذَن إلّا الحظّ في أن نموت ضجراً.

أجاب ديروش:

- للأسف يا أصدقائي. لم يكن الأمر مسلّياً البتّة في زمني أيضاً. لأنّني كنت هنا مثلكم وتذمّرت مثلكم. أنا الجنديّ الذي ترقّى إلى رتبة ضابط لكثرة ما بليت أحذيته العسكريّة متنقّلاً على دروب لا تحصى. لم أكن أعرف عندئذٍ إلّا أشياء ثلاثة: التمارين البدنيّة واتّجاه الريح وقواعد اللغة، كما يلقّننا إيّاها معلّم القرية. وهكذا فحين عيّنت ملازماً وأرسلت إلى بيش مع كتيبة شير[1] الثانية، اعتبرت

(1) شير Cher: هو إقليم فرنسيّ تابع لمنطقة فال دولوار Val de Loire. أخذ اسمه من نهر شير.

هذه الإقامة مناسبة للدراسات الجادّة المتواصلة. وعلى هذه الفكرة، حصلت لنفسي على مجموعة من الكتب والخرائط والخطط الحربيّة. درست مبادئ القتال، وتعلّمت الألمانيّة دون درس، لأنّه في هذه البلاد الفرنسيّة، وحيث لدينا اللغة الفرنسيّة الجيّدة، لا نتكلّم إلّا هذه اللّغة. وهكذا فإنّ هذا الوقت، الذي يبدو لكم طويلاً جدّاً أنتم الذين لم يعد لديكم الكثير لتتعلّموه، بدا لي قصيراً وغير كافٍ. وعند حلول الليل، كنت ألوذ بغرفة من الحجر صغيرة تحت الدرج اللولبيّ الطويل، وكنت أشعل مصباحي بعد أن أغلق الثغور إغلاقاً تامّاً وأنكبّ على العمل. وفي إحدى تلك الليالي...

وهنا توقّف ديروش عن الكلام لحظة. مسح عينيه بيده ثمّ أفرغ كأسه، واستأنف قصّته دون أن ينهي جملته.

قال:

- تعرفون جميعكم هذا المسلك الصغير الذي ينطلق من السّهل هنا والذي جُعِل سلوكه متعذّراً حين فجِّرتْ صخرة ضخمة وانفتحت مكانها هاوية. حسناً! هذا الممرّ كان دوماً ممرّاً قاتلاً بالنسبة للأعداء في كلّ مرّة يحاولون فيها مهاجمة الحصن. ما إن يتوغّلون في هذا المسلك، حتّى تنهال على هؤلاء التعساء نيران أربعة مدافع من عيار أربعة وعشرين، لم تُحرَّك من أمكنتها دون شكّ، وكانت تنهب الأرض نهباً على طول هذا المنحدر...

قال عقيدٌ لديروش:

- لا بدّ أنّك تميّزت، هل هناك ترقّيت إلى رتبة الملازم؟

- نعم، يا عقيد. وهناك قتلت الرجل الأوّل والوحيد الذي صرعته

مواجهةً بيدي بالذات. لذا فإنّ رؤية هذا الحصن ستكون لي دوماً مؤلمة.

فهتفوا قائلين:

- ماذا تقول لنا هنا؟ عجباً! أمضيت عشرين سنة في الحرب، وشاركت في أربع وعشرين معركة منتظمة، وفي خمسين واقعة ربّما، وتدّعي أنّك لم تقتل إلّا عدوّاً واحداً؟

- لم أقل ذلك يا سادة... حشوت بندقيّتي بعشرة آلاف خرطوشة ومن يدري إذا لم يكن نصفها قد أصاب الهدف الذي يسعى إليه كلّ جنديّ؟ ولكنّي أؤكّد أنّه في بيش، وللمرّة الأولى، تضرّجت يدي بدم العدوّ، وأنّ ذراعي غرزت بكلّ وحشيّة طرف السيف في صدر بشريّ فاخترقه وتوغّل فيه مختلجاً.

فقاطعه أحد الضبّاط قائلاً:

- هذا صحيح، الجنديّ يقتل كثيراً ولكنّه يكاد لا يشعر بهذا. إنّ رمياً بالرصاص ليس، والحقّ يقال، إعداماً ولكنّه نيّة إجراميّة. أمّا الحربة فهي قلّما تكون فعّالة في الهجمات الأكثر شؤماً. إنّه صراع يصمد فيه أحد المتحاربين أو يستسلم دون أن يضرب، تتلاطم البنادق ثمّ تنسحب عندما تكفّ المقاومة. الخيّال، على سبيل المثال، يضرب حقّاً...

واستأنف ديروش:

- وهكذا، فمثلما لا نقدر على نسيان النظرة الأخيرة لخصم مقتول في مبارزة، وحشرجته الأخيرة، ووقع سقوطه المدوّي، كذلك أحتفظ في ذاكرتي بالصورة الشاحبة المشؤومة للرقيب البروسيّ الذي قتلته

في مخزن البارود والمتفجّرات في الحصن. أحتفظ بها بما يشبه النّدم، واهزأوا من ذلك قدر ما يحلو لكم.

صمت الجميع وبدأ ديروش قصّته:

- كان الوقتِ ليلاً[1] وكنت أعمل، كما قلت لكم منذ قليل. عند الساعة الثانية وجب على الجميع النوم ما عدا الحرّاس. الدوريّات صامتة جدّاً وكلّ ضجّة تتسبّب بكارثة. ومع ذلك ظننتُني أسمع ما يشبه حركة مستمرّة في نفق كان يمتدّ تحت غرفتي. كان أحدهم يصطدم ببابٍ، ما أحدث فرقعة. هرعت وأصخت السمع في آخر الرواق. ناديت بصوتٍ خفيضٍ الحارسَ؛ ما من جواب. وسرعان ما أيقظت المدفعيّين ولبست الزيّ العسكريّ وأخذت سيفي دون غمده، ثمّ ركضت ناحية الضجّة. وصلنا ثلاثين جنديّاً تقريباً إلى المستديرة التي يُشكّلها النفق في منتصفه، وعلى ضوء بعض الفوانيس تعرّفنا على البروسيّين الذين أدخلهم أحد الخونة من الباب السّريّ المغلق. كانوا يندفعون دون نظام، وحين رأونا أطلقوا بعض العيارات الناريّة التي كان دويّها مرعباً في تلك العتمة وتحت تلك القبب الخفيضة.

وعندئذٍ ألفينا أنفسنا في مواجهة المهاجمين الذين كانوا يواصلون توافدهم. نزل المدافعون بسرعة في النفق. كنّا نكاد لا نقدر على الحراك ولكنْ كان بين الفريقين مسافة تتراوح بين ستّة أقدامٍ وثمانٍ، ميدان حرّ لم يكن أحد يفكّر في احتلاله، لفرط ما كان الذهول يسود لدى الفرنسيّين

---

(1) ليلة 16–17 نوفمبر 1793، تصدّت حامية الحصن المنتمية إلى فوج شير Cher الثاني، تحت إمْرة المقدّم أوجييه Augier، لهجوم البروسيّين يقودهم الأمير فون هوهنلوهه von Hohenlohe.

المباغَتين، ولفرط ما كان هناك احتراز لدى البروسيّين الخائبين.

ومع ذلك لم يدم التردّد إلّا قليلاً. أضيء المشهد بالمشاعل والفوانيس. بعض المدفعيّين ثبّتوا مدافعهم إلى الجدران الداخليّة. وبدأ ما يشبه المعارك القديمة. كنت في الواجهة، وألفيتُني قبالة رقيب بروسيّ طويل القامة، مغطّى بالشارات العسكريّة والأوسمة. كان مسلّحاً ببندقيّة لكنّه كان يتحرّك بصعوبة في ذلك المكان المزدحم بالمقاتلين. لا تزال كلّ هذه التفاصيل واضحة في ذهني يا للأسف! لا أعرف إذا كان البروسيّ يفكّر في مقاومتي أصلاً. اندفعت نحوه وغرزت سيفي في ذلك القلب النبيل. جحظت الضحيّة عينيها بشكل مرعب، وتشنّجت يداها بشدّة، وسقطت بين أذرع الجنود الآخرين.

لا أذكر ماذا أعقب ذلك. ألفيتُني في الباحة الأولى مضرّجاً بالدم. أُرجِعَ البروسيّون إلى الباب السريّ وأعيدوا بفعل ضربات المدفع إلى مخيّماتهم.

بعد هذه القصّة، ساد صمت طويل، ثمّ انتقلوا إلى الحديث عن أمر آخر. كان منظر وجوه كلّ أولئك الجنود حزيناً وغريباً لمن يتأمّلهم، وجوه قتّمتها قصّة هذه المصادفة السيّئة التافهة في الظاهر... وكان بالإمكان يا دكتور معرفة ماذا تساوي بالضبط حياة رجل، وإن يكن ألمانيّاً، من خلال مساءلة النظرات الغضيضة لأولئك القتلة المحترفين.

أجاب الدكتور وقد اعتراه بعض الذهول:

- من المؤكّد أنّ دم الإنسان يصرخ عالياً، أيّاً تكن الطريقة التي سُفك بها. ومع ذلك فإنّ ديروش لم يرتكب سوءاً بل دافع عن نفسه.

همس آرتور:

- ومن يدري؟

- أنت من كنت تتحدّث عن القتل المتعمّد للنفس يا دكتور، قل لنا إذا كان موت الرقيب لا يشبه قليلاً القتل. هل من الأكيد أنّ البروسيّ كان سيقتل ديروش؟

- لكنّها الحرب، ماذا تريد؟

- أجل، إنّها الحرب. نقتل على مسافة ثلاثمائة خطوة في الظلام رجلاً لا نعرفه ولا يرانا. ونذبح مواجهة وبنظرات مسعورة أناساً لا نشعر حيالهم بأيّ حقد؛ ومع هذه الفكرة نتعزّى ونعتزّ! وهذا يحصل بشرفٍ بين شعوب مسيحيّة!

أثارت تجربة ديروش إذَن انطباعات مختلفة في ذهن الحاضرين. ومن ثمّ خلدوا إلى النوم. كان ضابطنا أوّل من نسي قصّته المحزنة لأنّه من الغرفة الصغيرة التي قُدّمت له كان يستطيع، عبر كتل الأشجار، رؤية نافذة مضاءة من الداخل بنوّاسة في فندق «دراغون». هناك كان يرقد كلّ مستقبله. وحين، في منتصف الليل، أتت الحلقات والهتافات لتوقظه، قال في نفسه إنّ شجاعته، في حالة الخطر، لن تقدر على جعله كما في السابق متأهّباً بكليّته وسيخامره شعور مشوب بالندم والخشية. في اليوم التالي، قبل نوبة الصباح، فتح له قائد الحرس باباً ووجد صديقتَيه الاثنتين تتنزّهان في انتظاره على طول الخنادق الخارجيّة. رافقْتُهما حتّى نونهوفن[1]، لأنّهما كان يفترض بهما عقد الزواج المدنيّ في هاغنو، ثمّ العودة إلى ميتز من أجل القران الدينيّ.

فيلهيلم، شقيق إميليا، استقبل ديروش استقبالاً فيه الكثير من الودّ. كانا يتبادلان أحياناً النّظر بانتباه ثابت. كان فيلهيلم متوسّط القامة ولكنْ

---

(1) نونهوفن Neunhoffen: قرية في الراين الأسفل تقع على بعد 19 كلم شرق بيش.

متينها. كان شعره الأشقر خفيفاً وكأنّ الدرس استنزف قواه أو الحزن. وكان يرتدي نظّارتين زرقاوين بسبب نظره الضعيف للغاية، حسب قوله، بحيث إنّ أقلّ نور كان يؤلمه. كان ديروش يجلب حزمة أوراق تفحّصها الموظّف الشابّ بفضول ثمّ تلا هو نفسه قائمة ممتلكات عائلته، مرغِماً ديروش على أن يأخذ عِلماً بذلك، لكنّه كان أمام حضرة رجل واثق، عاشق ونزيه، ولم يدم الاستقصاء طويلاً. بدا وكأنّ هذه الطريقة في التصرّف ترضي غرور فيلهيلم بعض الشيء. وهكذا بدأ يتأبّط ذراع ديروش ويهديه أحد أفضل غلايينه ويصطحبه لدى كلّ أصدقائه في هاغنو.

كانا يدخّنان في كلّ مكان ويشربان الكثير من الجعّة. وبعد عشر لقاءات، التمس ديروش العائلة بإلحاح وسمح له بعدم إمضاء السهرة إلّا بالقرب من خطيبته.

بعد بضعة أيّام، كان عاشقا مقعد الساحة عريسين جمعهما مختار هاغنو، وهو موظّف محترم لا بدّ أنّه كان عمدة قبل الثورة الفرنسيّة، وكان قد حمل بين ذراعيه مرّات عديدة إميليا وهي صغيرة، وربّما كان سجلّها هو نفسه عند ولادتها. وهكذا قال لها بصوتٍ خفيض جدّاً عشيّة زواجها:

- لِمَ لا تتزوّجين ألمانيّاً صالحاً؟

كانت إميليا تبدو وكأنّها قلّما تُقيم اعتباراً لهذه الاختلافات. وفيلهيلم نفسه تصالح مع شارب الملازم، لأنّه، ويجدر قول هذا، ساد للوهلة الأولى جوّ من التحفّظ بين هذين الرجلين. ولكن بعد أن بذل ديروش جهداً كبيراً، وقدّم فيلهيلم بعض التنازلات كرمى لشقيقته، وسعت العمّة الطيّبة إلى التوفيق بين وجهات النظر خلال اللقاءات وتلطيف الأجواء، تمّ التوصّل إلى إرساء تفاهم كلّيّ. قبّل فيلهيلم صهره بكلّ طيبة خاطر

بعد توقيع الاتّفاق. وبما أنّ كلّ شيء أنجز نحو الساعة التاسعة، انطلق المسافرون الأربعة في اليوم نفسه إلى ميتز. كانت الساعة تقارب السادسة مساءً حين توقّفت العربة في بيش، أمام فندق دراغون الكبير.

السّفر عسير في هذه البلاد التي تتخلّلها الجداول والأجمات؛ هنالك عشرة منحدرات في الفرسخ، والعربة تؤرجح ركّابها بعنفٍ. ربّما كان هذا هو السّبب الوجيه للانزعاج الذي شعرت العروس الشابّة لدى وصولها إلى النزل. جلست عمّتها وديروش قربها، وفيلهيلم الذي كان يضنيه الجوع وينهش أحشاءه، نزل في القاعة الصغيرة حيث يُقدَّم في الساعة الثامنة العشاء للضبّاط.

هذه المرّة، لم يكن أحد يعرف بعودة ديروش. أمضت الحامية نهارها في جولات عبر غابات هاسبولتدن[1]. وديروش، لكي لا يُحرم من الموقع الذي كان يشغله بالقرب من زوجته، حظرَ على صاحبة النزل أن تلفظ اسمه. حين اجتمع ثلاثتهم قرب نافذة الغرفة الصغيرة، رأوا الجند يعودون إلى الحصن عند اقتراب الليل والمنحدرات تكتسي بالجنود المرتدين ملابس النوم المنصرفين إلى تناول خبز الإعاشة وجبنة الماعز الذي يمدّهم بها المطبخ العسكريّ.

إلّا إنّ فيلهيلم أراد أن يتلهّى عن الوقت والجوع، فأشعل غليونه مسترخياً عند عتبة الباب بين دخان التبغ وبخار الطعام، وتلك لذّة مضاعفة للمتبطّل والجائع. لدى رؤية هذا المسافر البرجوازيّ الذي كانت قبّعته غارقة حتّى أذنيه، ونظّارتاه الزرقاوان مصوّبتين نحو المطبخ، أدرك

(1) تقع هاسبولتدن Huspoletden والأصحّ هاسبلشيدت Haspelschiedt، على بعد 8 كلم شمال شرقيّ بيش.

الضبّاط أنّهم سيحظون برفقةٍ أثناء العشاء، وأرادوا التعرّف على الغريب؛ ربّما كان آتياً من مكان بعيد، ومتحلّياً بالظرف فيسرد عليهم قصصاً وفي هذه الحالة سيكون حظّهم جيّداً. وربّما كان آتياً من الضواحي ملتزماً بصمتٍ يشوبه الغباء، وعندئذٍ سيكون ساذجاً وبإمكانهم الهزء منه.

اقترب ملازم من المدرسة الحربيّة من فيلهيلم بتهذيب يُداني المبالغة.

- مساء الخير، يا سيّدي هل لديك أخبار عن باريس؟

أجابه فيلهيلم بهدوء:

- لا يا سيّدي وأنت؟

- الحقيقة يا سيّدي نحن لا نخرج من بيش فكيف تريدنا أن نعرف شيئاً؟

- وأنا أيضاً يا سيّدي لا أخرج أبداً من مكتبي.

- أوَ تكون في سلاح الهندسة؟

هذه السّخرية الموجّهة إلى نظّارَتي فيلهيلم أبهجت الجمع كثيراً.

- أنا كاتب عدل يا سيدي.

- حقّاً؟ هذا مفاجئ في مثل سنّك.

قال فيلهيلم:

- سيّدي أوَ تريد رؤية أوراقي الثبوتيّة.

- لا بالطبع.

- حسناً! قل لي إنّك لا تهزأ من شخصي وسأرضي فضولك على كافّة الأصعدة.

استعاد الجمع رصانته.

- سألتك دون سوء نيّة إن كنت في سلاح الهندسة لأنك تحمل

نظّارتين. ألا تعرف أنّ هؤلاء الضبّاط يحقّ لهم وحدهم أن يضعوا نظّارات على أعينهم؟

- وهل هذا يثبت أنّني جنديّ أو ضابط... كما تشاء إذَن...

- لكنّ الجميع جنود في هذه الأيّام. عمرك لم يتجاوز الخمسة والعشرين، ما يلزمك الالتحاق بالجيش. أو أنّك غنيّ، ولديك خمس عشرة ألف فرنك أو عشرين ألفاً كمدخول ووالداك يضحيّان في سبيلك... وفي هذه الحالة فإنّك لا تتناول عشاءك على طاولةِ ضيفٍ نزلٍ.

قال فيلهيلم وهو يهزّ غليونه:

- سيّدي، ربّما كان لديك الحقّ في إخضاعي لهذا الاستجواب، وعندئذٍ عليّ أن أجيبك بشكلٍ واضح. ليس لديّ مداخيل لأنّني مجرّد كاتب عدلٍ كما قلت لك. أرتدي نظّارتين لضعفٍ في النظر، فأنا حسير البصر.

وقوبل هذا القول بقهقهة عامّة مبالغ بها.

فهتف الكابتن فالييه وهو يرَبّت على كتف فيلهيلم:

- أيّها الشابّ، أيّها الشّاب! معك حقّ، أنت تستفيد من المثل الذي يقول: «ألف كلمة جبان أفضل من رحمه الله».

توهّج وجه فيلهيلم خجلاً واحمرّت عيناه:

- لست جباناً يا سيّدي الكابتن وسأثبت لك ذلك حين تشاء. على أيّة حال، أوراقي وفق الأصول، وإذا كنت ضابطاً متطوّعاً يمكنني أن أظهرها لك.

هتف بعض الضبّاط:

- يكفي، يكفي. دع هذا البرجوازيّ بسلامٍ يا فاليبه. السيّد رجل مسالم. لديه الحقّ في تناول العشاء هنا.

قال الكابتن:

- نعم، لنجلس إلى الطاولة ودون أحقاد أيّها الشّاب، اطمئنّ، لستُ جرّاحاً فاحصاً، وقاعة الطّعام هذه ليست قاعة امتحان. ولكي أثبت لك حسن نيّتي سأقطع جناحاً من قطعة اللّحم القديمة العصيّة هذه التي يدعونها دجاجة.

قال فيلهيلم وقد سكن جوعه:

- شكراً لك. سآكل فقط من أسماك التروبت هذه التي في آخر الطاولة.

وأشار للخادمة بأن تجلب له الطبق.

قال الكابتن لفيلهيلم الذي خلع نظّارتيه وجلس إلى الطّاولة.

- هل هذه أسماك تروبت حقّاً؟ إن أردت الصدق يا سيّدي فإنّ نظرك أفضل من نظري. وبصريح القول يمكنك تصويب بندقيّتك ببراعة كأيّ كان... لكنّ لديك من يحميك وتستفيد من ذلك كما يجب. تهوى السّلم، وهذا ميل كسواه من الميول. وأنا، لو كنت في مكانك، لن يكون بإمكاني قراءة بيان للجيش الكبير، وأن أفكّر أنّ الشبّان الذين هم في مثل سنّي يُقتَلون في ألمانيا، دون أن أشعر بأنّ دمي يغلي في عروقي. ألستَ فرنسيّاً إذَن؟

قال فيلهيلم، بصعوبةٍ وفخرٍ في الوقت نفسه:

- لا، ولدت في هاغنو. لستُ فرنسيّاً، أنا ألمانيّ.

- ألمانيّ؟ هاغنو تقع أدنى من الحدود الرينانيّة. إنّها قرية في قلب الإمبراطوريّة الفرنسيّة، في محافظة الراين السفلى. انظر إلى الخارطة.

- أنا من هاغنو كما قلت لك، قرية ألمانيّة منذ عشر سنوات[1] واليوم هي قرية فرنسيّة، وأنا ألمانيّ دوماً كما ستكون أنت فرنسيّاً حتّى الموت حتّى إذا كانت بلادك تنتمي للألمان.

- أتعلم أيّها الشابّ أنّك تقول ههنا أشياء خطيرة!

قال فيلهيلم باندفاع:

- ربّما كنت على خطأ. شعوري الشخصيّ هو من تلك المشاعر التي قد يكون حريّاً بها أن تبقى في القلب إذا لم يكن في المستطاع تغييرها. ولكنّك أنت نفسك دفعت بالأمور بعيداً جدّاً بحيث إنّه يجب، بأيّ ثمنٍ، أن أبرّر موقفي وإلّا لبدوت كجبان. نعم، هذا هو الدافع الذي يبرّر في ضميري الاهتمامَ الذي أوليتُه لأستفيد من إعاقة قد تكون حقيقيّة، ولكنّها ربّما لم تكن لتقف عائقاً في طريق رجلٍ شجاع. نعم، أعترف بذلك، لا أشعر أبداً بحقدٍ على الشعوب التي تحاربونها اليوم. أفكّر أنّه لو شاء القدر وأُرغمْتُ على الزحف ضدّها، لتوجّب عليّ، أنا أيضاً، أن أدمّر أريافاً ألمانيّة وأحرق مدناً وأذبح مواطنيّ أو مواطنين قدامى، إذا شئت، وأن أعمل سيفي وسط حلقة من الأعداء المزعومين، من يدري؟ وأن أفتك بأقارب أو أصدقاء قدامى لوالدي... أرأيتَ أنّ من الأفضل لي أن أكتب جدول الدعاوى لدى الموثّق العام في هاغنو. على أيّة حال هناك دم سُفِكَ في عائلتي. والدي سفك دمه حتّى آخر نقطة، أرأيتم، وأنا...

قاطعه الكابتن فالييه قائلاً:

- هل كان والدك جنديّاً؟

---

(1) كانت هاغنو في الواقع فرنسيّة منذ 1648.

- كان والدي رقيباً في الجيش البروسيّ وقد دافع طويلاً عن هذه الأرض التي تحتلّونها اليوم. وأخيراً قُتل في الهجوم الأخير على حصن بيش.

كان الجميع متنبّهين جدّاً لكلمات فيلهيلم الأخيرة التي أوقفت الرغبة التي تولّت الحاضرين منذ دقائق في التعقيب على المفارقات المتعلّقة بالوضع الخاصّ لجنسيّته.

- حصل ذلك في العام 1793؟

- في عام 1793 في 17 نوفمبر، كان أبي قد رحل عشيّة ذاك اليوم من سيرماسين[1] ليلتحق بكتيبته. أعرف أنّه قال لوالدتي إنّ هذه القلعة ستسقط بكلّ سهولة بفضل خطّةٍ جريئة. ولكنّه أعيد لنا محتضراً بعد أربع وعشرين ساعة. لفظ أنفاسه على عتبة الباب بعدما جعلني أتعهّد بالبقاء بالقرب من والدتي التي عاشت بعده خمسة عشر يوماً.

علمتُ أنّه في الهجوم الذي حدث في تلك الليلة، تلقّى في صدره ضربة سيف من جنديّ شابّ، وقد صرع بها أحد أروَع جنود النخبة في جيش الأمير فون هوهنلوهه.

- ولكن أحدهم أخبرنا هذه القصّة، قال النقيب.

وقال الكابتن فالييه:

- مهلاً! إنّها الحادثة التي قتل فيها ديروش الرقيب البروسيّ.

هتف فيلهيلم:

- ديروش! هل تتحدّثون عن الملازم ديروش؟

---

(1) والأصحّ بيرماسنس Pirmasens وهي مدينة ألمانيّة في منطقة الريناني بالاتينا (Rheinland-Pfalz بالألمانيّة)، القريبة من الحدود الفرنسيّة.

وسارع ضابط للقول وقد لاحظ أنّه لا بدّ من وجود سرٍّ رهيبٍ في الأمر:

- لا، لا. ديروش هذا الذي نتحدّث عنه كان قنّاصاً في الحامية وقد توفّي منذ أربع سنوات لأنّ مأثرته الأولى عادت عليه بالشؤم.

قال فيلهيلم وهو يمسح جبينه المتصبّب عرقاً:

- آه! توفّي!

بعد بضع دقائق حيّاه الضبّاط وتركوه وحيداً. وإذ رأى ديروش من النافذة أنّهم ابتعدوا جميعاً، نزل إلى قاعة الطعام حيث رأى صهره مستنداً إلى الطاولة الكبيرة مطرق الرأس.

- ماذا! هل غفوت؟ ولكن عليّ أن أتناول عشائي. زوجتي نامت أخيراً ولديّ جوع رهيب... هيّا نتناول كأس نبيذ، هذا سيوقظنا وستكون نديمي.

قال فيلهيلم:

- لا، رأسي يؤلمني، سأصعد إلى غرفتي. بالمناسبة، هؤلاء السّادة حدّثوني كثيراً عن غرائب الحصن. ألا يمكنك أن تصطحبني إليه غداً؟

- بالطبع يا صديقي.

- حسناً سأوقظك غداً.

تناول ديروش عشاءه ثمّ ذهب ينام في السّرير الآخر الذي أعدّ في الغرفة التي صعد إليها نسيبه للتوّ (لأنّ ديروش كان ينام بمفرده فهو متزوّج مدنيّاً فقط). لم يستطع فيلهيلم أن ينام ليلاً. تارةً كان يبكي بصمتٍ وطوراً كان يلتهم بنظراته الغاضبة النائمَ الذي كان يبتسم أحياناً في أحلامه.

ما يُسمّى استشعاراً يشبه كثيراً السمكة الرائدة التي تنذر الحوتيّات الضخمة والعمياء تقريباً بوجود صخرة قاطعة هنا، أو غور رمليّ هناك. نسير في الحياة بطريقة آليّة بحيث أنّ بعض الطبائع، التي درجت على التهاون، تصطدم بصعوباتٍ جمّة أو تتحطّم دون أن تقدر على تذكّر الله لو أنّ بعضاً من الطمي لم يطفُ على صفحة سعادتها. بعضهم يتجهّمون لدى رؤية غراب، وبعضهم الآخر، دون سبب، والبعض الآخر يستيقظون والغمّ يلازمهم لأنّهم رأوا حلماً مشؤوماً. كلّ ذلك استشعار. ستواجه خطراً، يقول الحلم، حاذرْ! ينعق الغراب، كنْ حزيناً، يهمس الخاطر المثقل بالأشجان.

رأى ديروش عند انتهاء الليل حلماً غريباً. ألفى نفسه في عمق ممرّ تحت الأرض وخلفه كان طيف أبيض يمشي وثوبه يلامس كاحلَيه. كلّما التفت تراجع الطيف إلى أن ابتعد أخيراً بحيث لم يعد ديروش يلمح منه إلّا نقطة بيضاء أخذت تكبر لتصير مضيئة مالئةً أرجاء الكهف، ثمّ انطفأت. سمع ضجّة خفيفة. كان ذلك هو فيلهيلم العائد إلى الغرفة مرتدياً قبّعته على رأسه ومتدثّراً بمعطفٍ طويلٍ أزرق.

نهض ديروش مرتعشاً.

ثمّ هتف:

- ويحك! هل سبق لك أن خرجت هذا الصباح؟

أجاب فيلهيلم:

- عليك أن تنهض.

- ولكن هل فتحوا لنا الحصن؟

- بالطبع، الجميع يؤدّون التمرينات. لم يعد هنالك إلّا جنديّ الحراسة.

- بهذه السرعة! حسناً أنا تحت تصرّفك... فقط أمهلني الوقت لأقول لزوجتي صباح الخير.

- هي بخير، رأيتها للتوّ، لا تهتمّ لأمرها.

فوجئ ديروش بهذا الجواب لكنّه عزاه إلى نفاد صبر فيلهيلم، وأذعن مرّة أخرى أمام هذه السلطة الأخويّة التي سيتمكّن عمّا قريب من دحرها.

وبما أنّهما كانا يمرّان عبر السّاحة للوصول إلى الحصن، ألقى ديروش نظرة إلى نوافذ النّزل. فكّر: لا بدّ أنّ إميليا نائمة. ولكنّ الستارة كانت تتحرّك ثمّ أسدلت، وخيّل للملازم أنّه لمح أحدهم يبتعد عن النافذة متعمّداً تجنّب رؤيته.

فُتحت الأبواب للحال. كان المركز الأماميّ بقيادة ضابط معاق لم يحضر عشاء الليلة السابقة. أخذ ديروش مصباحاً وبدأ يقود مرافقه الصّامت من غرفة لأخرى.

وبعد زيارة لبضع دقائق على مختلف النقاط حيث انتباه فيلهيلم لم يجد مكاناً يركن إليه قال لصهره:

- أرني الممرّات تحت الأرض.

- بكلّ سرور، ولكن، أقسم لك أنّها ستكون نزهة غير طريفة فالرطوبة شديدة هناك. ولدينا غرفة البارود تحت الجناح الأيسر وهناك لا يمكننا الدخول من دون إذنٍ أعلى. وإلى اليمين قنوات الماء الاحتياطيّة وملح البارود الخام. وفي الوسط دهليز وقائيّ ضدّ الألغام والأنفاق... هل سبق أن رأيت قبّة كهف؟

- لا يهمّ، لديّ فضول لزيارة أماكن جرت فيها الكثير من الأحداث المشؤومة... حيث واجهتَ أخطاراً حسب ما قيل لي.

فكّر ديروش: لن يعفيني من رؤية القبو...

- اتبعني يا أخي في هذا النفق الذي يفضي إلى الباب السريّ الحديديّ المكسوّ بالصفائح المعدنيّة.

كان المصباح يشيع نوراً حزيناً على الجدران المتعفّنة، ويرتعش منعكساً على بعض أنصال السيوف وبعض مواسير البنادق التي اجتاحها الصدأ.

سأل فيلهيلم:

- ما هذه الأسلحة؟

- إنّها أسلاب البروسيّين الذين قُتِلوا في الهجوم الأخير على الحصن والتي جمعها أصدقائي بمثابة غنائم.

- قُتل هنا إذَن عدّة بروسيّين؟

- أجل، قُتل الكثير في هذه المستديرة.

- ألم تقتل هنا رقيباً عجوزاً طويل القامة ذا شاربين أصهبين؟

- بالطبع، ألم أسرد عليك القصّة؟

- لا ليس أنت من أخبرني ولكنّهم حدّثوني البارحة عن هذه المأثرة... التي أخفاها عنّا تواضعك.

- ما بالك يا أخي، أنت شاحب الوجه!

أجاب فيلهيلم بصوتٍ قويّ

- لا تدعُني أخاك بل عدوّك!... انظر إليّ، أنا بروسيّ، أنا ابن هذا الرقيب الذي اغتلتَه.

- اغتلتُه!

- الذي قتلتَه، ما الفرق! انظر هنا طعنتَ بسيفك!

وخلع فيلهيلم معطفه وأشار إلى مزَق في البذلة الخضراء التي كان

يرتديها وكانت لوالده نفسه وقد حافظ عليها بكلّ ورعٍ.

- أنت ابن الرقيب! آه! يا إلهي، هل تهزأ بي؟

- أهزأ بك؟ وهل يمزح المرء في هذه الأمور الفظيعة؟... هنا قُتل أبي ودمه النبيل ضرّج هذه الحجارة. ربّما كان هذا السيف سيفه! هيّا خذ سيفاً آخر ودعني أثأر لدمه!... هيّا! ليست هذه مبارزة بل معركة يخوضها ألماني ضدّ فرنسيّ؛ حذارِ!

- ولكنّك مجنون يا عزيزي فيلهيلم. دع جانباً هذا السيف الصدئ. هل تريد قتلي؟ هل أنا مذنب؟

- أنت أيضاً لديك الفرصة لتطعنني بدورك، وهي مضاعفة الحظوظ على الأقلّ من جهتك. هيّا دافع عن نفسك.

- فيلهيلم! اقتلني ولن أدافع عن نفسي. بدأت أفقد عقلي أنا أيضاً. رأسي يدور بي... فيلهيلم! فعلتُ كلّ ما يتوجّب على أيّ جندي أن يفعله. ولكن فكّر في الأمر. على أيّة حال أنا زوج أختك. هي تحبّني. يا للمصيبة! هذه المعركة مستحيلة.

- زوج أختي! هذا الزواج هو بالضبط ما يجعل مستحيلاً أن نعيش كلانا تحت السماء نفسها! أختي! إنّها تعرف كلّ شيء! لن ترى مجدّداً ذاك الذي جعلها يتيمة. بالأمس ودّعْتَها لآخر مرّة.

أطلق ديروش صرخة مرعبة وارتمى على فيلهيلم ليجرّده من سلاحه. كان صراعاً طويلاً لأنّ الشابّ كان يواجه ضربات خصمه بالمقاومة التي يؤجّجها الغضب المسعور واليأس.

أخذ ديروش يصرخ:

- أعد لي هذا السيف أيّها البائس، أعدْه لي! لا، لن تضربني أيّها البائس

المجنون!... أيّها الحالم المتوحّش.
وكان فيلهيلم يصرخ بصوتٍ مخنوق:
- هذا بالضبط!... اقتلْ أيضاً الابن في النفق... الابن ألمانيّ... ألمانيّ!
وفي هذه اللّحظة سمع وقع خطوات وأرخى ديروش قبضته. وفيلهيلم المنهار لم يسعَ للنهوض.

كانت هذه الخطوات خطواتي أيّها السادة، أضاف الكاهن. جاءت إميليا إلى الدير لكي تخبرني بكلّ ما حصل وتضع نفسها في حمى الدين، الطفلة المسكينة! لجمْتُ الشفقة التي كانت تعتمل في أعماق قلبي، وعندما سألتني إذا كان بمقدورها أن تحبّ قاتل أبيها لم أُجب. فهمت قصدي وصافحتني ثمّ انصرفت باكية. استشعرتُ خطراً، فلحقْتُ بها وعندما سمعتهم يقولون لها في الفندق إنّ أخاها وزوجها ذهبا لزيارة الحصن، استشعرتُ الحقيقة المرعبة. لحسن الحظّ وصلت في الوقت المناسب لكي أمنع حصول كارثة أخرى بين هذين الرجلين اللّذين أفقدهما الغضب والألم صوابهما.

لم يكن فيلهيلم، بالرغم من أنّه أعزل، يأبه لتوسّلات ديروش. كان منهكاً ولكنّ نظراته ما برحت تحتفظ بغضبه كلّه.

قلت له:

- أيّها الرجل الذي لا يلين! أنت من أيقظتَ الأموات من رقادها وأثرتَ أقداراً مرعبة! ألستَ مسيحيّاً؟ وهل تريد أن تتخطّى العدالة؟ هل تريد أن تصبح المجرم الوحيد في هذه القضيّة والقاتل الوحيد؟ كلّ سينال عقابه، لا تشكّك بذلك. ولكن لا يعود إلينا استباقه ولا انتزاعه عنوة.

صافحني ديروش وقال لي: إميليا تعرف كلّ شيء. لن أراها مرّة ثانية. ولكنّي أعرف ما الذي عليّ فعله لأعيد لها حريّتها.

هتفت:

- ماذا تقول! أتقصد الانتحار؟

ولدى هذه الكلمة نهض فيلهيلم وأمسك بيد ديروش، ثمّ قال:

- لا، كنت مخطئاً. أنا المذنب الوحيد وكان عليّ أن أحتفظ بسرّي ويأسي!

لن أصف لكم العذاب الّذي تولّانا في تلك الساعة المشؤومة. استخدمت كلّ الحجج التي تجيزها لي ديانتي وفلسفتي، ولم أقدر على إيجاد مخرجٍ مُرضٍ لهذا الوضع المأساويّ. كان الافتراق ضروريّاً في جميع الحالات. ولكنّ الوسيلة لاستخلاص الدوافع أمام القضاء لم تكن تستلزم سجالاً شاقّاً فحسب بل كانت محفوفة أيضاً بخطرٍ سياسيّ يحيط بالكشف عن هذه الظروف المشؤومة!

دأبتُ على التصدّي لخطط ديروش المشؤومة وسعيت لأن أملأ قلبه بالمشاعر الدينيّة التي تجعل من الانتحار جريمة. تعرفون أنّ هذا التعس قد تربّى في مدرسة الفلاسفة الماديّين للقرن الثامن عشر ومع ذلك، ومنذ إصابته، تغيّرت أفكاره كثيراً. أصبح أحد هؤلاء المسيحيّين شبه الشكّاكين الذين لدينا الكثير منهم، الذين يرون أنّ قليلاً من الدّين لا يمكنه أن يؤذي بعد كلّ حساب، والذين يقتنعون حتّى باستشارة كاهن في حال ما إذا كان الله موجوداً! وبفضل هذا التديّن الغامض كان يتقبّل المواساة التي أقدّمها له. مضت بضعة أيّام وفيلهيلم وشقيقته لم يغادرا النزل، لأنّ إميليا كانت عليلة جدّاً بعد هذه المصائب الكثيرة. كان ديروش يقيم في الدير ويقرأ

طيلة النهار كتباً دينيّة أعرته إيّاها. وذات يوم ذهب وحده إلى الحصن وبقي هناك بضع ساعات. ولدى عودته أظهر لي قصاصة ورق كان اسمه مكتوباً عليها. كان الأمر متعلّقاً بمهمّة أولاه إيّاها الكابتن في فيلقٍ كان منطلقاً ليلتحق بفرقة بارتونو[1].

تلقّينا في ظرف شهر خبر موته المجيد المتفرّد. مهما قيل عن الحميّة التي رمته في المعركة، يشعر الكلّ أنّه كان قدوة للفصيل كلّه الذي خسر الكثير من الجنود عند الهجوم الأوّل...

صمت الجميع بعد هذه القصّة واحتفظ كلّ واحد لنفسه بالعِبرة الغريبة التي كانت تثيرها مثل هذه الحياة ومثل هذه الميتة. استأنف الكاهن وهو ينهض قائلاً: «إذا شئتم يا سادة أن نغيّر هذا المساء الوجهة الاعتياديّة لنزهاتنا ونسير في هذا الممرّ المليء بأشجار الحور التي ذهّبتها الشمس الغاربة وسأقودكم إلى «بوت أو لير». هناك يمكننا رؤية صليب الدّير الذي انعزلت فيه السيّدة ديروش».

---

(1) هو لويس بارتونو Louis Partouneaux (1770–1835)، جنرال في جيش نابوليون لمعَ في معارك إيطاليّا وروسيا.

الأوهام[1]

(إضاءة: عندما نشر ألكساندر دوما Alexandre Dumas مقالته الصّادرة في 10 ديمسبر 1853 في صحيفته «لوموسكوتير» Le Mousquetaire، التي يذيع فيها خبر جنون نرفال ويأسف على ذهاب بصيرته، كانت قصص «بنيات اللّهب» جاهزة، كما أسلفنا، للطّبع. فعمد نرفال إلى حذف المقدّمة المهيّأة للكتاب ووضع محلّها، بمثابة مقدّمة، رسالة إلى ألكساندر دوما صارت تتصدّر الكتاب. ثمّ أضاف في آخِرِ مؤلّفه القصائد الثماني التالية، التي كانت ثلاث منها («دلفيكا» و«المسيح في بستان الزيتون» و«أبيات مذهبّة») قد نُشرت من قبلُ في مجلّة، وكذلك في كتيب نرفال الصادر في يناير 1853 تحت عنوان «قصور بوهيميا الصغيرة» Petits châteaux de Bôhème، حملت فيه العنوان الجامع «تصوّف» «Mysticisme». أربع من القصائد كانت إذن جديدة، بالإضافة إلى «المحروم» «El Desdichado» التي كان دوما قد أرفقها بمقالته المذكورة قبلذاك بأسابيع. كان نرفال قد ترك له في الحقيقة نسخة من هذه القصيدة لكن ليس للنشر، ونشرَها دوما لما يريد إراءته للقرّاء من علامات على اضطرابات صديقه.

منح نرفال قصائده هذه عنوان «الأوهام» Les Chimères. والحال أنّ إدراجه هذه السّونيتات في كتاب جمع فيه أمّهات قصصه يمنح القصائد وعنوانها نصيباً كبيراً في منطق ردّه هذا على دوما. والعنوان بالذّات هو

---

(1) لم نأخذ هنا إلّا بالقصائد الموجودة في «بنيّات اللّهب»، وتصدر عمّا قريب عن مشروع «كلمة» منتخبات شعريّة لنرفال بترجمة لماري طوق (المُراجِع).

ما يشكّل القاعدة التي يقوم عليها هذا الاعتبار. ذلك أنّ دوما في مقالته المذكورة نعت نرفال بكونه «دليلنا في بلاد الأوهام والهلوسات». والحال أيضاً أنّ المفردة «أوهام» chimères، التي استخدمها دوما في مقالته عن وعي ودراية، تشكّل عنصراً أساساً من عناصر شعريّة نرفال، وعليها يقوم جانب كبير من عمله، كما أنها تجمعه بأدباء آخرين. من هنا على الأرجح اختيار نرفال لها عنواناً للقصائد وإثباته لها عنواناً إضافياً للكتاب. شعريّة الأوهام تعمل لديه على ثلاثة مستويات متضافرة:

- المستوى النّفسيّ: وهو يجمع نرفال بجان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau في «الاعترافات» Les Confessions، ورتيف دو لا بروتون Restif de la Breton في «مُسارّات نيقولا» Les Confidences de Nicolas، وبرومنطيقيّين آخرين سعوا إلى معالجة كلّ أشكال الحلم ومظاهره، من البحث عن المطلق إلى الأوهام الضائعة. ولا يمكن القول إنّ نرفال لم يكن واعياً بالجانب المَرَضيّ من هذه النزعة، وهو الوتر الوحيد الذي عزف عليه دوما في مقالته، ما دام، أي نرفال، كتب في «المتنوّرون» Les Illumniés، متكلّماً عن رتيف دو لا بروتون: «لا أخطرَ على ذوي الطّبع الحالم من أن يخلصوا الحبّ لِمَن يمارس فنّ المسرح... إنّ الحياة بكاملها تتشبّث هنا بوهمٍ هيهات يتحقّق، ومن الأسلَم للعاشق أن يُبقي عليه في طور الرّغبة أو الشّوق، إذ هو يتلاشى ما إن يهمّ بملامسة المعبود».

- المستوى الميثولوجيّ: قبل أن تدلّ على الوهم، كانت المفردة chimère (من اللّاتينية chimaera والإغريقية khimaira) تدلّ على مسوخ أو كائنات خرافيّة ذات هيآت غريبة أو آتية من زيجات متنافرة (حصان–نسر أو هبغريف، أسد–ماعز وله ذنب أفعى، عفريت، تنّين، إلخ.)، وتوسّعاً على كلّ مخلوق خرافيّ لا يمتثل إلى شكلٍ موجود (أبو الهول، السيرينة أو النّداهة، إلخ.). وكما نلاقي «خيميرا» في نزول إنياس إلى العالم السفليّ في

النشيد السّادس من «الإنياذة»، نلاقي «خيميرات» أو مسوخاً في النزول إلى العالم السفليّ في كتاب نرفال «رحلة إلى الشرق» (سنعود إليه). هذه المخلوقات الوهميّة تميّز في نظر نرفال الوثنيّة، ديانة الأرض والنّار، التي يلقى هو مسرحها الأثير في «البوزيلّيبو» في إيطاليا، الذي يجمع به العناصر المجاورة من المشهد النابوليتانيّ: عرين كيبيله عرّافة كوما، وضريح فرجيل، وجبل فيزوف البركانيّ، ومدينتا بومبيي وهيركولانيوم المطمورتان تحت التّراب. وعلى سبيل القلب للمعادلة التوراتيّة، تراه يبعث وجوه التّنين الذي ينتصب في «رؤيا يوحنّا» مناوئاً كلمة الله، وقايين وقدموس وأنتيروس والنّداهة حبيسة مغارتها وسط الماء، وكأنّه يطالب بفرصة ثانية لهذه الكائنات الملعونة القابعة في الظّلمات.

على المستوى الرمزيّ أو الشعريّ المحض، يعمل الفنّ هنا بقلبٍ للمنظورات، وإعادة ترتيبٍ لمعايير الذائقة والفكر.

- المستوى الشعريّ: ألحق نرفال بكتابه الشّهير «رحلة إلى الشرق» Voyage en Orient في طبعته النهائيّة التي هيّأها للنشر في 1851 قصّتين إضافيّتين من استيحاء شرقيّ. حملت الأولى عنوان «قصّة الخليفة حاكم» L'Histoire du calife Hakem والثانية عنوان «حكاية ملكة الصّباح وسليمان أمير الجنّ Histoire de la Reine du Matin et Soliman, prince des génies. في هذه الأخيرة، ينزل بنا الكاتب إلى مغارة «الخيميرات» حيث يلقى عمالق تزيّوا بملابس العصور القديمة وتنانين وكائنات راعبة ومخلوقات طالعة من زيجات غريبة. وفي صفحات أبعد يأتي درس أدونيرام *Adoniram*، المهندس المعماريّ لسليمان الحكيم، لمُريده بينوني Benoni:

«[...] أنت تنسخ الطبيعة ببرودة [...] يا صغيري، ما هكذا الفنّ: بل هو يقوم على الخلق. عندما ترسم هذه الزخارف الذي تتوالى على سطح إفريز فهل تكتفي يا ترى بأن تنسخ الأزهار وأوراق الأشجار الزّاحفة على

الأرض؟ كلّا، بل ينبغي أن تدع ريشتك تجري على هوى خيالك، جامعاً بين أكثر الابتكارات غرابة. فإلى جانب البشر الموجودين والحيوانات الموجودة حبّذا لو تبحث عن أشكال مجهولة، وكائنات غير مسمّاة بعد، عن تجسّدات لطالما هرب الإنسان من مرآها ووجوه تبعث على التوقير والبهجة والانصعاق والذّعر!».

هو إذن فنّ شعريّ، رسالة يهبها الكاتب لنفسه، لا مجرّد استجابة لشغف أعمى بعوالم الوهم والأحلام. ولقد دفع نرفال بعيداً جماليّة الغريب والصّادم والملفت للنّظر grotesque التي دعى إليها صديقه تيوفيل غوتييه (المهدى إليه هذا الكتاب) رادّاً الكلمة إلى معانها الأصليّ أو الاشتقاقيّ: الإيطاليّة grutta، وهو الاسم الذي كان المنقّبون يمنحونه للحجرات القديمة التي يرفعون عنها الأنقاض في مدينة بومبيي، والمغطّاة جدرانها برسوم عجيبة من إيراقات مدهشة و«خيميرات» مجنّحة. هذا بينما يردّها آخرون إلى الإيطاليّة grotta (مغارة)، في إشارة تحيل على الرسوم المعثور عليها أثناء التنقيبات في عصر النهضة الإيطاليّ. وفيما طبّق غوتييه المفردة «grotesque» على مبدعين مهّمشين لغرابتهم، فإنّ نرفال يعمل على إعادة إحياء معناها الدالّ على الشّيء الغريب والصّادم والآتي من تلاقح عناصر متباعدة الأصول.

هو بالتالي بيان شعريّ تغذّيه حاجة روحيّة عميقة، أكثر منه ثمرة منطق هذيانيّ يقودنا إلى حافّة الجنون. والمبدأ هنا هو مواءمة أجناس متنافرة تتجاوز التلفيقيّة العاديّة إلى خلق أشكال جديدة تتمّ المؤالفة بينها على خلاف ما هو سائد من معايير وقواعد ذوقيّة أو فنيّة.

مثلما يتجاور الآس والأرطنسيّة، يتجاور في هذا الكتاب النثر والشعر. ولا تشكّل إضافة القصائد نافلة موجّهة لإفحام دوما، بل لقد سوّغ إضافتها أصلاً مفهوم نرفاليّ متحرّر يأخذ بالشعر جوهراً للكتابة ولا يتوقّف عند

الحواجز المقامة اعتباطاً بين الأقصوصة والقصيدة. كما يتلاحم هنا كلّ من الرسالة (الهذياتية في الظاهر) إلى دوما وهذه الأشعار التفجيريّة. وإذا فكّرنا بـ «الخيميرات»، أي بالمسوخ والكائنات الخرافية المركّبة، فهذا الكتاب هو نفسه نوع من «خيميرا»، كيان مركّب، ولغة كلّية تحوّل تهديد الجنون إلى فنّ شعريّ. لا حاجة إذن للبحث في هذه القصائد، وفي مجمل عمل نرفال، كما قام به نقّاد عديدون، عن طلاسم وألغاز ومفاتيح لحالات نفسيّة ملتبسة أو مبهمة. لا بل يكفي أن نرى فيها ما هي عليه: تحالف مع الميثولوجيا القديمة للتعبير عن حقيقة الذّات؛ ونزول إلى المغارة المظلمة لأنا مترّملة لا تقبل عزاءً على ضياع الحقيقة. مطاردة للأوهام الطوباويّة على صعيد التاريخَين الشخصيّ والإنسانيّ، ومعاينة صاحية لانقشاع الأوهام.[1]

المحروم[2]

أنا الكئيب، الأرملُ، ما من شيء يعزيّه،
أنا أمير أكيتانيا[3] في البرج المنهار؛
نجمتي الوحيدة انطفأت، وعودي المزخرف
اتّشحَ بشمس الكآبة السوداء.

في ليل القبر، أنتِ من واسيتِني،

(1) المُراجِع، تلخيصاً عن شروح نشرة «فوليو كلاسيك» لهذا الكتاب، وضعها برتران مارشال.

(2) لا شكّ أنّ من اللّافت أن يكون نرفال منح عنواناً لهذه القصيدة مفردة إسبانية: desdichado، وهي تعني في هذه اللّغة «المحروم من الإرث» (بالفرنسيّة: déshérité). ليس إذن حرماناً كأيّ حرمان ما يعبّر عنه نرفال، بل انقذاف خارج العالَم والتاريخ، وربّما خارج الحياة، يخلع عليه هذا الإهابَ لرجلٍ يستبطن الترمّل ويشعر بأنّه لا عزاء له (المُراجِع).

(3) إشارة إلى ريتشارد قلبِ الأسد (1175–1199) أمير أكيتانيا الشهير، كتب الشعر وتذوّقه، واشتهر بشجاعته وروحه المغامرة وكان راعي التروبادور.

أعيدي إليّ البوزيلّيبو[1] وبحرَ إيطاليّا،
والزهرةَ الأثيرة لقلبي المحزون،
والعريشةَ حيث تُعانق الداليةُ أفنانَ الورود.

أأنا إله الحبّ[2] أم أنا فيبوس[3]؟... لوسينيان[4] أم تراني بيرون[5]؟
ما زال وهَجُ قبلة الملكة منطبعاً على جبيني؛
وفي الكهف حيث تسبح الحوريّة، حلمْتُ...

وظافراً مرّتين عبرْتُ الأكيرون[6]:
منغِّماً على قيثارة أورفيوس
تأوّه القدّيسة تارةً، وصراخ الجنيّة طوراً.

ميرتو[7]

أفكّر فيك ميرتو أيّتها الإلهة الساحرة،

---

(1) البوزيلّيبو: تلّ يقع غرب خليج نابولي في إيطاليّا، ويطلّ على فيزوف.

(2) كتبَ Amour، من اللاتينيّة Amor (الحبّ)، والكلمة بحرف التّاج مرادف لاسم كيوبيد Cupido ابن فينوس عند الرّومان وإله الحبّ.

(3) فيبوس: اسم من أسماء أبولّو.

(4) لوسينيان: كونت من مقاطعة بواتو. وتقول الأسطورة إنّه تزوّج من الجنيّة ميلوزين. كان نرفال يعتقد أنّه ينحدر من العائلة نفسها.

(5) ثمّة خلاف حول الشخصيّة المقصودة، فقد يكون مسارِر الملك هنري الرابع الذي خلّدته أغاني الفالوا، أو قد يكون الشاعر الإنكليزيّ بايرون.

(6) أكيرون: نهر في الجحيم.

(7) كتب نرفال الاسم على هيئة Myrtho، فيكون أدغمَ اسم الآس myrte وهي نبتة كانت تعدّ إلهة الفصول عند الإغريق، واسم زهرة الأرطنسيّة hortensia، وسنراهما متعانقَين في آخِر القصيدة.

وفي البوزيلّيبو الشّامخ الملتمع بألف نار،
أفكّر في جبينك المغمور بأنوار الشرق،
وبالعنب الأسود المجدول بذهب ضفيرتك.

من كأسك نهلتُ النشوة،
ومن الوميض الخاطف لنظرتك الباسمة،
حين عند قدَمي إياخوس[1] شوهدْتُ أصلّي،
فقد جعلتني ربّة الإلهام ابناً لليونان.

أعرف لمَ ثار البركان هناك ثانيةً
فقد لمستِه بقدمك الرشيقة،
وحجب الرّماد الأفق كلّه على حين غرّة.

منذ حطّم دوقٌ نورمانديٌّ[2] آلهتك من الصلصال،
والأرطنسيّة الشّاحبة لا تزال تعانق الآس الأخضر
في ظلّ أفنانِ غارِ مرقدِ فيرجيل[3].

حورس[4]

كان الإله كنوفيس[5] يهزّ بارتجافه الكون:

(1) إياخوس: اسم روحانيّ لباخوس الذي يقترن عمداً لدى نرفال بـ Iésus أي المسيح المخلّص.

(2) مملكة الصقيليّتين أسّسها النورمانديّون. والدّوق ربّما كان روبير غيسكار Robert Guiscard (1015–1085).

(3) فيرجيل: الشاعر اللاتينيّ الشهير، وشجرة الغار كان قد زرعها الشاعر الإيطاليّ بتراركه على قبره.

(4) حورس: إله الشمس عند قدماء المصريّين، ابن ايزيس وأوزيريس.

(5) كنوفيس: إله البراكين عند المصريّين.

وعندئذٍ نهضت إيزيس الأمّ مستويةً في فراشها،
والتفتت إلى زوجها الفظّ بنظرةِ حقدٍ
وقد التمعت في عينيها الخضراوين شرارة الأيّام الخوالي.

قالت: «انظروه ذاك العجوز المنحرف يُحتضَر؛
كلّ صقيع العالم مرَّ بفمه،
ألا فأوثقوا قدمه المعوجّة، وأطفئوا عينه الحولاء!
إنّه إله البراكين وملك الشتاءات.

سبق للنّسر أن مرّ، والروح الجديد يناديني
من أجله ارتديت ثوب كيبيليه[1]...
إنّه الابن الحبيب لهرمس[2] وأوزيريس!»

وارتحلَتِ الإلهة على صدفتها الذهبيّة،
كان البحر يرجع لنا صورتها المعبودة،
والسماوات تأتلق تحت وشاح إيريس[3].

أنتيروس[4]

وتسأل لماذا أحمل كلّ هذا الغضب في قلبي
وعلى عنقٍ طيّع رأساً لا يلين!

---

(1) كيبيليه (سيبيل Cybèle عند الفرنسيّين): إلهة الجبال والطبيعة والخصوبة في الأساطير اليونانيّة.
(2) هرمس: إله إغريقيّ ابن زيوس ومايا، وهو تحوت لدى المصريّين.
(3) إيريس: في الميثولوجيا الإغريقيّة كانت رسولة الآلهة، كما كان هرمس رسول زيوس.
(4) أنتيروس: ابن آريس وأفروديت في الأساطير الإغريقيّة ويرمز إلى الحبّ المتبادل.

ذلك أنّني أتحدّر من سلالة آنتايوس[1]،
وأردّ سهام الإله القاهر عليه.

أجل، أنا من أولئك الذين يُلهمهم الإله المنتقِم[2]،
وقد وسم جبيني بشفته اللّاذعة،
وتحت صفرة هابيل المدمّاة يا للأسف!
بي من قابيل أحياناً حمرته المكتوية!

يهوه[3]! آخِر من قهرهم ملاكك،
يصرخ من أعماق الجحيم: «ويحك أيّها الطّغيان»!
إنّه جدّي بعلُ أو أبي داجون[4]...

غطّسوني ثلاث مرّاتٍ في مياه الكوكيتوس[5]،
ومنافحاً وحدي عن أمّي العمليقة[6]،
نثرتُ عند قدميها أسنان التنّين العجوز[7].

---

(1) آنتايوس (أو عنتي أو آنتي) بطل من الميثولوجيا الأمازيغيّة.

(2) أي مارْس المنتقِم، إله الحرب، ومعه جميع المتمرّدين.

(3) أحد أسماء الله المذكورة في التوراة وفي العهد القديم.

(4) داجون: الإله داجون نصفه إنسان ونصفه سمكة، انتشرت عبادته في سورية القديمة، كان له معبدٌ في أوغاريت بالقرب من معبد الإله بعل.

(5) كوكيتوس: أحد أنهار الجحيم وفقاً للأساطير الإغريقيّة.

(6) نسبة إلى العماليق، اسم مستوحىً من التوراة كان يطلقه العرب على قبائل الكنعانيّين والأموريّين والآشوريّين وُصفوا بأنّهم أقوياء عظماء القامة.

(7) تلميح إلى أسطورة قدموس مؤسّس مدينة طيبة، الذي قهر التنّين واقتلع أسنانه ونثرها فنبتت رجالاً تصارعوا فيما بينهم حتّى بقي منهم خمسة فقط.

دلفيكا[1]

أتراكِ يا دافني[2] تعرفينها تلك الأنشودة القديمة
أسفل شجرة الجمّيز أو تحت أشجار الغار البيضاء،
في ظلّ شجرة الزيتون، أو الآس، أو الصفصاف المرتعش،
أنشودة الحبّ تلك... التي تُعاود أبداً!

هل تراك تعرّفت على المعبد ببهوه الشاسع
واللّيمون المرّ الذي نشبت فيه أسنانك؟
والكهف الذي يفتك بالزوّار المتهوّرين
حيث ترقد البُذارة العتيقة للتّنين المهزوم؟

ستعود تلك الآلهة التي ما برحتِ تبكينها
وسيعيد الزمن نظام الأيّام الخوالي؛
فالأرض ارتعشت بنفحةٍ نبويّة...

غير أنّ كيبيليه ذات الوجه الرومانيّ
لا تزال راقدة تحت قوس قسطنطين[3]،
ولا شيء عكّر سكينة الرّواق المتجهّم.

---

(1) دلفيكا: الاسم اللّاتينيّ لكيبيليه، إلهة الأرض والخصوبة عند الإغريق.

(2) دافني: إحدى إلهات الطبيعة، هربت من أبولّو وتسمّى أيضاً «كيبيليه دلفي».

(3) قوس النصر في روما، وقسطنطين هو الإمبراطور الرومانيّ الذي كرّس الانتقال من الوثنيّة إلى المسيحيّة بفضل مرسوم ميلانو عام 313.

أرتميس[1]

الثالثة عشرة تعود[2]... وهي أيضاً الأولى؛
وهي الوحيدة دوماً - أو هي البرهة الوحيدة:
فهل أنتِ ملكة، يا أنتِ! هل أنت الأولى أم الأخيرة؟
وهل أنتَ ملك، أنتَ العاشق الوحيد أم الأخير؟...

أحببْ من أحبّك من المهد إلى اللّحد؛
تلك التي أحببتُها وحدي لا تزال تحبّني بملءِ حنانها:
أهي الموت - أم الميتة... يا للذّة! يا للعذاب!
أمّا الوردة التي تحملها فهي وردة الخطميّة.

أيّتها القدّيسة النابوليتانيّة بيديكِ المملوءتين ناراً،
يا وردةً قلبها بلونِ البنفسج، يا زهرة القديسة غودولا[3]
هل عثرت على صليبك في صحراء السماوات؟

أيّتها الورود البيضاء، فلتسقطي! فأنت تهينين آلهتنا:
انحدري أيّتها الأشباح البيضاء من سمائك التي تحترق:
إنّ قديسة الجحيم باتت أقدس في نظري!

---

(1) أرتميس: إلهة الصيد والبريّة والإنجاب.

(2) فهمَ الشرّاح هذا البيت باعتباره يعارض الزمن التاريخيّ بزمن حلَقيّ يُستأنف دون انقطاع.

(3) قدّيسة كاثوليكيّة وأرثوذكسيّة، شفيعة مدينة بروكسيل.

المسيح في بستان الزيتون

«مات الإله! وفرغت السّماء...
انتحبوا أيّها الأبناء! فلم يعد لكم أب!»

يوهان باول[1]

1

حين الربّ، في ظلّ الأشجار المقدّسة،
رفع ذراعيه الهزيلتين نحو السماء، أسوةً بالشعراء،
تاه طويلاً إذ ذاك في آلامه الصامتة
وقد أحسّ أنّ أصدقاء جاحدين تنكّروا له؛

ثمّ التفت إلى من كانوا ينتظرونه في الأسفل
حالمين بأن يصيروا ملوكاً وحكماء وأنبياء
رآهم مخدّرين، غارقين في نومٍ بهيميّ،
وطفق يهتف: «لا، ليس الله موجوداً!»

كانوا نياماً. «أصدقائي أما سمعتم بالبشارة؟
لقد لمست بجبيني القبّة الأزليّة.
دامٍ أنا، محطّم، وعذّابي لم يبارحني لأيّام.

يا إخوتي، كنت أخدعكم: ليس هناك إلّا الهاوية! الهاوية! لا مناص!
الإله غائب عن المذبح حيث أنا الذبيحة...

(1) هو يوهان باول فريدريش ريختر Johann Paul Friedrich Richter (1763–1825) كاتب ألمانيّ رومنطيقيّ.

ليس هناك إله! لم يعد هناك إله!»... لكنّهم ظلّوا نياماً!

2

عاود قائلاً: «كلّ شيء مات! لقد طفتُ العوالم،
وحلّقتُ في مجرّاتها حتّى صرتُ مهيض الجناح،
بعيداً، على مدى ما تذرّ الحياة في عروقها الخصبة
الرّمالَ الذهبيّة، وتُدفِقُ الأمواج الفضيّة؛

في كلّ مكانٍ أرضٌ قاحلةٌ تحاذيها الأمواج
وأعاصير مظلمة في محيطات هائجة...
وهبوب غامض يحرّك دوائرَ هائمةً،
ولكنْ ما من روح تسكن هذي المتاهات.

باحثاً عن عين الله، لم ألمح سوى محجر
شاسع أسود لا قرار له، واللّيل الذي يكتنفه
يشعّ على العالم متعاظماً أبداً.

ثمّة قوس قزح غريب يُحدِقُ بهذه البئر المعتمة
عتبة السديم القديم الذي ظلّله العدم،
تلك الدوُّامة التي تبتلع الأيّام والعوالم.

3

أيّها القدر العاتي، أيّها الحارس الأخرس،
أيّتها الضرورة الباردة!... أيّتها الصّدْفة، يا من تتقدّمين

وسط العوالم المدفونة تحت الثلج الأبديّ،
وتشيعين الصقيع في الكون الآخذ في الشحوب.

أوَ تدري ما تفعل أيّها الجبروت الأزليّ
بشموسك المطفأة، حيث شمسٌ تمحق أخرى...
أواثقٌ أنت من تمرير تنهيدة سرمديّة
بين عالمٍ يفنى وآخر يُبعث؟

آه يا أبتِ! أهو أنت من أحسّه بداخلي؟
أبمقدورك أن تحيا وتهزم الموت؟
أم تراك قضيت تحت ضربة أخيرة

مِنْ ملاك الظلام ذاك الذي نزلت به لعنة؟
فأنا أشعر بأنّي وحدي أبكي وأتعذّب،
ويلٌ لي إن متُّ، فكلّ شيء سيموت!

4

لا أحد كان يسمع نحيب الذبيحة الأبديّة،
وهو يسلّم للعالم عبثاً كلّ قلبه السخيّ؛
لكنّه وقد خارت قواه وأوشك على الإغماء
نادى اليقظان الوحيد في أورشليم:

«يهوذا، ناداه، تعرف قدْري عندهم،
فسارعْ إلى بيعي ولنُنْهِ هذه الصفقة.

فأنا أتعذّب يا صديقي! مطروحاً كما تراني أرضاً.
تعال! أنت يا من تمتلك على الأقلّ قوّة الجريمة!»

لكنّ يهوذا انصرَف حزيناً مكتئباً
إذ رأى أنّهم لم يدفعوا له كما اشتهى
فامتلأ قلبه بالندم! وقرأ خواطره السوداء مكتوبة على كلّ جدار.

وأخيراً بيلاطس وحده، الذي كان يرعى شؤون القيصر
وقد أحسّ ببعضٍ من شفقة، التفت صدفة ناحية أعوانه
وقال لهم: «اذهبوا وأحضروا هذا المعتوه!»

5

كان هو نفسه ذاك المعتوه، ذاك الأحمق العظيم...
إيكاروس[1] المنسيّ ذاك الذي كان يصعد السماوات،
فايتون[2] الذي ضربته صاعقة الآلهة،
أيتيس[3] الجميل القتيل الذي أحيته كيبيليه!

كان العرّاف يطالع خاصرة الذبيحة[4]
والأرض نشوى بهذا الدم النفيس...

---

(1) إيكاروس: إشارة إلى حكاية ابن ديدالوس في الأساطير الإغريقيّة الذي حلّق قريباً من الشمس، متجاهلاً نصيحة والده، فهوى صريعاً بعد أن أذابت أشعّتها الشمع المثبّت لجناحيه.

(2) فايتون: ابن هيليوس إله الشمس في الأساطير الإغريقيّة. مات مصعوقاً بعد أن فقد السيطرة على عربة أبيه الشمسيّة.

(3) أيتيس: أحد الآلهة اليونانيّة ويُعرف بأنّه كان محبّاً للإلهة الأمّ كيبيليه، إلهة الأرض والخصوبة في الأساطير الفريجيّة واللّيديّة.

(4) كان العرّافون الرّومان يمارسون قراءة الطالع بمعاينة أحشاء الأضاحي.

فيما الكون المصدوم يميل على عمده
والأولمب قد ترنّح للحظة نحو الهاوية.

صرخ قيصر بجوبيتر آمون[1]: «أجبْ
من هو هذا الإله الجديد الذي يولّى على الأرض،
وإن لم يكن إلهاً فهو على الأقلّ شيطان....؟!»

لكنّ العرّاف المستصرَخ توجّب عليه أن يصمت إلى الأبد
لأنّ واحداً فقط في العالم كان بمقدوره أن يفسّر هذا السرّ..
ذاك الذي وهب الرّوح لأبناء الطين.

أبيات مذهّبَة[2]

«هكذا إذن: كلّ شيءٍ حسّاس!»

فيثاغوراس

أيّها الإنسان، أيّها المفكّر الحرّ، أو تظنّ أنّك المفكّر الوحيد
في هذا العالم حيث الحياة تتفجّر في كلّ شيء؟
حريتك تحتكم إلى القوى التي تمتلكها،
لكنّ الكون لا يبالي بكلّ خططك.

احترمْ في البهيمة روحها الفاعلة،
كلّ زهرة روح تتفتّح للطبيعة،
وفي كلّ معدن يكمن سرّ حبّ.

(1) إله إغريقيّ–مصريّ تجمع صفاته بين الإله المصريّ أمون وبين إله الرومان جوبيتر.
(2) أبيات فيثاغوراس المذهّبة، المنشورة في فرنسا عام 1815هي حِكَمٌ في التعقّل والأخلاق.

«كلّ شيء حسّاس!» وله على كيانك سلطان.

فَهبْ نظرة تترصّدك في الجدار الأعمى،
في المادة نفسها تكمن كلمة الله...
فلا تسخّرها لغاياتٍ بذيئة!

غالباً ما يختبئ إله في الكائن المظلم
وكعينٍ تولد مغطّاة بأجفانها،
تنمو روحٌ خالصةٌ تحت أديمِ الحجارة.

نبذة عن المؤلّف

وُلد جيرار دونرفال Gérard de Nerval (1808-1855) بباريس، قبل وفاة أمّه بعامين في سيليسيا، التي كانت ترافق فيها زوجها الطبيب العسكريّ. محضها حبّاً يقرب من العبادة، وتقف صدمة وفاتها في أصل معاناته. ونشأ في منطقة الفالوا الفرنسيّة التي خلّد من بعدُ أغانيها وخرافاتها في نصّ مشهور يضمّه هذا الكتاب. وفي سنّ التاسعة عشرة أقام في إطارٍ ريفيّ آخر، في سان جرمان أون ليه، قرب باريس. هناك عشقَ ابنة عمّه صوفي دولاموري، التي سرعان ما تزوّجت سواه. يؤكّد الباحثون والنقّاد أنّ فقدان معشوقة الصبا هذه بعد فقدان الأمّ المبكّر ربّما كانا يشكّلان النّواة الكبرى لهذا الشعور بالفقد الذي يكتنف عمله كلّه. وضع الشابّ نرفال لـ «فاوست الأوّل» لغوته ترجمة فرنسيّة أُعجب بها الشاعر الألمانيّ الكبير أيّما إعجاب. وعمل في الصحافة ناقداً، وزار الشّرق، ووضع لدى عودته منه كتابه الشّهير «رحلة إلى الشرق»، ونشر قصصاً عديدة وأشعاراً قليلة ضمِنت له، بنبرها الفريد وإعادة ابتكارها للأساطير تعبيراً عن ذاتيّته المعذّبة، مكانة لا تُزحزَح في تاريخ الشعر الفرنسيّ. بيد أنّ كتابه المترجم هنا، والذي جمع فيه، في معمار مدروس وبناء حاذق، بعض أهمّ قصصه وأشعاره، يُعَدّ كتابه الأساس وخلاصة نبوغه الأدبيّ.

نبذة عن المترجمة

ماري طوق كاتبة ومترجمة من لبنان، من مواليد 1963، حصلت على إجازة في الأدب الفرنسيّ من الجامعة اللبنانية عام 1990. تقيم وتعمل حالياً في مجال التعليم في مدينة جبيل بلبنان. نقلت إلى الفرنسية قصائد لعبّاس بيضون وشعراء آخرين، ونشرت قصصاً قصيرة ومقالات نقدية. ترجمت إلى العربيّة عدداً من الأعمال الأدبيّة من أهمّها «الجميلات النائمات» لياسوناري كواباتا، و«المرأة العسراء» لبيتر هاندكه، و«كائنٌ لا تُحتمل خفّته» لميلان كونديرا، و«مدافن الكبوشيّين» لجوزف روث، و«أوريليا» لجيرار دو نرفال، و«تاريخ بيروت» لسمير قصير، و«ملك الغائبين» لالياس صنبر، ومجموعة سيناريوهات للمخرجة الراحلة رندا الشهال، و«المثقّفون» لسيمون دو بوفوار، ورواية «جبل الروح» لغاو شنغجيان (ترجمتها بالاشتراك مع بسّام حجّار)، و«العصفور الأزرق وحكايات أخرى» لماري كاترين دونوا، و«نصوص الصِّبا» لغوستاف فلوبير، و«ثلاث نساء قديرات» لماري ندياي، وقد صدرت الكتب الخمسة الأخيرة في منشورات مشروع «كلمة» للترجمة في أبوظبي.

بُنَيَات اللّهب
يليه
الأوهام

كنت خارجاً من إحدى قاعات المسرح حيث كنت أجلس كلّ مساء في المقصورة القريبة من الخشبة متأنّقاً بلباس العاشق الولهان. أحياناً كانت القاعة تضجّ بالحاضرين وتخلو تماماً منهم أحياناً أخرى. ولكن، قلّما كان يهمّني أن أراقب الردهة المأهولة بحفنة صغيرة من الهواة يصطفّون مستوين في مقصورات تزدان بتسريحاتهم وملابسهم التي بَطلت موضتها، أو أن أنضمّ إلى صالة نابضة مختلجة بالحياة تكلّل مدارجها كافّةَ الشعورُ المزيّنةُ بالأزهار، والمجوهرات البرّاقة، والوجوه المشرقة. لم أكن أبالي بمشهد القاعة، ولا كانت المسرحيّة تستوقفني البتّة، إلّا في المشهد الثاني أو الثالث من التحفة الفنيّة المضجرة التي كانت تعرض آنذاك، حين يظهر طيف امرأة حبيب ليضيء المساحة الفارغة، ويعيد بنفثة واحدة، بكلمة واحدة، الحياة إلى تلك الوجوه الباهتة المحدّقة بي...

كانت بهيّة الطلعة حين تنيرها أضواء المسرح من الأسفل، وشاحبة كالليل حين تُخفَضُ هذه الأنوار تاركةً للثريّا أن تنيرها من علٍ فتبين أكثر طبيعيّة، مشعّة بظلّ جمالها وحده، كمثل ربّات الفصول اللّواتي تعلو نجمةٌ جبهاتهنّ ويتوالين على الخلفيّات السمراء للّوحات الجداريّة في هيركولانيوم.

السعر 75 درهماً


9 789948 234111





